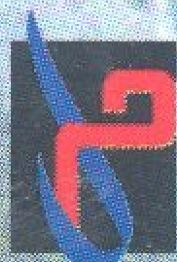
حصاد القرن العشرين

الجرائم الكبرى

١٢

فؤاد شاكر



الدار المصرية اللبنانية

حصـاد القـرن العشـرين

الجرائم الكبرى

١٢

الدار المصرية اللبنانية
16 شارع عبد الخالق ثروت ـ تليفون : 3910250 ـ فاكس : 3909618
ص.ب 2022 ـ برقيا دار شادو ـ القاهرة
E - mail:info@almasriah.com
WWW. almasriah.com
رقم الإيداع : 5330 / 2005
الترقيم الدولي : 2 - 908 - 270 - 977
جمع وطبع : عربية للطباعة والنشر
العنوان : 7 - 10 شارع السلام – أرض اللواء – المهندسين
تليفون : 3256098 - 3251043

الطبعة الأولى : صفر 1426هـ ـ مارس 2005 م

حصاد القرن العشرين

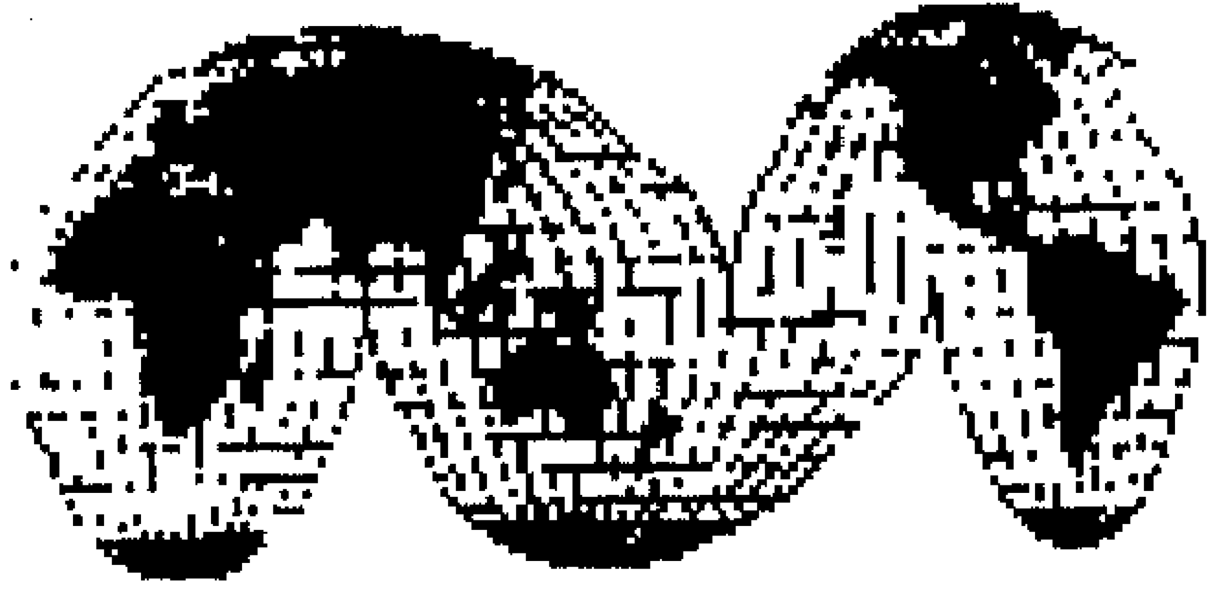
الجرائم الكبرى

١٢

فؤاد شاكر

الدار المصرية اللبنانية

تقـــديـم



نتـوقف فى المسيرة مع هذه السلسلة عـن القـرن العشرين ، عند «محطة» مزدحمة صاخبة مُضْجِـرة ، وقد تكون مثيرة محزنة مروِّعة ، ولكن لابد من الانتظار – ولو قليـلا – عندها ، ومشـاهدة بعض مـا جَرَى فيهـا ، ومـا هو بالجديد أو الغريـب على حياة الناس . لأن مِثْله حدث من قبـل ، ومثله سوف يَـحْدث من بَعد ، وإن اختلف فى القَصْد والأسلوب ، فى الزمان والمكان .

ذلك أن الشر من طبيعة البشَر . والخير أيضـا مركـوز فى فطرة الإنسان . لكن يبـدو أن « تَحَرُّك » نوازع الشر أيسر وأسرع من « تحرك » بواعث الخير وتنشيطها لكى تُغالِب فلا تُغْلب . وإذا كـان الإنسان جزءًا لاينفصل عن هذا الكون الفسيح المهيب الذى يحيط به وبأرضه التى يعيش عليها ، فإن الأصل أو الغـالب على الكون « الظلام » و« الســواد » وليس «النور» و«الضيـاء » . ويستطيع رواد الفضـاء الذين خرجـوا من نطاق الغـلاف الجوى وتجولوا بمركباتهم حتى وقفوا على سطح القمر ، أو أطلقوا مناظيرهم (التليسكوبات) إلى الكواكب والأجرام الأُخَر ، يستطيع هؤلاء أن يؤكدوا – مع علماء المراصد – أن الفضـاء الكونى ظلام حـالك « تسبح » فيه شمـوس أو نجـوم مضيئة لامعـة كحبات الرمل ، فى «محيط » قـاتم مُعْتم لا حدود له ولا قـرار . وليس هذا « اكتشـافـا » جـديدا عند من قـرأ القـرآن الكريـم ونظر فى بعض آياته ، لإدراكـه هذه الحقيقة الكونيـة من الآية السابعـة والثلاثين فى ســورة يسٓ : ﴿**وآيةٌ لهم الليل نَسْلَخُ منه النهـار فإذا هم مظلمون**﴾ . فالسلْخ لايكون إلا فى جزءٍ من كُل .

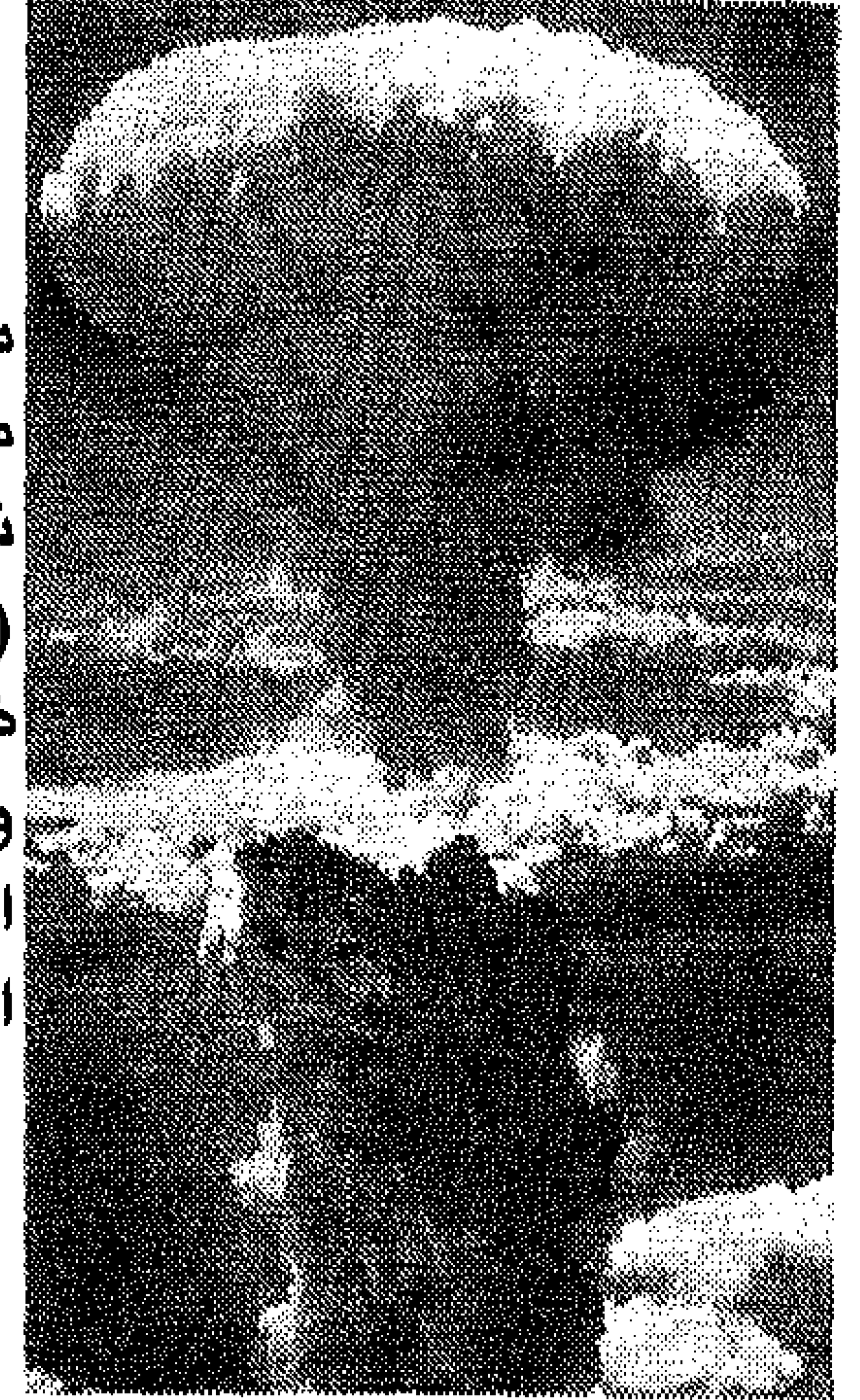
ومن هنا ، لاحَـرَج من الاعتـراف بأن الإنسـان ﴿ **خُلق ضعيـفا** ﴾،[١] وخُـلـق﴿**عَجـولا** ﴾[٢]. وفى مَحْياه على الأرض ﴿ **يُفسـد فيهـا ويَسْفـك الدمـاء** ﴾ [٣] . والضَّعف فى حاجة إلى قُوة أو مجموعة من القُوى للجسم والنفس والروح. والعَجَلَة الـمُفْضِية إلى الخطأ والخطيئة تتطلب قَدْرا مضافا من الرشْـد والصبر والضبط، «فقد يكون مع المستَعْجِلِ الزَّلَلُ» . ثم تُفْـرض الشرائع وتُسَن القـوانين لدَرْء المفاسـد أو سفْك الدمـاء أو حَصْرها فى أضيق نطاق، إذ يستحيل نَزْعهـا جملة من حيـاة الناس؛ فالملائكة لا يسـاكنون أهل الأرض ولا يمشـون معهم فى الأسواق . ولذا يُنْصَـح بالاستعاذة والدعـاء : ﴿**من شر مـا خَلَق** ﴾ [٤] ، ﴿ **ومن شر حـاسد إذا حسـد** ﴾[٥] ، ﴿ **من شر الوَسْـواس الـخَنَّاس. الذى يُوَسْـوِس فى صـدور الناس . من الجِنَّة والناس** ﴾[٦]. فتصير تلك القـوى والشرائع والقـوانين الصائبـة الرادعـة ، ومـراشـد الحكمـة والتعقل والاتزان والضبط، مع مبـادئ الخُلق القـويم ، والإيمان السليم، وإنصـاف العـدل البـار الرحيم، تصير كلهـا «شمـوسـا» وضَّاءة مُشِعة هادية مُهَدِّئة ، إذا لاَمَست قلوب الناس وعقولهم وضمائرهم، إن هم أرادوا لأنفسهم خيرا ، ولحياتهم فى دفْئها عصمة من الشر ، وأمانا من مزالق الضلال والإضلال والطغيان والبَغْى.

ولقـد كـانت حصيلة هذا كلـه فى القـرن العشرين وفيرة ثقيلة مـروِّعـة، سجلتْها جرائم فردية وجماعيـة وأحيانا دولية ، يحَار المرء فى اختيار نماذج منها – ومن بلاد مختلفة – لهذا الجزء من السلسلة . والنظرة العامة على تلك الجرائم المتنوعـة ، تدعو إلى التساؤل : هـل حيـاة الناس على الأرض تمضى حقا فى الاتجاه الراشد الصحيح، وتنمو نموا سليما مثمرا متحضرا باطِّراد ؟ أم أن هناك خطأ ما ؟ أم أنها غِشـاوة حَلَّتْ فحجبَتْ، وأوْقَعَتْ فيما لا خروج منه ولا نجاة ؟ ولا نقـول إن كل الناس أشرار أو جُناة ؟ فلا يقـول هذا عاقل مُنْصف سَـوِىَّ الخَلْق والخُلق والنفس والفـؤاد. ولكن شِرار الناس يَـجْنون

(١) سورة النساء آية ٢٨ .
(٢) سورة الإسراء آية ١١ .
(٣) سورة البقرة آية ٣٠ .
(٤) سورة الفلق آية ٢ .
(٥) سورة الفلق آية ٥ .
(٦) سورة الناس آية ٤ ، ٥ ،٦ .



مظاهرات فى مدينة نيويورك (١٩٧٩) ضد الحرب وإنتاج الأسلحة الذرية .



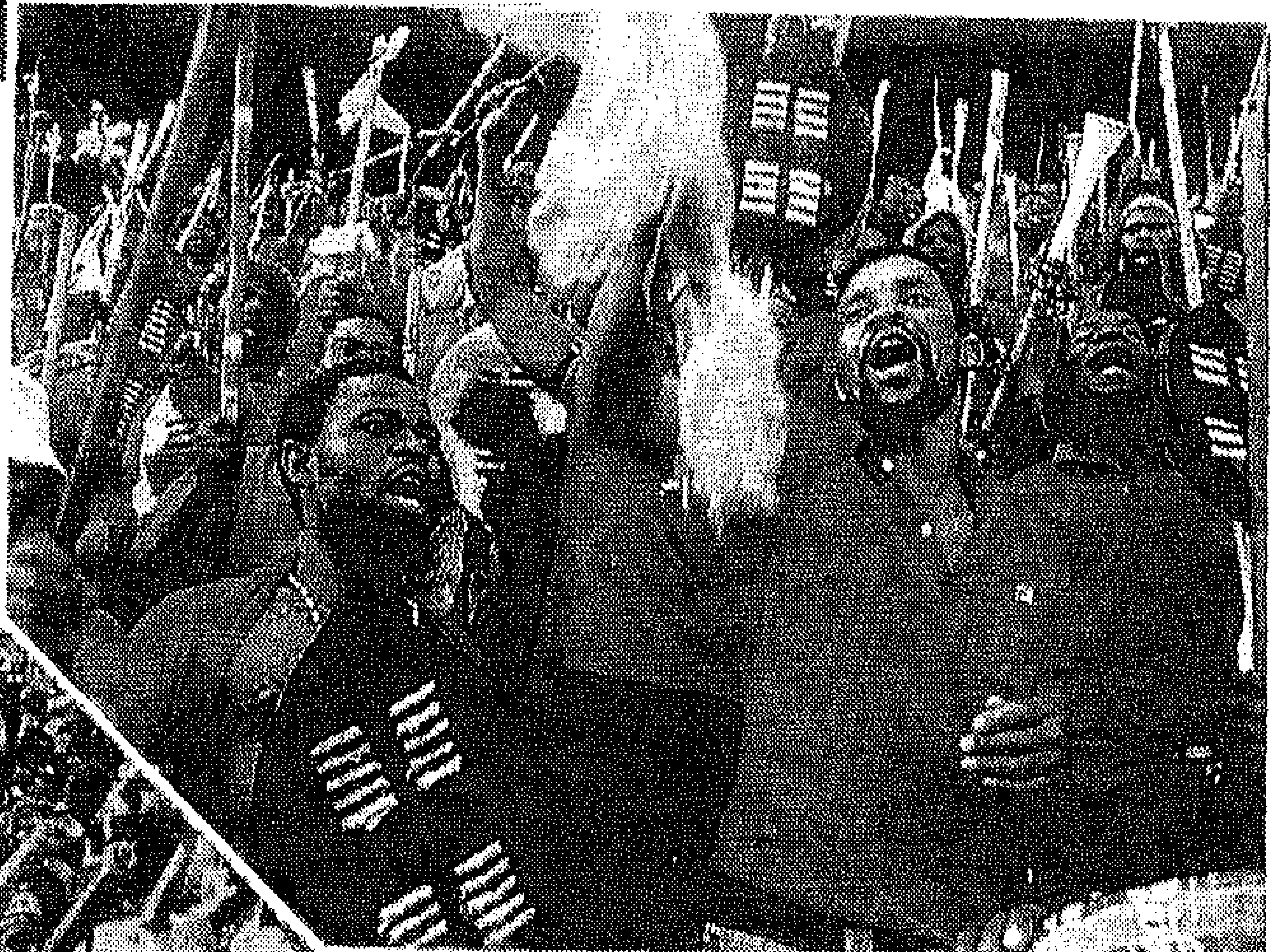
تفجير قنبلة هيروشيما الذرية جعل البشرية كلها تعيش فى منظور فنائها معا وانقراضها .



○ أصوات الجماهير فى مناطق العالم المختلفة تلتقى عند رفض العدوان والظلم والاستغلال والقهر .

فى تركيا : كتل جماهيرية غاضبة ساخطة على التهديد الأمريكى .

المحاربون من قبائل الزولو جنوب أفريقيا .





فى جاكارتا - إندونيسيا : (١٩٨٢) جموع المعارضة الثائرة على الفساد والاستبداد .

على كثيرين من الخَيِّرين والبسطاء المسالمين، وأحيانا على مجتمعات بأكملها وشعوب آمنة مطمئنة ، بلا ذنْب أو جَريرة (٤). وسنرى فى فصول الكتاب نماذج من هؤلاء وهؤلاء.

وذهب بعض الكتاب والمفكرين الجادين المعاصرين إلى أبعد من ذلك. فتساءل أحدهم، وهو « أرثر كُويْستلر» فى كتابه «الصفْر (أو العَدَم) واللانهائية»(٥) فقال : «هل سيندثر الإنسان نتيجة مَيْله إلى تدمير نفسه بنفسه؟». ثم أجاب على ذلك بقوله : «لو سُئلت ما أهم يوم فى تاريخ وقبل تاريخ الجنس البشرى، لأجَبْتُ بلا تردد : هو يوم ٦ أغسطس سنة ١٩٤٥ . والسبب بسيط: فمنذ ظهور الإدراك عند الإنسان وحتى يوم ٦ أغسطس سنة ١٩٤٥، كان المرء يعيش وفى أفق تفكيره أنه سيموت فَرْدا. أما حين أُلقيت أول قنبلة ذرية على مدينة هيروشيما (اليابانية) وحَجَبت ضياء الشمس عن المدينة والمدنية ، فإن البشرية، فى مُجْملها ، أصبحت تعيش فى منظور فنائها معا كنوع من الكائنات». ويلتمس «كويستلر» للناس العُذْر أنهم لا يدركون تماما أبعاد هذه الحقيقة، لأن الحقائق الجوهرية والنظريات الكبرى تحتاج إلى عشرات السنين – وقد تمتد إلى قرن كامل – حتى تنتشر وتستقر فى الأذهان.

وتتعاظم أهمية هذا التاريخ (يوم ٦ أغسطس ١٩٤٥)، ليس من تفجير القنبلة ذاته، ولكن كما يقول : «لأن المصيبة تكمن فى أن أى اختراع ما إن يظهر فى الوجود، حتى يستحيل دفْنه أو إلغاؤه ومَحْوه . فالسلاح النووى وُجد ليَبْقَى، وصار منذ ذلك الوقت جزءا من الحياة البشرية. وعلى الإنسان أن يعايشه على الدوام طالما ظل على قيد الحياة».

ومادام الإنسان حيا على الأرض، فهو لن يكفّ عن التفكير والابتكار والاختراع والكشف ، وربما صَنع ما سيكون أخطر وأفْتك من السلاح النووى وأشد تدميرا وتنكيلا . وقد نُشر مؤخرا (سنة ٢٠٠١) أن فريقا من

---

(٤) الجريرة : الجناية .

(5) Arthur Koestler : “Le zèro er l’infini” - 1979.

العلماء والباحثين الأمريكيين يُجْرون الآن اختبارات قد تؤدى بهم إلى استجلاب كميات من الطاقات الإشعاعية الكونية الشديدة المهلكة ، التى تغمر الفضاء الخارجى ويحمى الغلافُ الجوى منها سكانَ الأرض وما عليها ، ثم توجيه هذه الكميات أو بعضها بتركيز شديد نحو مدينة ما على الأرض أو منطقة ، فتنزل عليها فجأة كالصاعقة ، وتُشعلها بأجمعها فتحترق، أو تُثير فى أجوائها عواصف مُهْلكة مدمِّرة ، تَقْصف وتَنْسف وتقتلع الأشجار والأبراج وتهدم البيوت والسدود بتدفق السيول . ويُرجح علماء من أوروبا أن هذه الاختبارات الشيطانية تُجَرَّب ، وأن السيول والفيضانات الهائلة المُغْرِقة التى اجتاحت مناطق فى فرنسا، ومنها العاصمة باريس فى آخر يوليو وأول أغسطس سنة ٢٠٠١ على نحو غير مسبوق وفى وقت من السنة لم تُعْهَد فيه من قبل هبوب عواصف أو تقلبات جوية مضطربة، إنما حَدَث ذلك بتأثير تلك التجارب والمحاولات الأمريكية الجارية فى أقصى الشمال الغربى من العالم ، فى شبه جزيرة ألاسكا ؛ وما خَفى كان أطْغَى وأنْكَى!

ويَفْرح بُغاة الشر والعدوان بما تتيحه لهم وَحْدهم نتائج الاختبارات والاختراعات من وسائل جديدة وأدوات توفِّر مزيدا من الإفساد والإفناء ، حُبا فى الغلبة والسيطرة والاستغلال والقهر . تماما كما يفرح المجرم باستلاب ثروة، أو قطع رقبة ، أو إشعال فتنة ، أو اغتيال برىء . ومن عجب: أن إنسان القرن العشرين – أو بالأحرى إنسان النصف الثانى من القرن – الذى ابتكر وافتخر وطوَّر أدوات وأسلحة التدمير والقتل وفكر مَليا فى «حرب الكواكب أو النجوم» والدروع الصاروخية وابتَنَى محطات إقامة وسكن فضائية ، ضَمُرَت فيه قِيم «إنسانية» داعمة وأساسية، فذَبُلت وانكمشت، حتى عجز عن الوصول إلى قلب جاره فى البيت الواحد حيث يقيم ويسكن، أو قلوب زملائه فى الدراسة والعمل، بل رانَ على قلوب كثيرين نُفور غامض وشك مستتر، وعند أدنى خلاف أو احتكاك، يتحول الخلاف سريعا إلى إسفاف، والاحتكاك إلى عراك، فتقع جرائم وتَحُل نكبات ، ويضيق الناس

بعضهم ببعض ، ويتزايد البُغض والسخط فالتنائى والاكتئاب ، أو تَنْشب حروب ، وتَشْتبك فى صراع دموى أمم وشعوب . لقد اختل التوازن الواجب بين تكنولوجيا العُدوان والطُّغيان ، وبين التعقل والحكمة وقيمة الإنسان.

ومن أحداث القرن المنصرم وتجاربه وجرائمه (الفردية والجماعية والدولية)، أصبح الإنسان المعاصر واقعا تحت تأثير « الحالة الراهنة » التى يعجز وحده – كإنسان ، فرد ، متروك لنفسه أو منعزل – عن مقاومتها أو الخروج بعيدا عن ضغوطها وسيطرتها . و«الحالة الراهنة» مليئة بالزيف والوهم والبريق الجاذب الكاذب (وهذه كلها جرائم وصُنَّاعها مجرمون آثمون)، ولزاما على الإنسان أن يعيش ويعمل ويفكر تحت مظلة تلك «الحالة الراهنة» ويبنى فى نطاقها حياته وأسرته وآماله وطموحاته ومستقبله، ثم يكتشف فى آخر المطاف – وربما فى أوله – أنه لا أمان ولا ضمان. أو أنه كان يسعى ويجرى ويجتهد ويلهث، تحت «تهديد السلاح» ، وهو سلاح حاد ماكر خبيث ، قد لايشعر به أو يراه، لكنه يقينا موجود مرصود، وجاهز فى أية لحظة للانقضاض والفَتْك ؛ أو هو كالسم الزُّعاف ، يَسْرى رقيقا على مَهَل، فى السمع والبصر والفكر والكَسْب والمال والضمير ، فيُهْلِك مَن يَهْلَك بلا بَيِّنة، ويَسْحَق مَن يَسْحَقُ (فردا أو جماعة أو شعبا) بلا لائمة . ويدور الضعيف المسكين (فردا أو جَمْعا أوأُمة) حول نفسه كالممسوس، أو يسقط وينهض ثم يسقط وينهض مضطربا كالمأخوذ ؛ ولا يُتْرَك لمصيره ولو إلى الموت، ولا يُدْرَك بنَصيره ولو إلى حين.

والإنسان، هو الكائن الوحيد على هذه الأرض – بين جميع المخلوقات – الذى يملك القدرة على «التعذيب»: تعذيب أبناء جنسه هو ، فضلا عن أنواع الأجناس الأخرى، وهو الوحيد الذى يفكّر ويدبِّر ويبتكر ويطور أساليب وأدوات وآلات للإرغام والانتقام والتعذيب والترويع، وربما أَعْجبه ذلك وأرضاه وأمْتَعَه.

الحيوان يَقْتل ليأْكل. فإذا شَبع أضْرَى الضوارى سَكَن وكَف عن الإيذاء والمطاردة ، مالم يُسْتَثَر أو يُهاجَم. وينشب عراك داخل الجنس الواحد أو



التـوتر ، والشك ، والسخـط ، والغضب ، وبَغْـى القـوى ، وعَجْـز الضعيف .. كلهـا مـن سمات العصر المتـدافـع القلق فى معظم بلاد العالم .

النوع الواحد من الحيوان ، لكنه عراك محدود بالزمان والمكان، ومقصور على فرد منافس أو عدد قليل من الأغراب والخصوم وكثيرا ما ينتهى بالهرب أو الاستسلام. لكن لا يحتجز حيوان حيوانا آخر ليضربه ويجوِّعه أو يعتقله ليروِّعه ويعذبه. ولا تَفْرض مجموعة من حيوانات البرارى أو الصحارى والأدغال حصارا على مجموعة أخرى – من فصيلتها أو من خارجها – لإذلاها حتى الخضوع أو الفناء.لكن الإنسان – المتعلم المثقف التقدمى المفكر المتحضر – يفعل ذلك كله وأشد منه . وزاد هذا البلاء والشقاء – فى كل بقاع الأرض – فى القرن العشرين لأسباب كثيرة ، يأتى فى مقدمتها اتساع الهُوَّة بين إنجازات التكنولوجيا – وفيها تكنولوجيا أدوات وأجهزة التدمير والقتل والتعذيب – وبين إخفاقات أدوات وأساليب التربية والتوعية والتهذيب ؛ أو بعبارة أخرى: اتساع الفجوة بين السياسة والأخلاق ، أو بين السياسة والدين. حتى قيل صراحة : لا أخلاق فى السياسة ، ولا سياسة فى الدين . وترتب على ذلك خَوْض وخَلْط فى التعبيرات والتفسيرات والمفاهيم ، ثم معارك وجرائم وكوارث تزداد حدة ويتسع مداها وتنتشر عدواها وطُغْياها فى غفلة نظر سليم أوتَبَصُّر قويم .

فإذا كانت الأخلاق – الحميدة – تَحُض على مبادئ مثل : الأمانة والكرامة ، والشجاعة وحُسن الطاعة ، والوفاء بالوَعْد والالتزام بالعَهْد ، فهل تُجافى السياسة وتُعادى تلك المبادئ ، أو تفاضل بينها وبين الخيانة والمذلة ، والجُبن والعصْيان، والخُلف والغَدْر ؟ وأية سياسة عندئذٍ تكون؟

ومسألة السياسة والدين : كثر الحديث – والأحداث – عنها فى القرن العشرين، ولربما تزداد سخونة وخطورة فى القرن الحادى والعشرين . وهى مسألة (أو قضية) مركَّبة مُعَقَّدة ، قديمة متجددة . لكن ما يعنينا منها هنا – لارتباطها بفصول فى هذا الكتاب تناولت بعض قضاياها وجرائمها – ثلاثة أمور ، نوجزها فى سطور :



ويضيع هباء جهد وسعى وطموح آباء وأمهات، وتزهق أرواح ضحايا أبرياء، وربما أفْلت الجانى بلا عقاب. (الصورة من أيرلندا سنة ١٩٩١).

أولها: أن الحاكم - أو الحكومة - الذى كان يزعم أنه « ظل الله فى الأرض»، ورجل الدين الذى كان يدَّعى أنه «خليفة الله على الناس»، لم يعد لأحدهما مكان ولا مكانة، ولا وجود ولا نفوذ، منذ منتصف القرن العشرين، إلا فى نطاق ضيق محدود، ولسوف - بل يجب - أن يتلاشى ويندثر فى القرن التالى وما يليه. وإذا أخذنا مثالا وحُجة لنا من «الإسلام»، فإن الرسول ﷺ وحده - ووحده فقط دون سواه - هو الذى كان يُطاع بإطلاق لأنه الموصول مباشرة بالسماء، ويتلقى الوحْى، ولا ينطق عن الهَوَى، وأُمِر المؤمنون بطاعته لأنها طاعة لِلَّه وتسليم لا جدال فيه؛ مع مراعاة أنه ﷺ قال: «أنتم أعلم بشئون دنياكم» فى مسألة تَأْبير (تلقيح) النخل المعروفة المشهورة. فلما جاء من بعده الصِّديق أبو بكر رضى الله عنه، ماذا قال؟ ناداه البعض قائلا: يا خليفة الله! فردَّه الصدِّيق على الفور مستَنْكِرا: إنما أنا

خليفة رسول الله . ثم طلب علانية من الناس أن يَنْصحوه - بالحسنى - إن هو أخطأ، ويرشدوه إلى الصواب إذا حاد . ولم يكتفِ بالكلام، وإنما أضاف «الصورة إلى الصوت» : فصعد المِنْبر (الذى كان يقف عليه النبى ﷺ) ووقف عند درجة أدنى من تلك التى كان يقف فَوْقها رسول الله ﷺ ، إجلالا وتعظيما للنبى من جهة ، وإبلاغا وتَنْبيها من جهة أخرى لمن فاته الإدراك بالسمع، أنْ يَفْهم بالشهود والنظر ، أنَّ مرتبة النبوة لا تُنال ولا تُوَرَّث .

وإذا ما أدرك عالم الدين (معلما أو فقيها أو داعية) جيدا أين يقف، وحدود موقفه ، والمطلوب منه فى هذا الموقف، كان سندا وعونا لرجل السياسة الصالح المصْلح ، لأن الدين طاعة فى الحق، وقوة واستقامة وخُلقٌ قويم. ولا تعارض أو تنافس بين عالم الدين ورجل السياسة، فلكل مجاله وواجباته ؛ ولا يأْخذ أحدهما مكان الآخر ، فتختلط الأمور، وربما وقع المحظور ، فتكون القلاقل والجرائم والفتن ؛ والفتنة أشد من القتل.

الأمر الثانى فى هذه المسألة : أن الأزمات والمشكلات والجرائم والفتن تنشأ غالبا من خطأ فى الفهم، وخطأ فى التصوُّر ، وخطأ فى السلوك والأسلوب. وباختصار شديد: يأتى خطأ الفهم عندما يظن كل فرد فى جماعة أو مجتمع، أنه يعرف كل شىء ، ومسئول عن كل شىء ، ورأيه هو الأصوب والأصلح ويجب أن يُطاع ، فيكوِّن له الأنصار والأشياع . وتتعدد الآراء ، ويتجمع الأتباع، فتُشْتَهى الإمارة والقيادة ، والسلطة والنفوذ، ويُعْلَن الجهاد والتكفير على من يخالف أو يعارض.

ويأتى الخطأ فى التصوُّر ، حين يتوهَّم البعض - أو يُزَيَّن لهم - التعجيل بتحقيق مثاليات سَلَفَتْ فى ماضى العصور ، أو ذُكرت فى المخطوطات والكتب. ويزيد الشوق والحنين إليها مع تدافع الأفكار والأخطار والأخلاقيات الغربية الوافدة ، والهجمات العصبية المتعصبة ضد الدين وأهله، وضد التراث ومَجْده. لكن العصور تختلف، والمستجدات تتلاحق، والضغوط تشتد، وإن كانت الثوابت الصحيحة لا تتقادم ولا تتصادم . ومن هذه الثوابت الحكيمة المرشِّدة : أن «التدرج فى الخطوات من سُنن الدعوات».

وهذا يتَّسق مع الأمر الإلهٰى : ﴿ **أُدْع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن** ﴾[٦]. وعندما تتحول الحكمة إلى رُعونة ، وينقلب الحُسْن إلى عُنف واغتيال وبَغْى ـ فى المجتمع الواحد وبين الآمنين المسالمين ـ يسود الخوف والشِّقاق والبغضاء فالصراع وإزهاق الأرواح وإهدار الثروات والطاقات. وهذا يؤدى إلى خطأ فى السلوك والأسلوب، حين يُزَيِّن هَوى النفس الأمارة بالسوء تأويل التنزيل، واستباحة المحظور والحرام، تبريرا للغَلَبة ورغبة فى الانتقام. فتقع الجرائم وتسيل دماء الأبرياء.

وهنا يأتى الأمر الثالث فى مسألة السياسة والدين:

إن الدين الحنيف يدعو ويَحْرص على وحدة الأمة واجتناب الفتنة والفُرْقَة. والنصوص والشواهد فى هذا الباب كثيرة مبسوطة فى الكتب والمراجع وعلى رأسها القرآن المجيد وكتب السُّنة والسيرة. وتكفى الإشارة إلى أربع كلمات فى آيتين اثنتين يكاد يحفظهما كل مسلم ومسلمة وطفل وطفلة ، فى سورة «قريش» : ﴿ **فليعبدوا رب هذا البيت. الذى أَطْعَمهم من جوع وآمَنَهم من خوف** ﴾.

ولحكمة ما ، جاءتا فى أواخر المصحف بين قصَار السُّوَر، فمن السهل أن يحفظهما ويرددهما الجميع فى التلاوة، وفى الصلاة ، وحتى فى مدارس رياض الأطفال . إنهما آيتان تشيران إلى أهم دعائم السياسة والسلامة للأُمة – وكل أُمة – وقِوام الاستقرار والنماء والنهضة فى المجتمع ، وأى مجتمع . كيف ؟

لأن أى مجتمع فى دولة أو مدينة أو قرية ، فى حاجة أساسية وجوهرية إلى نظام اقتصادى يوفر الحاجات الأساسية أو الضرورية للناس، التى هى قوام حياتهم ونمائهم وإعمار دنياهم ، فيحقق بالتالى لهم الهناء والرخاء ؛ ولابد لهذا النظام الاقتصادى من توفير الأمن الذى يصون الناس من الخوف، بكل أشكاله وتبعاته ومصادره ، فيعيشون مطمئنين فى بيوتهم وحقولهم ومصانعهم ومتاجرهم ومعابدهم ومُدنهم وقُراهم، آمنين على

---

(٦) سورة النحل آية : ١٢٥ .

أرواحهم وأعراضهم وأموالهم وأعمالهم وأفكارهم وطموحاتهم ومستقبل أبنائهم . وبغير هذين «الجناحين» القويَّيْن فى جسم المجتمع ، لن يَنْهض ، ولن يَصْعَد عاليا أو يُحَلِّق . ولا يُتَصَوَّرُ مجتمع يستمر ويستقر وينمو إذا كان اقتصاده مُنْهارا أو متدَهْورا ، وإذا كان الأمن فيه واهِنًا مُخْتَلًّا . وهذا من أول واجبات ولىّ الأمر ومسئولياته: أن يهيئ للناس الظروف – أو النظام – الذى يحقق لهم «إطعاما من الجوع»، و«أمانا من الخوف». ومع مبدأ التدرُّج، يكون هذا واجب ومسئولية رب الأسرة، ورئيس العمل، وكل قيادى مسئول فى موقع يَمس معايش الناس ومصالحهم . ومن هنا يكون تخريب الاقتصاد – شرعا قبل القانون – جريمة ، وإفساد الأمن وتخويف الناس وترويعهم خطيئة تنافى الشريعة، وتستوجب التصحيح أو العقاب والردع.

وليت الأمر كان قاصرا على التجاوزات أو الجرائم الفردية، لكن الخطر المروِّع يأتى من جانب الجرائم التى تَصْدر عن جماعات ومنظَّمات وأحزاب، بدافع العصبية القبلية، أو الفكرية، أو المذهبية . وكم سالت دماء ، وخُرِّبت بلاد، وتمزَّقت وشائج، وحَلَّت نكبات بسبب تلك الدوافع. وفى التاريخ القديم والحديث شواهد ومآسٍ تفوق الحَصْر . وفى فصول الكتاب – أمثلة من وقائع القرن، تختلف فى المكان والبيئة ، لكنها تلتقى عند بواعث العصبية المَقِيتة ، والتطرف الذميم.

وربما أدى ذلك فى النهاية إلى استخلاص نتيجة «بشرية» مؤسفة مدهشة: أن المأساة الإنسانية الحقيقية لا تتأتَّى من نزعة فردية مفرطة فى العدوان والشر، بقدر ما تنطلق من صِبْغة مُفرطة فى الولاء لفكرة خاطئة، أو عقيدة زائفة، أو رغبة جماعية جانحة إلى الانتقام والقهر. والله الحافظ الهادى للبلاد والعباد.

فؤاد شاكر

القاهرة – نوفمبر ٢٠٠١

(١) قضايا أثارت الرأى العام

قضية الشيخ على


الخديو عباس حلمى الثانى

قضية بلا جريمة، وشيخ متَّهم لم يُذْنب !

ومع ذلك، انقسم الرأى العـام وقتهـا فى مصر بين «مـؤيِّد» ومُعـارض، واختلطت فى أجـوائها آنذاك أهواء السيـاسة ودسـائسها بأحكام الشريعـة ومقاصدها، واحتـدمت فى ساحتها ضغائن ومكائد ونقـائص، دافِعها الحقد الـدفين، والطمع المشين، والتنـافس غير الشريـف على طَنين لقب، وبـريـق مَنْصب، واقتناص موقع فى مجلس سُمَّـار الأمير، وقت أن كان هذا الأمير - أمير البـلاد واسمـه الخديوى عباس الثـانى - مغلوبا على أمـره، مَغْبـونا فى قصره، حَصُورا مُضَيَّقـا عليه من جـانبِ جَبار، ومن جانـب طاغية : سلطان الدولة العثمانية «العلية» فى استـانبول، وممثل الاحتلال البريطانى - الحاكم الحقيقى فى مصر - اللورد كـرومــر . والمؤسف «الـمُقْرف» فى هذه القضيـة الشخصية ، أن أسماء كبيرة لها شهرتها الأدبية والاجتماعية والدينية، كانت طرفـا فيهـا ، جَهْـرة أو مـن وراء حجـاب، فحـوَّلَتْهـا إلى قضيـة جماهيرية «قومية»، لابد «للحق» فيهـا أن يعلو وينتصر، ولا مَناص لحُكم الشريعة فيها من أن يَسْمو ويَسْتَقِـر . وفى الحق - والحق يُقال - أن المسألة بـرُمَّتها لم تكن فى حـاجـة إلى قاض ولا قضيـة، ولا هى بالمُعْضلة التى تتطلب مسـاجـلات فقهية، ومـرافعات قـانونية، ومـدافعات كـلامية، ومشـاجرات صحـافية ، ومشاحنات حزبيـة، وقصائد هجائية، ودسـائس كرومرية .. وكل ذلك من أجْل حَدَث بسيـط وليس بحادث : أن «الشيخ على» تزوج «السيـدة صفية» ، على كتاب الله وسُنة رسوله!

ومَن هذا «الشيخ»؟ ومَن تكون «السيدة»؟(١).

نقــول بداية : اخترنا هذه القضية لطرافتهــا وتفاهتهــا معا ! لطرافتهــا – وشَر البلية ما يُضحك ! – لأنها شَغَلت الـرأى العام فى مصر – وتردد صداها خارج مصر – لبضعــة أشهر ، وعلى جميع المستـويات الإدارية والسيــاسية والفكرية والصحافية والجماهيرية، وهى قضية لا مُـجْرم فيها ولا جريمة ، وانتهت فصــولها – كالمسرحيــة الهزلية – كما بدأت: ظل الشيخ على زوجـا للست صفية . أما تفاهة المسألة أو القضية ، فتأتى من بواعث إثارتها والنفخ فيها ، ومن حماســة – أو قُل حماقة – الذين انْبَروا للخــوض فيها كفــرسان الحرب وصناديد الـمَعْمعة ، فجالُوا وصالُوا وهاجُوا وهَجموا على غير طائل أو قاتل، وفيهم أدباء ووجهاء، وجهابذة علماء وشعراء ، ومحامون وقضاة ، ولو أبصر أحــدهم فى مــرآة الحق الـمَنَّزه عن الحقــد والهوَى والجشع، لرأى نفسه عــاريا عابثــا قاتم الوجــه، ولأبصر من ورائه حُكم الشريعــة الغراء فى صفائه وصوابه وبساطته الـوضاءة، وقد أدار له ظَهره فحجبَه بقفاه! ولأن «القضيـــة» تكشف جــوانب من واقع الحيـــاة فى مصر مع طلائع القـــرن العشرين، فقد كان ذلك أيضا من دوافع الاختيار، وباختصار .

الشيخ على، هو الشيخ ، أو السيــد «على يوسف» رائد الصحــافة المصرية الوطنيــة الجديدة الجادة ، وصاحب جـريدة «المؤيَّد»، أول الجرائد اليــومية المصرية، التى ظلـت نحــــو ربع قــــرن (مــن ٨ ربيع أول سنة ١٣٠٧ ـ أول ديسمبر ١٨٨٩) منبرا جـريئا حصيفــا شجاعــا للدفــاع عن حقــوق الوطن ومصـــالحه إبان الاحتـلال البريطانى الـذميم المقيت، ومنارة إشعــاع للرأى الحر والنقـــد الوضَّــاح والأنبـــاء الصِّحـــاح. فكان «المؤيَّد» رِدْءًا للوطنيين (المثقفين وغير المثقفين) ، كما كـــان نِـدًّا «للواء» جـــريدة الـزعيم «مصطفى كامل» والحزب الوطنى(٢).

---

(١) فى ذاك العصر ، لم يكن لقب « سيــدة » يعنى أنها متزوجــة ، وإنما هو اللفظ المؤنث المقـابل للقب الرجل : «السيد » .

(٢) فى الجزء الرابع من هذه السلسلة فصل كـامل عن « على يوسف » كـواحد من « رجــال صاغـوا القرن العشرين » .



الشيخ على يوسف

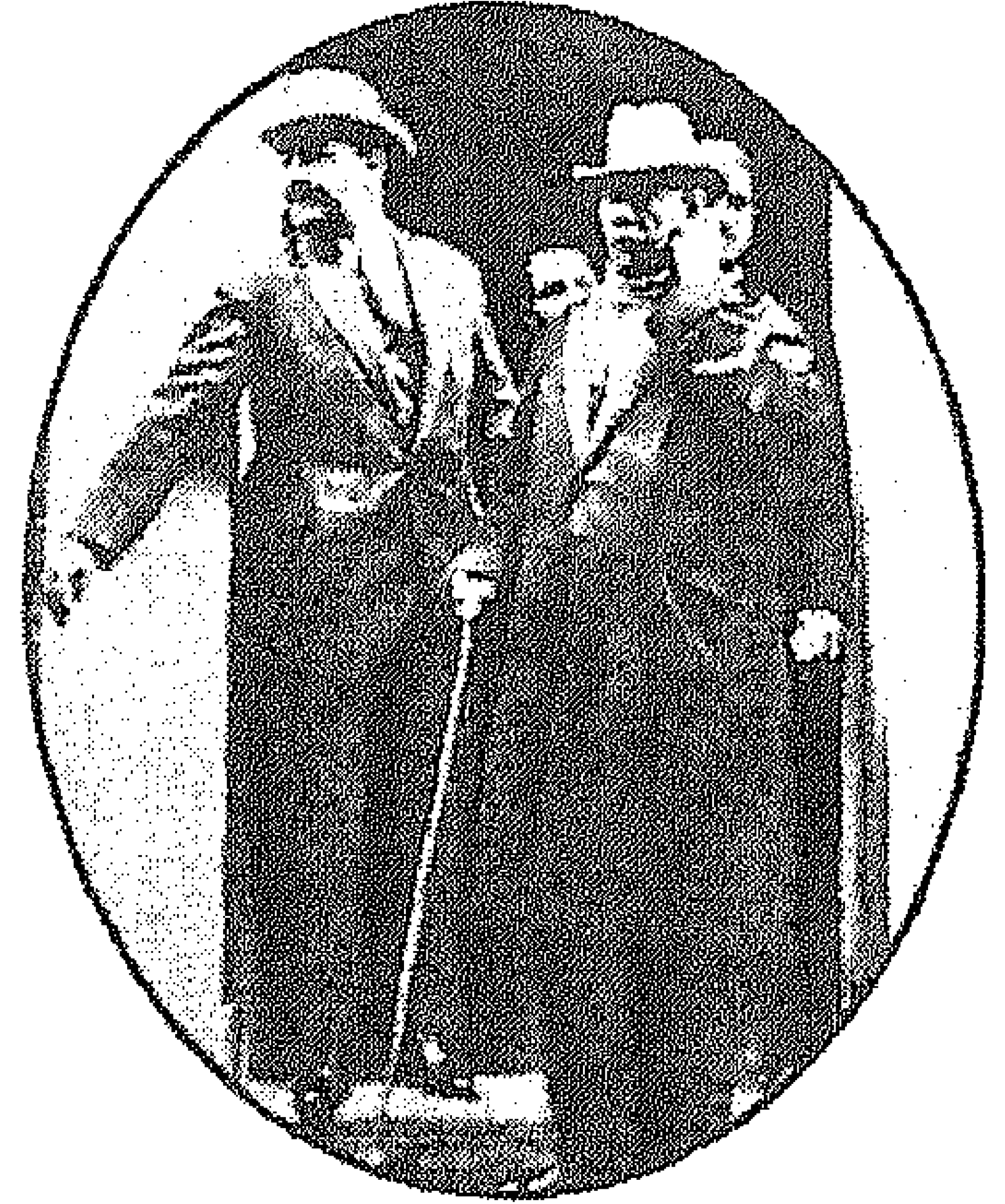


تعلم الشيخ « على » فى الأزهر ولم يُكمل دراسته به .

كان «على يوسف» عصاميا مثاليا . تعلم فى الأزهر ، فلما سئم من أسلوب الدراسة فيه تركه ولم يُكمل. وأقْبل على القراءة ومطالعة كُتب الأدب والسِّيَر والتاريخ، ونظَم الشعر، وأصدر ديوانا بعنوان : «نَسمة السَّحَر ». ثم عزم على إصدار جريدة ، على الرغم من افتقاره إلى المال، وإلى الخبرة بالصحافة. فاقترض من صديق مائة جنيه شجعتْه على إصدار «جريدة الآداب» التى صدر العدد الأول منها فى ربيع الثانى سنة ١٣٠٧هـ (ديسمبر ١٨٨٩م)، ثم وقع خلاف بينه وبين صديقه المُقْرِض، انتهى بتدخل من «سعد زغلول» المحامى (الباشا الزعيم فيما بعد) الذى أرضَى الصديق ببعض المال، وأعان الشيخ على يوسف بمبلغ آخر ساعده على إصدار «المؤيد» بعد أن توقفت عن الصدور جريدة الآداب.

جليس الأمير ومستشاره الأمين

تولى الأمير «عباس الثانى» عرش مصر فى سنة ١٨٩٢. وكان فى بداية



« سعد زغلول » – إلى اليمين – وكان عائدا من أوروبا .

عهده بالحكم ذا ميول وطنية قوية ظاهرة أثارت مخاوف سلطة الاحتلال وأزعجت أعوانه المنتفعين بإحسانه. وإذ كان الأمير (الخديوى عباس) يعتزم إجراء إصلاحات وفْق سياسة تقاوم مفاسد الإنجليز المحتلين وعبثهم بمصالح البلاد والعباد، فقد بحث عن الأخيار من الشباب والرجال الذين يُمكنه الاعتماد عليهم، أو يُرْجَى منهم فى المستقبل كفاءة وكفاية تنهض بالأمة، ويرتكز الإصلاح على عقولهم وعزائمهم وسواعدهم بأمانة وإخلاص وصدق. فكان اختياره لمصطفى كامل (باشا) – منذ كان تلميذا فقيرا – وأراده دعامة للحركة الوطنية ، وخصص له راتبا شهريا قَدْره خمسة وعشرون جنيها ثم تزايد حتى بلغ مائة جنيه (وكان مبلغا ضخما آنذاك)، ومنحه رتبة الباشوية، وظل يودُّه ويسانده رغم أنف الإنجليز، إلى أن أعرض عنه «مصطفى كامل» ونأى بجانبه، ثم أخذ فى نقده وجاهره بالخصومة والعداء على صفحات «اللواء».

ورأى «عباس» أن صاحب «المؤيد» يتسم بالجد والحصافة وصدْق الوطنية، فقربه إليه، وزاد عطفا عليه، وجعله من جُلسائه وأصدقائه، ثم صار مستشاره وأمين أسراره، ورفيقه فى زياراته وأسفاره، فكان دائما معه فى أوروبا والآستانة (تركيا)، وله بين الأكابر – فى مصر وتركيا – حظوة ومكانة (٣). وتلقى عددا كبيرا من الأوسمة والرُّتَب والنياشين ، وصار من حقه رسميا أن يخاطَبَ «بحضرة صاحب السعادة على يوسف باشا». وجَرَى الذهب فياضا بين يديه، ولكن «ذهب» جانب كبير منه فى مجال بعيد عن خبرة «الشيخ» ومكانته : فى المضاربة بسوق المال (البورصة) والعقارات. لكنه فى كل أحواله وأشغاله، لم يغفل عن شيئين أساسيين فى حياته وأفكاره : الدفاع الصادق المعتدل عن الوطن والأمة العربية

(٣) فى كتابه : « تاريخ الشعوب الإسلامية » يقول المؤرخ « كارل بركلمان » : « لم يجد الخديوى (عباس حلمى الثانى) فى جميع خلافاته مع السلطة البريطانية (المحتلة لمصر) أيما مساعدة من الشعب المصرى. فقد علّق آماله على الشيخ على يوسف مؤسس جريدة « المؤيد » ... » – ص ٧١٧.



والإسلامية، والمناصحة الخالصة الواعية للأمير. ولا يخفَى أنه بسبب هذه وتلك، تعَرَّض للمصاعب والمتاعب، وتحمَّل سخائم سلطة الاحتلال، ودسائس الحاقدين وصَغار المنافسين. ومن هنا تستبين خلفية الواقعة التى نحن بصددها، أو الظروف القائمة القاتمة التى أحاطت «بقضية الزوجية» التى ثارت بلا داع، فأثارت ضجة صاخبة، وثورة محمومة ما كان يجب أن تَتَفَجر وتُفَجِّر ما أَخْفَتْه الصدور.

مقدمات القضية

قَلَّ أن نجد فى مضْمار السياسة والصحافة (والإعلام بعامة) – كما هو الشأن فى ميدان الفن والأدب – مَن يَخْلو قلبه ويَصْفو ذهنه من حُب الغَلَبة، وحرص الأَثَرة، وشُح النَّصَفة، وعِشْق أضواء البريق. لأن هذه جميعها موصولة بشىء عزيز على النفس: الكَسْب المتألق، حقيقة أم وهْما. فإذا لم يكن كسْب المال والمتاع، فهو كسب الثناء والشهرة،أو كسب الوجاهة والمكانة، أو كسب التفوق والنفوذ. وهذا ما كان يَجْرى فى كتمان حول الشيخ، ثم سَفَر وانتشر، فصار كإحدى الكُبَر. وكأن ما حَدَث، أشبه بقصة درامية – تجمع بين المأساة والملهاة (ميلودراما) – أبطالها (مع حفظ الرتَب والألقاب): محمد المويْلحى وتلميذه أحمد فؤاد، مصطفى لطفى المنفلوطى، حافظ إبراهيم، مصطفى كامل، محمد توفيق البكرى، حفنى ناصف، على يوسف، عبد الخالق السادات، حاشية الأمير (الخديوى عباس). أما العنصر النسائى فى الرواية أو القصة فيقتصر على: صفية بنت عبد الخالق السادات، وسوف ينضم إلى هؤلاء «الأبطال» فى الفصل الأخير: اللورد كرومر، والقاضى: أحمد أبو خطوة، وقاضى القضاة: عبد الرحمن (أفندى)، ومحامى «المتهم»: حسن صبرى (بك). ومحامى عبد الخالق السادات: عثمان الفندى، ووزير الحقانية (العدل): بطرس غالى، وخادمة أوروبية (كومبارس) (٤)!

---

(٤) تعريف موجز بهؤلاء:
* محمد المويلحى (١٨٥٨ – ١٩٣٠): نشأ بالقاهرة فى بيئة أدب وصحافة، فأبوه إبراهيم صاحب مجلة «مصباح الشرق»، وقد اشترك مع أبيه فى إصدارها، بعد أن تعلم وسافر إلى إيطاليا وفرنسا، وفيها ساعد الأفغانى ومحمد عبده فى إصدار «العروة الوثقى». عُين مديرا للأوقاف (١٩١٠). وأسرة المويلحى كانت سندا لأسرة محمد على باشا ولها مكانة مرموقة وحظوة وكلمة مسموعة فى الآستانة. =

● المشهد الأول : الصَّفعة

٢٥ أكتوبر ١٩٠٣ ..

والمكان : دُكان – وقيل مقهى – دراكتوس بالقاهرة – يجلس محمد «بك»

=

* أحمد فؤاد « الصاعقة » : هكذا كان يُعرف بين زملائه الصحافيين وفى الأوساط الأدبية والسياسية، وصاحب صحيفة « الصاعقة » وهى – كصاحبها – اسم على مسمى : فقد كانت – وكان هو – أشهر هجَّاء وناقد مهاجم بشدة فى أوائل القرن . فكان يخشى قلمه الكبراء والوزراء ويمنحونه المال والهدايا لإرضائه أو إسكاته . وكان يبيع مقالات جاهزة لزملائه فى « مدح » ثم «ذم» شخص أو موقف يصلح موضوعا للنشر فى كل صباح ، فكان يكتب مبكرا المدح والذم معا بدون توقيع ، فيتركه لمن يشترى !
* المنفلوطى (١٨٧٦ –١٩٢٤) : من منفلوط بصعيد مصر . لم يتم تعليمه بالأزهر واتجه إلى مطالعة كتب الأدب ودواوين الشعر وكتابات العلماء والمفكرين . نال شهرة من كتاباته الأدبية فى الصحف ومن رواياته .
* حافظ إبراهيم (١٨٧٢ – ١٩٣٢) : شاعر النيل المعروف .
* مصطفى كامل (١٨٧٤ – ١٩٠٨) : الزعيم الوطنى مؤسس الحزب الوطنى وصحيفته « اللواء » .
* « السيد » محمد توفيق البكرى : من الأشراف ونقيبهم ، وشيخ مشايخ الطرق الصوفية آنذاك ، وعميد بيت السادات البكرية . وكان كاتبا وشاعرا ، وعضو مجلس شورى القوانين ، وصهر عبد الخالق السادات وكانت له – ولأسرته مكانة عالية فى مصر وعند الباب العالى بالآستانه (تركيا)، لدرجة أن الخديوى عباس الثانى تعمد مرة إهانته فى حفل عام فكان رد الشيخ البكرى الفورى عليه أمام الحاضرين : « أنا وزير مثلك ، وآبائى وأجدادى لهم الفضل على آبائك وأجدادك » . وهو « البكرى » نسبة إلى أبى بكر الصديق .
* حفنى ناصف (١٨٥٥– ١٩١٩) : أستاذ جيل من القانونيين والعلماء والأدباء (ومنهم طه حسين). عمل قاضيا نحو عشرين سنة ، فكان مثالا فى النزاهة والشجاعة والوطنية فى أحكامه . أسهم بجهد كبير فى إنشاء الجامعة المصرية الأهلية ، وبالتدريس فى كلية الحقوق وكلية الآداب . وكان دائرة معارف واسع الاطلاع ، عصاميا قليل المال كثير النشاط والعطاء ، له فضل تصحيح نحو مائتى خطأ كتابى كانت فى المصاحف المتداولة بين الناس واستغرق منه ذلك نحو سبع سنوات وأتمه فى اليوم الأخير من حياته . ابنته الأديبة المشهورة « ملك » المعروفه باسم : باحثة البادية ، التى توفيت شابة متألقة (٣٢ سنة) .
* « السيد » عبد الخالق بن وفا ، من بيت السادات الوفائية ، واحد من أقدم البيوت المصرية يرجع تاريخه فى مصر إلى نحو سبعة قرون ، وينتهى نسبه – كما قيل – إلى الإمام الحسن بن فاطمة الزهراء بنت النبى ﷺ ، وفى سلسلة نسبه « محمد ابن إدريس » خليفة المغرب مُنشئ مدينة فاس . وقد قدِم السادات الوفائية (نسبة إلى الجد الأعلى محمد وفا) إلى مصر عبر الشمال الأفريقى حيث كانت إقامتهم فى تونس وصفاقس وما حولهما . وعبد الخالق السادات هو والد « الست » صفية موضوع القضية .

وبعد وفاة عبد الخالق السادات ، أراد الخديوى عباس إسداء مكرمة زائدة منه إلى الشيخ على يوسف ، فأسند إليه منصب « شيخ السادة الوفائية » بزعم أن نسبه ينتهى إلى الحسن بن على بن أبى طالب (رضى الله عنه) مثل انتساب «السيد » عبد الخالق إلى حفيد النبى ذاته (على الرغم من أن ذلك يناقض تماما ما قيل فى المحكمة التى نظرت القضية كما سنرى) ! ومع مثل هذا التفاخر الأجوف الواهم ، يتناسى الناس آية واضحة صريحة فى القرآن الكريم تقول : ﴿ فإذا نُفخ فى الصُّور فلا أنساب بينهم يومئذٍ ولايتساءلون ﴾ . سورة « المؤمنون » – آية ١٠١ . ولكن الخلفاء والأمراء والحكام فى عصور التخلف والضعف كانوا يستعينون بالطرق الصوفية وقياداتها للسيطرة على الشعب .



المويلحى مع جماعة من أصحابه. يدخل محمد (بك) نشأت، فيمر فى طريقة بالمويلحى فيجيبه قائلا : «بونْسوار (مساء الخير أو عِمْتَ مساء) مويلحى ! فيردُّ المويلحى مازحا متحذلقا : «أهلاً بالفُتْنى» ! أراد تعريب ما يطلقه أصحابه عليه فيقولون : " petit interegant " . لكن نشأت بك لا يتقبل هذا المزاح الجارح على ملأ، فيتجه نحو المويلحى ويباغته بصفعة بكل كفِّه على وجهه . فيَجْمد المويلحى بك فى مكانه، ولم يزد عن قوله : «إنك فعلْتَ ما يمكن لأى حَمَّار فى الطريق أن يفعله مع أكبر كبير»!

وتصبح هذه الواقعة مادة خصبة لجريدة «المؤيد» توالى الحديث عنها أياما وأسابيع، ومع التعليقات الساخرة الجارحة ، تنشر رسائل القراء حولها، حتى إنها تطلق على تلك السنة التى أوشكت على الانتهاء اسم : «عام الكَف» وتتعمد أن تَذْكر فى الخبر أن ما حدث كان فى «حانة» دراكتوس، وأن المويلحى قال فى رده على نشأت : «أهلا بالفتَّان أو الفاتن» ، (من الحُسْن الأنثوى والدلال، وليس المعنى الآخر للفتنة التى هى من سوء الخلق أو أشد من القتل).

والسؤال : ما علاقة هذا بموضوعنا ؟ ولماذا خاض صاحب «المؤيد» وأفاض فى الإطناب والتعليق على هذه الحادثة العارضة ؟ لأن محمد المويلحى – وهو أديب كاتب صحافى مرموق مشهور ومؤلف رواية «حديث عيسى بن هشام» الذائعة الصيت – كان مرشَّحا للعمل الصحافى فى ديوان الخديوى عباس، والمتحدث الرسمى باسمه، وهو فى الحق، كان مناسبا لذلك، حَسَبا ونَسبا وكفاءة وثقافة واسعة (شرقية وغربية)، فكان إذن منافسا خطيرا للشيخ على يوسف ومزاحما قويا فى حاشية الأمير ومجلسه. ومن هنا يُفهم ما بين السطور من غَمْز ولَمْز، بكلمات مثل «حانة» بدلا من دكان أو مقهى، وكلمة «فاتن» ، وإضافة أن المويلحى تلقى صفعة على وجهه وأخرى على قفاه. فهل يُستساغ بعد ذلك أن يختار القصر رجلا جليس الحانات مصفوعا

أمام الناس على الوجه والقفا ؟!(٥)

● **المشهد الثانى** : حكاية غرام

السيد «عبد الخالق وفا» – نقيب السادة الوفائية الأشراف – يصطحب ابنته «صفية» فى مجالسه، وفى زياراته لدار «المؤيد» . إنه شغوف بها، حريص على إرضائها وتثقيفها وتعميق فهمها للحياة وللناس. وهذا أمر غير مألوف من المصريين عند العامة، بل وعند كثير من المتعلمين والمثقفين (حينذاك).

ولذا، فإن «الست صفية» – بسبب تلك التربية والمعاملة – تجيد الحديث والحوار، مع الرجال والنساء سواء، ولا تجد حرجا – على غير العادة والتقاليد – أن تخاطب الرجال من كل الفئات والمستويات، وتناقشهم فى حدود الأدب والحشمة. وفوق ذلك، فهى تتسم بجمال ظاهر، وحُسن ناضر، ونشاط وافر، و«حُضور» آسر، وترفِ أهل الوجاهة والنعيم. فكيف «يَفْلت» قلب الشيخ صاحب «المؤيَّد» من بادرة غرام أو خاطرة هُيام(٦)، وهو «مُقَيَّد» الفكر والعاطفة على الدوام بشئون السياسة والرياسة والسراية وشواغل الوطن؟ وماذا يُضير شيخا مرموقا مشهورا ثريا نديًّا مثله أن يَمُدَّ عينيه إلى مُتْعة الدنيا، ثم يمد يده إلى والد الفتاة، يطلب المودَّة فى القُرْبَى، راجيا زواجا حلالا طيبا، وهو مكتمل الرجولة فى سن الأربعين، وهى مكتملة الأنوثة فى ريعان الشباب؟ عـزمَ وتوكل، وكلم الوالد فتقَبَّل. وتسلَّم الصداق (المهر)، بشهود على الاتفاق (٧).

---

(٥) أمثلة مما كانت جريدة «المؤيد» تنشره حول هذه الواقعة :

ياضَريعَ الأكُفِّ صِدْغُك أمْسَى خَلِقا مثل طَيْلسان ابن حَرْبِ
أنت فى «الحان» فى أمان وسَلْم وهو فى مَعْمعان حَرْبٍ وضَرب

وأيضا فى إشارة إلى شهر رمضان المبارك وإلى المويلحى فى الختام :

إن شهر الصوم قد حَل ففُزْ فيه بالأجر وشُكرْ الشاكرينْ
.. إن هذا الشهر يَجْتَنِى فيه أمثالك صَفْع الصافعين
قد محوْنا آية «الكف» وها نحن نتلُو اليوم آىَ الراحمين

(٦) أصل الهيام فى اللغة : شدة العطش . والهائم حبا أو عشقا كالمشتاق إلى الماء والشراب من شدة الظمأ .

(٧) كان من بين الشهود على الاتفاق «أحمد عزت العابد» باشا كبير مستشارى السلطان العثمانى عبد الحميد – وكان صديقا قديما للشيخ على يوسف – وقدم لوالد المخطوبة عقدا نفيسا من اللؤلؤ هدية لابنته بهذه المناسبة .

● **المشهد الثالث** : عقد القِران

١٤ يوليو ١٩٠٤ .. المكان : سراى البكرى بالخرنفش.



يتولى السيد «محمد توفيق البكرى» عقد قران السيدة «صفية» على الشيخ «على يوسف»، بعد أن طالت غيبة أبيها السيد «عبد الخالق» فى سفر إلى الآستانة. وليس الشيخ البكرى بغريب أو بعيد عن أسرة السيد عبد الخالق. فهو عميد بيت السادات البكرية ونقيب الأشراف جميعا، وشيخ مشايخ الطُّرق الصوفية ، وعضو مجلس شورى القوانين، وله مقام محفوظ فى مصر وفى تركيا، وهو أيضا زوج السيدة حفيظة عبد الخالق السادات أخت صفية . فيتم العقد بحضور الشيخ «السقا» خطيب وإمام الجامع الأزهر، وكيلا عن السيدة صفية.

وقد يكون هنا سؤال : لماذا أقدم الشيخ «البكرى» على تلبية رغبة الشيخ على يوسف بعقد القران دون انتظار عودة والد العروس؟

يبدو أن «عليا» استبطأ رجوع السيد عبد الخالق من سفره، واعتبر أن موافقته الصريحة على الزواج وقبول الصداق مبررا كافيا لإقناع نقيب الأشراف بإتمام الإجراءات الرسمية، وهو بمثابة «كبير» القوم ووالد الجميع. ومن جانبه، أراد الشيخ البكرى رد الجميل لصاحب «المؤيد» الذى أسْدَى إليه مَكْرمة تستوجب مقابلة المعروف بالإحسان. وكيف كان ذلك؟


الشيخ / السادات

يُحْكَى أن الخديوى عباس الثانى كان فى سفر إلى الآستانة ، فلما عاد إلى مصر ، نشرت جريدة «الصاعقة» وصاحبها أحمد فؤاد الصاعقة - قصيدة مطلعها :

قُدوم ولكن لا أقول سعيدُ ومُلْك وإن طال المدَى سيبيدُ

وفى ختامها :

فياليت دُنيانا تَزول ولَيْتَنا نكون ببطن الأرض حين تَسُودُ


الملك فؤاد

فأحـدثتْ القصيدة بين الناس ضجـة ، وفى قصر الإمارة رجـة ، وزاد من غضب الأمير وسخطه أن الناس تداولـوا فيما بينهم أبيـاتا منهـا لم تنشرها «الصاعقة» مثل:

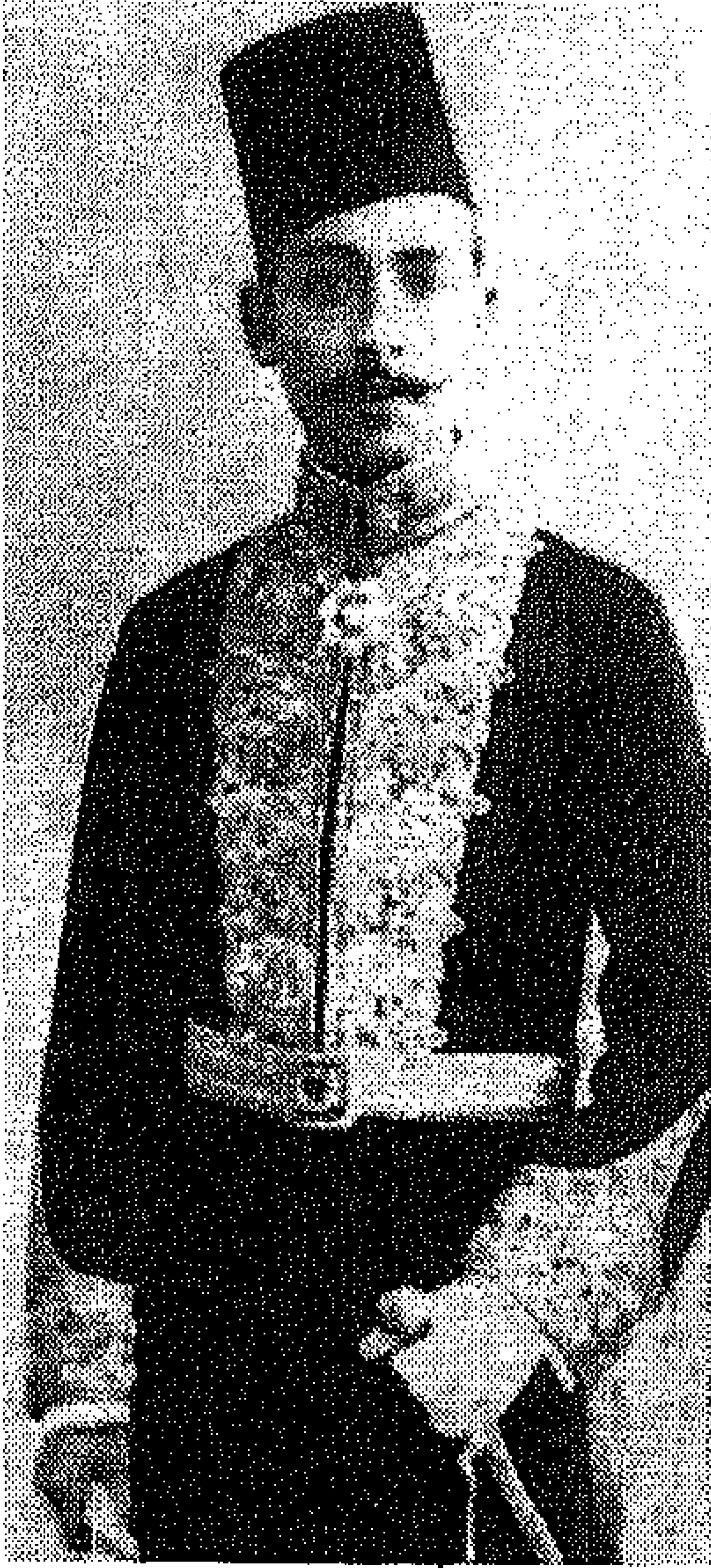
رمَتْنا بـكم «مقدونيا» فأصابنـا سهـام بـلاء وقْعُهـن شديـــدُ
فلما توليتــم طَغَيْتُـــم وهكـذا إذا أصبـح « القَوَلِيُّ » وهْـو عميـد
أعَباسَ ترجـو أن تكـون خليفـةً كـما وَدَّ آبـاء ورامَ جُـــدود ؟
فياليت دنيانا تزول وليتننا .....


حفنى ناصف

ذلك أن هذا الخديوى كان يطمـح أن يكون خليفة للمسلمين ، (وهو الأمل الذى سـوف يسعى إلى تحقيقه ويفْشل أيضـا الملك أحمد فؤاد والد فـاروق، وعَقَد من أجْله مؤتمرا دينيا كبيرا فى القاهرة سنة ١٩٢٦). وظن «عباس» أن الشيخ محمــد توفيق البكرى هو الـذى نَظَم تلك القصيـــدة ، فكانت بينهما جفـوة دفعتْه إلى عَـزْله من منصب نقـابة الأشراف (وإن بقى شيخـا للطرق الصـوفيـة حتى لا يُغضب الباب العـالى فى الآستانة). وزاد من إلحاق الضرر بالشيخ البكرى – وكان معروفا عن عبـاس مهارة فى الدسائس والكيد – أن أَوْعـز إلى «حفنى ناصف، قـريب الصلـة بالشيخ » ، أن يحتـال لينتـزع منه قصيـدة مكتـوبة فى الغـزَل الصريح المكشوف ، بحجـة إظهـار قـدرته (أى البكرى) على نظْم الشعر فى أى باب أو مناسبة. وقد كان، مما نال من سمعته عند قيادة السلطة فى تركيـا . وهنا يأتى دور الشيخ «على يوسف» – باشا – الذى سعى جاهدا حتى أزال غضـب الخديوى وسخطه على «البكرى» وأعاد إليـه نقـابة الأشراف، وخـاصـة بعــد أن اعترف الأديب «مصطفى لطفى المنفلوطى» بأنه ناظم القصيـدة (وإن قيل إن البكرى شـاركـه فى نظم بعض الأبيات). فكان عقابه (أى المنفلوطى) السجن مع أحمد فـؤاد لبضعة شـهور. فكانت مَكْرمة من «على يوسـف» حفظها له «البكرى».

● **المشهد الرابع** : القضية

يعود السيد : «عبد الخالق السادات» بعد سفره الطويل، ويعلم بما جرى،


« مصطفى كامل » باشا

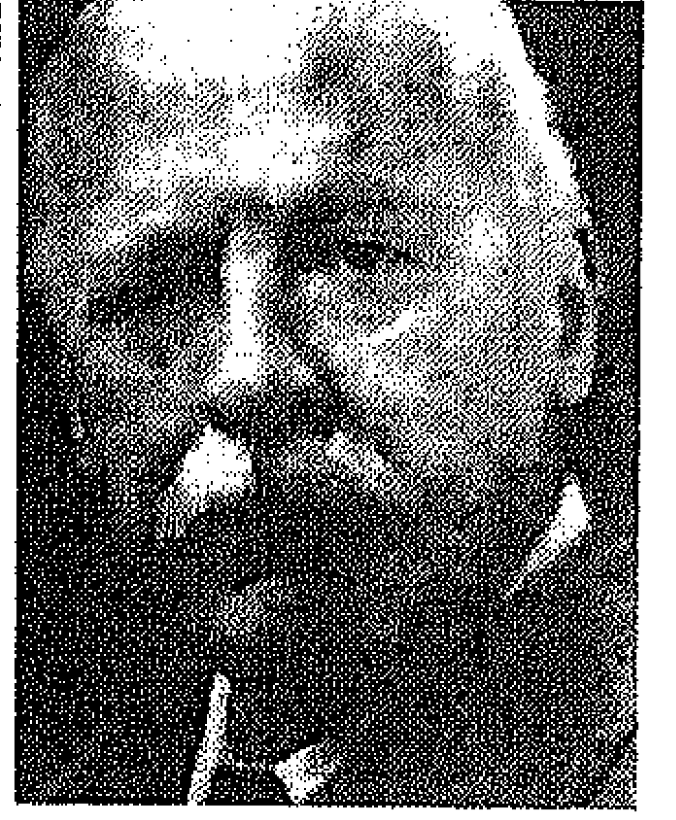
وربما لم يجد فيه غَضاضة . لكن جريدة «المقطم» – حليفة سلطة الاحتلال وصوت اللورد كرومر الذى يتْبع بالدس والوقيعة سياسة فرِّق تَسُد – تنشر خبر زواج الشيخ على يوسف بدون حضور أبيها، وتعمدتْ صياغته بأسلوب خبيث مُلْتوٍ ، فيُسْتثار السيد «عبد الخالق» ويكتب خطابا إلى «المقطم» وإلى «المؤيد» بأنه لا علْم له بهذا الزواج، وهو لا يرضى عنه إن كان حقا حدث، وأنه سيتخذ الإجراءات القانونية لمنْعه . فتسرع بنشر الخطاب جريدة «اللواء» –صحيفة مصطفى كامل باشا والحزب الوطنى – ولم تنشره «المقطم» ولا «المؤيد» (٨). فينقسم الرأى العام بين موافق ومُعارض ، فى مسألة لا تستحق ما أحاطها من ضجيج وعجيج .

٢١ يوليو ١٩٠٤..

المكان : المحكمة الشرعية بالقاهرة .

ينظر قاضى المحكمة : الشيخ «أحمد أبو خطوة » فى القضية المرفوعة من السيد «عبد الخالق السادات» ضد الشيخ «على يوسف» والسيدة «صفية عبد الخالق» ، وفيها يطلب فَسْخ عَقد الزواج الذى تم بينهما فى بيت السيد «محمد توفيق البكرى» فى ١٤ يوليو. فيطلب المحامى «حسن صبرى» وكيل «على يوسف» التأجيل للاطلاع على أوراق القضية . فيسارع الشيخ «عثمان الفندى» بطلب إصدار حكم عاجل مؤقت بإقامة «الحيْلولة» بين الزوجين (أى التفرقة المانعة من التقائهما) لحين الفصل فى القضية. فيُصْدر القاضى قرارا بالتأجيل وحُكما بالحيلولة ..

(٨) كان أسلوب واتجاه « على يوسف » وجريدته « المؤيد » يختلف عن أسلوب الزعيم « مصطفى كامل» وجريدته «اللواء » فى تناول القضايا الوطنية ومناهضة الاحتلال البريطانى ورموزه المتسلطة فى مصر. فالأول كان يتخذ منهجا عقلانيا دبلوماسيا معتدلا ، فى حين كان الثانى يميل إلى الأسلوب الحماسى الخطابى الانفعالى الأدبى . وكان صاحب « المؤيد » يلقِّب صاحب «اللواء » بالطائش ، وسياسته بالطيش ، ويعيب عليه أمورا منها : مجاهرة الخديوى عباس علانية بالخصومة والتجريح والنقد فى فترة مهادنة (الخديوى) للإنجليز الذين هددوه بالعزل وسُميت هذه الفترة « بسياسة الوفاق » ، ومعروف أن عباسًا هو الذى أبرز مصطفى كامل وأنفق عليه وسانده : وعاب عليه على يوسف أيضا أنه (أى مصطفى) استعان « بشراذمة » مأجورين فرنسيين – من أدباء وصحافيين وسياسيين – لنصرة القضية المصرية ، ثم ثبت فشل ذلك .


اللورد كرومر

فيستشيط الشيخ على يوسف غضبا، ويسافر إلى الإسكندرية لمقابلة بعض ذوى الشأن والنفوذ الذين كانوا بالمصيف ، وفيهم وزير الحقانية «بطرس غالى باشا»، فتنشر جريدة «المقطم» أن حُكم الحيلولة لن يتم تنفيذه . فتَنْبرى «اللواء» للهجوم «المسلح» بالكلمات والتعليقات والمقالات اللاهبة الناقمة على ضياع الأخلاق، وانْصياع النفاق، بانتحال الذرائع، لإهدار الشرائع، والتمسح بالدِّين، لتعطيل القوانين ، وكأن القضاء فى غفوة القيلولة، لا يدرى بما حَل بحكم الحيلولة ! ويقرأ الناس ما تنشره «اللواء» ، فيزداد الانقسام فى الرأى ويتفاقم المراء. وإذ يطالع قاضى القضاة ما يُنْشَر ، يَهُب ناقماً كالليث الغَضَنْفر!

● **المشهد الخامس** : تحدِّى الحكومة

يقرأ الشيخ « عبد الرحمن أفندى» – قاضى قضاة مصر – ما نُشر عن محاولة تعطيل حُكم الحيلولة ، فَيغْضب ، ويَسْخط ، ويَصْخب ، ثم يتصل بمحافظ القاهرة يسأله عن سبب التلكُّؤْ فى تنفيذ حكم الحيلولة ، فيجيبه المحافظ بأن الأوراق الرسمية لم تَصِلْه بعد من وزير الداخلية الذى يقضى عطلة الصيف بالإسكندرية . فيزداد قاضى القضاة غضبا ساخطا وصَخَبا مُفرطا ، وعزما لا هَوادة معه أن يثأر لإهانة القضاء بتراخى أو عبث الحكومة، ويُقْسم ليجعلنَّها «حربا» على الفساد يَعُمُّ صداها كل البلاد، وتصير حديث الناس فى كل وادٍ وناد.

فيتفق الشيخ – قاضى القضاة – مع قاضى المحكمة الشرعية – الشيخ أبى خطوة – على «خطة فحواها : أن يذهب – أبو خطوة – من فوره إلى المحكمة، وينتظر خطابا يأتيه – فى الجلسة بعد افتتاحها – من قاضى القضاة ، فيتلوه على الحاضرين، ويُسَجَّل بالمحضَر ، يتضمن إعلانا إلى الحكومة بأن تؤدى واجبها التنفيذى على نحو أفضل وأنشط، وأن تَعْلَم قدسية حُكم القاضى وما يجب له من هيبة واحترام . فإن لم تبادر من فورها وتفعل، فإنه ـ قاضى القضاة – سيدعو إلى إغلاق جميع المحاكم الشرعية فى القطر المصرى، ويدعو إلى الإضراب العام!

يوم ٢٧ يوليو : الساعة السابعة صباحا.

المكان : قاعة المحكمة الشرعية.

القاضى الشيخ أحمد أبو خطوة يفتتح الجلسة ، ثم يعلن أنه فى انتظار خطاب متعلق بالقضية سيأتيه توًّا من قاضى القضاة . ويجىء الخطاب . فيتلوه بقوة على مَهَل. وما يكاد يَفْرغ ، حتى تدوِّى القاعة بالتصفيق، ويعلو هتاف الجمهور المحتشد خارج القاعة وفى ساحة المحكمة ، فيطير الوصف والخبر إلى اللورد كرومر بالسفارة البريطانية فيَرْتاع ، وإلى مجلس النظار «الوزراء» فيَهْلَع ، ويقع الكل فى حَيْص بَيْص. ويخرج الشيخ أبو خطوة من المحكمة بين الهتاف والتهليل والتصفيق، وكأنه البطل فاتح عكا، ومُحَطِّم بنيان الظُّلم دَكًّا دَكا. وتفشل كل محاولات الحكومة واللورد البريطانى - بالتهديد والترغيب - لإثناء الشيخين عن موقفهما ، وهُما يزدادان صلابة وعنادا . وفى النهاية يتم لهما ما أرادا، بتنفيذ حكم الحيلولة ، وتَعْلو فى نفوس الناس مكانة القضاء الشرعى وقُضاته(٩).

● **المشهد السادس** : تحايل على الحيْلولة

السيدة «صفية» فى بيت الشيخ الرافعى - وهو بيت كريم لعالم مستقيم، وصديق لآل السادات حميم. لكنها تشعر بالآسى والضيق. وحُقَّ لها أن تَأْسَى على حالها وتضيق بما تَرى وتَسمع : فالوالد مَكْلوم كَتوم حَنِق ، والزوج مظلوم مَلوم مُهان ؛ وهى أصبحت «لُعبة» تُستباح فى مباراة بين «قَصر الدوبارة» (مقر المعتمد البريطانى) وقصر النِّظارة (مجلس الوزراء) ، ومُضْغةً سائغة فى أفواه بعض الناس، تَلوكُ سُمعتها ، وتَنْهش عِرْضها ، وتفترى عليها الآثام والأكاذيب . ومنها : أنها تلتقى بالزوج - «المُحال» بينها

(٩) ورُبَّ سائل يسأل : ولماذا يرتاع المعتمد البريطانى (كرومر) ويحاول - مع الحكومة التى تسمع له وتطيع - أن يمنع تنفيذ حكم الحيلولة وفيه إرضاء للشيخ على يوسف الذى يوجه فى كل صباح على صفحات « المؤيد » النقد والهجوم على الاحتلال ورجاله - وعلى كرومر شخصيا - ومن يماثله من أصحاب السلطة ؟ والجواب بسيط : أن اللورد الماكر الخبيث وجدها فرصة ذهبية لاستمالة صاحب «المؤيد » إليه وانتزاعه من طوائف الأدباء والكتاب الوطنيين الناقمين بشدة على الإنجليز والاحتلال ، ولهم تأثير مباشر على الرأى العام ، وذلك بإسداء معروف إليه فى وقت أزمته ، وبالضغط أيضا على الحكومة للتراخى فى تنفيذ الحكم أو التغاضى عنه . ولكن هيهات !

وبينه – سرا فى جُنح الليل حيث تُقيم، فيظل معها هانئا حتى مطلع الفجر. ويَبْلغ الشيخ الرافعى كثيرا مما يُقال خَرْصا ويُشاع [١٠]. ويرتاب فى مَسْلك خادمة أوروبية فى بيته، فيتحقق خفية ويُدقق، فيكتشف أنها تحمل رسائل أنين وحنين وشجن، متبادلة بين الزوجْين المحرومَيْن من التلاقى والوِصال. فيعزم على التخلى عن إيواء «صفية» وإبلاغ قاضى القضاة بذلك، ثم يَعْدل عن رأيه مكتفياً بطرد الخادمة حاملة الرسائل.

ويقترب موعد نظر القضية . ويتحسس محامى الزوج مَواطن الضَّعف فى جانب مُوكله، ويتلمس جوانب الدفْع التى يُغالِب بها محامى خصمه المدعى، فيعلم أنها ترتكز على «عدم التكافؤ» ، إذ لا «يصح» أن تقترن بنت السادات سليلة بيت خاتم الأنبياء ﷺ برجل حديث نعمة أصله من عامة الناس – وإن مُنح رُتبا وألقابا – بل إن واحدا من أجداده مشكوك فى إسلامه . فيسارع «حسن بك صبرى» – وكيل الشيخ على ، وبمساعدة الحكومة – إلى استخراج وثيقة رسمية تثبت وتقرر وتؤكد أن «عليا بن يوسف» من سلالة الأشراف، إذ يرجع نسبه فى سلسلة متصلة إلى الحسن بن علىّ بن أبى طالب وفاطمة الزهراء بنت المصطفى خاتم الرسل والأنبياء. واحدة بواحدة ، فلا تَفاضل إذنْ بين نسل الأشراف!

● **المشهد السابع** : الحُكم

تَعقد المحكمة الشرعية جلسة لنظر القضية والحكم فيها . وتبتدئ بالتحقق من أمور تراها أساسية، مثل : عدم رضاء الوالد – ولىّ الأمر – عن هذا الزواج. فيدفع وكيل الشيخ على بأن الوالد كان راضيا كل الرضى مَرْضيا، وتسلَّم الصداق، وتقبل هدايا بعض المهنئين قبل سفره وإتمام العقد.

ثم ينتقل القاضى إلى النظر فى مسألة عدم التكافؤ بين الزوجين ، فيتناولها من جانبين : الحَسَب والنَّسب ، ثم القَدْر والقَصْد .

---

(١٠) الخرص (بفتح الخاء وسكون الراء) : البهتان والكذب .

أمـــا الحَسَب والنسب، فهما فى هـذا الجانب ســـواء، وكلاهما ينتمى إلى الإمام الحسن بن علىّ رضى الله عنهما ، والوثائق تُثْبت من غير «افتئات أومَطْعن» ! هكذا قـال وكيل الشيخ وقَدَّم الدليل. أما القَدْر والقصـد ، فلا أحد يُنكر قدْر ومكانة صـاحب «المؤيد» فى مصر والدولة العليـة (تركيـا) وكـل بلاد الشرق حتـى بين مسلمـى الهند والسِّنـد . ولم يقصد بهذا الزواج حَـجْب نَقيصة أو رفْع خَسيسة ، فهو - فى مـرافعـة وكيله - وافـر الثـراء، يتقلب فى النعماء ، رفيع المقـام، بين الأكابـر والحكّام . وإذا عُدَّت ألقـابه ونيـاشينه وأوسمته ورُتبة ، التى حصل عليها من ملوك وأمراء وسلاطين ودول، فهى بلا مراء تفُوق كثيرا ما عند والد الزوجة إن كان عنده من مثيلاتها شىء.



الشيـخ « على يوسف » باشا بأوسمتـــه ونياشينه من عدة دول .

فيسأل القاضى المحامى حسن صبرى بك (الباشا فيما بعد):

- هل فيما اتخذه الشيخ على فى هـذه الدعـوى مـا يتفق مع الفضـائل والآداب الإسلامية والعادات القومية ؟ فيأتيه الرد سريعا مُفْحِما :

- إننا هنا نتقاضى قضاء شرعيا نظاميا لا قضاء أدبيا !

- وما الدليل على (مقدار) عِلْم الشيخ على يوسف ؟

- إنه دَرَس كُتب الدين فى الأزهر ، وكـان على وشَك أن يتخرج للتـدريس فيه، ولكنه آثر صناعة الأقلام (أى حرفة الكتابة)، فعمل فى الصحافة .

وهنا ينبرى للمبـارزة الكلاميـة الشيخ الفَنْـدى - وكيل والد الزوجـة - «مُفَنِّدا» صناعة الأقـلام وعمل الزوج بالصحافة . ومن بين مـا قاله : « .. إن الصحافة لا تَشْرف إلا بشَرَف استعمالها . وإن حرفـة الصحافة التى نَسبَها المدَّعى لنفســه قسمان: قسم يبحث فى علوم وفنون مخصـــوصـــة ، وهى المجلات غير اليوميـة (يقصد المجلات المتخصصة)، وهـذه شَرَفها بشَرف ما يُبْحث فيـه. وهذه الصحافـة لا يدَّعيها الشيخ على يوسف لنفســه. وقسم لا يختص بموضوع مخصوص ، وهى الجرائـد اليومية، ووظيفتها إرشاد مَن تتكون منهم المملكة مـن الأفـراد والهيئات الاجتماعيـة والحكـومـة . وهذه

الصحافة جليلة جدا ، ولها أثر فى رُقى المملكة من ناحيتيها الاجتماعية الداخلية ، والخارجية. ويجب أن يتوفر فى صاحبها أعلى أنواع الثقافة الاجتماعية والخلقية والسياسية، كما يجب أن يكون على أعلى قدْر من شرف النفس ونُبل الضمير ، وأن يكون من أشد الناس محافظة على الكمالات والآداب، حتى يمكنه أن ينفع بنُصحه ، ويجمع الناس إلى رأيه ، فضْلا عن وجوب علمه بالسياسة الداخلية والخارجية. والمدَّعَى عليه (الشيخ على) لا يمكنه أن يزعم لنفسه هذه الصحافة (!!) وذلك لتقلُّبه فى المبادئ لغير سبب، وتَعَرضه للشخصيات فى ثوب المصالح العامة، ولسكوته عن بعض ما يلزم الكلام فيه لأغراض بعض من يَهُمه رضاؤهم ، ولكثرة أضراره . وهو يدَّعى أنه يريد النفع مما هو معروف عنه ، ولا نريد أن نَعْدو ذلك . وكفَى بهذه القضية وحدها دليلا عليه.

« وعلى ذلك : فالمدعَى عليه ليس مشتغلا بالصحافة قائما بها (!!!) وإنما هو مشتغل بشيء يُشَبِّهها لأغراضه، مُلْبسا إياه ثوب الإرشاد والمصلحة العامة ، وهذا اشتغال بأخَس الحِرف وأَدْنئها . وأُكرر : وعلى ذلك فلا يكون مُحترفا الصحافة ، وإنما هو محتَرِف حرفة أخرى دنيئة»!

وبناء على ذلك (وهذا أمر يثير الدهشة والريبة معا). يُصْدر القاضى أبو خطوة حُكما بعدم صحة العقد. فتضج قاعة المحكمة بالتصفيق، ويتصايح الغوغاء خارجها بالتهليل مختلطا باستنكار قليل . وتُرفع الجلسة .

انتهت القضية . وأُسدل الستار على مشاهد واقعية تصور جوانب من الحياة المصرية فى تلك الفترة الزمنية . وما حدث بعد ذلك، أن أهل الخير والصلاح سَعْوا للوفاق وإزالة الخصومة والشقاق، فتم الصلح وإرضاء السيد «عبد الخالق السادات»، ووافق على زواج ابنته بعقد جديد فى بيته، ثم انتقلت معزَّزة مكَرمة إلى بيت الشيخ على يوسف، الذى تحقق له ما كان يتمناه، وتوقَّع أن يَجْنى منه سعادة دنياه، وراحة قلب ظافر بمن يهواه . ولكن .. يا أسفاه ! ظن وخاب ظنه ، وقدَّر وخالفه قَدَره. وسبحان القائل : ﴿**وعَسَى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم**﴾ سورة البقرة / آية ٢١٦ .

فقد سارت الأمور فى بدايتها ببيت الزوجية ميسورة سلسة نَضِرة ، ثم تحولت مع الأيام إلى جحيم عتاب وعذاب وعقاب. إذ تململت الست «صفية» وتعالت ثم تمادَتْ فتطاولت على زوجها الشيخ باللوم والتحقير والتصغير ، اعتزازا بأصالتها وثقافتها وجمالها وحَسَبها ونَسبها ، ثم بالتبكيت والتشكيك والتقريع لما أصابها بسببه من أذى وأقاويل الناس ومفترياتهم، ثم بثراء وبهاء أهلها وعشيرتها ، وخاصة بعد أن أضاع الشيخ قَدْرا كبيرا من أمواله فى المضاربات المالية والعقارية . فركبه الهَم، وعَلاه الغَم ، يكاد يُمْسى ويُصْبح شاردا مكتئبا بدار «المؤيد» حيث يقضى فيها نحو عشرين ساعة متواصلة كل يوم، حتى داهمه مرض القلب وأوشك أن يُجْهز عليه، لولا بقية عُمْر مقدور، ونصيب من الحياة مسطور ، حتى اضطر إلى تَرْك «المؤيد» والصحافة بعد أكثر من خمس وعشرين سنة من العمل الناجح فى هذا الميدان ، كان فيه رائدا من الرواد الكبار ، صحيح الفكر ، سديد الرأى، ثاقب النظر ، عظيم الأثر ، له كلمة مقروءة مسموعة ، يُحسب لها حساب، بل ألف حساب ، عند الخصوم والأصحاب. وإذا بذلك كله ينطوى ذكرى فى ذاكرة التاريخ .

وكما لم يَسْلم الشيخ «على يوسف» من كيد الخصوم ، لم يَنْجُ من غَمْز ولْمز بعض المقَربين والأصحاب. ومن هؤلاء الشاعر «حافظ إبراهيم» الذى نظم قصيدة نُشرت فى سبتمبر سنة ١٩٠٤ بعد صدور حُكم المحكمة ، قال فيها :

حَطَمْتُ اليراعَ فلا تَعْجَبى   وعِفْتُ البيان فلا تَعْتِبى (١١)

فما أنتِ يا مصرُ دار الأديبِ   ولا أنت بالبلد الطيِّبِ (١٢)

---

(١١) اليراع : القلم .

(١٢) كان لشاعر النيل والوطنية « حافظ » سقطات وهفوات قبل اندلاع الثورة الشعبية سنة ١٩١٩ التى كان بطلها الشعب المصرى العظيم الذى كان القائد والقدوة ، والذى « صاح بداية صيحته ، وحدد لنفسه بُغيته ، ثم صنع بعد ذلك زعماءه ، فصانَعَه من كان غافلا فاستفاق ، ومن كان آبقا فاسرع باللحاق .. » وهذا بعض ما ذكرناه عن حافظ إبراهيم فى الجزء الرابع من هذه السلسلة بعنوان : «رجال صاغوا القرن العشرين » .

أمــــور تـَمُـــرُّ وعَيْـــش يُمِـــرُّ ونحــن مــن اللهــو فى مَلْعــب
وصُحْف تَطِــنُّ طنــين الذبــاب وأخــرى تُشَــنُّ علــى الأَقْـرب
وهـــذا يَلُــوذ بقصر الأميــر ويَدْعــو إلى ظِلــه الأَرْحَــب
وهـــذا يَلـوذ بقـصر السفـير ويُطْنِــب فى وِرْدِه الأعْــذَب (١٣)
وهـــذا يَصيـح مـع الصائحين عــلى غــير قَصْــدٍ ولا مَــأْرَبِ
.. وقالــوا «المؤَيَّــدُ» فى غَمْــرَةٍ رمــاهُ بهـا الطمعُ الأَشْعَبى
دعــاهُ الغــرامُ بِســنِّ الكهـولِ فَجُــنَّ جنونـــا ببنــتِ النبِــى
فضَجَّ لهـــا العـرشُ والحامِلُـوهُ وضَـج لهــا القــبرُ فى يَثْـرب
ونــادَى رجـال بإسقاطــهِ وقالــوا : تَلَوَّنَ فى المَشْــرَب(١٤)
وعَــدُّوا عليــه من السيئــاتِ أُلوفـاً تــدورُ مــع الأَحْقُــب
وقالــوا لَصِيقٌ ببيــتِ الرســولِ أغار عــلى النَّسَــبِ الأَنْجَــب (١٥)
وزَكَّى «أبــو خُطْــوَةٍ» قولَـهــم بحُكْم أحــدَّ مــن المَضْــرِب...(١٦)


الشاعر : حافظ إبراهيم

وهو نفسه «حـافظ إبراهيم» الذى نظم قصيدة فى رثاء الشيخ «على يوسف» ألقاها فى حفل تأبينه سنة ١٩١٣ وقال فيها :

صُونوا يَـرَاعَ «علىٍّ» فى متـاحفكـمْ وشــاوروه لَـدى الأَرْزاء والنُّوب(١٧)
واستَلْهِموهُ إذا مـا الرأىُ أخطـأكُمْ يومَ النضالِ عن الأوطان والنَّشَبِ(١٨)
لقد كان سَلْوَةَ «مِصْرٍ» فى مكارِهها وكـان جَمرة «مصرٍ» سـاعـة الغضب

---

(١٣) السفير : المعتمد البريطانى (كرومر) .
(١٤) تلون فى المشرب : غيَّر طريقه وسلوكه .
(١٥) يشير البيت إلى ادعـاء الشيخ على يوسف أنه من نسل آل البيت النبـوى ، وهو يراه ادعـاء غير صحيح واهٍ كاذب (من كلمتى : لصيق ، وأغار) .
(١٦) أبو خطوة : القاضى الشرعى – المضرب : السيف .
(١٧) الأرزاء : النكبات – النوب (بفتح الواو) : جمع نائبة أى مصيبة .
(١٨) النشب (بفتح الشين) : المال والثروة .

.. كم ردَّ عنا وعَيْنُ الغــرب طامِحةٌ	من الرزايا وكـــم جَلَّى مـــن الكُـرَب
أقـــام فينـــا عصـاميـا فعلَّمنـــا	معنَى الثبــات ومعنــى الجِد والدأب
.. لوْلا «المؤيَّـدُ» ظل المسلمـــــون	علـى تناكُـرٍ بينهم فى ظُلْمـــة الحُجُب
تعارفوا فيـــه أرواحا وضَمَّهُــمُ	رغم التنائـى زمـــام غيرُ مُنْقَضِب(١٩)
فى مصر، فى تونس، فى الهنـد، فى عـدنٍ	فى الرُّوس، فى الفُرْس، فى البحرين، فى حَلب
هــذا يَحِنُّ إلى هـــذا وقـــد عُقِدت	مَــوَدَّةٌ بينهم موصـولـــةُ النَّسَـــب
«أبا بُثينةَ» نَــمْ ، يكفيك مـــا تركَتْ	فينا يـداك، ومـــا عـانيتَ مـــن تَعب
جاهدتَ فى الله والأوطـان مُحْتَسِبا	فـارْجِعْ إلى الله مأجـورا ، وفُـزْ ، وطِبِ
واحْمِل بيُمْناك يوم النَّشْر ما نَشَرَتْ	تلك الصحيفة فى دُنيــاك وانْتَسِـــب

تعقيب

ويبقىَ شىء لابد من الإشارة إليه تعقيبا على تلك القضية هو بإيجاز : أن الجدال كثـر فى تلك الفترة الزمنية عن الكفـاءة والتكافـؤ حتى سَمَّى بعضهم عـام هذه القضيـة بعـام «الكُفْء» ، وسط لغط كثير وشطط غير صـائب أو ناصف .. والإسـلام – على قدر مـا نعلم – حَـرر الناس من قيود وضغـوط وأوهام العصبيات الزائفـة الزائلة ، بكل أشكالها وأرزائها وسخائمهـا ، وما تنطوى عليـه من طبقيـة أو طائفيـة أو طَرفيـة أو طريقيـة، أو حتى فئوية . فتحْتَ مظلة الإسـلام السليم العظيم يستقيم المجتمع كله فى وحدة واحـدة ، كل فـرد فيه ـ من رجـال ونسـاء – يتَّسم بصفـات خَيِّرة وأخلاقيـات ، وله حقـوق وعليـه واجبـات ، ويلتـزم بقيم أسـاسيـــة وضـوابط فى السلوك والمعـاملات . فـالكل إذن بلا تميز أو استثناء ، عـزيز النفس، مَقْدُور القـدْر، مُصان الكرامة ، مالم يَصْدر عنه أو منه ما يَزْرى أو يجرِّم ويشين . وهذا هو المبدأ الأساسى العام.

أما الاحترام والتـوقير والتكريم – كما يليق بالآباء والعلماء (فى كل فروع

(١٩) التنائى : التباعد – منقضب : منقطع .

العلم النافع) والصـالحين من الرؤسـاء والكبراء (سنا) والنُّبهـاء (فكرا) والورعين الأتقيـاء – فهذا شيء آخـر . وكل قادر على أداء عمل صـالح نافع لأهله ومجتمعـه وبلده وأمته ، فهـو جدير بـالتقدير والتكريم ولو بالكلمـة الطيبة ، والإشـادة بحسن خلقه وعمله، سواء كـان أميرا ووزيرا ، أم كان ذا حرفة وعاملا أجيرا . ولْنفكر معا ونحن نطالع ونتدبر هذه الحقائق والدعائم والأمثلة ، وضْعـا فى الاعتبـار وتصحيحـا للأفكار ، أن الإسـلام الصحيح القـويم لا يُضْفى على المؤمن– أو المؤمنة – صفة من مُبتكرات الناس اسمهـا «العبقـرية»، ولا لقَبـا ينتحله الناس باسم «البطولة» أو «النجـوميـة» . فتلك أسماء ومسميات ليس لها فى دين الله من سلطان ، ولم يكن لها مطلقا فى عصر النبوة ذكْر أو حُسبان ؛ فَلْننظر ونتدبر معا ، والله المستعان :

﴿ ولقـد كـرَّمنا بنـى آدم وحملناهم فى البر والبحـر ورزقناهم من الطيبـات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيـلاً ﴾ [سـورة الإسراء / ٧٠].

﴿ يا أيها الناس إنـا خلقناكم من ذكـر وأنثى وجعلنـاكم شعـوبا وقبـائل لتعـارفـوا إن أكـرمكم عند الله أتقـاكم إن الله عليم خبير ﴾ [الحجرات / ١٣].

﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أوليـاء بعض يأمـرون بالمعـروف وينهـون عن المنكر ويقيمـون الصلاة ويؤتون الـزكاة ويطيعـون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم ﴾ [التوبة / ٧١].

﴿ واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ﴾ [الشعراء / ٢١٥] .

﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه..(إلى نهاية الآية) فتكون من الظالمين ﴾ [الأنعام / ٥٢].

﴿ عبس وتولى . أن جاءه الأعمى . ومـا يدريك لعله يزكى . أو تنفعه الذكرى ﴾ [عبس ١ ـ ٤] .

﴿ وقضى ربك ألا تعبـدوا إلا إياه وبالوالدين إحسـانـا إمـا يبلغن

عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أفٍ ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما ﴾ [الإسراء / ٢٣].

﴿ ذلكم بما كنتم تفرحون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون . ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين ﴾ [غافر / ٧٥ ـ ٧٦].

﴿ لا جَـرَم أن الله يعلم ما يُسرون وما يعلنون إنه لا يحب المستكبرين﴾ [النحل / ٢٣].

﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير ﴾ [آل عمران / ٢٦].

ومن الأحاديث النبوية الصحيحة قوله ﷺ :

- «المسلم أخو المسلم ، لا يَظْلمه ، ولا يَخْذُله ، ولا يَحْقِرُه » ـ رواه مسلم .

- «إن الله عز وجلَّ أذهب عنكم عُبِّيَّة الجاهلية وفخرها بالآباء . الناس لآدم، وآدم من تراب» ـ رواه أبو داود والترمذى والبيهقى (٢٠).

- « إن الله أوحَى إلىَّ أن تواضعوا، حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يَبْغى أحد على أحد» ـ رواه مسلم ، وأبو داود، وابن ماجه .

- «المسلمون إخوة ، لافضل لأحد على أحد إلا بالتقوى» ـ رواه الطبرانى.

- «إذا أتاكم مَن تَرضَوْن دينه وخُلقه فزوِّجوه ، إلا تَفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير» . قالوا : يا رسول الله وإنْ كان فيه ؟ (أى من قِلة مال أو متاع أو حَسَب)، قال : «إذا جاءكم مَن ترضون دينه وخلقه ...» وكرر ذلك ثلاث مرات ـ رواه الترمذى.

---

(٢٠) عبية (بضم العين وكسر الباء المشددة وفتح الياء المشددة) : كبرياء وفخر . وقال الإمامين مالك والشافعى : الكفاءة تخص بالدين .

أمـا الموقف الذى رواه النَّسائى وأحمد عن عبـد الله بُرَيْدة عن أبيـه الذى قال: جاءت فتاة إلى رسول الله ﷺ فقالت : إن أبى زوَّجنى ابن أخيه ليرفع بى خسيسته ، فجعل النبى الأمر إليها ، فقد أشار إليه الإمام البخارى وقال : إنه غير محفوظ، وعَدَّه أبو داود فى المراسيل، وضَعَّف ابن القطان رواته (٢١) .

أما الثـابت الصحيح، فهو مـا رواه البخارى، والنَّسـائى، وأبو داود ، أن حُـذيفة بن عُتبـة بن ربيعة ، وهـو من الأخيار ممن شهـد بدرا مع النبى ﷺ تبنَّى «سالما» وزوَّجه ابنة أخيه الوليد بن عُتْبة . وزوَّج عبد الرحمن بن عوف – وكان من أعلام الصحابة مالا ومكانة وحَسَبا ونسبا وأحد الذين رشحهم عمـر بن الخطاب لخلافته – زوَّج أختـه لبلال بن رباح وكـان عبدا حبشيـا أعتقه الصدِّيق أبو بكر . (روى البخـارى عن عمر بن الخطاب قوله : أبو بكر سيـدنا وأعتق سيـدنا ، يعنى بِلالاً). وزوَّج النبى ﷺ خـادمـه «ربيعـة الأسلمى» امرأة من الأنصـار . وتزوج «سلمان الفارسى» – وكـان كما قال هو عن نفسه فيما رواه البخارى : تداوله بالبيع والشراء بضعة عشر رجلا – تزوج امرأة من قبيلة كِنْدة ، فأكرمه أهلها وأعانوه . ورفض الصحابى «أبو الدرداء» أن يزوج ابنتـه «الدرداء» إلى الخليفـة يـزيد بن معـاوية مخافـة أن يَصْرفها عن صلاحها وورعها وزوَّجها إلى رجل صالح من بسطاء المسلمين. وأرسل الخليفة عبـد الملك بن مروان إلى إمام التابعين وفقيـه الفقهاء «سعيد بن المسيِّب» يخطب ابنته – وكانت مـن أحسن النساء وأكثرهن أدبا وعلما – فرفض أن يزوجـه بها ، وزوَّجها إلى تلميـذه الفقير «كثير بن أبى وداعة» على صَداق مقداره درهمان ، ثم أعطاه – سعيـد – خمسة آلاف درهم لينفق منها على بيته ، فغضب عبد الملك واحتال عليه حتى ضربه بالسياط .

وبالنظر فى كتـاب الإسلام المجيـد نرى أن الآية السـابعة والثـلاثين من

---

(٢١) الحديث المُرْسَل : يصنفـه أهـل الحديث من الأحـاديث الضعيفـة ، وهو الحديـث الذى يرفعـه التـابعى – غير الصحـابى – إلى الرسول ﷺ . واختلف العلماء فى حكمـه : هل يجوز الأخـذ أو الاحتجـاج به أم لايجوز . وكثير من الأصوليين لايحتجون به . وكذلك حديث ابن عمر الذى رواه الحاكم أن النبى ﷺ قـال : « العـرب أكْفـاء بعضهم لبعـض قبيلة لقبيلة ، وحى لحى ، ورجل لرجل إلا حـائك أو حجَّـام » – وزاد بعضهم : « أو دبَّاغ » ، قـال الدارقطنى هذا حـديث لايصح ، وقال عنه ابن ماجه : موضوع أى كذب لا أصل له ، وقال أبو حاتم : حديث منكَر .

سورة الأحزاب تقضى بالنهى عن التبنِّى ، فى إشارة إلى الصحابى الوحيد الذى ذُكر اسمه فى القرآن الكريم وهو «زيد بن حارثة».

وخلاصة قصته : أن «زيدا» أعتقه رسول الله ﷺ ، وكان من أحب الناس إليه ، وزوَّجه النَّبى بزينب ابنة جحش - بنت عمة النبى - ودفع صلوات الله عليه صداقها . فقبلت زينب ، إرضاء وطاعة للرسول ﷺ ، لكنها ما لبثت أن تعالت على «زيد» ، وأكثرتْ من التفاخر بأهلها ونَسبها القرشى ، وأساءت معاملته ، وهو يشكو إلى النبى، فينصحه بالتُّؤدة والصبر قائلا : «أَمْسِك عليك زوجك واتق الله»، إلى أن جاء الأمر من السماء بطلاقها . فلعل فى هذا بيان وتبصرة وذكرى للمؤمنين .

حُكم خاطئ بالإعدام

هذه جريمـة قتل قد تبدو عادية ، وربما يحدث مثلهـا فى أى بلد من العالم كل يوم ، أو كل أسبوع أو شهر . لكنها هناك – فى الولايات المتحدة الأمريكية – ظلت تشغل الرأى العـام والأدباء والمثقفين ورجـال القـانون (قضـاة ومحامين) لأكثر من ستين سنة ، وصـدر من أجْلها أكثـر من عشرين كتابا ، ولا تزال تُذْكر ، فتدور من حولها أسئلة وتثور مشاعر ومجادلات .

وهى جريمة عادية – أو معتادة مألوفة – لأنها تتلخص فى الآتى : رجلان تربَّصا لصراف مصنع أحـذية يحمل أجور العمال الأسبـوعية ، وكـان معه حـارسـه ، فقتلاهما واستـوليـا على المبلغ وقَـدْره ١٥٧٧٦ دولارا ، ثم لاذا بالفـرار ، وبعد ذلك أُلقى القبـض عليهما . تلك هى «الجريمة» كما صـوَّرها الادعـاء، وعليه جَـرَت المحاكمـة ، وصَـدر الحكم بإعدامهما فـوق الكرسى الكهـربائى، وتم التنفيـذ . وبدأت بعده «قضيـة» جـدليـة أخرى ، مـرتبطة بالحكم ، ولم تصل أبدا إلى نهاية.

فى الخامس عشر من أبريـل ١٩٢٠ أطلق لصـان الرصـاص على صراف مصنع للأحذية بمـدينة بولاية «ماسـا شوستْس » الأمريكيـة فسقط قتيلا ومعـه حـارسه، واستـوليـا على أجـور العمال الأسبوعيـة ثم لاذا بالفـرار واستقلا سيارة كانت تنتظرهما عند باب المصنع .

شكوك وشبهات

اتجهت تحريات الشرطة نحو رجل يدعى «مايك بودا» كان يجرى البحث

عنه للشك فى أنه ارتكب جريمة مماثلة فى مدينة أخرى بالولاية . وعندما أُلقى القبض عليه وهـو يسرق سيارة من «جراج» بالمدينة التـى بها المصنع ، كان معه رجلان مسلحان . فـرجَّحت الشرطة أنهما قاتلا الصراف وحارسه . ولما كان هذان الرجُلان لا يجيدان الحديث بالإنجليزية ، فقد جاءت إجاباتهما على أسئلة التحقيق غير واضحة ، فظن المحققـون أنهما يراوغان فى خبث ودهاء ، لأنهما هما القاتلان بالفعل. كان أحدهما يدعَى: «نيقـولا ساتشو» ، والآخر : «بارتولوميو فـانْزيتّى» . وكان الاثنان من معضِّدى التيار «الفـوضوى» أو الناقم على الحكومـــة والسلْطة . وفى ذلك الوقت ، ســاد العــداء ضد هؤلاء الفوضويين أو «الحُمر» كما كـانت تطلق عليهم الشرطة والجهات الرسمية ، كما كان العداء ســائدا ضد الأجانب . وأصدر رئيس الشرطة بيـانا قال فيه : «فى تقـديرى، أعتقد أن الذين ارتكبـوا هذه الجريمة البشعــة لا يؤمنون بإله، ولا يُبـالون بحيـاة الناس . وإن الفـوضـويين قـد بَلَغـوا أبعـد مَـدى . وإن «ساتشـو» و«فانزيتـى» من الفوضويين» . كـان واضحا أنه أراد مســايرة الرأى السائد فى المجتمع وإرضاء مشاعر الجمهور والناخبين .

وعلى الرغم من أن هذين الـرجلين كانا حقـا من جماعـات الفـوضـويين النشطين، إلا أنهما لم يكونا مخربيْن أو عــاطليْن عـن العمل المُكْسِب . كـــان أحـدهما – ســاتشـو – متـزوجـا وله أسرة ، ويعمـل فى مصنع للأحـذية ، ويَـحْظَى بثقة جعلته يُـخْتار للمراقبة الليليـة بالمصنع. أما الآخر – فانْزيتّى – فقد مارس أعمالا مهنية مختلفـة ، وكان وقت وقوع الحادثة يشتغل بائعا متجولا للأسماك.

ورأى المدعى العـام مثلما رأت الشرطة أن الأدلة والقـرائن كـافية تمامـا لإدانة كل من هـذين الرجُلين : فهما أجنبيـان ، ومن نشطاء الفـــوضـــويين، وكـلاهما هرب من المكسيك إلى الولايات المتحـدة فى أعـوام الحرب العــالميـة الأولى فـرارا من التجنيـد، وقـد ضُبطت معهما أسلحــة عند القبض عليهما . فهذا كله كافٍ وافٍ لتوجيه الاتهام القاطع والمحاكمة وطلب الإعدام لهما من المحكمة جـزاء وفاقـا . وبناء على ذلك، لا حاجـة إلى البحث – أو حتى مجرد

التفكير – والتحــرى عن جُناة غيرهما يُشْتَبــه فى ارتكابهم لتلك الجريمــة النكْراء.

وسرعــان ما اتُّخِذَت إجـراءات التحقيق القـائم على الإدانة لا على الشك والاحتمال، أو حتى على التـدقيق فى الترجيح . من ذلـك مثـلا : أن شهـــود الإثبـات الذى قَدَّمهم الادعـاء والشرطة إلى المحكمة أقـروا بمعرفـة المتهميْن معرفة شخصية وبأن لهما ماضٍ إجرامى، فى حين لم يُقَدَّم للمحكمة الشهود الذين لم يتعـرفـوا عليهما عند العَـرْض ، ولا أولئك الذين أخبروا الدفـاع أن الشرطة عَـرَضَتْ عليهما المتهميْن وحـدهما فقط – بدون أشخـاص آخـرين معهما كما هو مُتَّبع – وكل منهما معـه سلاح ومـرتكز على الأرض فى وضْع التصويب للقتل. واستعان فانزيتى بستة عشر شاهدا أقروا جميعا بأنه كان وقت وقـوع حـادث قتل الصراف وحـارسه ، كـان يتجـول أمـام أعينهم فى شـوارع مـدينة بوسطون يبيـع سمك ثعبـان الماء ، واشترى بعضهم منه . ولكن لسـوء حظ هذا الإيطالى المتهم ، كـان هؤلاء الشهـود جميعـا (الستـة عشر) إيطاليين، فلم تؤخـذ شهادتهم لصـالحه، إضافة إلى أنـه كان متهما فى قضية سرقة سابقة ، ولكن المحكمة بَرَّأته لعدم كفاية الأدلة ضده.

بدأت محاكمــة المتهميْن فى ٢١ مـايـو ١٩٢١ . وقبيل المحـاكمــة صرح قاضيهـا «وبِسْتَر ثاير» لصـديق حميم له بقوله : «لســوف يَرَى منِّى هذين الوغْـدين، وسأدفع بهما إلى المشنقة». وبعـد المحاكمـة قال لأستاذ القـانون «ريتشاردْصَن مفـاخرا : « أرأيتَ مـا فعلْتُ بهؤلاء الأوغاد الفـوضويين؟» . وخـارج قاعـة المحكمة ، كـان شعـور الجماهير المحتشدة عـدائيا ، وكـذلك الصحافة المحلية الساخطة على المتهميْن ، والمثيرة للرأى العام ضدهما.

ارتكز دفاع «فـانزيتى» على محاولة إثبات أنه كـان وقت ارتكاب الحادث كان فى مكان آخـر بعيد وهو يبيع السمك. أمـا دفاع «سـاتشو» فكان أفضل وأقوى : إذ أثبت أنه فى ذلك اليوم – يوم وقوع الجريمـة – وفى ساعتها ، كان فى مقـابلة مع القنصل الإيطالى فى بوسطون يطلب منه الموافقة على سفَـره إلى إيطاليـا لزيارة أمـه المريضـة . وأكـد كاتب بـالقنصلية الإيطاليـة مـا قـاله

«ساتشو» مضيفا أنه (الكاتب) طلب منه إحضار صورة فوتوغرافية شخصية أصغر من تلك التى أرفقها بطلب الموافقة على السفر . لكن ممثل الادعاء «فردريك كاتْزِنباخ» انبرى لتفنيد اعتراف كاتب القنصلية، زاعما أن ما ذَكَره المتهم وكاتب القنصلية ربما كان صحيحا ، لكنه حدث فى يوم آخر سابق على يوم ارتكاب الجريمة ، وأن المتهم يضلِّل ويراوغ، والكاتب خانتْه الذاكرة.

وعند الإدلاء بشهادته ، قال الخبير الجنائى (الشرعى) : «من الثابت فى تقديرى ، أن الرصاصة القاتلة للصراف كانت من المسدس الذى ضُبط فى حَوْزة ساتشو» . وفى تقريره – هو – المكتوب ، ذكر أن هذه الرصاصة القاتلة قد تكون من مسدس ساتشو، وربما تكون من مسدس شخص آخر ! وتتابعت الأدلة والعناصر المؤكدة للاتهام التى قَدَّمها الادعاء (والتى ثبت بعد ذلك بسنوات أنها جميعا «مُفَبركة» زائفة مصطَنعة). وأمضتْ هيئة المحلَّفين ثمانى ساعات فى المداولة ، ثم قدمت إلى القاضى قرارها بإدانة المتهميْن . وبعد سبع سنوات من وقوع الجريمة أصدر القاضى «ثاير» فى ٢٩ أبريل ١٩٢٧ الحكم بإعدام الرجلين حتى الموت فوق الكرسى الكهربائى.

عواقب المحاكمة

لم تُجْد محاولات بعض المتعاطفين مع الدفاع عن المتهميْن – فى أثناء المحاكمة – والمستائين من أسلوب التحقيق والتقاضى البادى التحيز وعدم التدقيق أو الإنصاف ، فباءَتْ محاولاتهم بالفشل فى تصحيح سير العدالة . ولكن عندما اقترب موعد تنفيذ حُكم الإعدام ، بدأت الجماهير والمنظمات وأقلام الأدباء والكتاب تنتبه، وتنادى، ويعلو صوتها فى كل وادٍ ونادٍ ومكان. ولئن كان تَحَرُّكها جاء متأخرا لم يُنقذ روحيْن من إعدام تَشوبه الشكوك والريبة والظنون ، إلا أنها ظلت لسنوات طويلة وعقود من الزمان تتناول القضية من شتى الجوانب (القانونية والتنظيمية والأدبية والاجتماعية والنفسية) بالنقد والرأى والتحليل والتصويب . وتكونَتْ لجان بدعم من

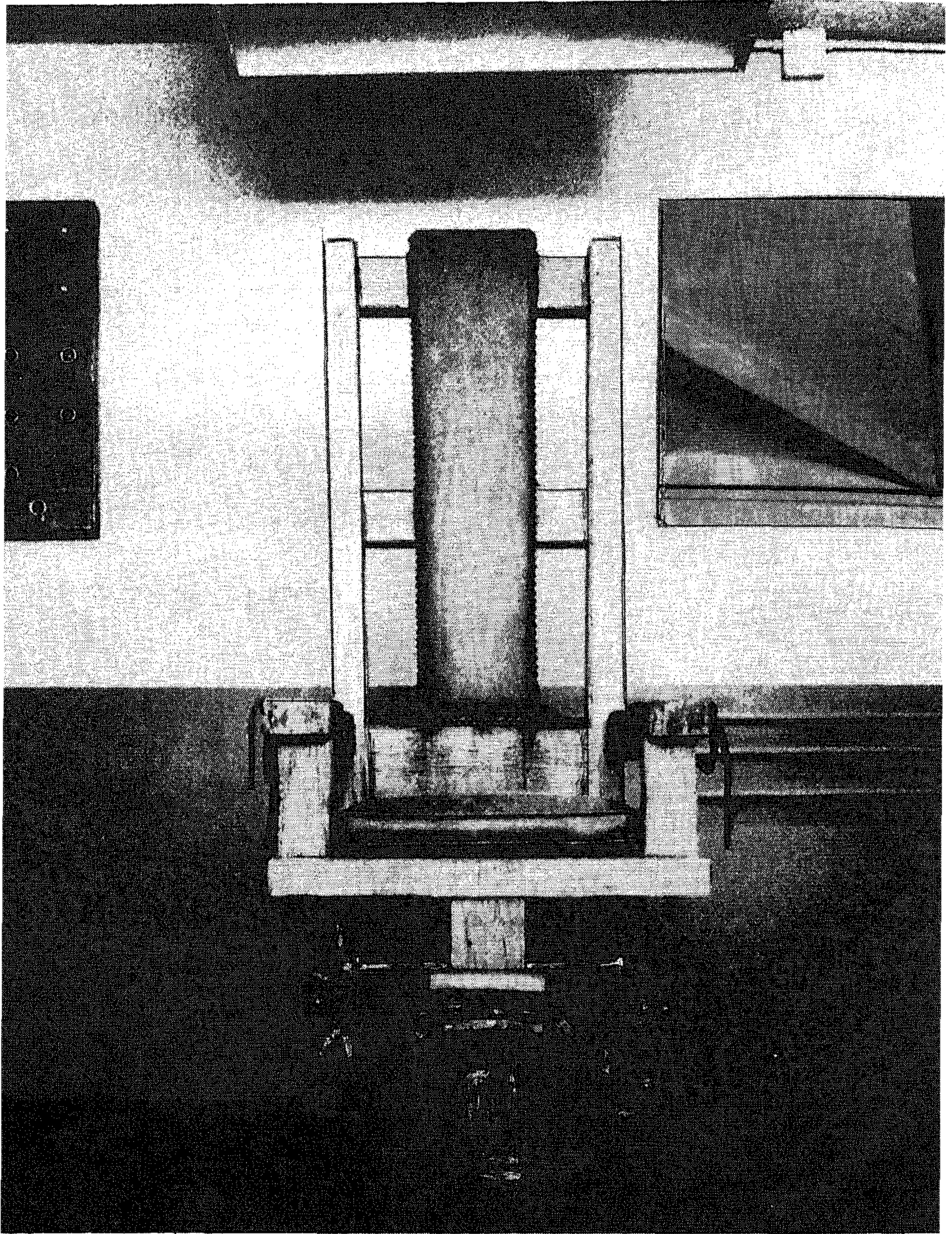
جماعات الفوضويين والأحرار الجُدد، جمعت الأموال والتأييد لتبرئة اسْمَىْ المتهميْن المقتولين خطأ وظلما بالكرسى الكهربائى.

وحاولت بعض الدول الأجنبية – مثل روسيا وإيطاليا – التدخل فى الأمر لصالح المتهميْن ، وكذلك فعل «ألبرت أينشتين» ، والكاتب الشهير «توماس مان» ، والأديب «جون دوس باسوس» ، والشاعرة «إدنا سان فانسان» ، والروائية «كاترين بورتر» وعازف الكمان المرموق «فريتز كريزلر»، وغيرهم من الأعلام والمشاهير كثيرون . وانتقد بشدة – فى مقابل بجريدة «أطلانطيك» الشهرية – البروفسور «فليكس فرانكفورتر» (الذى سيصبح قاضيا بالمحكمة العليا الأمريكية)، انتقد بشدة القاضى «ثاير» والمحاكمة . وواجه هذا القاضى نقدا قاسيا وملامة مؤلمة . لكنه كان صلدا عنيدا ، ولم يُصْغ طوال المحاكمة إلى نقد أو تعليق ، إذ لم يكن يسمح لأى شخص بأن يحدِّثه عن أسلوب معالجة القضية فى ساحة القضاء . وثار جدل شديد خارج تلك الساحة ، ومن ذلك مثلا أنه حين كتبتْ «كاترين بورتر» ترجو أن يُبقى القضاء على حياة هذين الرجليْن المتهمين، بالشك من غير برهان قاطع، ردتْ عليها اليسارية «روزا بارون» متسائلة فى سخرية : «الإبقاء على حياتهما ! لماذا ؟ إنه لا خير لنا مطلقا من بقائهما أحياء»!

إلى الكرسى الكهربائى

بعد دقائق قليلة من منتصف ليلة ٢٢ – ٢٣ أغسطس ١٩٢٧ ، سار كل من «ساتشو» و«فانْزيتى» نحو كرسى الإعدام الكهربائى . وبعد إحكام ربْط «ساتشو» إلى هذا الكرسى المروِّع ، صاح صارخا بالإيطالية : «فلْتحيا الفوضوية»! أما «فانزيتى» ، فإنه بعد أن قال : «وداعا» للحاضرين، تَمتم بهذه الكلمات المسموعة وسط السكون المطبق والترقب المفزع، قال : «إننى لم أرتكب جريمة فى حياتى ، ربما بعض الآثام . إننى برىء من كل جريمة وليس من هذه فقط ، برىء من كل الجرائم».

وصدر عدد كبير من الكتب عن تلك القضية ، وتناولتها من جميع الجوانب: من حيث الأدلة والقرائن ، أو من تفاصيل سير المحاكمة ، أومن



كرسى الإعـدام الكهربائى : ألغتْه المحكمة العليـا الأمريكية سنة ١٩٧٢ ثم أعـادت السماح به بعد أربع سنوات مع تضـاعف جرائم القتل والاغتصـاب الشرس .كـان أول استخدام له فى الإعـدام سنة ١٨٨٩ فى نيـويورك . صدمـاته الكهربية : ألفى فولت ثم ٢٥٠ ثم ألف على التوالى خلال ٥٥ ثانية .

الجهود المكثفة فى البحث عن معلومات جديدة دقيقة . وبعض تلك الكتب خلص إلى أن هذين الرجلين بريئان تماما إذ لم يرتكبا جريمة القتل التى أُلصقت بهما . وبعضها أدانهما وعضّد الاتهام والحُكم .

وفى سنة ١٩٧٧ (بعد خمسين سنة من تنفيذ حكم الإعدام) سلَّم حاكم ولاية ماساشوستْس : «ميخائيل دوكاكيس» (المرشح لرئاسة الجمهورية ولم ينجح)، إلى حفيد «نيقولا ساتشو» وثيقة إعلان عام تتضمن قائمة بالثغرات والمثالب والمآخذ التى وُجِّهت إلى محاكمة جده ، وأيضا تلك التى وجِّهت إلى قاضى المحاكمة «ثاير» ، بالإضافة إلى معلومات جديدة جُمعت بعد سنوات من المحاكمة وتنفيذ الحكم ، وكلها فى صالح المتهميْن . وقد انتقد المحافظون هذا التصرف من «دوكاكيس» واعتبروه إساءة إلى النظام القضائى بالولاية.

ولا يزال السؤال حتى اليوم مطروحا وربما لن يجد إجابة حاسمة قاطعة، وهو : هل ارتكب ذانِك الرجلان حقا وصدقا جريمة القتل والسرقة أم لا ؟ (١).

---

(١) كتب « نيقولا ساتشو » قبيل إعدامه سنة ١٩٢٧ : « إننى على يقين من أنكم إذا أعدمتمونى مرتين، وقُدِّر لى أن أعود إلى الحياة بعد كل إعدام ، فإننى سوف أفعل من جديد الشىء ذاته الذى فعلْتُه فى حياتى الماضية بلا خوف أو خجل ، لأننى لم أرتكب جريمة » .

وفى خطاب إلى ولده فى ٩ أغسطس ١٩٢٧ ، كتب « بارتولوميو فانزيتى » :

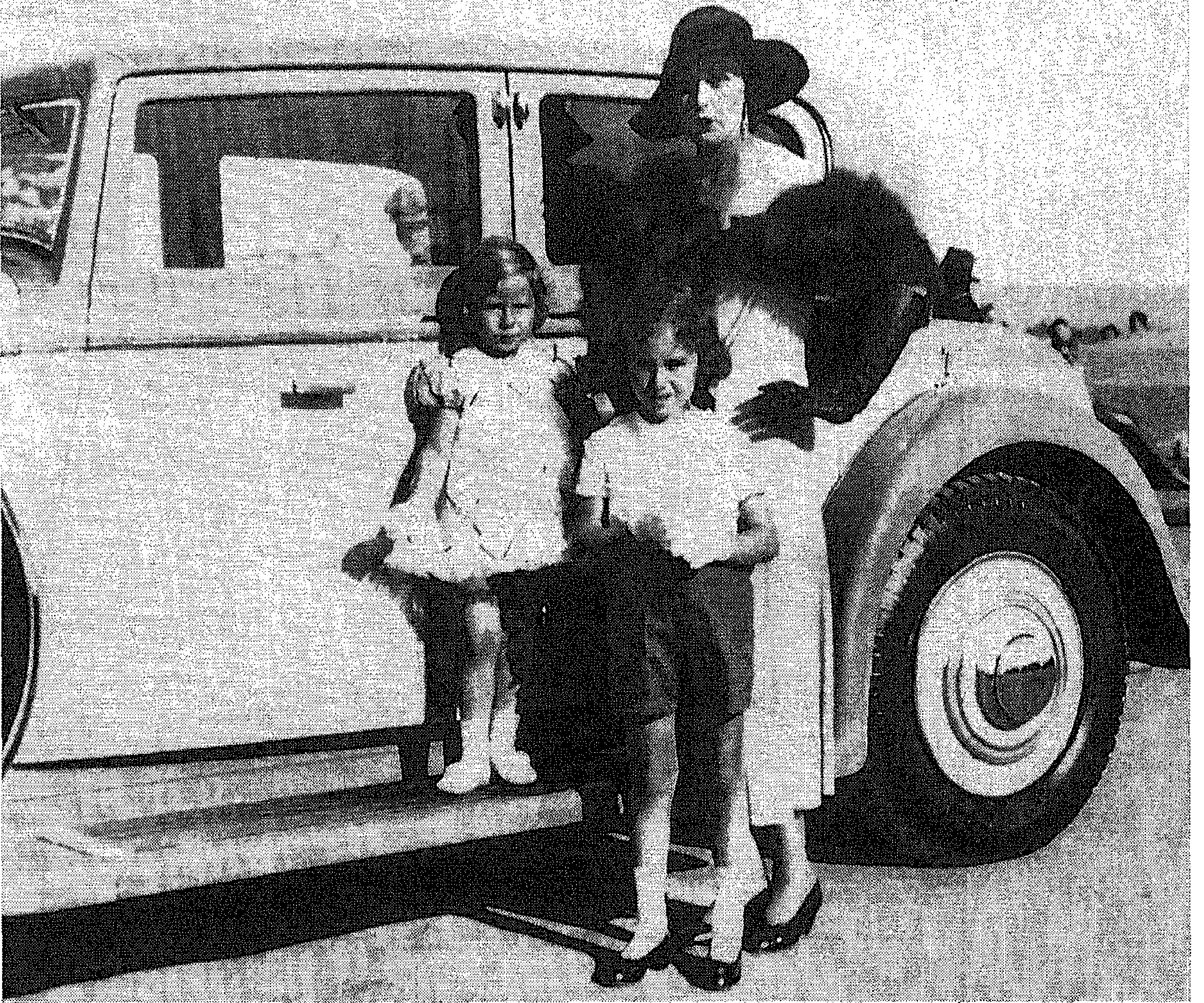
« لو لم يكن ما حَدَث ، لربما أنفقت حياتى كلها فى الثرثرة التافهة فى الطريق مع أشخاص تافهين مُزْدَرين . ولربما مت جاهلا ، مجهولا ، فاشلا ، مرذولا . أما الآن فلسنا فاشليْن (يقصد هو وزميله ساتشو) . لقد صارت لنا فى المجتمع قضية ونُصْرة . لم نكن نأمل فى حياتنا مهما طالت أن نأتى عملا من أجْل العدالة ، والتسامح ، ومعرفة الإنسان بأخيه الإنسان ، مثلما نفعل الآن بمحض الصدفة . إن كلماتنا ، وحياتنا ، وآلامنا ، لا تساوى شيئا . وإن انتزاع حياتيْنا – حياة صانع أحذية طيب وبائع سمك بائس متجول ، تعنى الكثير . إن هذه اللحظة الأخيرة مِلْك لنا ، وإن إزهاق رُوحيْنا بالباطل إنما هو انتصارنا » .

المجرم الذى كاد يُسقط الجمهورية الفرنسية

«مدام ألكسندر» : كم هى جميلة ، أنيقة ، فاتنة ، مبهرة ، فارهة القوام ، قليلة الكلام ، خافضة الصوت، هادئة الطبع ، رشيقة الخطْو ! تبدو لأول وهْلة وكأنها ملكة. فطلْعتها بهية ، وابتسامتها المحسوبة بدقة رضية ندية . شَعرها الناعم المنسدل بُنى اللون،وعيناها ناصعتا البياض قاتمتا السواد تجتذبان إليها كل الأنظار . إن هذه السيدة الحسناء الشقراء كانت دائماً تلفت الانتباه أينما حَلّت أو مَرّت ، منذ أن قَدّمها بيت أزياء «شانل» الباريسى الشهير وهى فى سن العشرين كعارضة ممتازة متميزة . أما الآن ، — فى سياق حديثنا عنها — فهى زوجة رجل أعمال فرنسى ضخم المكانة ، فخم المهابة ، ذائع الشهرة، خاصة فى الأوساط العليا من المجتمع .

وكيف لا ، وهى تقضى أوقاتها متنقلة بين شقتها الفسيحة الفاخرة القريبة من «الشانزإليزيه» أشهر وأغلى شارع فى باريس وفى الدنيا كلها ، وبين منتجعات الرفاهية عند شواطئ الباسك، وبياريتز، والكوت دازور، وفى صحبتها طفلتاها الصغيرتان «ميشلين» و«كلود» . وهى دائما ، دائما ، النجمة الفائزة فى مسابقات الجمال التى تنظمها كبرى مراكز الاصطياف ، والسباحة ، والأناقة ، والرشاقة فى «كان» و«دوفيل» وغيرهما . فيكون حقا أن تلاحقها الهمسات والهَمَزات: أنها تملك كل جميل، وتعيش الجمال فى كل أشكاله وإبداعاته ، ولا شك فى أن زوجها ذو حظ عظيم!

والزوج يعرف ذلك ولا يُنكره . وهو يحبها حُبا جَمًّا ، لا يَخْفَى أو يَخْبو،



عارضة الأزياء السابقة « آرْلت » وقد فازت فى مسابقة للأناقة – فى الزى والسيارة – بمدينة « كان » الفرنسية ، ومعها طفلتاها «ميشلين» و« كلود » .

أو هكذا للناس يبدو . فالسيدة والسيد «ألكسندر» زوجان مثاليان، جمالا ، ومالا ، وعزا، وأُبهة ، فى حضن الطبقة العالية من المجتمع الباريسى. وهُما معا أول المدعوين إلى الحفلات الفاخرة ؛ ويتناولان العشاء يوميا تقريبا فى أفخم المطاعم حيث توجد مائدة محجوزة باسمهما على الدوام – سواء حضَرا أم لم يحضرا – ويستقبلان على مائدتهما وزراء، ونوابا برلمانيين، وكبار مديرين ، وأعلام الكتاب والصحافيين. وهذا أمر طبيعى للغاية ، لا غبار عليه ولا غرابة فيه . فالسيد «ألكسندر» من كبار رجال الأعمال المتخَمين بالثراء والعطاء والشركات والمشروعات . وهو إذا لم «يَصْنع» المال ، فإنه «يستولده» بالآلاف .. بالملايين . وينفقه أيضا بالآلاف .. والملايين . فهو

يحب اللعب – القمار – فى كازينوهات الكبار ، فيكسب ، ويخسر ، ولا يُضيره أو يُحزنه أن يخسر فى ليلة واحدة مليون فرنك! (كان ذلك فى أوائل الثلاثينيات الماضية أى ما يعادل نحو مائة مليون اليوم!!).

فهذه الأسرة المرموقة تملك المال الوفير السهل، وتنفق المال الأوفر بسخاء. وهذا من شِيَم أصحاب الأعالى والمعالى من كبرى الطبقات . ولا حَرج على الزوج أن تَعْتريه أحيانا بعض المَصَاعب أو التقلبات المالية ، فهذا أمر طبيعى معتاد عند كبار رجال الأعمال . لكن المصاعب سرعان ما تنقشع ، والتقلبات تنتظم ، ويعود سَرَيان المال فياضا فضْفاضا ، ولا أحد يسأل كيف ؟ ولا من أين ؟ فالأثرياء المشاهير عادة لا يَسألون، ولا يُسْألون ، ولا يتساءلون . ولِمَ السؤال ، والناس جميعا يحبون المال ، ويجمعونه أو يكدِّسونه على نحو ما ، والحاذق مَن يَسْتبق ! وإذا كان الشك – الأحمق الحاسد الحاقد الناقد (!) – سيحوم حول «حِصْن» ثرى أو رجل أعمال فالح ناجح محظوظ، فإن الشكوك أبدا لن تنتهى، وقائمة أسماء «هؤلاء» لن تقف عند حد . وقد يُفْضى الشك إلى عَكّ ، والعَك إلى لَكّ (١)؛ أو قد يَدْفع الشك إلى نَبْش ، والنبش إلى هَبْش (٢)، وهَلُمَّ جَرا وجَرْجرة !

لا أحد يعرف شيئا – إلا القليل – عن ثروة «ألكسندر» (واسمه المعروف فى كل باريس: سِبرْج ألكسندر ألكسندر)، ولا من أين جاءت أو هبطت . لكنه يملك «بيت ألِكْس» للسمسرة فى تجارة الأحجار الكريمة الثمينة ، وشركة عقارية وأخرى للتسليف العقارى نفَّذتا مشروعات معمارية ضخمة ، ومصرف (بنك) للإقراض والتسويات المالية العالمية فى سرية تامة نالت ثقة أثرياء الطبقة البورجوازية ، إضافة إلى أنه يملك أيضا مسرح «الإمبراطورية» الفخم بشارع «فاجرام» وناد رياضى . كما أنه يملك .. ويملك.. ويملك.. ما يصعب على الحَصْر . إنه باختصار : رجل مال وأعمال ، على أعلى مستوى .

(١) العَك : سخونة الحر الشديد مع سكون الريح ، تقول العرب : هو يوم عَكٌّ أَكٌّ ، وليلة عَكَّة أَكَّة ، ويوم عكيك ، وحَر أو قيظ عكيك . ويقال : عَك الرجل ، إذا تكلم بحديث مُبهم غير واضح – واللَّك: الضرب ، أو هو الضرب على القفا والدفع . يقال : لكَّه ولكَمَه

(٢) أصل الهبش : الجَمْع والكَسْب ، يقال : هو يَـهْبش لعياله ، فهو هَبَّاش . والهَبْش أيضا نوع من الضرب يسبب تلفا للمهبوش أى المضروب .



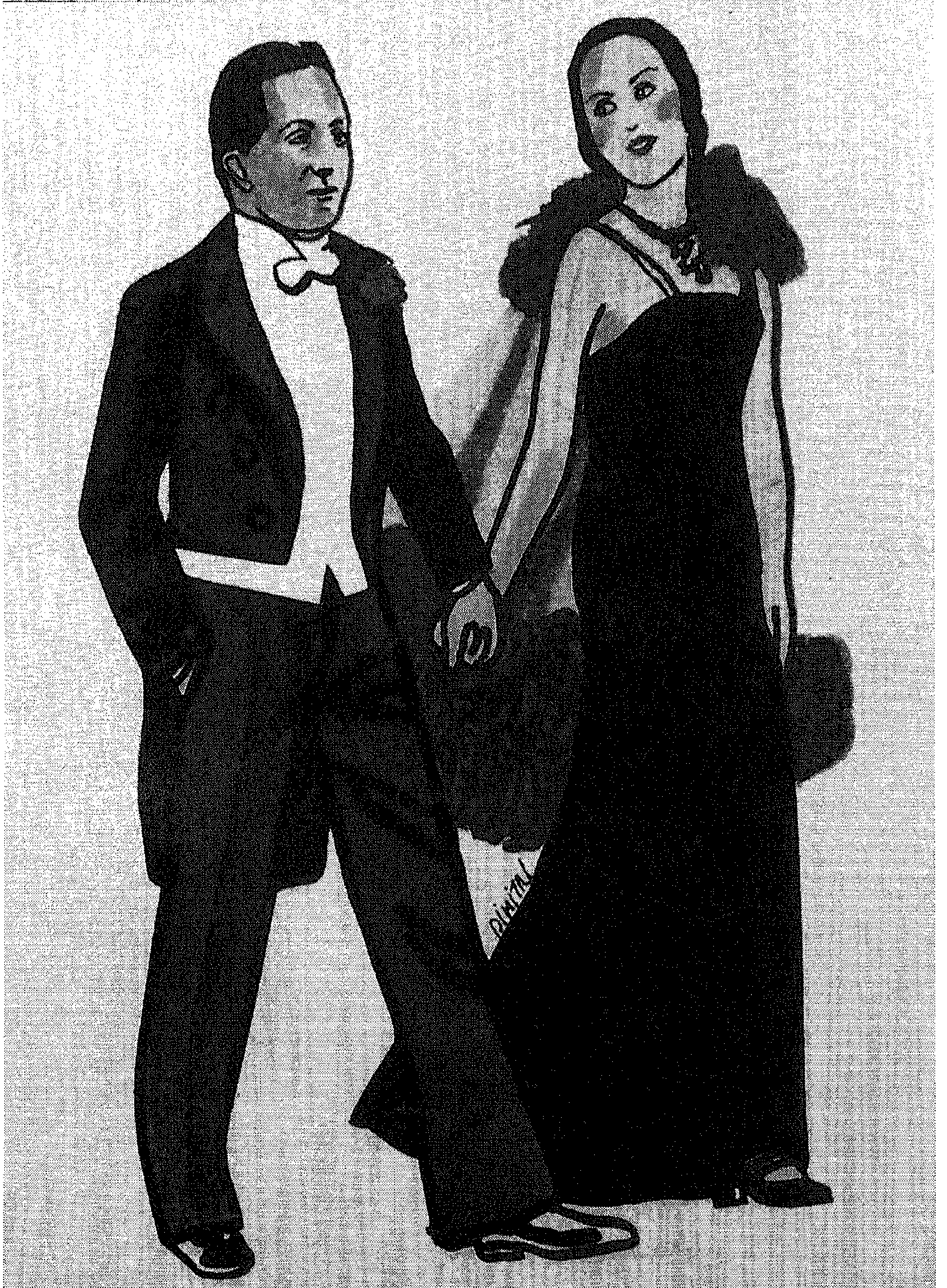
«سيرج ألكسندر – ستافيسكى» .

هذا يكفى. فليَلْزَم الناس الصمت، ولْتَخْرس كل الألسنة اللكاكة المتطاولة ! ومَن تدخَّل فيما لا يَعْنيه، سمع – أو لقِى – ما لا يُرْضيه ! وللصمت ثَمن ، ولإخراس الألسنة حساب .. أو عقاب . وإذا لم يُجْدِ المال كسلاح مُستباح ، فإن السكوت إلى الأبد رَباح ومَراح (٣).

وهذا مثال من طريقة معاملته للآخرين ، وسرعة استجابته للفُرص المتاحة ، وتأثيره المباشر فيما يعود عليه بالنفع، وإن بادر هو بالدفع . فى إحدى سهرات العشاء العامرة بالطعام وبالمدعويين ، تعرَّف الكاتب الفرنسى الكبير «جوزيف كيسيل» على السيد «ألكسندر» فى خريف عام ١٩٣٢ ؛ فكان تأثير ألكسندر عليه كبيرا من أول اللقاء، كما صَرَّح الكاتب بذلك ، ووصَفَه بأنه مزيج من الرشاقة والرقة ، من المرونة والنعومة ، وبأن حركاته وسَكناته تُفصح عن روح شابة خفيفة منطلقة «وتدل ملامحه على أنه لم يبلُغ بعد سن الأربعين ، فى حين أنه كان فى السابعة والأربعين . ذو وجه يفيض حياء وحيوية ، وأسنان متضامة منتظمة حادة لامعة .. صوته خافت لطيف ، وكلامه واضح يحمل نَبْرة آمرة، لكنه يتوخَّى الحذَر فى حديثه، وقد يَقْطعه أحيانا بضحكات سوقية فَجة». بتأثير ألكسندر الوُدِّى السريع، لم يتردد «كيسيل» فى مخاطبته بشأن اعتزامه – مع أخيه «جورج» إصدار جريدة جديدة تحتاج إلى مساهمات . فاستمع إليه ألكسندر فى صمت – وكان يجيد فن الاستماع – ثم طلب منه الحضور إلى مكتبه بإحدى شركاته فى ميدان «سان جورج» وسط العاصمة الفرنسية ، حيث يكون الحديث فى هذا الموضوع أفضل وأعمق . وحدد له موعدا بعد أيام قلائل.

ذهب «كيسيل» إلى حيث تواعدا فى الوقت المحدد. فيصف المكان بأنه

(٣) رباح (بفتح الراء) : الربح – مراح (بفتح الميم) : الراحة الكاملة .



كانت باريس ترى أن « آرلت » و« ألكسندر » زوجان مثاليان : جمالا ، ومالا ، وعزا ، وأبهة ، في حضن الطبقة العليا من المجتمع .

يوحى إلى الزائـر بالمهـابة والاحترام معـا ، على الرغم من أن البناية كلهـا – وهـى إحدى ممتلكات ألكسنـدر – فخمة من الخارج، فهى خاليـة من مظاهر الفخامـة والترف من الداخل، بل هـى مثـال على الصرامة المسرفة فى البســاطة والزهد . ولكن فى كل غرفــة ، مجموعة كبيرة من السكرتيرات العـاكفات على آلاتهن الكاتبة . وخلف الأبواب الموارَبَة ، تبدو موائد الاجتماعات الكلاسيكية الثقيلة التى يجتمع حـولها المديرون. وكان على «كيسيل» أن ينتظر قليـلا فى قـاعة خـاصــة لاشتغال ألكسندر ببعض الأمـور الطارئـة . ولم يتأفف، أو يَضْجر عندما طال الانتظار بعض الشىء . فقد وفَد عليه جنرال قديم أصبح يشغل منصبـا إداريا ، ودبيلوماسى معـروف يحمل وســام جوقــة الشرف الكبير . ولاحظ كيسيل أنه فى كل لحظـة يتم دخـول وخـروج عـدد كبير من الموظفين ، وغيرهم من السكرتاريين الذين يبـدو عليهم الاستغـراق فى مهَـام وأعمال مُضْنيـة ، ويَتْبع هؤلاء وهؤلاء عـدد أكبر من المحـامين المشهـورين وكأنهم مقيمــون بالمبنى ، وأنهم مستعــدون دائما لإيجاد حل لأية مشكلة قـانونيـــة . ومن وراء أصـوات الهمســـات والهمهمات والكلمات المتناثرة ، وضوضــاء الشارع المتسللة عبر النوافذ ، يشعـر المرء بأنه فى مكان أو موقع يَعِج بأعمال على جانب كبير من الأهمية وضخامة القيمة .

اعتذر ألكسندر لكيسيل عن هذا الانتظار ، لأنه كـان على اتصال تليفونى ببودابست(عاصمة المجـر). وعلى الفور ، بدون أية مناقشة ، أخبره بأنه قرر الاشتراك فى الجريدة التى يعتزم إصـدارها مع أخيه، وقَـدَّم إليه شيكا بمبلغ خمسة وعشرين ألف فرنك! ثم أَرْدف قـائلاً : «يؤسفنى أنى لا أستطيع الآن المســاهمة فى مشروعـك – كتبرع – بأكثـر من هـذا المبلغ . ولكن فى المستقبل ســوف تتلقى منِّى أكثر من ذلك . وعندمـا تستكمل رأس المال المقدَّر لتنفيـذ المشروع ، دَعْنى أُقـدم إليك بعض النصــائـح عندمـا تَشْرع فى إعـداد النظام الأسـاسى لشركتك ، فخبرتى فى هذا المجال كبيرة ستنفعك».

قــال كيسيل : «ثم ابتسم ابتسامــة سريعة مُقْتَضَبـة، لمحتُ فيها مسْحــة خبيثة شيطانية» !



الريفييرا الفرنسية فى الثلاثينيات حيث كانت تصطاف أسرة « ألكسندر » مع علْية القوم .

بداية شيطانية

وعلى ذكْـر الشيطان ، فإن أشخـاصـا قليلين جـدا من رجـال بالشرطة يتَّسمـون بالعناد وسـوء الحظ ، هم وحـدهم فى كل باريـس الذين كـان فى استطاعتهم أن يَمُـدوا خيطا رفيعـا مَتينا بين رجل الأعمال والمال الضخم الفخم المتألق فى القمـة بالعاصمة السيـد المبجل «سيرج ألكسندر ألكسندر»، وبين مجرم نصـاب محتال يدعَى : «سـاشا ستـافيسْكى» مَثَل مُـذْنبا أمـام الشرطة للتحقيق معه فى سنة ١٩٠٩. فَلْنَرجع إذن إلى بداية الحكاية .

فى ٢٠ نوفمبر ١٨٨٦، وُلد بمـدينة «سلُوبودْكـا» الروسيـة سـاشـا ستـافيسكى لأسرة يهوديـة هاجـرت بأجمعهـا إلى فـرنسـا سنة ١٩٠٠، وحصلت على الجنسية الفرنسية، إذ كان أبوه – ستافيسكى – طبيب أسنان، افتتح عيادة بشـارع النهضة بحى الشـانزإليزيه. وأقـام سـاشـا مع أبيه فى

مسكنه الفسيح بالحى ذاته . لماذا ؟ ليكون على مقربة من مسرح القصر الملكى (الباليه روايال - من أشهر وأفخم مسارح باريس). فقد سوَّلت له نفسه أن يطبع بطاقات - كُروت - شخصية باسم صحاف صديق لأبيه يُدعى «لومير» ، فكان يستغلها فى دخول المسرح مجانا وفى المقاعد الأمامية . فلما علم السيد «لومير» بهذا التحايل والتزوير، لم يُبلغ الشرطة ، واكتفى بتوبيخ ساشا وتعنيفه . فكانت هذه أول جرائمه (٤).

مما لاشك فيه ، أن السيد «ستافيسكى» الأب كان طبيبا ماهرا ، جادا ، أمينا نزيها . أما ابنه فلم يكن على شاكِلته . كان يهوَى الحياة المترفة ، والمعيشة الهنيئة ، والمال الوفير ، بلا جهد فى الحصول عليه ، أو عمل ملائم لاستجلابه . فكان يسرق من حين لآخر بعض الذى كان يحتفظ به والده فى معمله لصناعة الأسنان الذهبية ، ويبيعه خُفية بثمن بخس لمن يشترون المسروقات . وظن وهو فى سن العشرين أنه يملك موهبة فنية. فالتحق بفرقة غنائية هزلية تجوب المقاهى وتستجدى الإحسان . ثم أيقن أنه خال من تلك الموهبة ، كما أن التسول بالمقاهى ليس فنا، ولا مستقبل له مع إعراض الجمهور عنه ، فكَفَّ ولم يَعفّ .

جَد فاسد مفسد

فقد وجد - لسوء حظه - من جده لأبيه مُعينا على تغذية الانحراف والفساد وبازدياد . كان هذا الجد اليهودى قادما مهاجرا من أوكرانيا ، وانضم إلى الأسرة المقيمة فى باريس. وكان هو الآخر يحلم بالثراء السهل السريع، بأى أسلوب ومن أى مَصْدر، فالعُمر أمامه قصير . فكان عجبا أن يتواطأ الجد النذل العجوز مع الحفيد الشاب المتأهِّب للتمادى فى الفساد والانحراف ، ويتفقا على الفوز بإدارة الملهى الليلى «فُولى مارينْيِى» المعلن

(٤) بعد سنوات وسنوات كتب ساشا ستافيسكى رسالة إلى زوجته يقول فيها : « عليك بتربية الأبناء على حب الأمانة والشرف .وعند بلوغهم سن الخامسة عشرة الكؤود ، فإننى أطلب منكِ حينئذٍ مراقبة تحركاتهم والأماكن التى يترددون عليها حتى يستقيم إرشادهم وتوجهاتهم فى الحياة ، ويصيروا صالحين شرفاء » . فهل كانت تداعيات الماضى وذكرياته الدفينة فى باطنه هى التى أملت أفكار تلك الرسالة ؟



باريس سنة ١٩٠٠ حين هاجرت إليها أسرة « ستافيسكى » الروسية .

عنه. يا لها من فكرة ! أموال تتدفق فى كل ليلة ، ونساء ، وغناء ، ورقْص ، وطبْل ، وزَمْر .. فى بحر يموج بالأُنس والجنس . هكذا أدارت الفكرة رأس الفتى الغَرير الأرعن(٥). وسأل : ولكن من أين المال ندفعه مقدما لاستئجار الملهى؟ فأجاب الجد الخبيث اللعوب :

– الجرأة أولا . فالجرأة تجلب المال ، وقد تنتزعه بسهولة من جيوب الغافلات والغافلين . (ستصبح الجرأة بعد ذلك أحد أسلحته الملازمة له).

– كيف ؟ نَوِّرْنى يا معلم!

– الأمر بسيط ميسور : تتفق مبدئيا مع أصحاب الملهى على استئجاره لموسم الصيف . ثم إعلان صغير فى الصحف بطلب موظفين وعمالا وعاملات لاستقبال الزبائن ، وأخريات للترحيب والترفيه، وغيرهن لبيع الزهور وتقديم الخمور، والأكفأ والأجمل لأداء الرقصات والاستعراضات ، وفنانين وفنانات لتقديم الحفل أو «تسخين» المسرح، وعمل الدعاية ، ومآرب أخرى. ومن الطبيعى المعتاد أن يدفع كل متقدم للعمل من هؤلاء مبلغا ولو بسيطا كضمان وائْتمان . وفى النهاية يتجمع بين يديك مبلغ كبير ، تختفى به عن الأنظار ، كما يفعل الذكى المغْوار .



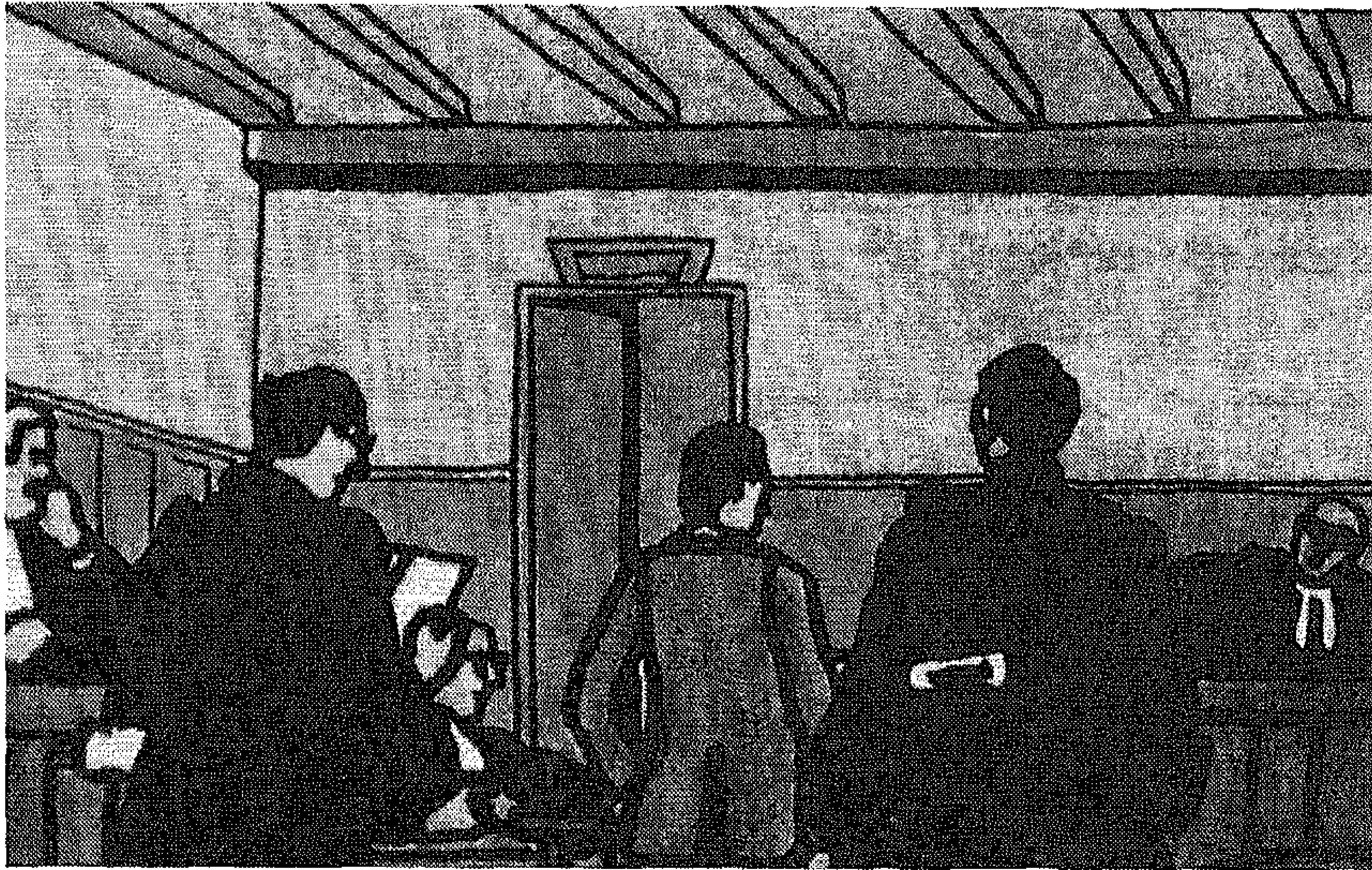
وَجَدَ « ساشا ستافيسكى» فى جَده لأبيه – اليهودى الخبيث اللعوب – عونا على الانحراف والفساد.

واستمع الفتى إلى «نصيحة» الجد وأطاع . ثم اختفى بحصيلة ما جَمعه : اثنى عشر ألف فرنك. فأسرع الضحايا إلى الشرطة التى جدَّت فى البحث عنه حتى عثرت عليه . وأسرع إليه الجد اليهودى الخبيث ليطمئنه :

(٥) فتى أو شاب غَرير (بفتح الغين): غافل غير مجرِّب ، وفتاة غِرَّة أو غِرّ – الأرعن: الطائش الأحمق.

– كن جريئا ولا تَخف ! سوف أستشير كبار المحامين .

وتولى الدفـاع عنه واحد مـن هؤلاء «الكبار» هو : «ألبرت كليمنْصـو» (٦) الذى استصدر قرارا بالإفراج المؤقت عنه ، وظل يراوغ ويؤجل نظر القضية لمدة سنتين ، وبعدها صدر الحكم (فى سنة ١٩١٢) بحبس ساشاستافيسكى خمسة عشر يوما – فقط! – مع إيقاف التنفيـذ ، وبغرامة مقدارها ٢٥ فرنكا، نعم .. خمسة وعشرون !



أتقن « سـاشـا » الدرس الذى تعلمـه من جده : الخروج من الجريمة بصيد ثمين ، ثم الاختفاء فترة ، مع الاحتفاظ بالعـلاقات الشخصية – بأى ثمن – مع بعض أصحـاب المناصب المنقـذة عند الشدة ، وبعـض كبار المحامين ذوى القـدرة على المراوغة والنجدة.

فكان الدرس الكبير الذى تعلَّمه ساشـا وحفظه جيدا ثم سار على نهجه فى قابل حيـاته : أن الجرأة وحدها لا تكفى ، بل يجب أن يكون استثمارها وفق خطة شيطانية إجرامية فحواها دائما كالآتى : تحديد الهدف ، ثم الانقضاض عليه ، والخروج منه بصيد ثمين، ثم الاختفاء عن الأنظار تماما لفترة طويلة ، مع الاحتفـاظ بأكبر قـدر من العلاقـات الشخصيـة – بأى ثمن – مع بعض أصحـاب المناصب التى تُفيـد أو تُحسن السكوت وإغماض العيـون ، ومع بعض كبار المحامين النابهين النافعين . ثم العودة إلى الظهور – أو البعث – فى شكل جديد، واسم جـديد، ومظاهر حياة جديدة ، واكتسـاب عـلاقات جديدة

(٦) شقيق السيـاسى المشهـور « جورج كليمنصـو » رئيس وزراء فرنسا الذى كـان يلقَّب بالنمر العجوز والذى كـان يطمح أن ينتخبه الشعب رئيسـا للجمهورية ولم يتحقق له ذلك فـاعتزل السياسة ومات حزينا مكتئبا .

مع شخصيات بارزة فى المجتمع، واستمالتها بشتى الطرائق والأساليب، أو إشراك بعضها فى مشروعات كبيرة - حقيقية أو وهمية أو زائفة - مقابل فُتات من الغنائم التى لابد أن تكون بالملايين، ويتكفل فريق من جهابذة المحامين بالنصح والدفاع، ولو إلى حين!

لم تكن محاولاته الأولى وفق خطته الجديدة ناجحة مثمرة. فلجأ إلى مصاحبة بعض فتيات الليل، حيث المأوى واقتراض النقود. وتزوج إحداهن ثم لم يلبث أن طلقها لكثرة الشجار بينهما بسبب ابتزازه لمالها. وسافر إلى بلجيكا وعاد منها إلى فرنسا بعد اتهامه مرتين فى قضيتى نَصْب. وافتتح مكتبا استشاريا لفض المنازعات التى تنشأ مع الشركات المتعثرة فى الوفاء بالتزاماتها، مستغلا معرفته ببعض الشخصيات التى تشغل مناصب ذات أهمية. ولم يستمر طويلا فى هذا العمل المريب

منافع الحرب

واشتعلت الحرب العظمى (العالمية الأولى). وفى الحروب عند البعض منافع وحظوظ (كما قيل: مصائب قوم عند قوم فوائِدُ)،حيث تتواكب الاضطرابات والقلاقل والنكبات: أُناس يموتون، وغيرهم على عَجَل يرحلون أو يهاجرون ويأتى مُستجدون، ومصانع تتعثر، وأخرى تتوقف، وتجارة السلاح تَنشط، وعقودها تُوَقَّع فى لهفة بأسعار تفوق الخيال، وبشروط أحيانا تنُم عن خَبال. فالميدان إذن واسع مؤهَّل لمن يريد أن يقتحم، أو ينتهز فينقَضَّ بجسارة على جميع الجبهات. إنها الفرصة الذهبية المباغتة، ولن يَدَعها ساشاستافيسكى أن تَفلت منه.

وبدأ الذهب يجرى بين يديه. فقد عقد صفقة مع الحكومة الإيطالية بتوريد عشرين ألف قذيفة من خلال مؤسسة تجارية مرموقة «داراك» فكان نصيبه من الصفقة نصف مليون فرنك، اقتنصها ثم اختفى قبل إتمام التوريد.

ثم ظهر فى لون جديد من المكْر والاحتيال: فى صورة الوطنى المكافح. انضم إلى فرقة المقاتلين الأجانب (تحت العَلم الفرنسى وكانت مكونة من

تونسيين ومغاربة – أما الجزائريون فكانوا جزءا من فرنسا المستعمِرة – وأفارقة وغيرهم). فاستفاد بذلك فائدة كبرى : العفو الكامل عن جميع الجرائم السابقة التى ارتكبها (ولم نذكر هنا كثيرا منها حذرا من الإطالة والإملال).

وفائدة أخرى منحها له الجيش المقاتل: الاستقامة والانضباط . فكانَ مُمْكنا أن يبدأ حياة جديدة شريفة ، تليق بالانتساب إلى سمعة أبيه الطبيب القدير القويم المقدَّر ، لكنه عاد سيرته الأولى ، واتَّبع أهواء نفسه الأمارة بالسوء (وهذا يؤكد أن المجرم يرتكب جرائمه بإرادته واختياره أولا وقبل أى عامل أو دافع آخر).

ترك الجيش بعد انتهاء الحرب واتجه إلى باريس ؛ وعلى الفور استيقظت فى نفسه ونشطت رغائب خبيثة ، وفارت فى رأسه ودارت أسئلة محيِّرة كثيرة: إنه يَنْشُد المتعة ، والمال ، والحياة الرغدة السهلة التى لا يحققها إلا تدفُّق سريع متواصل من النقود. فكيف ؟ ومِمَّن ؟ ومتى ؟ وقَعَت عيناه على «فانى بلُوش»، غانية من فتيات الليل بمقهى وحانة معروفة (الاسم الحقيقى لهذه المرأة : جين دارسى). فتآلفا وتصاحبا ثم اتفقا على العمل سويا ، باستئجار عدد من الشقق المفروشة (وكانت رخيصة متوفرة بكثرة عقب الحرب)، واستغلالها سِرا فى إدارة أعمال محظورة (كالقمار، والجنس، والمخدرات..) . وكان لزاما عليهما التنقل مرارا من مكان إلى مكان ومن حى إلى آخر خشية اكتشاف الشرطة لنشاطهما المجرَّم. فكان هذا التغيير المستمر مصدر قلق وإزعاج لهما – على الرغم من وفرة المال المكتسب – فكثر الشجار والعراك بينهما ، وزاد من حدته وعُنفه استئثار ستافيسكى بالجزء الأكبر من النقود، فكانت «فانى» تلجأ إلى الشرطة تشكو من إيذاء ستافيسكى وضربه وسوء معاملته ، ثم انتهى الأمر بالانفصال ، وبحصيلة فى جيبه مقدارها ثمانمائة ألف فرنك! لا بأس !

كان باستطاعته أن يستثمر هذا المبلغ الضخم (بقيمة العملة آنذاك) فى مشروع مشروع ، أو عمل مقبول مُنتج، ولكن ما كان الفساد مَصْدره، صار



فتاة الليل « فانى بلوش » : اتفق معها « ساشا ستافيسكى » على العمل معا فى إدارة أعمال محظورة كالقمار والجنس والمخدرات فى شقق سرية مفروشة .

الكساد مَوْئله ؛ وعاقبة المسىء السوء . انغمس ستافيسكى فى حياة شرازمة الليل، فى تنقُّل مستمر بين الحانات والمراقص والملاهى المبتَذَلة ، وله فى إحداها مائدة محجوزة باسمه، ومارَس عملية سطو كبيرة للحصول على وفرة من المال تحقق رغباته ونزواته . وتقلَّب ذات اليمين وذات الشمال مع اتجاهات الرياح المُغْدِقة : يشارك ويُمالئ ويستميل ويستَدْرج ويبتز ويورِّط مسئولين وقياديين ومموليين من الكبار ، ويفلت هو باحتياله ودهائه، فارًّا بالغنيمة الثمينة ، غير مبال بالحظايا والضحايا ونكبات الغافلين والواهمين. وظن أنه أفلح ونجح.

مَكْر السوء

فقد أصبح معه المال ، والنساء ، ورفقاء السوء ، وندماء الليل، والطامعون فى الثراء السريع، والعلاقات الوثيقة ببعض ذوى المناصب الكبيرة السانجة ، أو الصغيرة المنقِذَة ، وعدد هؤلاء وأولئك يزداد فى كل يوم. فاقتحم مجال الاستيراد والتصدير بين باريس وبودابست واستانبول للتجارة فى اللحوم والطُّعوم ، واستجلاب الزيوت فى براميل تُخفى فى قيعانها المخدرات : الأفيون والكوكايين، وأنشأ بالتتابع عددا كبيرا من الشركات الوهمية لتيسير عملياته التجارية بين عامى ١٩٢٢، و١٩٢٤ ، وسرعان ما كانت تختفى واحدة تلو الأخرى عقب ظهورها ، وأصدر شيكات كثيرة بلا رصيد . ثم اتجه إلى سوق السينيما : فافتتح عددا من دور العرض بالمشاركة مع آخرين، محتفظا بحق الإدارة والتشغيل وحده، ليجمع الإيراد المتنامى ثم يتوارى عن الأنظار . وبعد فترة ظَهر فى مارسيليا يتفاوض على تيسير سرقة حمولة سفينة شحن محملة ببضائع ثمينة متجهة إلى أمريكا الجنوبية مقابل حصة له مقدارها نحو مليون فرنك . وتمت السرقة فأثارت ضجة دفعت البرلمان (الجمعية الوطنية الفرنسية) إلى تكوين لجنة تحقيق انتهت فى

تقـريرها إلى شُبهـة إدانة ستـافيسكى ، وأشـارت إلى أنه يحتمى بغطاء من بعض رجـال الشرطة . وأفلَت فلم يُعـاقَب ، بفضل جهـابذة المحامين . كـان يعطى وينفق بسخاء ولا يُبالى .

فكان خروجه «سالما» من كل جريمة أو مشكلة يَزيده تماديا وجرأة . ولما كان يتحرك فى كوكبـة من حسان النساء ، ويرتدى أفخر وأغلى الملابس ، وفى جيبه وفرة من أموال العطاء والهبـات ، وفى رأسه وعلى لسانه أفكار وأقوال تُغرى الطائعين والطامعين والشغـوفين بجمع النقود ولو كـانت مشبوهة أو مشروطة أو مشوِّهة للسُّمعة والشرف، فقد وسَّع دائـرة علاقاته ، ليس فقط بكبـار الموظفين والشُّرطيين والمحامين، وإنما أضـاف برلمانيين وسيـاسيين ووزراء وعُمَـدا وصحافيين ، وابتنَى قصرا فخما عَهـد بإنشائـه وزخرفتـه وتأثيثه إلى أساتذة من أشهـر المعماريين والفنيين والمنسِّقين ، بعد أن صـارت أرصـدته فى البنوك – فى فـرنسـا وسـويسرا وروما‌نيـا والمجـر وغيرها – بالملايين (مع ملاحظة أن ذلك فى سنوات العشرينيـات ورقم المليون آنذاك فى المال كان يثير الرهبة والرجْفة!). وكـان الحصول على مليون فرنك أو عشرة أو مائة أَمْـرا سهلا بالنسبة إليه. فمثـلا : فى ليلة حمراء صفراء رَتَّبها لبعض الأمـريكيين، حصل منهم على شيك بمبلغ ٦٠٠ فـرنك، وفى اليوم التـالى مَحا



أدت كثـرة الشجار والعـراك مع محظيتـه « فانى » إلى الانفصـال عنه بعـد شكواها إلى الشرطة بأنه يضربها ويستولى على نقودها .

بدقة الرقم (٦) ووضع مكانه بجرأة شديدة رقم (٤٨٢) . وصَرف بالفعل من «أمريكان إكسبريس» ٤٨٢٠٠ فرنك . ثم اكتُشف التزوير ، وأُلقى القبض عليه، ووضع فى السجن انتظارا للمحاكمة . وبعد أيام نُظرت القضية. وفتح القاضى الجنائى ملف التحقيق، فكانت دهشته بالغة : لم يجد الشيك المزوَّر – جسم الجريمة كما يقال – والدليل الوحيد على إدانة ستافيسكى . كيف حدث ذلك ؟ ومَن الجانى ؟ لا أحد يَعرف ، ولن يَعرف أحد ! أصبحت القضية بلا جريمة ، فأُفْرج فورا عنه !

وهكذا توالت «عمليات » مشابهة أو مغايرة ، ويُتَّهم غيره ويفلت هو . وبلغت به الجرأة – والغفلة من الجانب الآخر – أن يتصل بوزارة الخارجية الفرنسية ويؤدى لها – من واقع تجاراته ومعاملاته مع عدة دول أجنبية – بعض المهام التى تدخل فى نطاق العمل الديبلوماسى فى رومانيا وفى لبنان . واتُّهم فى ثمانى عشرة قضية نَصْب وتزوير وسرقة وتدليس وخيانة أمانة ، فى فترة زمنية لا تتجاوز عامين ، وخرج منها جميعا بلا إدانة أو أحكام . وفى أثناء التحقيق معه بعدها (سنة ١٩٢٦) بتهمة حصوله على مليون فرنك من سرقة وتهريب بضائع مصَدَّرة إلى الخارج ، غافَل قاضى التحقيق والحراس، وانفلتَ هاربا . وفى اليوم التالى صدرت نشرة مصَوَّرة بطلب القبض عليه . وبعد عشرة أيام أبلغ الشرطة مصرفٌ فى باريس أنه صرف شيكا مزورا لستافيسكى بخمسة عشر ألف فرنك. وبعد أسبوع أسرع مصرف آخر بإبلاغ الشرطة أنه اكتشف شيكات مزورة تم صَرْفها لستافيسكى مجموعها مليون ومائة وخمسين ألف فرنك !

كَرٌّ وفَر

واختفى ستافيسكى تماما عن الأنظار فترة ، وفى الوقت نفسه اختفى من الحياة إلى الأبد أبوه الطبيب الطيب النزيه الأمين : فقد أحزنه وروَّعه ما كان يَبْلغه عن جرائم ولده الذى تمادى فى اقتراف الجرائم والفساد والإفساد ، وكان ذلك يسبب للطبيب المهيب حَرجا شديدا فى محيطه ومع أصدقائه ومَرْضاه وزملائه ، فلما عجز عن التحمل ونَفَد الصبر ، وخاصة بعد أن دهَم





فى ليلة حمراء مع بعض الأمريكيين حصل منهم على شيك بمبلغ ٦٠٠ فرنك ثم زَوَّره وصرفه بمبلغ ٤٨٢٠٠ فرنك . واختفى ثم قُبض عليه .
وفى عام ١٩٢٦ اتُّهم فى ١٨ قضية نصب وتزوير وسرقة ، وفى التحقيق معه غافل قاضى التحقيق والحراس وتسلل هاربا .

رجال الشرطة مسكنه بحثا عن ابنه الهارب، آثر الموت على المذلة والمهانة ، وانتحر .

ثم وقع ستافيسكى فى قبضة الشرطة ، وأُودع سجن «سانْتيه» العتيد فى باريس ، أقْسى سجون فرنسا، فأمضى به سبعة عشر شهرا فى انتظار محاكمات لا « يريد » لها محاموه الكبار الدُّهاة أن تبدأ، ولن تبدأ! فقد

استصدروا – بمساعدة أطباء وخبراء من المحكمة – قرارا بالإفراج الصحى المؤقت عنه ، بادعاء إصابته بالتهاب خطير فى الزائدة الدودية – !!– فخرج من السجن بكفالة قدرها نصف مليون فرنك، ولم يَعُد ، بل اختفى تماما عن الأنظار ، وعن باريس كلها ، ولجأ إلى ضاحية «مارْلى – لو – رُوا»(٧) الرائعة الجمال والهدوء والنقاء ، وبصحبته عارضة الأزياء الساحرة الحُسْن والدلال «آرْلِت» ، ذات الاثنين والعشرين ربيعا ، التى تزوجها رسميا فى نوفمبر ١٩٢٨ وأَغْدق عليها المال بسخاء ورضاء (وهى تجهل حقيقته) وأقنعها «بالهروب السعيد الهنىء » من صخب العاصمة ومشاغلها ، والمعيشة معا فى دفْء الحب والصفْو بتلك الضاحية الأنيقة ، وإنْ «ضحَّى» هو بكل أعماله ومسئولياته وإدارة شركاته من أجْلها لشهر ، لسنة ، وربما أكثر إن شاءت !



تزوج فى نوفمبر ١٩٢٨ عارضة الأزياء الحسناء « آرلت » التى كانت تجهل ماضيه المشين وخدعها بمظهره وبذخه وكلامه فحاولت أن تنظم حياته وتهذب سلوكه ولكنه استثمر جمالها وأناقتها فى تحقيق مآربه الإجرامية وفى التقرب إلى أصحاب السلطة والمناصب العليا والنفوذ.

ميلاد جديد

وداعا «ساشا ستافيسكى» ! فقد مُحى اسمه ودُفن حيا ، وحلَّ محله «سيرج ألكسندر ألكسندر» فى جِلده وشَحمه ولَحمه ، مع اختلاف بسيط فى الشكل والهيئة والملامح والسلوك.. والوضع الاجتماعى . تلاشى المجرم ساشا المحتال النصاب اللص الجِلْف الماكر اللعوب، وظهر فى إهابه السيد «ألكسندر» الثرى الجذاب الكسَّاب الكريم المعطاء . كانت سنوات الاختفاء فى «مارْلى – لو – رُوا » فى جوار ودفْ «آرْلت» التى أنجبت طفلا ، كانت كافية لتلاشى ملامح وذكريات الشخصية البغيضة السابقة، والناس عادة – فى

(٧) أنشئت تلك الضاحية الجميلة بأمر من الملك لويس الرابع عشر ، وشيَّد بها قصرا فخما (هُدم فى الثورة الفرنسية) ومن حوله حدائق فسيحة غنَّاء وقصور الحاشية الملكية ، وكان يحب الإقامة بها بعيدا عن الضوضاء ومشكلات العاصمة ، وفى رحلات الصيد بالغابات القريبة منها ، ولها إلى اليوم طابع جمالى خاص.

زحام وضغوط الأحداث ومشاغل الحياة – تَغْفل أو تَنْسى، وتتكفل المظاهر الخادعة والمآدب الباذخة والعطايا والهبات السخية بتثبيت الغفلة وتكثيف النسيان.. وهذا فى واقع الأمر ما كان ، وكسب ألكسندر مع نفسه الرِّهان.



نجحت خطة «ألكسندر» : فرجال المراكز والطبقة العليا فى المجتمع يتقربون إلى « آرلت » بشغف ، والنساء يمتدحْن أناقتها وزينتها.

وأدرك بيقين أن «القوة» تُستمْد – عند الحاجة والضَّعف – من نفوذ «الأقوياء» ؛ وأن «الثروة» تتناثر من صُحبة الأثرياء . إذَنْ : فَلْيوثق الصلة بأصحاب النفوذ وصُناع الثروات ، ولْيُظْهر هو من جانبه أنه ذو حظ وحظوة ، وله كلمة نافذة وبريق ثروة . فكان هو الشخص الوحيد الذى يعرف عن نفسه أنه يُرائى ويخادِع ويُزَيِّن للناس الوهْم الكاذب، وكثير منهم – من فرائسه بالمراكز والطبقة العليا فى المجتمع – يستعذبون هذا المَظْهر اللامع اللطيف : فالرجال يُطْرون بهاء «آرلت» ويتقربون بشغف إليها ، والنساء يمتدحْن أناقتها وزينتها وخِضاب وجهها وتصفيف شَعرها وحُلْو حديثها وأُنْس مجلسها . فكان التسابق – رجالا ونساء – على مائدة هذين الزوجين الظريفين الكريمين فى أفخم مطاعم باريس، أو التنافس على دعوتهما إلى سهرات الفيلات والقصور العامرة الفاخرة ، أو التشوق إلى صحبتهما فى رحلات وجولات للترفيه والمتعة.

لكن هذه المعيشة المُتْرَفة والمظاهر المتألقة تكلِّف كثيرا ، وكثيرا جدا . فمن أين يأتى «ألكسندر» بما يكفى من مال مِدْرار؟ أنشأ شركة «ألكْس» للمجوهرات والتُّحف الفنية الثمينة ، لبيعها بالجملة (وكسْب سمسرة أو عمولة) أو بالقطعة . واشترى براءات اختراع أجهزة كهربائية وثلاجات . وأسَّس شركات عقارية وتجارية ، ومصْرفا خاصا، وناديا (قصرا) للرياضة. واحتكر صناعة الزمرد الصناعى (المقلَّد) فجنَى منها وحدها ملايين الفرنكات، بأسعار العملة آنذاك. واشترى أسهما فى سوق الأوراق المالية (البورصة) بملايين الفرنكات ، فربح بالمضاربة ملايين وملايين فوق

قيمتها . واستعان «بجيش» من الخبراء والكبراء ومشاهير المحامين، ضَّم بعضهم إلى مجالس إدارة شركاته، فكان على مائدته مستشار الدولة، وجنرال، وقائد شرطة، ونائب برلمانى، وحاكم مقاطعة .. وفى الصباح تظهر صورهم معه فى الصحف والمجلات، مع عبارات التبجيل والتفخيم والإطراء أو المديح المدفوع الثمن – أو الهدايا الثمينة – مُسبقا. فإذا فاحت فى الجو رائحة كريهة انبعثت من داخل أنشطته وشركاته، أو لاحت فى الأفق بوادر أدخنة مؤذية تَمس سُمعته و«شرفه»، أسرعتْ على الفور فِرق الإنقاذ والإطفاء – من المحامين والإداريين والصحافيين – للتدخل السريع (وفيما بعد، كانت دهشة الرأى العام الفرنسى بالغة عندما كُشِفت الأسرار والفضائح والأخطار، وعلِم مَن لم يكن يَعْلم أن «النقود» تستطيع فى غمرة الغفلة وتفشِّى الفساد أن تَصنع المحال وتحقق الأعاجيب !).


« ساشا ستافيسكى – ألكسندر » محتكر صناعة وترويج الزمرد المقلَّد (الصناعى)، وأوهم البنوك أنه زمرد طبيعى ليحصل بضمانه على قروض بالملايين لم يسددها .

وامتدت أيدى «ألكسندر» إلى كل مكان، وحصل من مجلس مدينة باريس على عقد ثمين بإنشاء وحدات سكنية حصل بموجبه على قرض بمائة مليون فرنك، فتضاعفت قيمة أسهم شركاته وراجت فى السوق.

وبلغَتْ نفقات «مدام ألكسندر» فى سنة ١٩٣٠ وحدها خمسة ملايين فرنك. والإنفاق يتزايد، وتكاليف المظاهر تتضاعف، والأجور والهبات والهدايا تتعاظم، وإسكات الألسنة وإرضاء المدافعين والمنقذين يستنزف المدَّخَر والوارد . فكيف السبيل إلى تغطية ذلك كله من موارد جديدة وفيرة ؟ فكَّر طويلا ثم دبَّر لأكبر عملية دهاء ونَصْب واحتيال فى القرن العشرين بفرنسا . وكما فى عُرف «كبار» المجرمين: أفضل الأفكار، أبْسطها .

إنه يحتكر صناعة الزمرد المقلَّد (المزيف غير الطبيعى). ولديه كميات كبيرة منه ويحقق له فى البيع أرباحا ضخمة . فلماذا لا يُستغل فى توفير أرباح أضخم وأسرع ؟ إن مدينة «أُورْليان» الفرنسية أنشأت لمنطقتها مصْرفا للإقراض (التسليف) بشروط مُيَسرة مقابل ضمان من ودائع أو رهونات . إنه شيء بسيط جميل : إذا استطاع إيداع كمية من الزمرد الصناعى من خلال شركته «ألكْس» للمجوهرات، على أنها من الزمرد الحقيقى الطبيعى،

فسيحْصُل فى الحال على قرض ثمين، بالملايين . وهذا مـا كان : بهذا التدليس الخبيث استولى من البنك على ثلاثة وأربعين مليـون فرنك . وقد سـاعده على إتمام تلك الصفقـة وغيرها ذكـاؤه فى التـدبير والاحتيـال فى سلسلة من العلاقـات والملاحقات، وهو يعلم يقينا أنه يتحـرك فوق فُوَّهـة بركان ، لكن الشائع فى الدراسات النفسية فى عِلْم الإجرام، أن المحتال (النصَّاب) فى مُعظم الأحوال ، لا يُبالى بتوقعات الأهوال ، وإلا لأَحْجم وامتنع . وما فعله ألكسندر - ستافيسكى سابقا - باختصار : أنه تعرَّف على عمدة المدينة الذى هو نائب بالبرلمان ، وأكرمه ونَعَّمه ، فأَنِس إليه العمدة النائب . فكان يُثْنى عليه ويدافع فى بعض المواقف عنه، وزادت ثقتـه به عندمـا رأى زوجته «آرلت» فى بهائهـا وبذخهـا وتنقلاتها فى سيارات فـارهة فاخـرة بين أرقى الفنادق فى بيـاريتْز ودوفيل ومونت كارلو، وسمع أحـاديث الناس عنها وعن ثراء زوجها رجل الأعمال الصالح الناجح . وزاد هذا النائب البرلمانى العمدة عطفه ومعروفه - بعـد أن تلقى ٤٠٠ ألف فرنـك «هدية» من ألكسندر - بأن سعى بالاشتراك مع نائب برلمانى آخـر إلى وزير العمل آنذاك، وأقنعـاه بإصـدار توصيـة إلى شركات التأمين، أفادت ألكسندر بملايين الفرنكات ، مئات الملايين .

وعن طريق معـارفـه و«أتبـاعـه» تمكن ألكسندر من تعيين أحـد رجـاله المحتالين ، كخبير مثمن بمصرف «أورليان» لتقـويم الرهائن التى يتم إيداعها مقـابل قـروض ، فكان «يثمن» الزمـرد (الصنـاعى) الذى يودعـه ألكسندر بمبالغ تفوق مائة مَـرَّة قيمتها أو أكثر من ذلك ، بزعْم أنه زمرد طبيعى . وفى جميع الأحوال لم تُسدد تلك القروض التى بلغت نحو مليار فرنك !

ثم اتجه إلى ميـدان السيـاسة. فهى أيضـا تضيف عند الحصيف شهـرة وربحـا ونفـوذا، ومعرفـة بأصحـاب السلطة والمراكـز العليـا وهذا فى ذاته مكسب مضـاعف يفتح الأبواب بجـرأة لا تَهاب . سـاند فى انتخـابات سنة ١٩٣٢ محاميا من المرشحين ، نجح وصار نائبا بالبرلمان (الجمعية الوطنية) عن الحى الثـالث فى باريس . وسخَّـر ألكسندر جـريدة «الإرادة» التى يملك كثيرا من أسهمها للدعـاية وتقريظ هذا النائب . ثم اصطحبـه إلى المجر لشراء

سندات تعويضات كانت ألمانيا أصدرتها تعويضا للمجريين الذين انتزعت أراضيهم وأملاكهم (وفقا للتسويات التى تمت بعد الحرب العظمى) ثم امتنعت ألمانيا عن تسديد هذه التعويضات فأصبحت هذه السندات بلا قيمة . فلما أعلن ألكسندر (وبتدعيم أدبى من صديقه النائب المرافق له) أنه سيشترى تلك السندات ، أقبل عليه حاملوها يتسابقون فاشتراها آلافا مؤلَّفة بثمن بخس لا يكاد يُذْكر وأصحابها بالطبع راضون فرحون (فشىء أفضل من لا شىء) . فلما رجع إلى فرنسا أعلن عن إنشاء «صندوق مالى» لبيع هذه السندات الملزمة لحكومة ألمانيا ، وأفاضت صحيفته «الإرادة» فى نشر مقالات لكبار القانونيين والمحامين تؤكد صحة هذه السندات، ودعوا إلى حملة إعلامية وقانونية لحث الحكومة الفرنسية على إجبّار ألمانيا للوفاء بقيمتها . فلما طرح ألكسندر تلك السندات للبيع بقيمتها الحقيقية أو ما يَقْرب منها ، لقى إقبالا متزايدا، ودخَلَ خزائنه من تلك الصفقة نحو مليار فرنك! لكنها هذه المرَّة كانت صفقة «نظيفة» لا جريمة فيها ولا بحث عن مجرم ، كما فى الأربعين قضية الراقدة فى صمت تترقب الإمساك به . فهل ضمن لنفسه الثراء الكبير كما كان يحلم ؟ والأمن بعد خوف كما كان يزعم ؟ والراحة بعد شقاء كما كان يريد ؟ يبدو أن الطامع لا يَقْنع ، والشَّرِه لا يَشْبع، ومُعتادَ الإجرام لا يتوب.

اتجه نحو تشيكوسلوفاكيا ، ويوغوسلافيا ، والمجر ، يمارس فيها نشاطه الخصيب المريب . لكنه كان يسرف فى الإنفاق والبذخ بلا رَوية أو حساب . وفى صالات القمار كان يكسب ويخسر ، وخسائره بالملايين فى ليلة واحدة ! إنه أمر قد يثير الشكوك ويستنهض الريبة . فما بالنا إذا كان يراقبه لسنوات من بعيد «رجل» أزال من نفسه الشك باليقين، ومحا الريبة بوثائق وبراهين ؟

الجريمة لا تفيد

كان المفوَّض (القوميسير) «باشو» يتابع «ألكسندر» سرا ويترصده مُذْ كان «ستافيسكى» وكأن بينهما ثأرًا قديمًا دفينًا . وكان بين الحين والحين

يرفع تقــارير عنه إلى النائب العام . والنائب العــام يتلقى توصيات متــلاحقة من وزراء وكبراء تنفى الشبهــات عن ألكسنــدر ، وتَزْرى بالحاقــدين عليــه وبخصــومه الفــاشيين، لأنه من سُراة الأحــرار الديموقــراطيين . والصحف تؤكد ذلك وتضخمه وتزينه .

٢٢ ديسمبر ١٩٣٣ ..

لجنة برلمانيــة تحقق – بعــد طول مراوغــة وتأجيل وأعــذار – فى الكارثة التى حلّت ببنك الإقــراض فى «أورليــان» حتى أفلس ، وفى جــرائم وشبهــات جرائم نصب واحتيال لاختلاس أمــوال الدولة فى مواقع ومشاريع متعددة . وبدأت «رءوس كبيرة» تترنّح من صدْمة المفاجأة وصَفعة المواجهة ، وفتحت الجماهير أعينهــا على هَوْل الفضــائح وغَوْل الفســاد والمفســدين . وتحركت شرطة فــرنســا بأجمعها تبحــث وتُنَقِّب وتتحرى وتستجــوب . واهتــزت فى الأعــالى مقاعــد لم تكن تُبــالى . وقــد حاصَرَتْها ضغــوط أحــزاب المعارضــة وسخطات الأهالى.

٧ يناير ١٩٣٤..

أحس «ألكسندر – ستــافيسكى» أن الخِناق يضيق حول رقبتــه ، فأسرع هاربا بآرلت وأبنائه، وأستأجر لهم شقة مفــروشة باسم مستعار فى شارع «الجيش العظيم» بقلب باريس . ثم تركهم ومضى على عجل يستقل سيارته وفى جيبه ألف فرنك.. فقط .. إلى أين ؟

٨ يناير ١٩٤٣ ..

ظَهــر اسمــه لأول مــرة فى الصحــف بلا تبجيل أو تفخيم ، بل بين أسماء المطلوبين للتحقيق معهم فى قضايا الرشوة والنصْب والفساد ونَهْب الأموال.

مضى الخائف الهارب إلى إقليم «ســافوا» بعيــدا عن باريس . واستأجــر سكنا (شــاليــه) فى مــدينــة صغيرة «سِرْفــوز» وفى اليــوم التــالى رحل إلى «شامُــونكْس» . لكن والد صــاحب الشاليه كــان لمّاحا فَطِنا . إذ لَفتَ انتبــاهه وجــه المستأجــر الجديد، ومــا نُشر فى الصحف من تحقيقــات مصــوَّرة عن

قضـايا النصْب والنهْب والفساد . فأبلغ الشرطة عن زائـر الليلة السابقـة ، وأن حقيبته عليها الحرفان «S.A» ، فرجَّحت الشرطة أنه «سيرج ألكسندر». فتعقَّبَتْه إلى «شامونكس» . ومن خـلال مراجعة سريعة لأسماء النزلاء الجُدد بالمدينة ، تحدد مكان المجرم الهارب.

كـان البرد شـديدا والثلوج تغطى المدينة . وعند البـاب المرصـود، وقف المفوَّض (القوميسير) «باشو شـارْبَنْتييه» ومعه اثنان من مفتشى الشرطة . طرق البـاب عدة مـرات، فلم يتلقَّ استجابة . فتسلل من نافـذة مفتوحـة مع مـرافقيْـه ، إلى داخل المسكن. لم يجد أحـدا . وعند باب حجـرة مغلقـة طرق بحذَر. فسمع من داخلها صوتا فزِعا :

– مَن بالباب ؟

– افتح !

وإذا بصـوت طَلْق نارى يدوى على الفور . فأسرع شـاربنتييه ومن معـه بالابتعـاد إلى الخارج . ثم سـاد صمت ثقيل طويل . فعاد الـرجال الثـلاثة ، واقتحموا الحجرة المغلقة ، فإذا برجل بدين مُلقى على الأرض، والدماء تنزف بغزارة من رأسه . وهنا تضاربت الأقوال فيما يشبه الأحاجى والألغاز .



« ستـافيسكى » جثـة هـامـدة تنزف دمـا من مسدس فى يده ، داخل حجـرة رديئة قـذرة باردة تدفئتها معطلة فى الشتاء القارس وأثاثها مُهترئ . نهايـة طبيعيـة لحياة زائفـة زَرِيَّة .

قيل : إن ستافيسكى أطلق رصاصة من مسدسه على رأسه فخرَّ إلى الأرض صريعا ينزف فى حجرة بسيطة غير نظيفة ، خالية من كل ترف أو فخامة ، وليس بها تدفئة . وقيل : باغَتَه شاربنتييه بطلقة واحدة صوَّبها نحو رأسه فأردتْه قتيلا ، وتركه ملقًى على الأرض لمدة ساعتين كاملتين يحتضر . ولما حضر الطبيب الشرعى وألقى نظرة فاحصة تعجب : إذ رأى مسدس ستافيسكى فى قبضة يده اليمنى، فى حين أن طلقة الرصاص كانت نافذة فى صدغه الأيسر ! ولم يَعْبأ بذلك أحد . فلما حُمل إلى المستشفى فى الساعة الثالثة والربع عصرا ، لفظ آخر أنفاسه .

ما بعد النهاية

تفجرت الفضائح ، وهزت بعنف النظام الحاكم فى فرنسا . فقد عَمَّ الغضب والسخط جميع الأوساط التى ربطتْ بين جرائم ستافيسكى ورجال الحكم والسياسة. ونشرت الصحف خطابات رسمية ووثائق تُدين أصحاب مناصب عليا فى الدولة وفيهم وزراء ونواب وحكام أقاليم ورؤساء بالإدارة والشرطة . وتجمعت جماهير فى أكبر ميادين باريس «كونكورد» – وبه المسلة المصرية – تنادى وتهتف بقوة : «يسقط اللصوص وأعوانهم». وتعالت صيحات تطالب بسقوط النظام الذى أفرخ ستافيسكى وأمثاله وساندهم أو تستر عليهم . ولم يَسقط النظام (الجمهورية الثالثة) ، وإنما سقطت الحكومة . وفى يوم الأحد التالى، نظَّم الشيوعيون والاشتراكيون مظاهرة ضخمة فى وسط باريس أثمرت بعد ذلك تكوين حزب «الجبهة الشعبية».

مات الميلياردير «ساشا ستافيسكى» – رمز الفساد والإفساد – قتيلا أو منتحرا فى غرفة وضيعة شبه مظلمة . وسرت إشاعة بأنه قُتل عن عَمْد ، لإسكاته حتى لا يبوح بأسماء «كبيرة» كانت على صلة به وبجرائمه . وربما كانت آخر «نجاحاته» التى لم يكن يقصدها أو يدبِّر لها ، هو التغيير السياسى الذى حدث بسببه بعد موته !



تفجـرت قضيـة «ستـافيسكى» وفضائحه فأثارت الرأى العام ضد النظام الحاكم وفسـاد الإدارة والسيـاسيين والماليين وأصحـاب المراكـز والنفوذ وكادت تُسقط الجمهورية الثالثة . وفى الصـورة الثـلاث برلمانيون وعمدة مدينة ومدير مصرف بعد إلقاء القبض عليهم كشركـاء أو متسترون على جرائم اليهودى الفاسد المفسد الخادع « سـاشـا ستافيسكى » .



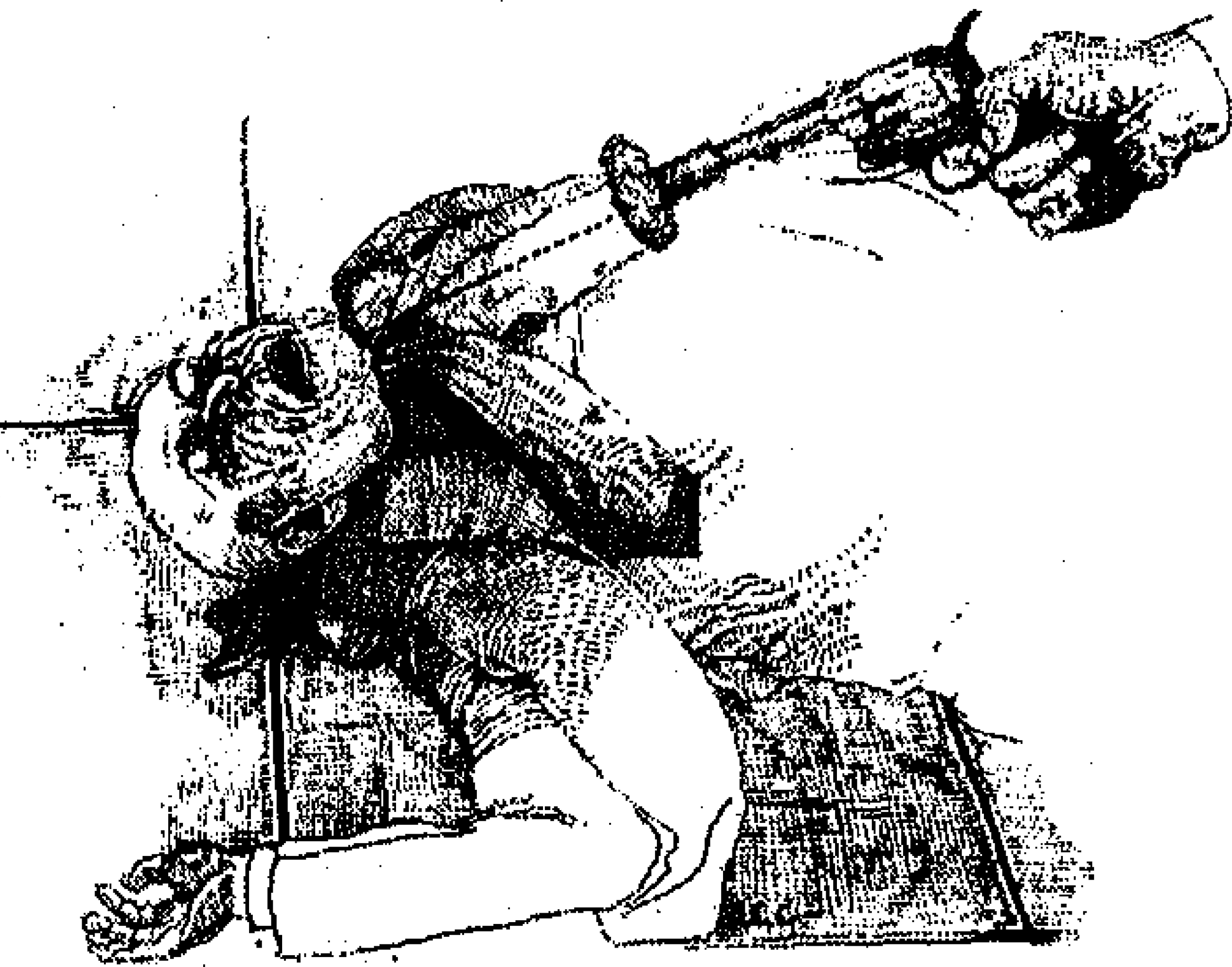


عصابات المافيا : ما ظَهر منها وما خَفِى

وما المافيا ؟(Mafia)

ظَهَرت هذه الكلمة علانية لأول مرة سنة ١٨٧٥ فى إيطاليا ، حين أُطْلقت على عصابات إجرامية سرية قوية نشأتْ قديما فى جزيرة صقلية ، وكان لها نشاط مفزع مروع. ثم شاعت الكلمة فى معظم بلاد العالم ، وصارت تعبيرا يصف الجماعات والتنظيمات والعصابات التى تمارس بالتواطؤ سِرًّا للكَسْب أعمالا مُريبة تتسم بشُبهات لا أخلاقية أو يجرِّمها القانون، على غِرار ما تفعل المافيا الأصلية .

ويسمَّى الواحد من هؤلاء : مافياوى – Mafioso .(١)



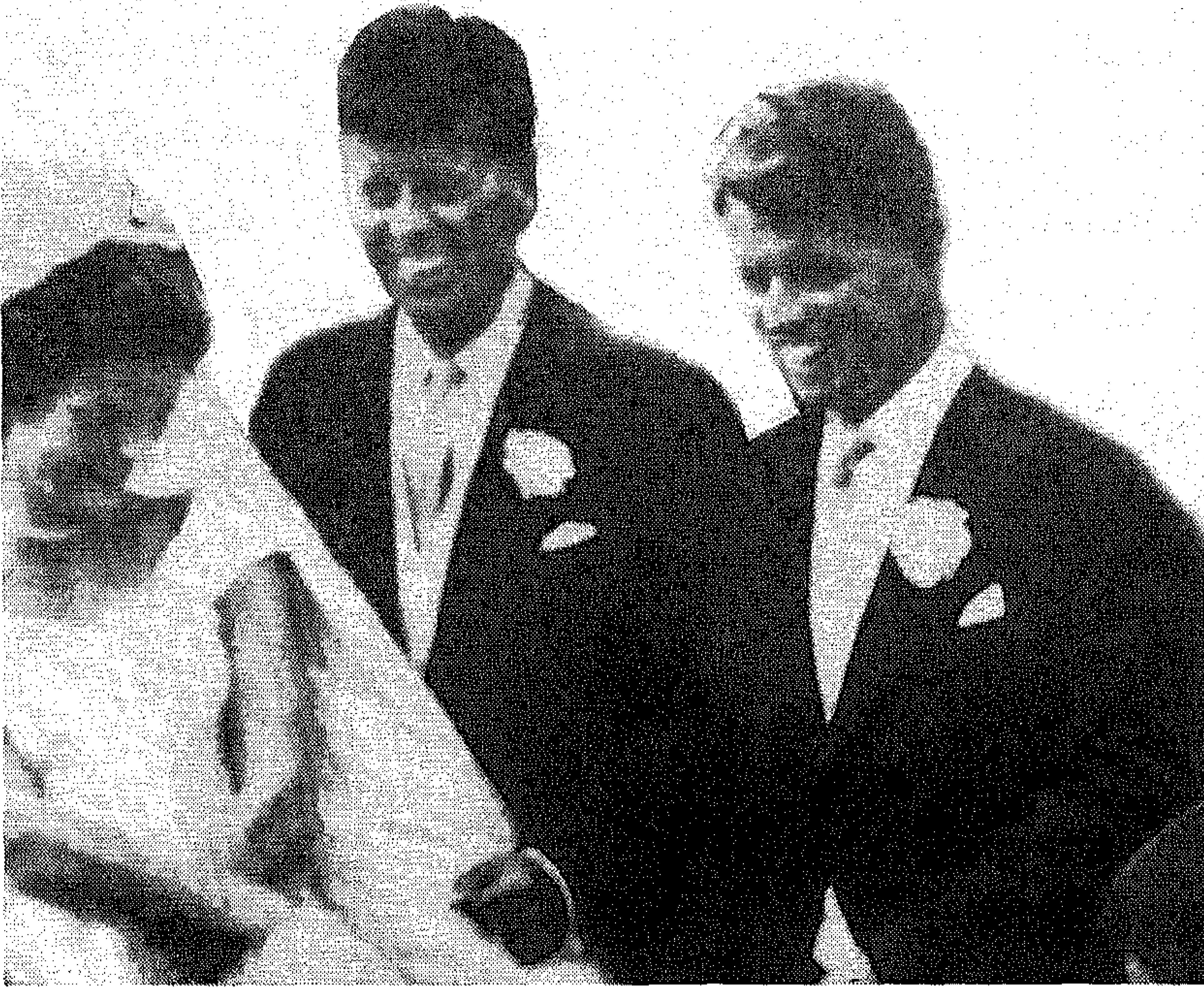
المافيا : جماعات وأُسَر وعصابات وتنظيمات وشبكات محلية وعالمية تمارِس سرا أو متخفية أعمالا مريبة يُجرمها القانون ، ولاترتدع لمكاسبها الهائلة ، ولا تتورع عن القتل وتصفية الحسابات .

(١) وتُسمى عصابات المافيا فى أمريكا أيضا : « الموب –Mob» وهذه الكلمة فى الأصل تعنى : الرعاع أو السُّوقة ، أو الغوغاء والهمج . ولكل عصابة رئيس قوى مُطاع مُهاب له كلمة نافذة وحُكم ماض ورأى لا يُرَد . والسرية الكاملة – أو قانون الصمت – من أبرز سمات المافيا ، كما أن القتل والاغتيال فى الممارسات وفى تصفية الحسابات – بلا رحمة – أحد معالمها .

وعندما زاد نشــاط المافيا فى صقلية وانحـرفت عن أدائها الاجتماعى كما سنرى وانحصرت فى ممارســـة الجرائم، وبَغَتْ كثيراً وطغَتْ سفْكا وقتــلا ونهبـا ، ضاق الناس بها، واشتـدت مطاردة السلطات المحليـة لها ومعاقبـة زعمائها ، فهرب بعضهم إلى الأرض الجديدة فى أمـريكا الشمالية (نحو سنة ١٨٦٠)، ثم زادت هجـرتهم إلى أمـريكا فى أواخـر العقـد الثـانى من القـرن العشرين وأوائل الثالث (حين كانت توجهات الجماعـات الصهيونية للتمركز والعمل المنظم فى الولايات المتحدة) ، مع اشتداد الأزمة الاقتصادية العالمية ، وظهـور ظروف جـديدة بسببهـا أتاحت أداء أعمال غير قـانونيـة على نطاق واسع تُدر أرباحا هائلة .

ظلت عصـابات المافيا بعيدة عن تفكير المثقفين والرسميين الأمريكيين – أو على الأقل كانوا فى شك من حقيقة أمرهـا ومدى انتشارها وتعاظم خطرها – حتى أوائل الخمسينيـات من القـرن ، حينما تكـونت لجنة من الكونجـرس (البرلمان) برئاســة السيناتور «كفوفر» للتحـرى وتعقُّب ما تواتر عن أعمال إجراميـة منظَّمة كان يعلم بها كل شرطـى وكل مُتسكع فى الطريق ، ويَصفها بأنها «تنظيم إجـرامى شرير تُسمى المافيـا». وحتى بعد انتهـاء تحريات تلك اللجنة ،لم تأخذ الجهـات الرسمية الحكوميـة موضوع «المافيـا» مأخذ الجد المناسب ، إلى أن كـانت سنة ١٩٥٧ ، حين استجـوب المدعى العـام «روبرت كنيدى» – شقيق «الرئيس» جـون – فيما بعد أحد الشهود فى جـريمة كبرى وسأله إن كان «وُلد» فى عائلة أو «تزوج» مـن عائلة تنتمى إلى المافيا ، فكانت إجابته بأنه من «العائلة الملكية» للمافيا !

لكن جوهر المعلـومات عن المافيا بدأ يتجمع فى سنــة ١٩٤٠ عندما وقَعَت حادثة قتْل «ألبرت الأحمر» فى تلك السنة بمدينة نيويورك . وعُرف لأول مرة من خـلال التحقيـق عن وجـود تنظيم «الضـاربين»، وهـو يضم جماعـات متجانســة من القتلة فى شبكة بطول الولايات المتحدة الأمـريكية وعَـرْضها ، وفى بلاد غيرها ، يُستأجرون للقتل مقـابل أجر معلوم ، فإذا أضيف إلى القتل التخلص من جثــة القتيل (أو جثث المقتـولين) زاد الأجـر عند الاتفـاق على

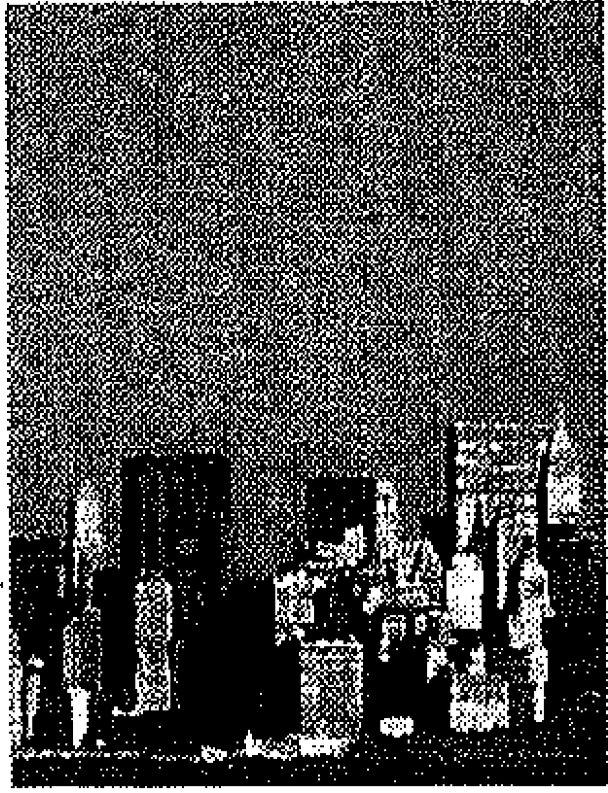


مـــن اليمين : روبرت كنيـدى – جون كنيـدى (الـرئيـس فيما بعد) وعروسه جاكلين بوفييه (جاكى).

«الصفقـة» . وكـان الأجـر فى سنـوات الأربعينيـات يبـدأ من ٥٠٠ دولار، وارتفع فى السبعينيـات إلى خمســة آلاف، وقد يصل إلى ثلاثين ألفـا . وكـان الواحـد من هؤلاء القتلة المحترفين – إلى جـانب الكَسـب المادى – يزهو بأنه يمارس «عملا» فهـو إذن يؤدِّى «نفعا» وليس إنسانا تافهـا أو عاطلا(٢). وفى سنوات السبعينيات قال زعيم مجموعة من هؤلاء «الضاربين القتلة» ويدعى «لويجى» وأصله من جـزيـرة صقليـة : «إن الرجل الشريف لا يحوم حـول مكان مـا ليسرق أو يقتل من أجل المال . إن الـرجل الشريف يقتل لسبب مـا، لينفع بعض الناس». وفى حين تقـاضـى هذا القـاتل الصقلى مبلغ مـائـة ألف دولار من مهرِّب إيطالى مقابل قتل وكيل نيابة كان يتحرى بدقة عن مصادر أموال ذلك المهرِّب، كان قاتل محترف آخر مكسيكى (يدعى زوزيمو) يكتفى فى انجلترا بمبلغ بسيط – من ثلاثة إلى خمسة عشر جنيها فقط – لأداء العمل ذاته .

(٢) فى سنة ١٩٧٢ قـال أحد هؤلاء القتلة المحترفين للشرطة (وهـو مكسيكى يدعَى مارتن بنيتـز) : «إذا لم أفعل ذلك فإن غيرى كـان سيفعله لا محالة . وعندى أنه من الأفضل أن أعمل شيئا مقـابل أجـر» . وكـان من عـادة هذا القـاتل الأجير أن يضيف مـن عنده – مجانا – قطع رأس الشخص المتفق على قتله، إتماما للعمل وإرضاء لزبائنه !

ونعــود إلى «ألبرت الأحمر» وقــد ظهــر من مجرى التحقيق فى مقتله أن تنظيم القتلة نشأ فى أوائل الثـلاثينيات فى مـدينة نيـويورك بزعامــة «لويس ليبْكى بوشالتر[٣]» كذراع قوى مسلح لتدعيم عصابات المافيا . وقد حصلت النيـابة والشرطة على هذه المعلومـات لأول مـرة بعـد اتفـاق تم بينهما وبين زوجة قاتل «ألبرت» : أن يسلِّم زوجها نفسه – ولم يكن أحد يعرف شيئا عنه أو أنه القاتـل – مقابل إدلائه بمعلـومات خطيرة تعفيه من العقـوبة وتتطلب حماية الشرطة له من الاغتيـال . وعندمـا قدَّم «رِلِـس» – القاتل – نفســه إلى وكيل النيـابة المحقق الذى كان غـارقا – أو تائهـا – فى مجاهيل نحو مـائتى جريمــة قتل لا يُعرف شىء عن مـرتكبيها ، قال لـه رِلس : «سوف أُدْلى إليك باعترافـات ومعلومـات تجعلك أشهـر رجل فى أمـريكا كلهـا»! وفى الرابعـة صباحا بدأ اعترافاته قائلا : «سأخبركم عن خمسين فردا من القتلة المحترفين ، كنت أنا واحـدا من بينهم». وظل يُدلى بأقـواله على امتداد اثنى عشر يومـا ، امتـلأ بها خمســة وعشرون سجـلا بالكتـابـة المختـزلَة . وذُهل المحققـون والسلطة من فَيْض وخطـر تلك المعلومـات التى أفصحتْ عـن وجـود شبكة قوية نشطة للجـريمة المنظمة هى بمثـابة حكومة داخل الحكومــة ، وأن عدد أعضائها يربو على الألف موزعين على عدد من المدن، فى كل منها نحو ثلاثين . واعترف «رلس» بأنه قتل ثمانية عشر شخصـا. ومُنح «رلس» عفوا مـؤقتا ، ووُضـع فى فندق بالطابق السابع تحت حراسة مشددة لأربع وعشرين ساعة فى اليـوم . ولكن رئيس المافيا «أنَاسْتـازيا» فى حى بروكلين استطاع «شراء » محامٍ متصل بالقضيــة فى ذلك الحى وأحد رجـال شرطة الحراسة المشـددة بمبلغ مائة ألف دولار . وفى يوم ١١ نوفمبر ١٩٤١ ، أُسقط «رلس» من نافذة حجـرة بالفندق فهوى إلى الأرض صريعـا. وعقب مصرعــه انطلق من داخل عصـابات المافيـا ذلك التعبير الذى صـار مـأثورا على لسـان كل واحـد من أفرادها : «تستطيع طيور الكناريا أن تُغَرد ، لكنها تَعجز عن الطيران»!

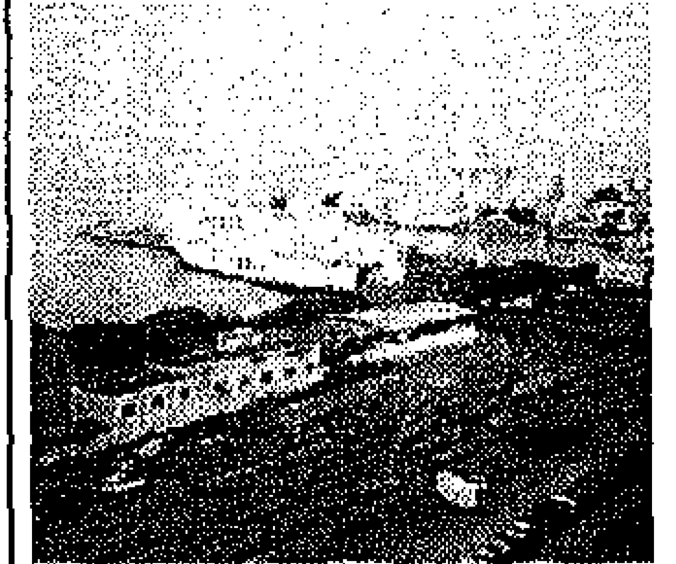

نيويورك

(٣) تم إعدام ليبكى بالكرسى الكهربائى فى ١٥ سبتمبر ١٩٤٣ .

أخطر رجل فى أمريكا

أسفرتْ التحريات والتحقيقـات الرسمية عن واقع أذهل مسئولين كبارا، وفَتح أعينهم الغافلة على شبكات جريمـة منظمة تتعامل فى المخدرات والقمار والقتل والجنس، وتمتد خيـوطها إلى كل أنحاء الولايات المتحدة الأمـريكية . لكن الحقـائق والمخاطر المترتبـة على هذا «الاكتشـاف» ، عُمِّيَت على مسئولين قياديين أكبر ، وخاصة صُنَّاع القرار . لماذا ؟ لأسباب لها العجب !





مناظر من صقلية

كـان المسئول عن مكتب (وكـالة) التحقيقـات الفيدراليـة (FBI) آنذاك : «إدجار هـوفَر»(٤)، الذى نَذَر حيـاته لمحاربة الجريمـة المنظمة ، وتجاوزات النقـابـات التى كـان يعتبرها أداة فى أيدى الشيــوعيين ، ووسيلتهم إلى نشر الفوضى وزعزعة الأمن والاستقـرار فى البلاد . ولما كان لديه بعض الشك فى قـوة وخطر شبكة عصـابات الجريمة المنظمـة ، فقـد خصص ثلاث أو أربع فرق لمراقبـة تلك العصابات، فى حين كـانت لديه نحو عشرين فـرقة لمتـابعة نشـاط الشيـوعيين الأمـريكيين والنقـابات التى تؤيدهم ، لأنهم فى تقـديره «الأكثر تهديدا للأمن وخطرا على المجتمع».

ومن جانب آخـر ، تعرَّض «هوفـر» نفسه لنوع مُزْرٍ من ابتـزاز «المافيا» ذاتها : فقد كان رؤساء المافيا يعلمون جيـدا أن هوفر شاذ جنسيا ، ونجحوا فى تصـويره فوتوغـرافيا فى حـالات تدينه وتفضحـه ، فكان لزاما عليـه أن يُغمض عينيه ؛ ثم زاد فى إغماضـهما عندمـا أدرك أن هؤلاء الرؤساء على علم بصلته المريبة بواحد منهم يدعَى «فرانك كاستيللو»(٥).

وظل الحال على هذا المنوال لسنوات وسنوات . وتشير المراجع الأمـريكية

---

(٤) تولى « إ. هوفر » رئاسـه تلك الوكالة لمدة ٤٨ سنة ، ولذا يُعتبر البنَّاء الحقيقى لها حتى صارت بعـده قـوة فعـالة فى التصـدى للجريمـة فى داخل بلده ، وللتحـرى عن الجواسيس فى الخارج (استكمالا لأعمال وكالة المخابرات CIA) . وكان لهذا الرجل – الذى كان مُهابا مُجابا لا يكلّ – اليد الطولى مع وكـالته فى اضطهاد الشيوعيين الأمـريكيين بعد الحرب العالمية الثـانية . مات فى مارس سنة ١٩٧٢ عن ٧٧ سنة .

(٥) كان « فـرانك كاستيللو » صحـافيا مرمـوقا فى مجموعـة صحف « هرسْت » وله مؤلفـات أدبية وقصصية، وكان رئيس المافيا فى مانهاتان بنيويورك . وكان على غير وفاق مع رؤساء عصابات المافيا الآخـرين ، فكانوا يزدرونه ولا يثقون به . تعـرض للاغتيال أكثـر من مرة كـان آخرها فى مايو ١٩٥٧ وهو جالس عند الحلاق بفندق فأصابته رصاصة فى رأسه أردتْه قتيلا .

إلى أن إدجار هوفر كان «شريرا سيئا مُبْتزا، أفسد كل إدارة عمل بها» (٦).

وما من شك فى أنه زاد سوءا منذ أن تولى إدارة مكتب (وكالة) التحقيقات الفيدرالية سنة ١٩٢٤ إلى أن مات ، وبعد رحيله عادت الإدارة (FBI) إلى الالتزام بالقواعد القانونية . فلما حَدَّتْ زعامات المافيا من تَصَديه لها ، ركَّز اهتمامه الأكبر على التمسك بالمنصب وجَمْع أعظم قَدْر من القوة والنفوذ فى يده ، ومن ذلك مثلا أنه جمع قدْرا كافيا من وثائق المآخذ والسلوك الطائش – الجنسى وغيره – للرئيس جون كنيدى ليمنعه من التفكير فى إقالته (٧)!

وغير كنيدى كثيرون : فقد كان لديه وفرة هائلة من الوثائق والتسجيلات والتقارير عن كبار الشخصيات والسياسيين فى واشنطون وأصحاب المراكز العليا فى البيت الأبيض والوزارات وغيرها ، وفيها الدلائل القاطعة على انحرافاتهم أو تجاوزاتهم أو مَن يُضاجع (من رجال ونساء) حتى أعضاء مجلس الأمن القومى . فحوَّل وكالة التحقيقات (FBI) إلى نوع من الشرطة «البَصَّاصة» الجسَّاسة السمَّاعة المتلصصة. ودَسَّ عيونه وأعوانه فى أكثر من خمسين جامعة أمريكية لتصَيُّد المعلومات عن الأساتذة الذين لهم ميول يسارية . وبعد موته وُجد فى مكتبه ٨٨٣ ملفا عن أعضاء مجلس الشيوخ (سيناتورز) و٧٧٢ ملفا لأعضاء مجلس النواب بالكونجرس ، وكلها تضم وثائق أو تسجيلات وصور تشين أصحابها وتحط من أقدارهم . وكان لا يتورع عن تحطيم من يعارضه أو ينتقده ، أو يدفعه إلى الاستقالة وأحيانا

---

(٦) هكذا النص عنه فى موسوعة الجريمة الأمريكية :

Hoover was a vicious blackmailer who corrupted every administration» « he served

(٧) كان تحت يد هوفر تسجيلات عُرفت – باسم : « إنجا – بينْجا » المصورة لجون كنيدى سنة ١٩٤١ وهو يضاجع « إنجا آرفاد » التى تربَّت فى حضن النظام النازى الألمانى . وفى سنة ١٩٥٩ حصل على تسجيلات أخرى لكنيدى هذا وهو يمارس علاقته ببغىّ تدعى : « جوديث إكسنر » إحدى نساء تجارة الجنس التابعة للمافيا فى لوس أنجلس ، وتسجيلات لاتصالات كنيدى برجل المافيا « جيانكانا » بشأن ترتيب عمل ضد الرئيس الكوبى كاسترو ، وتسجيلات أخرى كثيرة على هذا النحو يطول سردها ، ولكن فى ختامها لابد من الإشارة إلى أن هوفر وضع ميكروفونات وكاميرات سرية فى غرفة النوم وفى حمام البيت الذى كان يلتقى فيه جون كنيدى بنجمة السينيما ماريلين مونرو . وقد عثر على كل هذه الوثائق والتسجيلات فى ملفات حصينة خاصة بهوفر ، وذلك بعد موته .

الانتحار . وكان يتصرف بحرية مطْلقة على هواه ، وينفق بسخاء – بلا مراجعة – من أموال الوكالة على من يريد اجتذابهم إليه أو إسكاتهم بالهدايا، والنقود، والرحلات الترويحية. وكان يتناول طعام غدائه يوميا مجانا فى واحد من أفخم مطاعم واشنطون «هارفين» ، وكان حمام بيته مجهزا من الوكالة بنظام خاص للتدفئة، وله نوع خاص من «الآيس كريم» مختزن على الدوام فى قبو مكيف الهواء أسفل بناية وزارة العدل . وباختصار : كان هذا الرجل فى وقت من الأوقات «أخطر رجل فى أمريكا» (٨).

لعله ليس إسهابا مُعابا هذا الذى ذُكر عن «إدجار هوفر» ، ذلك لأنه عاصر بواكير نشأة المافيا واتساع نشاطها ، وكان المفترض أن يواجهها بقوة وصرامة وحزم بخلاف ما حدث . وظل مُعْرِضا عن تلك المواجهة – لأسباب أشرنا إلى بعضها – إلى أن وقعت حادثة فى نوفمبر ١٩٥٧ كشفَتْ المستور ، ونبهتْ الرأى العام إلى عظائم الأمور ، واشتُهِرت فيما بعد باسم : حادثة أَبَلاشين .

ذكاء المخبر كروسْوِل

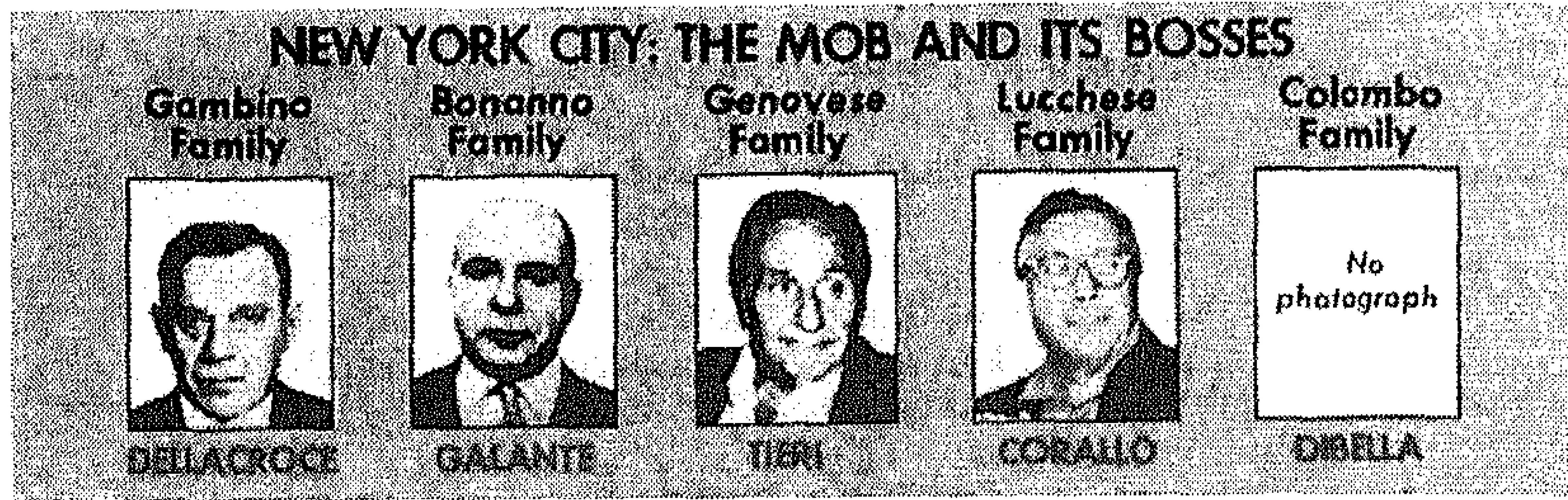
وأبلاشين هو اسم مكان انعقاد مؤتمر زعماء عصابات الجريمة المنظمة سرا فى ١٣ نوفمبر ١٩٥٧ ، وجاء الكشف عنه بمصادفة لحظية تحولت إلى ما يشبه المغامرة السينيمائية وأدت إلى تفجير «قنبلة» إعلامية مدوِّية ، أسفَرت عن ظهور تعبير «المافيا» فى الصحف ووسائل الإعلام وعلى كل لسان ، ومعرفة مدى انتشارها – داخل وخارج أمريكا – وتعاظُم أخطارها .

والحادثة باختصار ، وهى تَلْفت الأنظار :

دخَل الرقيب المخبر «إدجار كروسْوِل» فندق «ألبانى» المطل على الطريق السريع بضاحية ريفية خارج مدينة نيويورك . كان مكلَّفا بالتحرى عن شيك

---

(٨) من ناحية أخرى – لها علاقة مباشرة بالجريمة والمافيا – كان هوفر ذا ميول عنصرية وإن لم يصرح بها . فمثلا : كان من بين العاملين فى وكالة التحقيقات الفيدرالية فى سنة ١٩٧٤ مائة فقط من السود (بعد سنوات من إلغاء التفرقة العنصرية) مقابل ثمانية آلاف من البيض . وكان يقول عن الزعيم الأسود مارتن لوثركينج : « أكبر كذاب أشِر فى الدولة» .



زعماء ورؤساء كبار عائلات المافيا بنيويورك فى السبعينيات والثمانينيات . من اليمين : بدون صورة «ديبللا – عائلة كولومبو » ، « كورالو – عائلة لوتشيزى » ، « تييرى – عائلة جينوفيزى » ، « جالانتى – عائلة بونانو (أغتيل سنة ١٩٧٩) ، « ديللاكروسى – عائلة جامبينو » .

مزور . فاتجه نحو موظف الاستقبال فى بهو المدخل ، فسمعه يتكلم مع شاب يطلب فى خُيلاء وزهْو حجز ثلاث غُرف مزدوجة متجاورة ، مع تقديم المشروبات المناسبة لأعضاء اجتماع مرتَقَب . أطرق المخبر الهُمام مفكرا بسرعة وهو يُصغى إلى هذا الحوار ، وثارت فى نفسه على الفور حَمِيَّة الشك وحساسية الاستخبار ؛ وتناسى لوقته المهمة التى جاء من أجْلها. فقد أدهشه أن يسمع هذا الكلام المتفاخر من فتى يعرفه جيدا ، ويعرف والده، ويعرف مستواهما ، ويعرف طبيعة عملهما ، ويعرف وقائع سابقة تتصل بهما ، ويعرف أن شُبهات تحوم حولهما . لابد إذنْ أن فى الأمْر جَمْر ، أو كما يقول المثل العربى: «إنَّ وراء الأكَمة ما وراءَها» (٩).

قرر كروسوِل أن يتحرى الأمر . فتسلل إلى مصنع الزجاجات القريب من الفندق الصغير ، وفيه يعمل والد ذاك الفتى ويبيت كحارس . لكنه لاحظ – بذكاء المخبر الحصيف – وجود أربع سيارات فاخرة فارهة تقف خالية على مقربة من بناية المصنع . فزاد ارتيابه ، وعاد إلى الفندق واتفق مع إدارته أن يتم إبلاغه فورا عن أى جديد يتعلق بحجز تلك الغرف الثلاث . وفى ساعة متأخرة من الليلة ذاتها اتصل به الفندق يخبره أن بعض أعضاء الاجتماع وصلوا للتوِّ ، فهل يحجز لهم الفندق الغُرف المطلوبة لإقامتهم ؟ فأجاب كروسْوِل بالموافقة . فى صباح اليوم التالى وصل إلى المصنع أكثر من عشر

(٩) أصل هذا المثَل ، أن جارية واعدت صديقها أن تاتيه ليلا وراء أكَمة (بفتح الألف والكاف والميم : مرتَفَع من الأرض به حجارة كثيرة) ، ولكن أهلها شغَلوها بعمل كثير فنسيَتْ . فلما تذكرتْ الموعد ضجرتْ وقالت : « شغَلْتمونى ووراء الأكمة ما وراءها ! » فصارت مَثَلا .

سيارات كبيرة فـاخرة مبهرة من طراز خاص : كـاديلاك، كريزلر، إمبريال، لينكولْن .. ثم تبعتْهـا أخـرى فى مثْل فخامتهـا حتى امتـلأت سـاحـة المصنع والجراج الملحق به . وعندما أقبل كـروسوِل بسيارته الرسميـة وشاهد هذا الحشد من السيارات الثمينة أدرك على الفور أن الأمر لا يتعلق أبدا بتجارة أو تسـويق إنتـاج هذا المصنع البسيط الصغير . نزل فى هدوء من سيـارته ، ثم زحف على بطنه كالثعبـان بين السيارات الخاليـة ودوَّن أرقامهـا ومَصدرها واحـــدة واحـدة . كـــانت أكثـر مـن خمس وعشرين . وفى أثناء تجواله بين السيــارات المصطفـــة بالجراج لمحـــه نَفَـــر(١٠) من الحاضرين للاجتماع فـانصرفوا على الفـور متفرقين ، فكان كـروسول أسرع منهم ، إذ جـرى إلى سيارته ونادى من جهاز اللاسلكى على سيارات الشرطة الجوالة بالمنطقة أن تلحق به ، ثم انطلق إلى مـدخل الطـريق الرئيسى المؤدى إلى الفندق والمصنع وأوقف سيارته الرسمية معترضة المرور من الاتجاهين . كان هناك طريقان آخران يتفـرعان من نقطة توقُّفـه ، لكنهما كانا مُغلقين تماما لغَـرق الجسور (الكبارى) المقـامة عليهما بسبب الفيضـــان . أصبح من حقه بالطريـق العام (من تلك اللحظة) التحقق من شخصيـات هؤلاء القـادمين لاجتماع مـريب ، ولم يكن يحق له ذلك داخل المصنـع وملحقـاته . وأسرع بائع سمك متجـول (كـان بصّـاصــا أو كما يقال : ناضُـــرْجى)(١١) ليُخْبر أصحـاب السيـارات بالمأزق الذى ينتظرهم . فاتجه بعضهم بمـلابسه الأنيقة الحريرية الفـاخرة ليختفى بين الأدغال والأشجـار الشائكة المجاورة ، فـأُخْرجوا بعـد ذلك وقد عَـلاَهم التراب والأشـواك والأقـذار، فى حين احتَبس آخـرون أنفسهم داخل سياراتهم المتـْرَفَة حتى أمسكتْ بهم الشرطة المتلاحقة نحو الموقع.

وسِيق الجميع إلى مـركـز الشرطة القـريب ، وأخـذ الرقيب كـروســويل يسـألهم واحدا واحدا ويسجل أقوالهم وفْقا لـلإجراءات القانونية مع المشْتَبَه فيهم : ما اسْمك ؟ وعنوانك؟ وعملك ؟ والغـرض من زيارتك؟ أجاب معظمهم بأنه جاء لزيارة «إنسانيـة» لحارس المصنع العجوز المريض ! وذكر كثيرون

---

(١٠) نفر : عدة رجال من ثلاثة إلى عشرة .

(١١) البصّاصة : العَين ، ويقال : فلان « عَيْن » عليه ، أى يتجسس عليه .



سجّل مكتب التحقيقات الأمريكى (FBI) شريطا تَنَصُّتيا لمكالمة تليفونية من « توريللو » – زعيم مافياوى فى شيكاغو – يصف فيها كيف انتقم من غريمه « ويليام جاكسون » – زعيم عصابة آخر – بان عَلَّقه فى خطاف جزارة وظل يعذبه ثلاثة أيام بتيار كهربائى ويدفق عليه الماء المالح ، ولا يَأبَه لصراخه وأنينه واحتضاره حتى مات وهو معلق كالذبيحة . ومنع مكتب التحقيقات جريمة بشعة أخرى بالتنصت ، كان سيرتكبها توريللو ضد منافس له فى « ميامى » : كان سيدعوه إلى مصالحة ونزهة فى يخت بالمحيط ثم ينقض عليه ويذبحه كالشاة ، ثم يقطع جسده إربا إربا ويلقيها لأسماك القرش !

أنهم «بلا عمل» ؛ وقال بعضهم : إنهم قَدِموا بحثا عن شراء أرض للبناء، وزعم آخرون أنهم كانوا فى نزهة بالهواء الطلْق ! وعُثِر معهم على مبالغ مجموعها ٣٠٠ ألف دولار نقدا.

كان واحد فقط من بينهم مطلوبا للعدالة لأنه لم يلتزم بالمرور على مركز الشرطة التابع له كل ليلة حسب ما يقضى به قانون المُفْرَج عنه تحت المراقبة. ولم يكن الجميع يحملون أسلحة ؛ ولم يُخْفِ أحد منهم اسمه الحقيقى. فأُطْلق سراحهم جميعا عدا الهارب من المراقبة ، وكانوا فى الواقع من زعماء العصابات الإجرامية : تسعة عشر من مدينة نيويورك وحدها ، وثلاثة وعشرون من ولاية نيويورك (شمال شرق الولايات المتحدة وعاصمتها : «ألبانى»)، وثمانية من ولايات الغرب الأوسط ، وثلاثة من مناطق جبال روكى، واثنان من دولة كوبا ، وواحد ممثل لعصابات إيطاليا . وإلى هنا انتهى دور القانون .

أما الصحافة ، فقد وجدتْها فرصة سانحة لتغطية إعلامية وفيرة مثيرة متفجرة ، تَصُول بها وتَجُول فى ساحة الجريمة المنظمة ، التى اعتبرتْها أسطورة كانت مستورة ، وتساءلت فى دهشة مستنكِرَة : كيف يَتَسنى لنحو ستين من زعماء العصابات أن يجتمعوا فى «مؤتمر» بدون علْم من السلطات الرسمية المعنية بالأمن ؟ وماذا كان يخطط هؤلاء ؟ هل لجلْب وتوزيع مخدرات ؟ موبقات ؟ مسروقات؟ مهَرَّبات؟ وسيئات محظورات ؟ وأين نامت عيون الـ FBI ؟ وماذا يقول رئيسها إدجار فور ؟.. وطفَت - وطغَت - على وسائل الإعلام أخبار وتحقيقات مكثفة عن ظلال العصابات الإجرامية المنظمة المسماة بالـ «المافيا» وعُرِّفَت بأنها «جماعات أخوية سرية مخيفة تتكون من عُصْبة تمتد جذورها إلى صقلية» . فكشفت الصحافة سِتْر تلك العصابات ، وفضحت للرأى العام «تغافل» سلطات الأمن عن رَدْعها وصَدْعها ، واتضح للجميع قصور القانون عن قَمْعها وعقابها .

المافيا : عربية ، صقلية

وقد نَعْجب إذا ما علمنا أن أصل كلمة «مافيا - Mfia » يرجع إلى الكلمة العربية : «مَفَازة» وهى من كلمات الأضداد فى المعنى، أى تحمل معنيين متضادين معا : فالمفازة طريق جبلى أو صحراوى بين الشعاب الوعرة شاق



« ديللاكروسى » وحارسه الشخصى (بيده المسدس) أُجْبرا – تحت التهديد الجاد بالقتل – شرطى سجل لزعيم عصابة المافيا مكالمة تليفونية تدينه ، أجبراه على أن يأكل شريط تسجيل المكالمة قطعة قطعة أمامهما عقب استدراجه إلى مكان منعزل .

خطر محفوف بالهلاك، والخروج منه بسلام يكون فوزا ونجاة (١٢).

والأصل التاريخى يؤكد اجتماع المعْنَيَيْن عمليا فى كلمة «مافيا» التى وُلدت ونشأت فى جزيرة صقلية الإيطالية (١٣).

---

(١٢) فى المعجم : قال ابن الأعرابى اللغوى : سُميت بذلك لأنها مُهلكة ، من « فَوَّز تفويزا » أى هلك ؛ وقال الأصمعى النحوى : سُميت بذلك تفاؤلا بالسلامة والنجاة .

(١٣) خلفية هامشية : كانت جزيرة صقلية عُرضة لغزوات المسلمين الأوائل لقربها من ساحل الشام ومن شمال أفريقيا. فقد هاجمها معاوية بن أبى سفيان بمراكب من الشام ، وغزاها موسى بن نصير (سنة ٧٠٤م) ودخل مدينة سيراكوزا فى شرق الجزيرة .

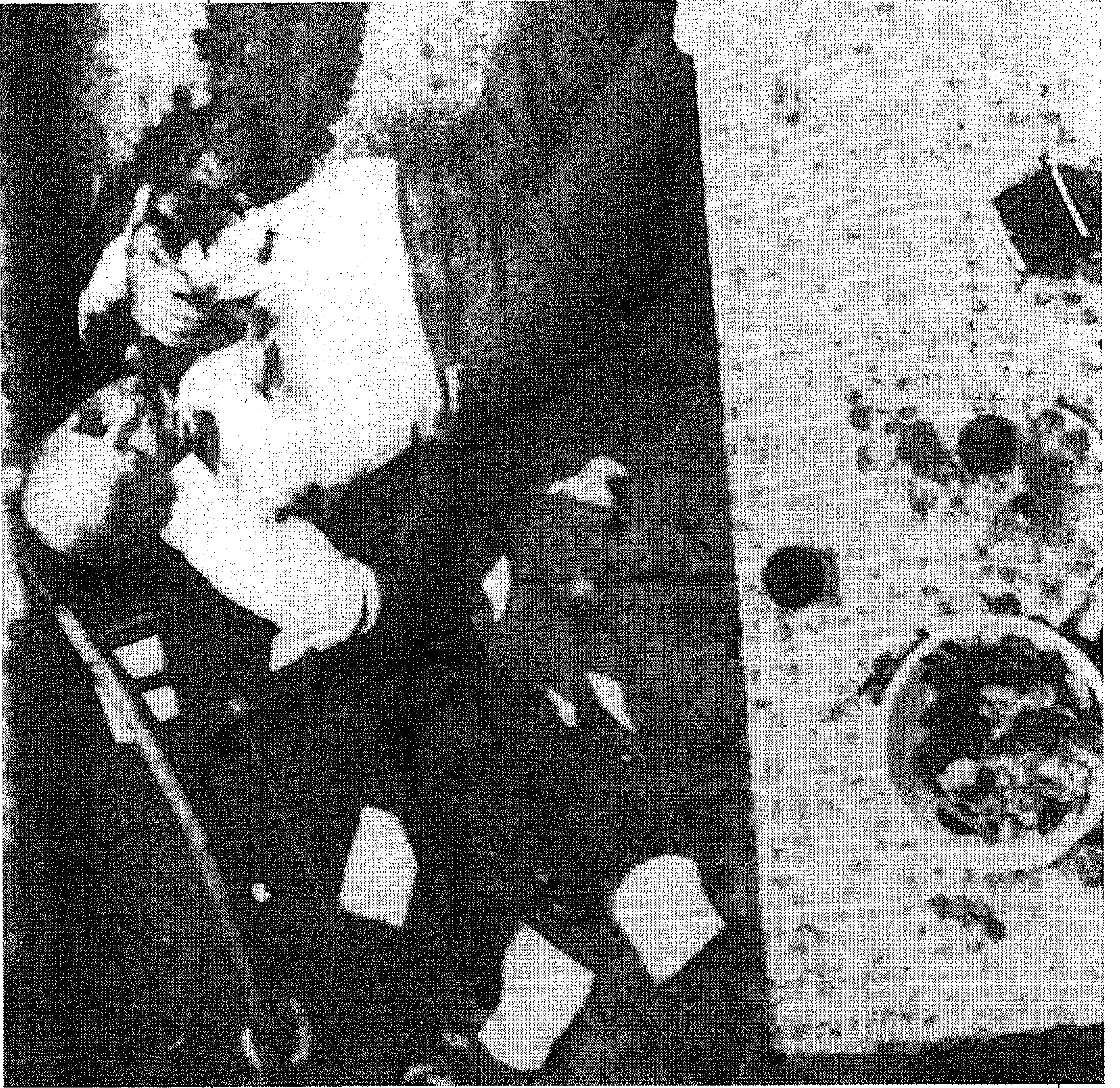
واستمرت الغزوات والمعارك سجالا بين مسلمى شمال أفريقيا وبين الصقالبة متراوحة بين انتصارات وهزائم متبادلة ، حتى فتح المسلمون بالرمو العاصمة (سنة ٨٣١ م) ،ثم مدينة مسينا (سنة ٨٥٩) . وفى سنة ٨٧٨ افتتح الأمير إبراهيم بن أحمد الأغلبى (من أغالبة الشمال الأفريقى فى تونس) عدة مدن بالجزيرة ، حتى تم فتح الجزيرة كلها سنة ٩٠٣ ، ثم جاءها الفاطميون وبعدهم الكلبيون . ولما زارها الرحالة ابن حوْقل قادما من بغداد سنة ٩٧٣م أعجب بها وكتب عن تقدمها وازدهارها .

وبعد صراعات ونزاعات مستمرة مع النورما نديين ، انتهى حكم المسلمين فى صقلية سنة ١٠٩١ م ، وإن بقيت الثقافة العربية الإسلامية بها لعدة قرون بعدذلك ، ومنها امتدت إلى إيطاليا وبعض مناطق أوروبا .

كانت فى البداية كلمة «مافيا» وصفا لرجل جدير بالاحترام والتقدير الشعبى لأنه يشغل مكانة اجتماعية ، ويستخدم ببراعةٍ قُوَّته ونفوذه وكلمته المسموعة النافذة لحل مشكلة ، أو فَض نزاع هنا أو هناك، فيما يقع من أحداث فى الحياة اليومية. وكان هذا الوسيط الشهم الشجاع – ولو كان متطوعا لعمل الخير بلا مقابل – عُرضة لمواجهة تهديدات فردية أو جماعية عند المساس بمصالح أفراد سيئين أو جماعة فاسدة . وكان هذا «المفياوى – المافْيوزو – يجزع جزعا شديدا إذا وُصِف بأنه «مجرم» أو باطش مُعْتَدٍ فمثلا : كانت المسروقات تُرَد إلى أصحابها فى ٩٥٪ من الحالات إذا لجأ هؤلاء إلى زعيم المافيا المحلى وطلبوا منه المساعدة . فكان يتدخل بنفوذه لإعادتها «بأمانة» على أن يُعْطَى نحو ثلث قيمتها التقديرية . ولذا كانت السلطة الرسمية تعتبره أداة للاستقرار الاجتماعى وحفظ القانون والنظام.

ولم ينشأ نظام «المافيا» من فراغ ، أو بدافع الشر والجريمة. فتاريخ صقلية القديم منذ القرن الخامس عشر الميلادى كان مرتبطا لفترة طويلة بمحاكم التفتيش المروِّعة(١٤). كانت – بعيدا عن روح العقيدة الدينية الرحيمة السمحة – تتصيد على نطاق واسع: الفلاسفة ، والمتزوجين بأكثر من زوجة ، والمرابين ، والوصوليين (الانتهازيين)، والقساوسة المنحرفين ، وكل من يملك من المال أو الثروة ما تراه غير مناسب له . وكان اختيار أعضاء تلك المحاكم قاصرا فقط على أفراد من الطبقة الأريستوقراطية وحدها. وكان المتهم الذى يَمْثُل أمامها تُصادر أولا كل ممتلكاته . فكانت فى نظر الجماهير رمزا للإرهاب والقهر بالنسبة للفقراء وكل مَنْ ليسوا من طبقة كبار الأثرياء : فمجرد الاعتقال يعنى اشتباه ، والاشتباه يُفضى غالبا إلى تجريم، والمدَّعى (النائب) العام دائما فى جانب القضاة ، ويُمْنَع المتهم فى دفاعه عن نفسه من الاستعانة بشهادة نساء أو أطفال أو خدم من أهله أو

(١٤) ظهرت تلك المحاكم الدينية الكاثولوكية فى أسبانيا بعد سقوط آخر الإمارات الإسلامية الأسبانية (مملكة غرناطة) سنة ١٤٩٢ ، وكان هدفها التحرى والتحقيق وإنزال العقاب الصارم بالمهرطقين وكل مَن يخالف تعاليم وأوامر رجال الدين سرا أو علانية ، فكرا أو عملا ، تصريحا أو تلميحا . فكانت سيطرتها على كل مرافق الحياة ومظاهرها قاسية قاهرةإرهابية مرهقة .



[١] يوليو ١٩٧٩ ..
كان زعيم عصابات المافيا الينويوركية « كارميني جالانتي » - ٦٩ سنة - يتناول طعام الغداء بمطعم إيطالى فى حى بروكلين ومعه حارس واحد مسلح (فى العادة ثمانية) ، وإذا بست رجال ملثمين يدخلون فجاة ، فأدرك على الفور أنها النهاية . وانطلقت فى الحال ٩ رصاصات نحو صدره مزقته قبل أن يسقط سيجاره الكوبى من فمه (كان لا يفارق السيجار إلا عند النوم) . وقُتل أيضا حارسه . وانتهت حياة « الجزار » كما كانوا يُسمونه ، وهو الذى قَتل وذَبح بنفسه نحو مائة وعشرين شخصا خلال سنتين اثنتين حين كان فى سن العشرين . فلما سقط عن مقعده بالمطعم (كما فى الصورة) غارقا فى دمه (سائل أعلى الصورة) أطلق عليه أحد الملثمين رصاصة فى عينه اليسرى ثم أعاد فى هدوء - أو برود - شديد سيجاره فى فمه تعبيرا عن الرمز أو الأسلوب المتّبع بين أعضاء المافيا الكبار وهو : أن مَن لا يلتزم بقانون المافيا الأول يلقى هذا المصير المحتوم . وما ذاك القانون ؟ إنه الـ " Omerta " أى الصمت . فمن لا يَعْقل اللسان خان . ومَن تكلم ندِم ، ولا وقت للندم.

يرانه وذويه، حتى ولو كانوا سيشهدون ضده، ولا يحق له أن يطلب الاستعانة بمدافع أو ممثل عنه ، لأن ذلك ينال من هيبة المحكمة ويُعتبر تحديا لسلطانها !!

استمر الحال على هذا الطغيان أكثر من ثلاثة قرون باسم الدين ، وقد رأى فيه «كبار القوم» ضمانا لثبات واستقرار النظام الإقطاعى السائد . فكان التحدى الوحيد المقاوم لهذا الوضع الشاذ الضاغط الشائن : تكوين جماعات أخوية سرية عشوائية يرتكز هدفها فى المقاومة على التمسك بحق سيادة العدالة الطبيعية ، فى مجتمع يتسم بالاحترام والشرف ، مهما تكلف ذلك من قوة وصمود وعُنف ، وتلك كانت جماعات «المافيا» ، أو السالكون فى «المفازة» بالمعنى العربى التى اشْتُقَّت منه الكلمة . وعلى هذا المنوال سارت المافيا فى صقلية (١٥) ، وتوارثتها أجيال وراء أجيال ، وتطورت مع الزمن أغراضها وأعمالها وميادين أنشطتها ، حتى صارت رمزا لعصابات الجريمة المنظمة محليا وعالميا . وأَثْرَت بالملايين والمليارات ؛ فمثلا : فى أكتوبر سنة ١٩٩٢ صادرت شرطة باليرمو ممتلكات أسرة زعيم من المافيا (يدعى : مادُونياس) فكانت ٦٢ شركة مسجلة رسميا ، ١٦٠ شقة ، ستة زوارق ، ٢٠٢ سيارة ، ٢٣ قطعة أرض بناء قيمتها التقديرية ٤٠٠ مليون دولار . وهذا الـ «ما دونياس» واحد فقط من نحو عشرين زعيم للمافيا فى الجزيرة(١٦) !

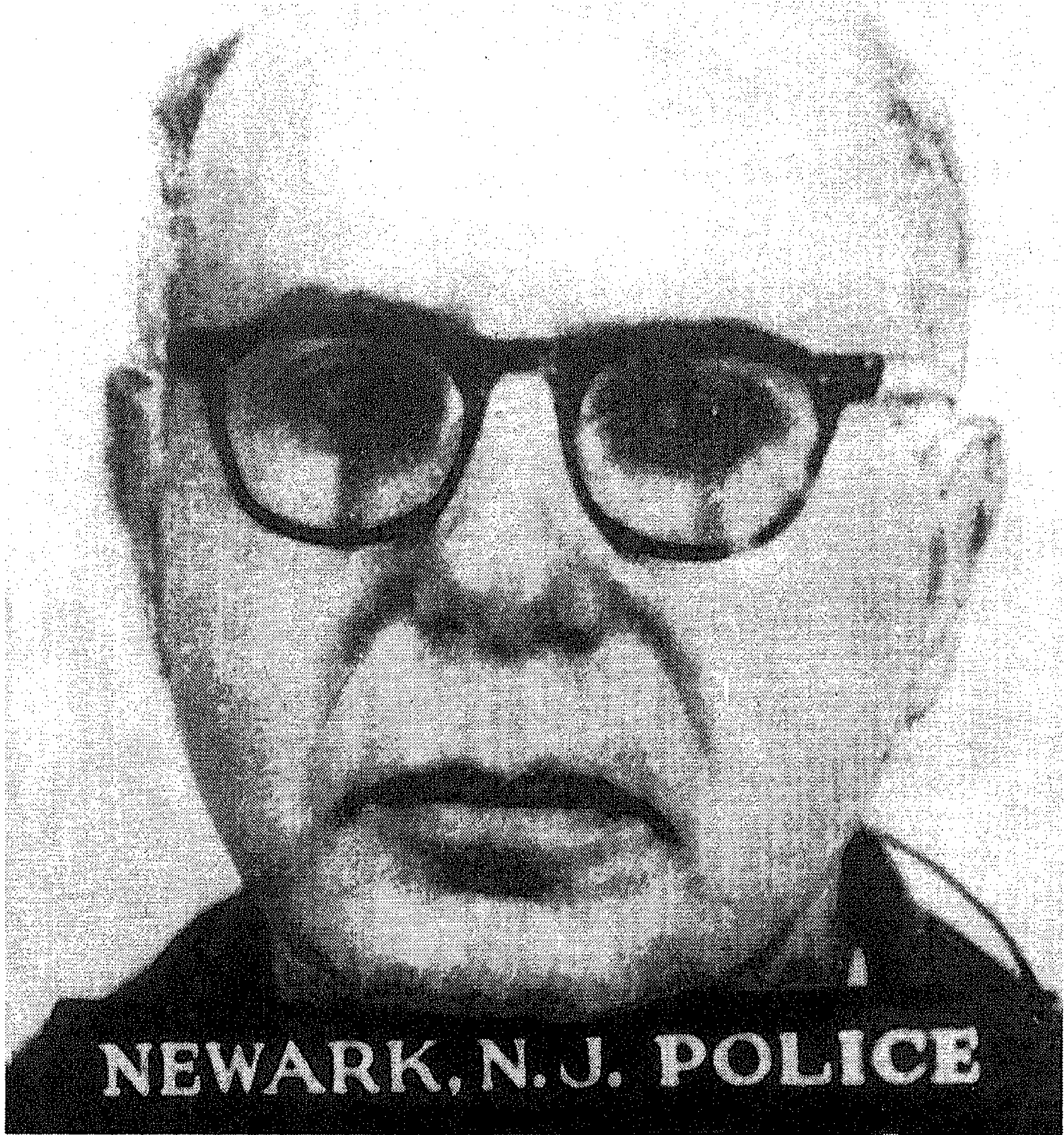
تراجُع وانحسار

قبيل نهاية القرن (حول منتصف الثمانينيات) أخذت عصابات المافيا القديمة فى الانحسار والتلاشى . فتشير التقارير الرسمية إلى أن أعداد أفرادها انخفضت إلى النصف تقريبا (أصبحوا ١٧٠٠ تقريبا يساعدهم نحو

---

(١٥) سكان الجزيرة نحو خمسة ملايين نسمة (سنة ١٩٩٥) .

(١٦) دخلت كلمة « مافيا » فى مصطلحات وزارة العدل الأمريكية المتداولة رسميا فى أوائل عقد السبعينيات من القرن العشرين . ويرفض رؤساء عصابات المافيا وصْفهم بهذه الكلمة . وفى سنة ١٩٨٤ طُلب أحدهم للشهادة أمام محكمة أمريكية فى قضية تهريب وتوزيع مخدرات ، فلما سئل عن انتمائه للمافيا ، أجاب فى سخرية أضحكت كل الحاضرين بقوله : « أنا لا أدرى ما المقصود بهذه الكلمة ؟ .. أهى تعنى شيئا يؤكل ؟ ! » .



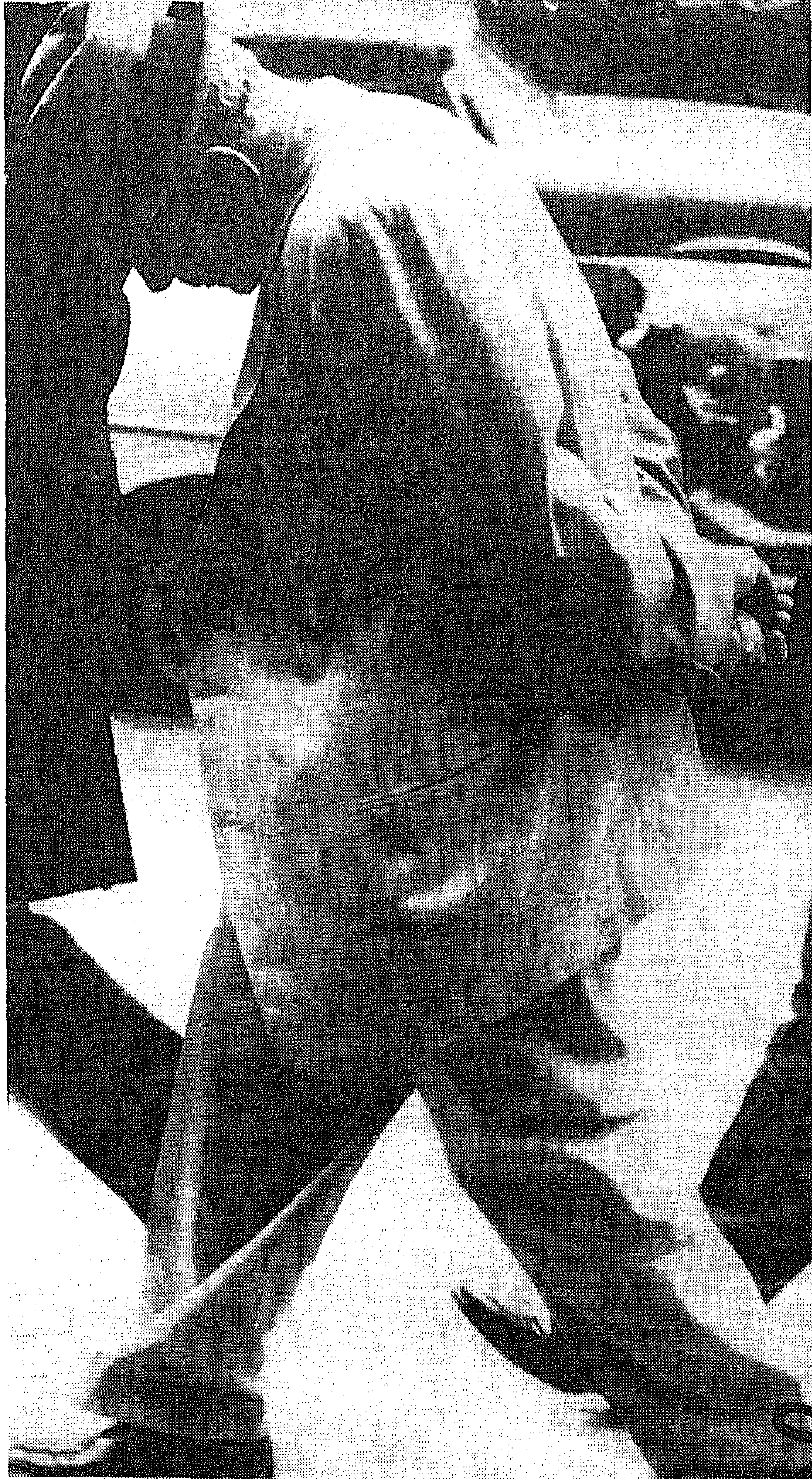
[٢] كان أبوه من الجيل الأول المهاجرين صقلية إلى نيويورك ، وبالتحديد من قرية « كاستللامارى دِل جولفو » مهد المافيا الأصلية . وُلد الابن « كارميني » في أجواء الفقر والعنف والجريمة . وفي سن العاشرة بدأ السرقة وبعد ثلاث سنوات اشترك مع بعض المتشردين من رفاقه في اغتصاب سيدة عجوز في سن الخامسة والسبعين ، فأودع إصلاحية . وفي سن العشرين صار الإجرام من طبيعته . وفي مسار حياته حُكم عليه سنة ١٩٦٥ بالسجن لعشرين سنة لاتهامه بتجارة المخدرات . فاكسبه ذلك بين أقرانه من المافيا وزنا وقيمة . وفي السجن « تعلم » و« تدرب » حتى أتقن فنون الإجرام التي كان يديرها من زنزانته بالسجن . وبلغ به الأمر في الإفساد والرشوة والنفوذ أن « اشترى » كل إدارة السجن العتيد في أتلانتا الذى « احتُبس » فيه ، لدرجة أن كان له حارسان خصوصيان مسلحان من رجاله ، يتسللان إلى زنزانته بالطابق الثانى عشر عقب غروب الشمس كل ليلة ، ويقفان عند بابها لحراسته من الاغتيال بيد أعدائه ، وينصرفان « خفية » مع شروق الشمس . ثم أُطلق سراحه سنة ١٩٧٤ قبل انقضاء معظم سنوات العقوبة بعد رشوة القضاة والمحققين والقانونيين الذين قرروا الإفراج عنه لسوء حالته الصحية . وأراد عقب خروجه أن يكون : "Capo di tutti capi" أى رئيس كل الرؤساء (للمافيا) . وقد كان ، حتى بلغ حجم تعاملاته في سنة مقتله (١٩٧٩) : ٤٨ مليار (ألف مليون) دولار أمريكى !! من تجارة المخدرات خاصة مع أعمال أخرى رديئة أو غير مشروعة . وكان منافسه – على الزعامة – الشرس اللدود « أنِيللو ديللاكروسى » الذى كان مجال نشاطه الجنس ، والدعارة ، وكازينوهات الملاهى والقمار ، والخطف ، وابتزاز أصحاب الملايين والمليارات ، ونشر الفساد في كل واد .

١٠٠٠ آخـرين)، وأسباب ذلك كثيرة : منهـا الملاحقـة القوية المستمـرة من جانب الشرطة ومكتب (وكـالة) التحقيقات الفيـدرالية (FBI)؛ ودخول عدد كبير من زعماء المافيـا السـجون لسنوات طويلة عقـابية؛ وقَتْل أو مـوت عدد آخـر (فى حوادث تصفيـة حسابات ، أو صراعـات على الرئـاسة ، أو لتقـدم السـن)؛ ومن بقى على قيد الحياة من هؤلاء الرؤســاء القُدامى أصبح عجوزا واهنا ضعيف الحماس؛ بالإضافة إلى سبب جـوهرى آخر يَتْبع سُنة التطور، وهو اتجاه العصـابات الإجـرامـيـة الجديدة إلى مجالات أوسع وأنشطة أنفع (تُدر مليـارات وليس آلافــا ومـلايين) فى شبكات تتجـاوز الحدود إلى دول أخـرى وربما قـارات مجاورة أو بعيـدة ، بفضـل تطور وسـائل الاتصـال والانتقـال والتجـارة العـالميـة (ويـدخل فيهـا تجارة المخـدرات، والجنس، والمراهنات ، والمضـــاربات ، والميسر (الـذى صـــار الآن بـالكومبيـــوتر والإنترنت)، والشركـات والبنـوك المتعـددة الجنسيـات ، وأســاليب غسيل الأموال، وتجارة وتهريب السلاح..).

إن كبار الـزعماء الجُدد للمافيا يتفقون مع أسـلافهم القُدامــى فى أشياء ، ويختلفـون كثيرا فى أشياء : إنهم يؤثرون الصمـت، ويلبسون فى تأنُّق أفخـر وأغلى الثياب ، ويتحصنون بـالصديريات المعـدنية الواقية مـن الرصاص أو السلاح الحاد ، ويؤلفون الكتب - ! - ، ويستـأجرون الخبراء والمستشارين الإعلاميين والفنيين لإرشادهم إلى الظهـور فى المجتمع بمظهر لائق «بالسيد» الجذاب المهذَّب فى سلامه وكلامه وسلوكه وتعاملاته . وتناقص عدد عائلات المافيـا الكبيرة ، فصـارت فى نيويورك الآن (كمثـال) خمس عـائـلات فقط ، وتنسحب عليهـا الظلال بالتـدريج مع الأيام، بقـدْر مـا تنتشر وتتنامى الجماعات الفكريـة المنحرفة والمذهبيـة الطائشة والعقـائدية المتطرفـة ، وقد ارتكب بعضهـا جرائم مفزعـة متنوعة ، سيـأتى الحديث عنها مفصــلا بعد قليل.

أسواق جديدة

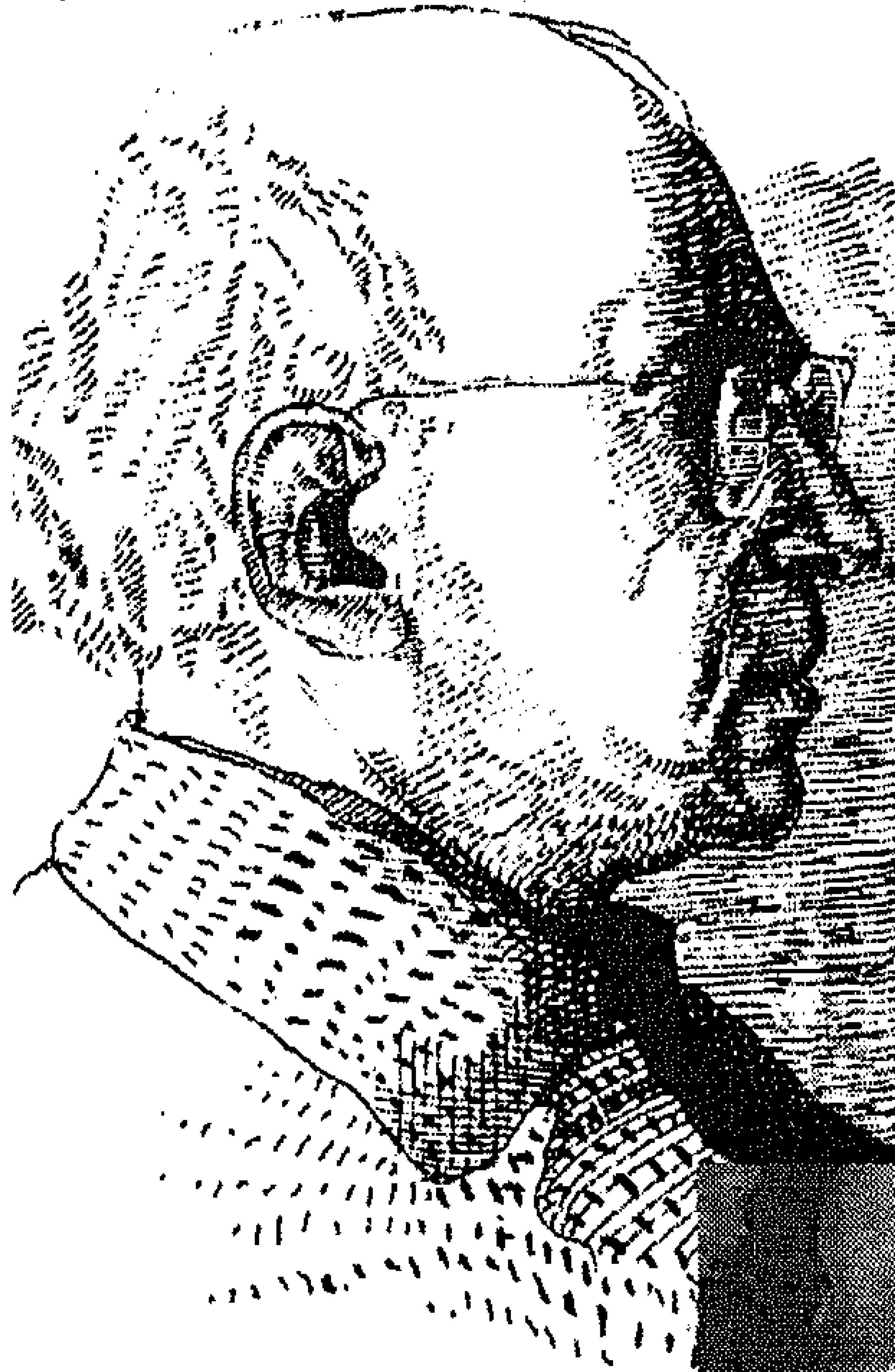
وعلى الجانب الآخر من المحيط الأطلســى، بدأت فى أوائل التسعينيات من



[٣]كان يمشى بين حراسه المسلحين الثمانية مطاطئا رأسه ليحميها بأجسامهم من رصاصات اغتيال قد تنقَضُّ عليه فجأة ، خاصة من زبانية أخطر أعدائه ومُبْغِضيه : « أُنْيللو ديللاكروسى » . والسبب : أن «جالانتى » وهو فى السجن استمال إليه نزيلا من أتباع « أنيللو » كانوا يطلقون عليه لقب « الدكتور » . فأفضَى إليه هذا « الدكتور » بأسرار وجرائم رئيسه (أنيللو) فحرضه « الجزار » – جالانتى – على إبلاغ الشرطة والقضاة بتلك الأسرار التفصيلية التى تُدين « أنيللو » ، حتى يحصل هذا النزيل – الدكتور – على عفو والخروج مبكرا من السجن – وهذا ما حَدَث . ولكن بعد خروجه بعفو خاص ، خانه الحذَر ، إذ نزل يستحم فى نهر « هدسون » فإذا برجال « أنيللو » يحيطون به ، ويربطون كتلة ضخمة من الأسمنت بحبل حول وسطه ، فهوَى سريعا إلى القاع .

القرن العشرين تحركات زاحفة للمافيا من إيطاليا نحو ألمانيا. وفى خلال عامين اثنين من سنة ١٩٩٢ نشطت الشرطة الألمانية فى تكثيف التحريات لإثبات صلة عصابات المافيا هناك بثمان وستين جريمة قتل ، وأسفرت تلك التحريات والتحقيقات عن اعتقال ثمانية وعشرين ممن ينتمون إلى المافيا وتقديمهم للمحاكمة، وكان معظمهم من أصل إيطالى.

ثم جاء انهيار الاتحاد السوفييتى ليتيح فُرصا ذهبية ومجالات على أوسع نطاق لنشاطات واستثمارات المافيا ، سواء فى روسيا ذاتها أم فى دول كتلتها الاشتراكية السابقة. وإذ تشابكت خيوط للمافيا الجديدة مع أسواق المال والأعمال العالمية المفتوحة، فإن أمامها اليوم ، وغدا ، امتدادات جغرافية واسعة شاسعة فى آسيا - عدا الصين فى المدى القريب المنظور - وربما أيضا فى أفريقيا الفقيرة المتطاحنة المستنزفة المنهوبة حتى الآن ، ولكنها ستنهض يوما وتستفيق ، فتنتعش بعد ضيق ، حين تعرف كيف تتحرر من ضغوط تحاصرها وقيود ، وكيف تُحسن استثمار خيراتها الطبيعية وكنوزها العامرة المتوارية . وحين يجرى الذهب، ويفيض المال، وتنام العيون ، ويغفو القانون، وتفسد بالترف الذمم، وتتراخَى من الشهوات الهِمم، حينئذٍ تستيقظ المافيا - فى أى شكل وتنظيم ومقصد - فتسعى سعيها ، وتُلقى شباكها ، وتستخرج الصيد الثمين!



« كارمينى جالنتى »



« أنْيللو ديللاكروسى »



« نينا » ابنة « جـالنتى » تتجه مـذعورة نحو مكان اغتياله بالمطعم الإيطالى .

[٤] لم يكتف « أنيللو » وقـد علم ما دار بين « جـالنتى » والنزيل الخائن من أتباعـه فى السجن الذى وَشَى به .. فأمر رجاله باغتيال تلميذ « جالنتـى » ووريثه فى رئاسة عصابته (ويدعى باتريك – ٣٣ سنة) فاطلقوا عليه النار فأصابت رصاصتان بطنه عَمْدا . لماذا ؟ حتى يطول احتضاره وتطول معه آلامـه ويطول غيظ « جالنتـى » الذى أصبح وأمسى خائفـا يترقب الاغتيـال فى أية لحظة من ليل أو نهار ، عقابا له على التحريض لمخـالفة قانون الصمت . فكان يغيِّر مكان إقامتـه باستمرار ، ونادرا ما كان يخرج ، وامتنع عن مقابلة أى زائر ، أو ركوب سيـارته المصفحة ، وكان يقابل ابنته « نينا » سرا داخل مدينة « ديزنى لاند » للملاهى . ولما خرج عن هذا الأسلوب الحذر ، واستجاب لرغبته فى تناول الطعام بالمطعم الإيطالى ببروكلين ، كـانت الخاتمة لحياته فى تاريخ الجريمة المنظمة ، ومثـالا على ما كان يحدث داخل جماعات المافيا ، فى جيلها السابق حتى عقد الثمانينيات .

سرقة بنك بالسُّم



الجنرال « مــاك آرثر » الحاكم الفعلى لليـابان بعـد استسـلامهـا لأمريكا سنة ١٩٤٥ .

ربما يَصْدق القول فى عالم الجريمة بأن المجرم المبتدئ – غالبا – طائش ، والمحترفَ قــارِش ، و«المثقفَ» شيطان ! (١) فماذا لو اجتمع الثلاثة فى مجرم واحد ؟ ربما كان «سـادا ميتشى هيرا سـاوا» ذلك الرجل الثلاثى السمات : طائش قارش شيطان .. وفنان !

الزمان والمكان : طوكيو – اليابان – فى ٢٦ يناير سنة ١٩٤٨..

كانت الساعة تقترب من الثالثة والنصف بعد الظُّهر ، وأبواب بنك «تِيْكُوكـو» بحى «شِيئِينا – ماتْشى» الصاخب المزدحم ، على وشك الإغلاق – وإذا برجل نحيف متسارع الخُطى يدلف إلى البنك، يبدو عليه التأنق فى سترته الفضفاضة البيضاء ، ونظراته الفاحصة ، ويضع على ذراعه (فوق الكُمِّ) شارة الهيئة الصحية الرسمية وبها كلمة «الصحة» تبدو بارزة واضحة . دخل مندفعا ، وهو يسأل بصوت سريع عالٍ فيه نبرة واثقة والجد وفظاظة المسئولين الرسميين : «أين مكتب المدير ؟». فقادوه على الفور – باهتمام زائد – إلى مكتب نائب المدير .

قـدَّم نفسه إلى «تاكيجيرو يوشيـدا» نائب المدير على أنه طبيب مدنى من الإدارة الصحية التابعة للجنرال «ماك آرثر» (٢)، وأنه أُرسل فى مهمة رسمية

(١) القرش (بفتح القاف) : الكسب (بفتح الكاف) والإفساد – والقارش يسعى بالفساد وإن جمع مالاً .

(٢) الجنرال « دوجلاس ماك آرثر » : أحد مشاهير القادة العسكريين الأمريكيين فى الحرب العالمية الثانية، الذى تولى قيادة الغزو الأمريكى لليابان ، وتحت سمعه وبصره وقَّع ممثلو اليابان

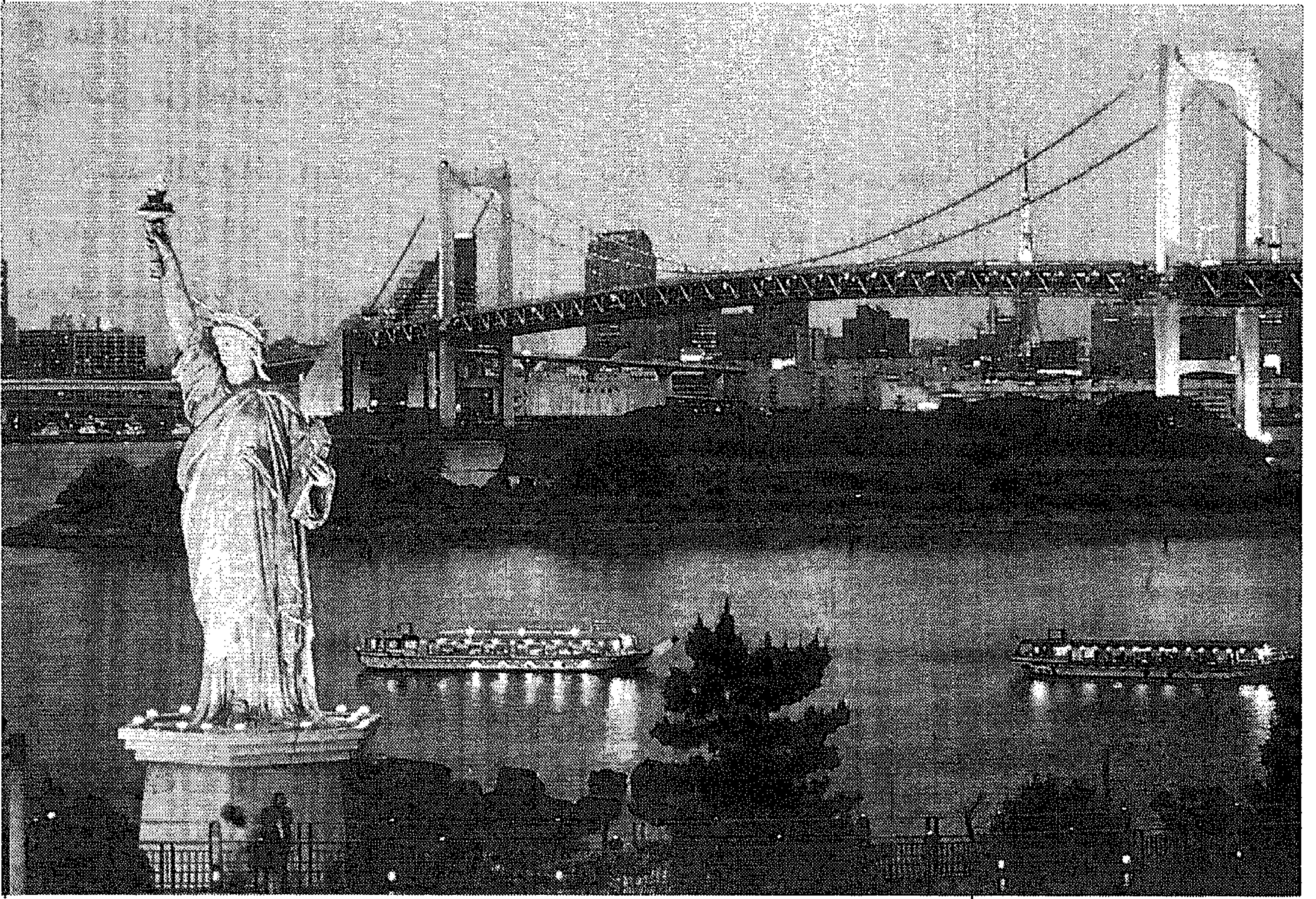
إلى هذا البنك لتطعيم موظفيه ضد الديزنتاريا الأميبية المنتشرة (آنذاك) فى ذلك الحى من العاصمة .

لا عُذر إذن لنائب مدير البنك أن يرفض . بل وافق على الفور مرحِّبا ومطيعا لإدارة الجنرال ماك آرثر وللإجراءات الصحية الوقائية . وهو يعرف جيدا أن بلاده - اليابان - واجهت مصاعب غذائية شديدة فى أعقاب الحرب ، وبسببها حدثتْ حالات تسمم كثيرة فى مناطق مختلفة . فالوقاية إذن مطلوبة ، بل ضرورية ، وها هى أداتها (التطعيم) تأتى طواعية إلى مكان العمل . ومن عجائب المصادفة ، أن مدير البنك (رئيس تاكيجيرو) استأذن فى الانصراف مبكرا فى ذلك اليوم لشعوره بآلام واضطراب فى معدته!

جَمع «الطبيب» كل العاملين بالبنك، بعد أن غُلِّقت الأبواب الخارجية لانتهاء وقت العمل المقرر ، وطلب من الحاضرين أن يأتيه كل منهم بفنجان الشاى الخاص به، ليصب له فيه سائلا أخرجه من زجاجات بحقيبة فى يده، وأخبرهم أنه سائل طبى مستحدث أقوى وأسرع مفعولا لجهاز المناعة فى الجسم من الأمصال والحُقن والأقراص الدوائية . ونَصحهم مُطَمْئنا بأن البعض منهم ربما شَعَر بألم أو تهيُّج فى الحلْق للحظات بعد شراب تلك المادة ، ولكن لا ضَيْر ، فلديه مستحضر طبى آخر للتهدئة «الكاملة» عندما يشعر أحدهم بذلك . وأخيرا ، طلب أن يُسرع كل منهم فى الشراب دفعة واحدة ، حتى يتجنب الاستياء من المذاق .

وشربوا . وفى الحال : أطلق بعضهم صرخات من الألم الشديد . ثم سقطوا جميعا على الأرض . ماتوا .. عدا ثلاثة رجال وامرأة ، وكان من هؤلاء الأحياء الأربعة:تاكيجيروا يوشيدا ، لكنهم كانوا فى غيبوبة كاملة . أسرع الطبيب المزيف بالقفز فوق جثث الضحايا ، واتجه إلى خزانة النقود ، فالتقط ١٦٤٤٠٠ يِن (عملة اليابان) مع شيك مصرفى بمبلغ ١٧٤٠٥ ينَّات ،

= المنهزمة وثيقة الاستسلام بلا قيد أو شرط (أغسطس ١٩٤٥) ، ثم صار هو الحاكم العام لليابان وواضع دستورها بعد الحرب ، والمتصرف الأول فى كل شئونها بكبرياء المنتصر وإخضاع المهزوم ، إلى أن عزله من منصبه - بما يشبه الطرد- الرئيس الأمريكى « ترومان » بعد نقاش حاد بينهما عندما أراد « ماك آرثر » أن يضرب الصين بقنبلة ذَرِّية للقضاء على الشيوعيين بزعامة « ماوتسى تونج » . فلما عاد إلى أمريكا بعد إقالته ، استقبله مواطنوه بحفاوة بالغة استقبال الأبطال الفاتحين .



ليست هذه نيويـورك ، وإنما هى « طوكيو » – باليابان وجسر (كـوبرى) « قوس قـزح وأمامه نسخـة طبق الأصل من تمثال الحرية الشهير (الذى أهدته فرنسا إلى مدينة نيويـ[illegible]) دليل على إلزام اليابان بتقليد الأمريكان ، حتى فى الجرائم الكبرى وحوادث القتل المبتكرة ، والفساد ، والرشـوة التى [illegible] بين مسئولين كبار فى بلاد كونفوشيـوس وأخلاقياته المثالية المتوارثة .. قديما .

فكان مجموعها يعـادل ٥٠٠ دولار أمريكى فقط ، ثمنا لاثنتى عشرة ضحية بشرية !

● البحث عن المجرم

مضت أسابيع ولم تستطع فِرق المحققين من الوصول إلى خيط ولو رفيع يؤدى بهم إلى معرفـة الجانى. وانتشر الخبر ، والناس فى ضَجر . فكان حتما لا مَفَر ، من اللجـوء إلى «تاميجُورو إكِيِيى ». ومن يكون ؟ إنـه مُـخْبر رسمى ذائع الصيت فى سن الثـالثـة والأربعين ، له خبرة واسعة متميـزة فى الكشف الذكى عن مجرمين سابقين وسُرَّاق وقَتَلة، فى أشد الحوادث غموضا وجرأة . فصدر إليه الأمـر بالكف عن متابعة تحرياته عن مرتكبـى حوادث فى جرائم

أخرى، والتفرُّغ للبحث عن الجانى فى واقعة «السم فى فنجان الشاى بالبنك» ، أخطر الوقائع الإجرامية فى اليابان بعد الحرب العالمية الثانية.

● المطاردة الذكية

كـان كل مـا توصل إلى معـرفته المحققـون فى تلك الواقعـة المرّوعـة ، أن الجانى المجهول سبق أن حـاول «تجربة» تنفيذ الجريمـة (كبروفة) فى بنكيْن آخرْين : بأن قـدَّم نفسه إلى مـدير كل من البنكين بالأسلوب ذاته (طبيب من إدارة الجنرال مـاك آرثر..) فتلقّى ترحيبا وشكرا ومـوافقة على العـودة مع فريق من العاملين بالوحدة الطبية العسكرية لتطعيم الموظفين فى وقت لاحق. ثم عـاد فى يوم لاحق بمفرده بحجـة أن فريق العمل معـه مشغول فى مـوقع آخـر، وأعطى العـاملين بالبنك شرابا غير سـام على أنه دواء واق ، فلم يقع ضرر. لكنه اختـار بنك «تيكوكـو» لتنفيـذ الجريمـة الكبيرة الحقيقيـة بعـد التجربتين المشجعتين .

جاء الدور فى البحث والتحـرى على «تاميجورو» . قرأ بعناية وتركيـز ما دَوَّنه المحققـون، ولفت نظره شىء واحـد لم يفطن إليـه أحـد . أن الشخـص الذى قـابل مديرىْ البنكين الآخَـرين زاعما أنه طبيب مـوفد ، ترك لأحـدهما بطاقـة شخصية بـاسم «دكتور شيجيرو مـاتْسـووِى» ، وثبت من تحريات المحققين أن الطبيب الحقيقى الذى يحمل هذا الاسم والمهنة لا علاقة له مطلقا بالحادث . فـانتهى التحقيق معـه ، وانصرف عنه المحققـون. وإلى هنا توقَّف نظر المخبر الهُمام ، وبدأ مسيرته بَحْثا عن الجانى فى الظلام.

وقبل ذلك ، لابد من معرفة شىء عن عادة سلوكية شائعة فى اليابان ، لها أهميتها فى هذا الشأن : إن تبادل البطاقـات الاسمية الشخصية (« الكارت » بالاسم والعمل ورقـم التليفـون) يؤدى دورا مُهما فى العـلاقـات والحيـاة العامة، ويحتفظ اليابانيون بها جيـدا للرجوع إليها دائما فى قضاء شئونهم . ولذا ، عندمـا سأل المحققـون دكتـور «ما تْسـووِى» عن بطاقـاته الاسميـة الشخصية ، أخبرهم أنه طبع منها مـائة فقط ولم يبق لديه سوى أربع ، وأنه تبادل نصف الكمية تقريبا مع أشخاص فى مناسبات مختلفة ، والباقى أعطاه لمرضاه . فاضطر المحققـون إلى سؤال كل المرضى المسجَّلين بعيادة الطبيب ، وكل من تذكَّر أنه تبادل البطاقات معهم . ولكن بلا جدوَى .

طرح المخبر «تاميجـورو» جـانبـا أسماء كل المرضَى ، ورجَّح أن الجانى لابد أن يكون واحدا من معارف الطبيب «مـاتْسووى» أو الأشخاص ورجال الأعمال الذين أعطاهم بطاقته . فاتصل بهم واحـدا واحدا ، وسألهم ، ثم عاد يسألهم ثانيـة ، وثالثـة ، وبطـريقـة مختلفـة فى كل مـرة ، وتحرَّى سرا عن حسـابات كل منهم بالمصـارف وعن أحوالهم الماليـة . فقـاده ذلك إلى الشك الأكبر فى فنان ممثل يحظَى بقدْر مـا من الشهرة ، كان الطبيب «مـاتسووى» قابله فى رحلة بحـرية . اسمه «سادا مِيتْشى هيرا ساوا» يبلغ من العمـر ستا وخمسين سنة ، يعيش فى جزيرة «هُوكَّـايدو» اليابانيـة. سبق أن استَجوبه المحققون ، لكنهم استبعدوا اتهامه أو الشك فيه، لأنه كان لطيفا ظريفا هادئ الطبع والسلوك وواثقا من نفْسه . ومع ذلك : ..

اكتشف المخبر «تاميجورو» أن هذا الفنان الممثل كان فى العـاصمة طوكيو يوم ارتكاب الجريمـــة ؛ وبالفحص الدقيق والتحـرى عن تحركـــاته فى ذلك اليوم، تبيَّن احتمال وجوده ببنك «تيْكوكو» سـاعة ارتكاب الجريمة ؛ وبمزيد من التحـرى والتنقيب ، عَلم المخبر أنه كـان فى ضـائقـة مـاليـة قبل وقـوع الجريمـة ؛ وبعـــدها مبـاشرة أَوْدع ٤٤٥٠٠ ين فى حســـابه بالمصرف الذى يتعامل معه ، ألا يكفى ذلك كله فى الاقتنـاع بأن «سادا ميتشى هيراساوا» هو «الصيد المطارد» الذى يبحث عنه «تاميجورو» واليابان جميعها ؟ كان المخبر الحصيف الهمام على يقين من أن تدبير الجريمـة البشعـة على هذا النحـو ، لا يَصْدر إلا عن تَصَــوُّر «فنان» مُغْرق فى الخيال والمبالغـة والشذوذ . ولم يكن أحد غيره من المشتبه فيهم «جديرا» بهذه الصفات .

على الرغم من طلب المحققين أن يكُـف «تاميجـورو» عن تعقُّب الفنان غير المشتَبَـه فيـه وتركيـز البحـث والتحـرى عن غيره ، إلا أنه – المخبر – كـان يخالفهم الرأى ، وفى يقينه – بـالممارسـة والخبرة – أن القـاتل قـد يمـوِّه ويُخادع ويَحْجب بعض الحقـــائق فيكْذب وربما عن غير قَصْـد . وهـذا مـا حَدَث!

فقد زعم «ساداميتشى» أن النقود التى أودعها فى البنك كانت أجرا له عن عمل تمثيلى أعطاه لـه أحـد المنتجين الفنيين. لكـن المخبر اكتشف بتحـــرياته

السرية أن هذا المنتج مات قبل الحادث ببضعة أشهر . فكتم هذا الاكتشاف فى نفسه ، واستمر فى لقاءاته مع «ساداميتشى» يعامله باحترام زائد وتلطف ، حتى إنه طلب منه صورة فوتوغرافية شخصية موقعة بإمضائه إعجابا بفنه. فاعتذر «ساداميتشى» بأنه لا يملك صورا شخصية ، وهذا – فى ظن المخبر – أمر غريب غير مألوف ، إذ أن الفنانين جميعا يحتفظون عادة بصورهم التى يهدونها للمعجبين والمعجبات فى شتى المناسبات ، وأحيانا تكون نوعا من الدعاية لهم واكتساب مزيد من الشهرة . وفى ليلة ، دعا الفنان لتناول العشاء معا ، واستبقه إلى المطعم قبل الموعد المحدد، واتفق مع مضيفة المطعم أن تلتقط له ولصديقه القادم صورة فوتوغرافية أو اثنتين معا بعد الانتهاء من الطعام كتذكار لمناسبة يحتفلان بها فى تلك الليلة .

والتقطت المضيفة صورتان لهما لحظة أن هَمَّا بالانصراف . لكن «ساداميتشى» – بذكائه وفطنته – فَوَّت عليه الفرصة : إذ أدار وجهه بسرعة فلم يظهر فى الصورة الأولى ، وأخفى وجهه بيده فى الثانية . كان هدف «تاميجورو» أن يَعْرض صورته على الناجين من موظفى البنك للتعرف عليه.

وأخيرا ، وقع «ساداميتشى» بسذاجة فى شراك المخبر . فعندما سأله «تاميجورو» عن البطاقة الشخصية «الكارت» التى أعطاها له الطبيب «ماتْسووى» ، ارتبك لحظة ثم تلعثم وهو يقول إنها كانت فى جيب معطف كان يرتديه فى الليلة السابقة وسُرق منه بأحد المطاعم . وهنا باغته «تاميجورو» بالسؤال مستنكرا : «وهل يلبس الناس فى طوكيو معاطف فى شهر مايو الضبابى الحار؟!» . فأُسْقِط فى يده ولم يستطع إجابة !

● الاعتراف والمحاكمة

انهار تماسُك «الفنان : « اللطيف الظريف الهادئ الطبع والسلوك الواثق من نفسه » ! وزعم أنه لم يكن يقصد القتل أو السرقة ، وإنما كان فقط يُجرب «مهارته» الفنية عمليا قبل الشروع فى كتابة رواية تمثيلية (!!)، وأنه لسوء حظه – ولقَدَرَ الضحايا – ربما أخطأ فى إعداد الشراب الذى تناولوه ، فأضاف إليه كمية أكبر من سيانيد البوتاسيوم، بدليل أنه أجرى «التجربة» مرتين قبل ذلك ولم تحدث أضرار على الإطلاق .

وفى المحاكمة ، أنكر المتهم اعترافاته السابقة ، مُـدَّعيا أن محققى الشرطة انتزعوا منه اعترافا بالإكراه بعد أن منعوه من النوم ليومين كاملين متتاليين. وانقسم الرأى العام فى أثناء المحاكمة بين مُنحاز إليه ، وساخط عليه . إذ فى تلك الفترة القلقة الضاغطة بالشقاء والبؤس من تاريخ اليابان الحديث ، كانت صيحة «الديموقراطية» – بمفهومها الغربى الغريب على أهل البلاد الغاضبين من الاحتلال الأمريكى – كانت تدوِّى بشعارات الإصلاح والانفتاح ، وحقوق المتهمين فى الدفاع عن أنفسهم بكل أسلوب مُتاح . ومع أن جرائم القتل الجماعى – القليلة – بالسم كانت تثير سخط الجماهير ، إلا أنه فى حالة «الفنان» ساداميتشى كان الأمر مختلفا . وتكونت هيئة للدفاع عنه ، مرتكزة على أن شهادة بعض الناجين من القتل بالسم كانت مُبْهَمة متداعية غير متماسكة ، وبعضهم تردد فى التعرف على المتهم – وفى النهاية : صدر قرار المحكمة بإدانة «ساداميتشى هيراساوا» والحكم عليه بالإعدام شنقا .

فى ذلك الوقت ، كانت حملة الكثيرين من المثقفين والجمهور على أَشُدِّها ، مطالبة بإلغاء عقوبة الإعدام . وتم لهم ما أرادوا . وكان «ساداميتشى» على رأس قائمة الأربع والعشرين متهما المنتظرين تنفيذ الحكم . فلما أُلغيت العقوبة ، تحوَّل الحكم إلى السجن مدى الحياة . وقد طالت ، حتى مات على أثر التهاب رئوى شديد ، فى مايو سنة ١٩٨٧ ، وكان فى سن الخامسة والتسعين .

● **بعد المحاكمة**

فى وقت أن كان عدد كبير من اليابانيين الـمُهْتمين بمتابعة القضية والانحياز إلى جانب «الفنان» مطالبين بعدم إعدامه، كان كثيرون آخرون ينادون بمكافأة «المخبر» تاميجورو إكِيِيى». وظَهَر أنه ضابط بالاستخبارات السرية . وعندما أنهى مدة خدمته الرسمية (بالإحالة إلى المعاش) فى سنة ١٩٦٤ كان فى درجة «مفتش» ، ونال شهرة جماهيرية واسعة ، جعلته يلقى احتراما وتحية كلما مشى فى الطريق .. وياله من طريق!

نجم اللصوص يسرق قطار لندن

الجريمة لا تُفيد !

نعم .. ولكن ليس دائما ! فلولا الشر مـا ظهرت معـالم الخير ، وتحددتْ . وقيل يومـا لأمير المؤمنين عمـر بن الخطـاب عن رجل : إنه لا يعـرف الشر . فقال عمر : «ذلك أَحْرَى أن يقع فيه».

والجريمة التى نطالعها الآن صنعتْ «نجما» . فكما «تشرق» أو تطل علينا «نجـوم» – فى كل صباح ومسـاء – زاهرة مُبهـرة وأخرى زائفـة طافئة ، فى مجالات شتى من الحياة ومن خلال أجهـزة ووسائل الإعلام ، يصنع القَتَلة والظَّلمة والسراق والمنحرفون لهم «نجوما» ومشاهير ، وقد يصبح واحدا – أو واحدة (١)– من هؤلاء شخصية بارزة فى المجتمع ، تتحدث عنها الصحف، ويستضيفهـا التليفزيون ، وتستمـد منها السينيما روايات وقصص أفـلام ومسلسلات .

---

(١) من هؤلاء النسوة الشهيرات فى عالم الجريمة ثم فى دنيـا السياسة : الفتاة الهندية « فولان دوفى » التى كانوا يسمونها : « المرْعِبة » ، ووصفتها الصحافة الأوروبية بأنها « زعيمة العصابة الأكثر إرهابا فى العالم » . وقصتهـا باختصار : أنها كـانت تحب شابا هنديا اغتالتـه عصابة إجـرامية فاقسمت لتثأرنّ لمقتله ، فكونت عُصْبـة نشرت الرعب فى شمال الهند طوال سنوات الثمانينيـات من القرن العشرين ، وارتكبت ما لايحصى من السرقة والنهب والخطف ، وقتلت ثلاثة وعشرين من أفـراد العصـابةالتى قتلت عشيقهـا، ثم عقدت اتفـاقـا مع السلطة الحاكمـة بالولاية (أوتار برادش) بعد أن ملت حيـاة التخويف والمطاردة وخشيت على نفسهـامن القتل ، وتم الاتفاق على أساس أن تسلم نفسهـا وأسلحتها وأفـراد عُصْبتها للسلطة وأن تودع السجن (إذ فيـه أمان على حياتها) مقابل إصـدار عفو عن جميع ما ارتكبت سـابقا . وبعد صدور هذا العفو الشـامل عنها ، استمرت بضع سنوات فى السجن ، ورشحها انصارها و « المعجبون » بها فى الولاية (لأنها كانت عطوفـة على الفقـراء والمحتـاجين وظهيرة للمظلومين والمقهـورين) وصـارت عضـوة فى برلمان الولاية ، وأنتجت عنها السينيما الهندية والفرنسية أفلامـا روائية ، وآخر كتاب صدر بشانها فى سنة ١٩٩٣ بعنوان : « Devi » تحكى فيه قصةحياتها .

● التخطيط الجيد

نقـول دائما : جـودة التخطيط والإعـداد ضمان لتحقيق الجزء الأكبر من نجاح أى عمل ، حتى ولو كان جريمـة . والسطو على قطار جلاسجو – لندن فى أشهـر عملية سرقـة فى القـرن العشرين تم بنجـاح لتوفُّـر بعض العناصر الأسـاسيـة فى مقدمتهـا : التخطيط الجيـد مع الإعـداد الملائم ؛ والمعلومـات الصحيحة فى الوقت المناسب مع التكتم الشديد ؛ والخبرة «الفنية» مع السرعة الخاطفة فى التنفيـذ ؛ ويضـاف إلى ذلك الجرأة فى التصـور وفى الأداء المقرونة بالثبات عند المواجهة .

وكـان «العقل» المخطِّط المدبر لهذه العمليـة ممثَّـلا فى «رونالد – رونى – بيجْز» الذى اشترك مع ستـة عشر رجلا آخرين بقيادة «جـوردون جودْنى» وزعامـة «تشارلز ويلسـون» فى تلك الواقعة التى أذهلت بريطـانيا ، فى وقت كانت تُعانى فيه من أزمات ومشكلات سيـاسية واجتماعية خطيرة مؤرقة . فقبل شهر واحـد من ذلك الحادث كان الجاسـوس «الثمين» البريطانى «كيم فيلْبى» قد فر هاربا إلى موسكو [٢]. ومن جانب آخر كانت التيارات المعارِضة للحكومة القائمة على أشُدها وتطالب باستقالتها . ثم زاد من تعقيد المشكلات وقوع تلك «الضربة القاضية» بسرقة القطار .

نَمَى إلى علْم العصـابة خَبرٌ على جـانبٍ كبيرٍ من التكتم والحذر : أن قطارا خـاصـا – غير مُدْرَج على جـداول القطارات المُعْلَنَة – سيغـادر جـلاسجـو (اسكتلندا) فى الثامن من شهـر أغسطس ١٩٦٣ يحمل فى جوفـه مع رسائل البريد ، ثلاثة ملايين من الجنيهـات الاسـترلينية (تعادل فى نهاية القـرن نحو ثلاثين مليونا)[٣] هـى المبالغ النقدية الزائدة عن حاجات البنوك الاسكتلندية لإيداعهـا فى فروعهـا أو مراكـزها الرئيسيـة فى لندن ؛ وأن القطار سيقضى الليل كله فى مسيرته ؛ وأنـه سيحمل فى العـربة الأخيرة منـه (وهو مكون من اثنتى عشرة عربة) خمسة وسبعين من عمال البريد غير مسلحين.

---

(٢) سيأتى الحديث عن هذا الجاسوس فى الجزء التالى من هذه السلسلة بإذن الله .

(٣) تذكر بعض المراجع أن المبلغ كان نحو خمسة ملايين جنيه استرلينى .



إلى اليمين : وسط لندن .
وصورة (أسفل) لمحطة قطار قديمة فى جلاسجو باسكتلندا من القرن التاسع عشر تحولت اليوم إلى سوق تجارية كبيرة (مول) مع الاحتفاظ بعمارة العصر الفيكتورى التاريخية .

بعد الحصول على هذه «الإخبارية» الثمينة ، وُضِعَت الخطة على النحو التالى عقب «دراسة ميدانية» دقيقة :

* تحديد الموقع الذى سيبدأ عنده الهجوم على القطار والساعة (الثالثة صباحا) .

* تغييرات سريعة ودقيقة فى الإشارات الضوئية الكهربية فى الوقت المناسب عند المنطقة التى سيمر بها القطار بحيث يهدئ سرعته عند ظهور الضوء الأصفر (المزيف). ثم يقف تماما عند ظهور الضوء الأحمر (المزيف أيضا) عند نقطة محددة بجوار جسر (كوبرى) فوق منحدر من الأرض (كان لابد من ضم فنى إشارات سكة حديد إلى العصابة ، وفنى آخر لديه خبرة بقيادة وتشغيل القاطرة).

* وقوف ثلاث سيارات ذات لون مشابه للون السيارات العسكرية ، اثنتان منها «لاند روفر» والثالثة شاحنة ضخمة ، متوارية عند أسفل الجسر مباشرة قبيل الثالثة صباحا ، وملاصقة للمنحدر.

* قطْع أسلاك تليفونات الطوارئ فى المنطقة المختارة قُبيل وصول القطار إليها .

* إعداد ما يلزم من أسلحة وأقنعة وقفازات لأفراد العصابة .

* اختيار مكان إيواء آمن متوارٍ ، للجوء إليه بالغنيمة غير بعيد من منطقة السطو تجنبا للمطاردة عندما تتحرك الشرطة .

* الالتزام الصارم بالتكتم والحذر وقوة التحمل مع الهدوء وتجنُّب الإثارة أو الاستثارة أو حتى الكلام فى أثناء التنفيذ إلا عند الضرورة القصوى.

● والتنفيذ الجاد

قُبيل الساعة الثالثة صباح الثامن من أغسطس ١٩٦٣ ، اقترب القطار مسرعا من قرية «شِدينجتون» التى تبعد ستة وثلاثين ميلا شمال غرب لندن . فأبصر قائده إشارة المرور الضوئية صفراء، فأخذ على الفور فى تهدئة

السرعة (كانت إشارة زائفة مضللة) . ثم رأى بعد قليل إشارة المرور حمراء (مزيفة أيضا) فتوقف . وتوقف فى اللحظة نفسها «بيتر العجوز» عن تدخين غليونه (البايب)، وخرج عن استرخائه الهادئ وهو جالس فوق سور الجسر (الكوبرى) ليباشر مهمته : فهو السائق البديل للقاطرة . وانضم إليه بقية أفراد العصابة عدا اثنين مسلحين ظَلا واقفين على مَقْربة للحراسة ، واثنين آخرين عند السيارات الثلاث أسفل الجسر .

تَقَدم «ديفيد وَيتْبى» فى الظلام الحالك نحو القاطرة للاستطلاع . وبعد لحظات تسلل فى جُنْح الظلام اثنا عشر رجلا بأسلحتهم وأقنعتهم وقفزوا إلى القاطرة لمباغتة قائدها ومساعده ، فقيدوهما على الفور ، ثم طلب «جوردون جودى» من «بيتر العجوز» أن يقود القاطرة لمسافة ميل واحد حتى تقف تماما عند حافة الجسر . وفى اللحظة ذاتها كان أفراد من العصابة قد فصلوا العربة الثانية بعد القاطرة عن العربات العشر الأخرى للبضاعة، حيث كان «الكنز الثمين» فى العربتين الأولى والثانية مع طرود ورسائل البريد . وفى الحال هجم أفراد من العصابة حُراس العربتين الخمسة ، وطرحوهم أرضا وقيَّدُوهم بأغلال وهددوهم بالقتل إذا نطق على أحدهم بكلمة أو صدر أى صوت منهم .

وفى داخل القاطرة كان المشهد مثيرا ساخرا : «جوردون» متعجل قلق ، و«بيتر» ينظر فى هدوء – أو فى برود – إلى عداد الضغط ويقول لصاحبه فى تُؤَدة : « لا أستطيع فكَّ الفرامل إلا إذا كان مؤشر عداد الضغط عند ١٦ بوصة» (حتى يمكنه تحريك القاطرة بالعربتين خلفها إلى حافة الجسر). فيستشيط «جوردون» غضبا ويشتم بألفاظ بذيئة عداد الضغط الذى رفع ضغطه هو ! ويأمر ساخطا «بيتر» بالتعجيل والتحرك.

عند حافة الجسر أسرع السُّرَّاق بإنزال مائة وعشرين جِوالا منتفخا بالنقود، تزن طنين ونصف طن ، تقاذفوها فى سلسلة واحدا بجوار الآخر حتى السيارات الثلاث المنتظرة أسفل الجسر . واستغرقت عملية السطو من بدايتها إلى أن تحركت السيارات بالغنيمة أربعا وعشرين دقيقة ، فى حين أن

نَقْل تلك الأجولة من القطار إلى السيارات فى الظروف العادية يحتاج إلى ثلاث ساعات على الأقل.

وبينما كان الجناة منهمكين فى عملية السطو ، كان العمال الجالسون فى العربة الأخيرة يَغُطون فى نوم عميق ، وبعضهم يَسمْرون ويثرثرون . فلما طال كثيرا بهم وقوف القطار ، خرجوا يستطلعون السبب ، وهم يحسبون أن عُطلا أصاب القاطرة . ثم إذا بهم يكتشفون فجأة اختفاءها وعربتين خلفها ! دُهِشوا ، وذُعِروا ، وجرى اثنان من بينهم للبحث عن تليفون طوارئ . وبعد تَحَسس قلق فى الظلام ، اكتشفا أن التليفون معطَّل . فأسرعا يَرْكُضان إلى الذى يليه . وأخيرا أُبْلغت الشرطة . كان قد مضى خمس وأربعون دقيقة منذ أن توقفت القاطرة عند جسر شِدينجتون . وعند وصول الشرطة إلى مكان الحادث ، كانت سيارات العصابة تقترب مع شقشقة الفجر من مزرعة صغيرة بمنطقة ريفية تبعد ستة وعشرين ميلا عن موقع ارتكاب الجريمة ، وكان «جوردون جودنى» – قائد العصابة – قد استأجر بيتا ريفيا قديما بها ، للاختباء فيه بالمسروقات .

وما أن استقرت العصابة مع غنيمتها فى ذلك البيت المتوارى حتى بدأت فى عَد النقود وتقسيمها . فكان نصيب كل فرد ١٤٧٠٠٠ جنيه استرلينى (تعادل ١,٨ مليون جنيه فى سنة ٢٠٠٠) ، وزاد نصيب «بيتر العجوز» ٤٠٠٠٠ جنيه ، وهو الذى كان يعيش على إعانة اجتماعية مقدارها ثلاثة جنيهات فى الشهر !

كانت فرحتهم بنجاح خطتهم والفوز بغنيمتهم فرحة كبيرة مضاعَفَة . واتفقوا على برنامج عمل يلتزم به الجميع بكل دقة وحذر : أن يظلوا ماكثين فى هذا البيت لأطول فترة متصلة ، لا خروج منه ولا يُسْمح بدخول أحد ، حتى تهدأ الضجة الغاضبة التى سوف يثيرها ويؤججها انتشار خبر الجريمة وأحاديث الناس والإعلام عنها ؛ وأن تَبْقَى نوافذ البيت مغلقة باستمرار، والستائر مُسْدَلة عليها ؛ وتَحَرِّى الحيطة والترقُّب ليل نهار ؛ ودائما دائما تُلْبَس القفازات حتى لا تُتْرَك بصمات أحد منهم بعد مغادرة

المكان ؛ وأن يكون الكلام والحوار فيما بينهم أو بين بعضهم البعض بصوت خافت أو بإيجاز تفسره الإشارة . وبالفعل ، التـزموا بما اتفقوا عليه ، لكنهم لم يلبثوا خمسة أيام حتى سمعـوا من الإذاعة (الراديو) أن الشرطة فى بحثها المكثف عن عصابة سرقـة القطار ، قررت التحـرى والتنقيب الدقيق فى دائرة قُطرها ثلاثون ميـلا من مكان وقـوع الحادث . معنى ذلك أن البيت الذى هم قابعون فيه ، يدخل فى نطاق تلك الدائرة . فلابد إذن من مغادرة المكان بسرعة . وكـان من حُسن حظهم أن شرطيا من سكـان القرية المجـاورة للمزرعـة، لاحظ أن ستـائـر البيت الذى يختبئون فيـه دائما مغلقة ، وسمع حـركـة فى داخله أكثر من مـرة ، فلما أبلغ رؤساءه ، وداهمتْ قـوة من الشرطة الجنائية البيت ، كان أفـراد العصابة قـد غادروه قبل ساعـات، ومع كل منهم أدواته وسلاحه ونصيبه المقسـوم ! لكنهم خَلَّفُوا وراءهم خطأ لم يتداركوه – ربما لتعَجُّلهم – وهو الذى أدى إلى التعرف عليهم . فنادرا ما جريمة تكتمل !

● **طار المال وسُجن الرجال**

كانـوا قد اتفقوا مع رجل بسيط فى المزرعة – قبيل مغادرتهم للبيت – أن ينظفه جيدا ويغسل كل شىء فيـه قابل للغسيل أو يمسح بعناية مالا يُغْسَل بمنشفة مبللة ، بحُجة أن أفرادا من مجموعة الأصحاب هذه مُوَسْوَسون من ناحية النظافة والوقـاية الصحية (والقصد : إزالة ما قـد يكون تركوه سهوا من بصمات) . ونفحوا الرجل أجرا سخيا مشجعا قبل أن ينصرفوا مُوهمينة بالعودة بعد ساعات . لكن الرجل تباطأ وربما تكاسل ولم ينفِّذ ما أمروه به . فلما جاءت الشرطة وفحصت جيدا المكان ، تصاعد فى نفوس رجالها الشك – والشُّرَطِى شكاك بطبعه أو بطبيعـة عمله – وتحوَّل هذا الشك إلى يقين عندما عُثِـر على بصَمات على زجـاجـة مشروبات ، وعلى «زَهْر لعبـة طاولة» ، وعلى أشيـاء أخـرى فى المطبخ والحمام . إنها بَصَمات مجرمين معـروفين . لابد أن أفراد عصابة السطو كانوا مختبئين هنا . فأين ذهبوا ؟

توجَّه بعضهم فى اطمئنان إلى بيوتهم وأهليهم ، وفضَّل الحذرون اللجوء إلى أوكار أصـدقاء لهم . لكنهم جميعا لم يكونوا أقل خشية وقلقـا مما كانوا

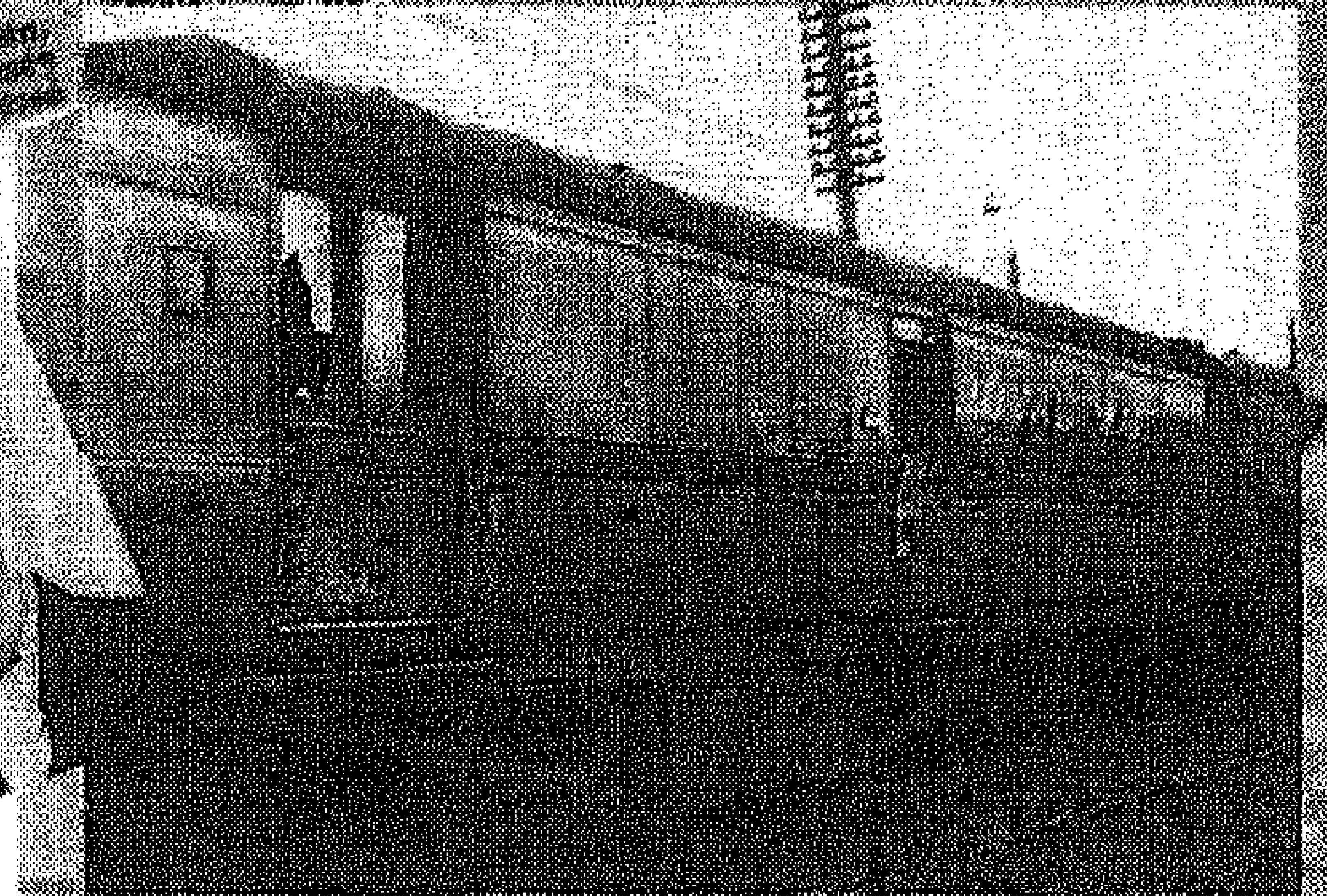
LONDRES : Daniel NORMAN

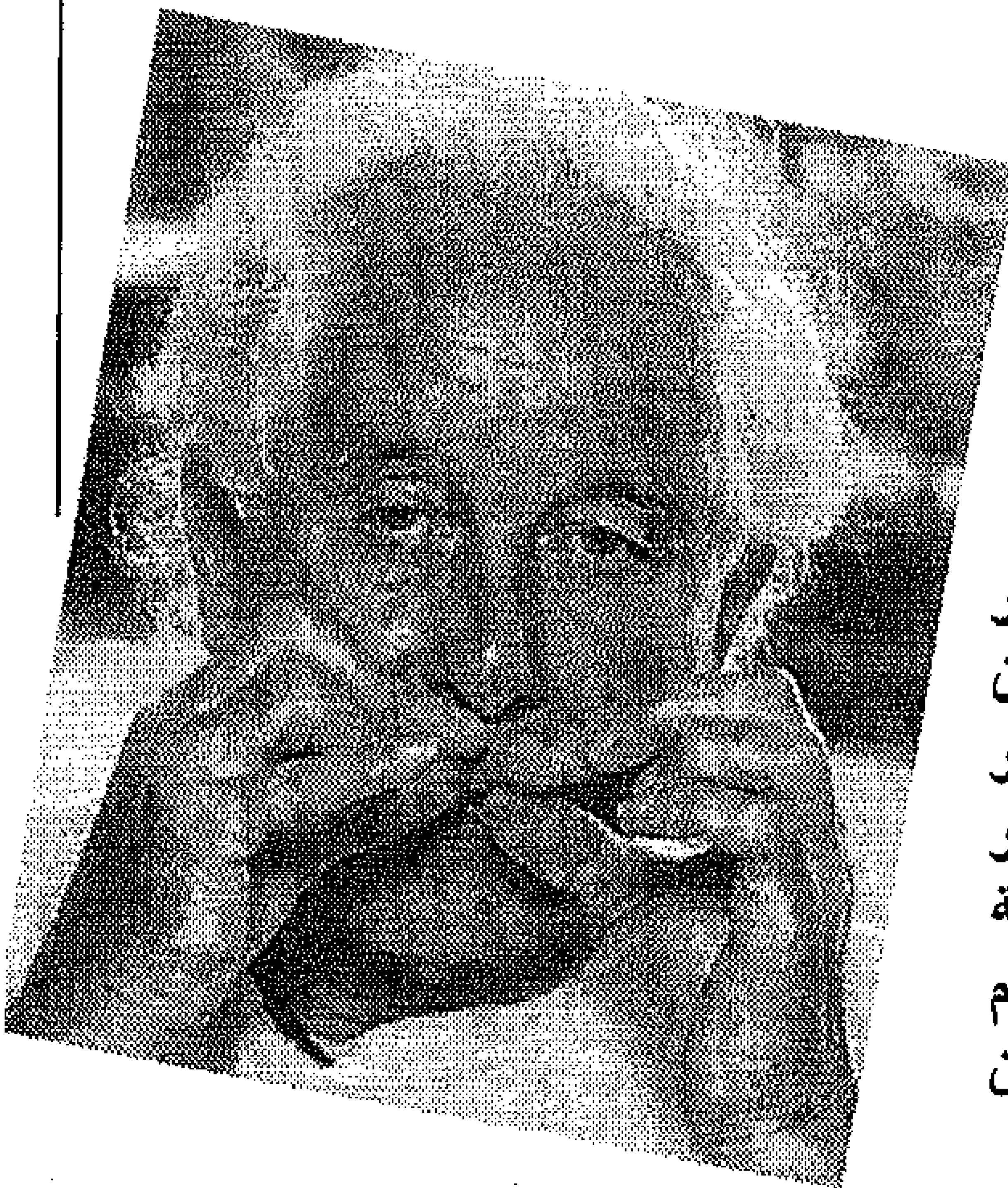
LE PILLAGE DU TRAIN POSTAL

« Il faudra deux ou trois années pour récupérer tout le butin »

DÉCLARE UN CHEF DE LA POLICE







انتشر فى العـــالم كلــه نبأ السرقـــة الكبرى مـن قطار جلاسجو – لندن فى أغسطس ١٩٦٣ كما تُظهر عناوين هذه الجريدة الفـــرنسيـــة ومعهـــا صـــورة للقطار وبجـــوارهـــا صـــورة لصـاحـب العقل المخطط والمدبر للسرقـــة « رونالد بيجْز » . وبعـد ست وعشرين سنة صـــورة « رونالد – أورونى » إلى اليســـار وهو مقيم بالبرازيل مشيرا بيديه وفمه إلى حكمة قالها : « إذا كان الكلام من فضة ، والصمت عندى من ذهب » .

عليـه فى بيت المزرعة . لقـد أفلحت خطتهم أو مغامـرتهم ، وأصبح فى أيديهم المال وهو بالنسبـة لهم ثروة، ولكن لم ينعمـوا بسـاعـة أمن أو هدوء . ومع تزايد الخوف والقلق، فكـر كبيرهم «جـوردون» مع آخـــرين فى العـودة إلى المزرعـة الريفيـة وإضرام النار فى البيت الـذى كـانوا مختبئين فيـه زيادة فى الحيطة ، إذ ربما تركوا بصمات فيـه . لكن الوقت كان متأخـرا . فقد نشطت أجهـزة الشرطة – ستــون ألفـا من رجـــالها ومخبريها – فى تفتيش البيت

ومحاصرته والبحث عنهم فى كل مكان ، فى حين تولت شرطة سكوتلانديارد تعقُّب مصير النقود . وبعد بضعة أشهر كان معظم أفراد العصابة فى قبضة الشرطة انتظارا للمحاكمة . أما الغنيمة الثمينة، فلم يُعثر منها إلا على ٣٤٣٤٤٨ جنيها فى شهر ديسمبر (منها ٥٠٠٠٠ جنيه عثر عليها فى صندوق (كابينة) تليفونات عامة !).

● المحاكمة

استغرقت محاكمة المتهمين سبعة وستين يوما . وفى ١٦ أبريل ١٩٦٤ أصدرت المحكمة قرارها بإدانة الجميع ، وحَكمتْ على سبعة منهم بالسجن ثلاثين سنة لكل منهم ، وعلى اثنين بخمس وعشرين سنة لكل منهما ، وعلى المتهم العاشر بأربع وعشرين سنة ، والحادى عشر بعشرين سنة ، والثانى عشر بثلاث سنوات وبقية المشتركين فى جريمة السطو على القطار لم يُعثر لهم على أثر لأنهم كانوا فى غاية الحذر ولم يخلعوا قفازاتهم فلم تعثر الشرطة على بصماتهم . ولقد حذَّر القاضى «إدموند» من أن جرائم السطو على القطارات فى المستقبل ستكون بأعداد أقل من المجرمين مع استخدام أسلحة أكثر تطورا ، فتكون الخسائر أضخم وذلك إذا لم تُتخذ الاحتياطات والترتيبات التى تَحُول دون وقوع تلك الجرائم .

● بعد المحاكمة

كانت دهشة البريطانيين كبيرة عندما أعلن مدير سجن «دُورهام» أنه فى حاجة إلى «جيش» لحماية السجن الذى ينزل فيه ثلاثة من عصابة السرقة الكبرى لقطار جلاسجو – لندن . وقال فى تصريح للصحافة ، فى فبراير سنة ١٩٦٦ : «لا أستبعد أن يكون جوردون ورفاقه يُعِدون لهجوم مسلح حتى ولو أدى بهم الأمر إلى استخدام دبابات ، وقنابل ، وما يسميه الجيش أسلحة ذرية محدودة»!

ولم يكن المدير مازحا . بقدر ما كان واعيا محذِّرا . فقد استطاع جوردون – الذى كانت لديه موهبة فنية فى الرسم – أن يضع خطة ذكية للهرب من السجن : استمال إليه السجان الحارس لزنزانته ، وأقنعه برسم صورة

زيتية له ، وأجلسه أمامه فى استرخاء عدة مرات ليرسمه ، ثم غافله واسْتَلب فى مرة منها مفتاح زنزانته الذى كان متدليا من سلسلة معلَّقة بحزام الحارس . وبسرعة فائقة رسم بدقة شكل المفتاح على ورقة ثم أعاده إلى مكانه دون أن يشعر الحارس . فكان من السهل عليه بعد ذلك – عن طريق أعوانه وزملائه – عمل نسخة مطابقة للمفتاح. وفى الليلة السابقة على تنفيذ خطة الهروب مع بعض رفاقه ، انهارت أعصاب أحدهم وأفشى سر الخطة إلى مدير السجن!

ويظل السؤال فى جميع الأحوال : هل ينفع المال المسروق أو المنهوب أو الملوث فى جَلْب السعادة والأمن ؟ وماذا كانت عاقبة تلك المغامرة الغامرة بالأخطار والأسرار والمتاعب والمخاوف وانتهت بالهوان فى غياهب السجون؟ فمثلا : زعيم العصابة «تشارلز ويلسون».. تمكن من الهرب فى أغسطس ١٩٦٤ وتعرض للهلاك، ثم أُلقى القبض عليه فى مونتريال بكندا وأُعيد إلى السجن فى يوليو ١٩٦٨ . وأُطلق سراحه فى سنة ١٩٧٩ ، وعثر عليه قتيلا فى «ماربللا» بأسبانيا سنة ١٩٩٠ بتدبير من إحدى العصابات. وثلاثة آخرون من بينهم جوردون : بعد أن قضوا سنوات العقوبة، خرجوا من سجونهم ليعودوا إلى حياة الجريمة فالعقوبة فالشقاء. وزميلهم «بوستر» خرج من السجن ليعيش فى المكسيك حياة بذخ وترف من أموال الغنيمة ، وبعد ثلاث سنوات عاد إلى انجلترا فقيرا بائسا يكاد يستجدى ، ثم صار بائعا فى متجر زهور فى محطة «واترلو» ، وأدمن الشراب ، ثم انتحر ! لكنه ترك وراءه حكمة صعلوك فيلسوف كتبها على قصاصة ، قال : «يا لها من حياة بائسة لا تليق إلا بالصَّفيق . لم ينفعنى شىء من كل ما عملت واكتسبتُ». واحد فقط كان مصيره مختلفا وحظه من الحياة أوفر وأعجب: «رونى» أو «رونالد بيجْز» الذى وضع خطة سرقة القطار .

● رونى الشقى السعيد

يسمونه «العقل المدبِّر» ، وهذا صحيح إلى حد كبير . فما أكثر الأزمات والمواقف الصعبة التى تَعَرض لها أو عُرضت عليه ، ففكر جيدا وتَدَبر ،



بطل سرقة القطار أصبح بعد استقراره الآمن فى البرازيل « نجم » فيلم دعائى عن نوع جديد من الأقفال يصعب على اللصوص والغرباء فتحه أو نزعه أو العبث به ، وقد عُرض الفيلم فى مهرجان « كان » الفرنسى للدعاية والإعلان سنة ١٩٨٩ . واعترافا بفضل البرازيل عليه أشار فى نهاية الفيلم إلى مدينة «ريو دوجانيرو» الساحلية وجمالها الساحر والأمان الدائم فيها .

وخَرج منها ليدخل فى غيرها وأشد ، حتى بعد أن هرب من السجن ، وفَر من بريطانيا ، فى رحلة شاقة مؤلمة مؤرقة ، كمشَرَّد مطارَد ، على الرغم من نصيبه فى «الغنيمة» (١٤٧٠٠٠ ج أو ١,٨ مليون ج اليوم) الذى تبخر كله تقريبا قبل أن يحط رحاله فى البرازيل ، مأواه الأخير .

ومن المفارقات الساخرة العجيبة ، أن هذا «اللص» العريق فى السرقة ، والذى عرفَتْه السجون منذ صباه ، كان «نجم» فيلم دعائى سياحى سينيمائى فى مهرجان «كان» للدعاية والإعلان سنة ١٩٨٩ وموضوعه : إعلان عن نوع جديد مبتكَر من «الأقفال»!!

كان سيناريو الفيلم الإعلانى – ومدته دقيقة واحدة – كالآتى : يَظهر رونى – الذى أصبح معروفا مشهورا – فى لقطة متوسطة وأمامه مجموعة من الأقفال المتنوعة الشكل والحجم، يُجربها – وهو الخبير الجهبذ ! واحدا واحدا فى تتابع من اللقطات المكبرة بين يديه ووجهه الذى يبدو عليه الامتعاض والتأفف لأنها جميعا غير مُحْكمة ويَسْهل عليه فتْحها بغير مفاتيحها ، ماعدا القُفل الأخير الجديد – موضوع الإعلان – يستحيل عليه فَتْحه ، مع التركيز لثوان على القفل وعلامته التجارية (ماركته)، ثم تنتقل الكاميرا إلى وجهه المبتسم وعليه سِمات الارتياح، مع حركة الكاميرا متراجعة فى لقطة عامة ، فتظهر مدينة «ريو دوجانيرو» البرازيلية الجميلة وشاطئُها الساحر فيقول وهو يشير إلى المدينة : « عندما تَشْعر بالأمان الكامل، ستجد أن (ريو دو جانيرو) مدينة رائعة »!

كانت أول معرفته بالسجون فى سنة ١٩٤٥ عندما سرق كمية من أقلام الرصاص . وكان آخر من انضم إلى مجموعة السطو على القطار حيث كان يعمل بورشات السكة الحديد فى إصلاح وتجديد نوافذ العربات . فطُلب منه البحث عن سائق قاطرة يقْبل الانضمام إلى المجموعة ، فاختار «بيتر العجوز» . وبعد حادث السطو، عثرت الشرطة على بصمة أصابع له فوق زجاجة صلصة «كتْشب» بمطبخ بيت المزرعة . وبعد الحكم عليه بالسجن ثلاثين سنة ، كان من المحتمل الإفراج عنه مبكرا فى فبراير ١٩٨٤، قبل الموعد المقرر بعشر سنوات . لكنه لم يستطع الانتظار . وأخذ يفكر ويدبِّر للهرب فى صمت وهدوء . ولعل أهم ما كان يتسم به «رونى» – رونالد بِيجْز – هو التماسك الشديد أو الهدوء الداخلى الذى يُعين على التحمل والصبر فى المواقف الصعبة والأزمات . وعندما نطق القاضى فى المحكمة بمدة الحكم عليه بالسجن (٣٠ سنة) قال رونى للقاضى بثبات وهدوء : «لسوف ينقضى الوقت سريعا يا سيدى!» . فردَّ عليه القاضى واصفا إياه : «أنت مُخادع كذاب أَشِر»! وكان القاضى حصيفا صادقا ، وكأنه كان يُنْبئ بما سوف يفعل . فقد وضع «رونى» خطة للهرب من السجن . ونجحت خطته أيضا فى هذه المرة ، بعد عام واحد من دخوله السجن !

٨ يوليو ١٩٦٥

كان ارتفاع السور المحيط بفناء الرياضة بالسجن نحو ثمانية أمتار . فخطر على بال رونى أن يتسلق السور بسرعة خاطفة مستخدما حَبْلا متينا فى طرفه خطاف يشتبك بقضيب بارز فوق السور ، فيعلوه ، ثم ينحدر منزلقا من الجانب الآخر على حَبْل كالسلم مشدود إلى عربة كبيرة عالية لنقل الأثاث تقف ملاصقة للسور خارج السجن فوقها مراتب ليِّنة تتحمل قفزته نحوها بدون إحداث صوت . هكذا أفلت من «وانْد سْوُورث» الذى كان يُعتبر قلعة حصينة . ومن الطريف أن إدارة السجن كانت اختارت لتشغيله العمل فى قسم صناعة أكياس وأجولة البريد والنقود !

كلفتْه خطة الهروب من السجن عشرات الآلاف من الجنيهات (بقيمة ذلك الوقت) ومن بين تكاليفها رشوة بعض الحراس. ثم بضعة آلاف أخرى للحصول على جواز سفر مزور . وسافر إلى باريس ، حيث لجأ إلى طبيب جراح أعاد «صياغة» ملامح وجهه مقابل ٥٥٠٠٠ جنيه . يقول : «أحسستُ أنه يعمل فى وجهى كالجزار ، وتحملت آلام مائة وخمس وستين غُرزة» !

ثم سافر إلى استراليا ، واستقر فى «ملبورن» ، واستقدم زوجته «شارميان» وأولادهما الثلاثة (مات أحدهم فى حادث سيارة باستراليا). واشتغل نجارا باسم «تِرِنس فُورمينْجر» بإحدى ضواحى المدينة . ولكن لسوء حظه نشرت الصحف والمجلات خبر القبض فى انجلترا على أحد شركائه فى حادث السطو على القطار ، وكان هاربا ، وأعادت كتابة تحقيقات مصورة عن الجريمة وفيها صور لرونالدبيجز مشيرة إلى أنه هارب من السجن وربما يكون فى استراليا . وتصادف أن شاهد مذيع بالتليفزيون الاسترالى تلك الصور فى مجلة نسائية أسبوعية، ولفَتَ نظره صورة «بيجز» فتذكَّر على الفور ملامح النجار الذى سكن قريبا من منزله . وذات صباح باكر رأى صورته تتصدر إحدى الصحف وتحتها سؤال : «هل رونالد بيجز الهارب يتخفى الآن تحت اسم مستعار فى إحدى ضواحى ملبورن؟» . وما أن طالع «رونى» تلك الصحيفة حتى ولَّى هاربا إلى الأرجنتين، تاركا «شارميان»

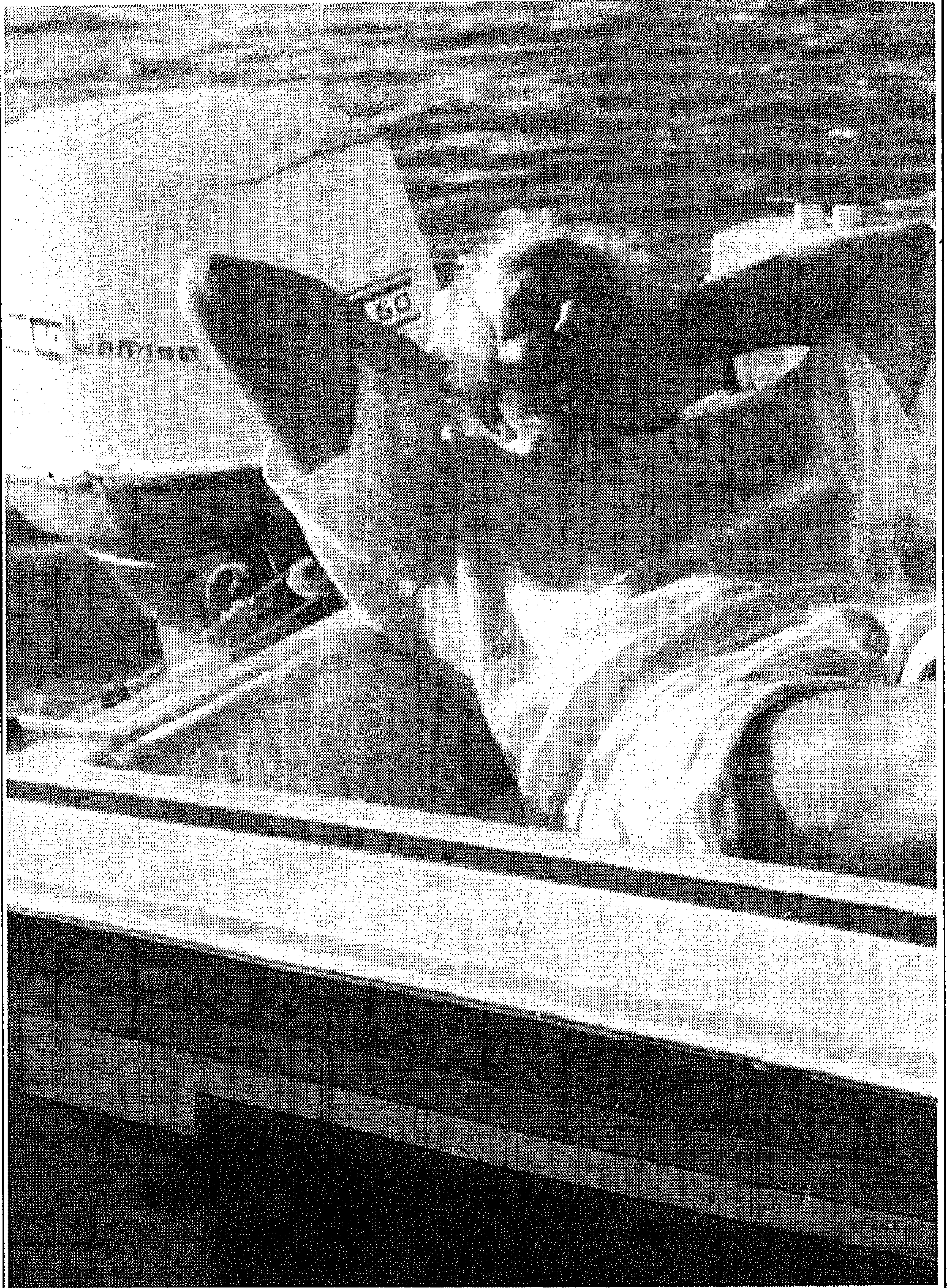
وولديه فى استراليا . ومن الأرجنتين إلى البرازيل . ودائما يدفع ليُسْكِت ، أو يُشْرف ليحصل على بطاقة مزورة أو جواز سفر مزيف ، أو تصريح إقامة وعمل مسروق ، إلى أن استقر فى «ريو » فى مارس ١٩٧٠ .

ونفد معظم المال . لم يبق منه إلا الفتات . اشتغل فى مهن بسيطة : عامل نظافة فى متجر لوحات فنية ، عامل كهرباء، وسكن حجرة بلا كهرباء ، وافتقد «شارميان» وابنيه ، وركبه الغم واليأس. فكان قراره فى سنة ١٩٧٥: « الحل الوحيد لوضع نهاية لهذه الفوضى والمعاناة، هو العودة إلى السجن»! فهناك سيتخلص من المطاردة؛ ومن الكَد المضْنى فى التخفى والبحث عن عمل للمعيشة ؛ وربما «باعه» للشرطة صديق أو شخص يتعرف على حقيقته، ولم يَعُد معه مال يُخرس الألسنة أو ييسِّر المصاعب ويفعل المستحيل : فإلى السجن إذن ، وبعض الشر أَهْون من بعض ! ولكن .. كان للأقدار ترتيب آخر.

● مرحبا أيها الحُزْن !

فى يناير ١٩٧٤ عرضت صحيفة « الديلى إكسبرس» اللندنية مبلغ ٣٥٠٠٠ جنيه لمن يُخبر شرطة «سكوتلاند يارد» بمعلومات عن مكان «رونالد بيجز» . وبالفعل اتصل بها مَن أسَرَّ إليها بما دلَّها عليه، فسافر رئيس قسم الاستخبارات بتلك الشرطة - «جاك سليبر» - إلى البرازيل ، فى فترة الإحباط والاكتئاب التى جعلت «رونى» يفكر جادا فى العودة إلى السجن. وكان من نتيجة اتصال «سليبر» بالجهات الرسمية البرازيلية ، أن أُلقى القبض على «رونى - رونالدبيجز » للنظر فى مسألته .

ودخل معه السجن فتيان أحدهما سائق سيارة أجرة (تاكسى) يدعى : «ماريو» متهم بتوزيع المخدرات، وكأن القَدرَ «ساقه» إلى «بيجز» ليقدم إليه نصيحة ذهبية غيرت مجرى تفكيره وحياته الباقية حتى نهاية القرن . بعد أن أَفْضَى كل منهما إلى الآخر بحكايته وهمومه ، قال له صاحبه - ماريو - وهو يحاوره : «اسمع نصيحتى يا «رون»: عليك بالحصول على طفلٍ وليد برازيلى، بالشراء ، بالخطف ، بالسرقة ، بأية وسيلة.. ثم انْسبه إلى نفسك



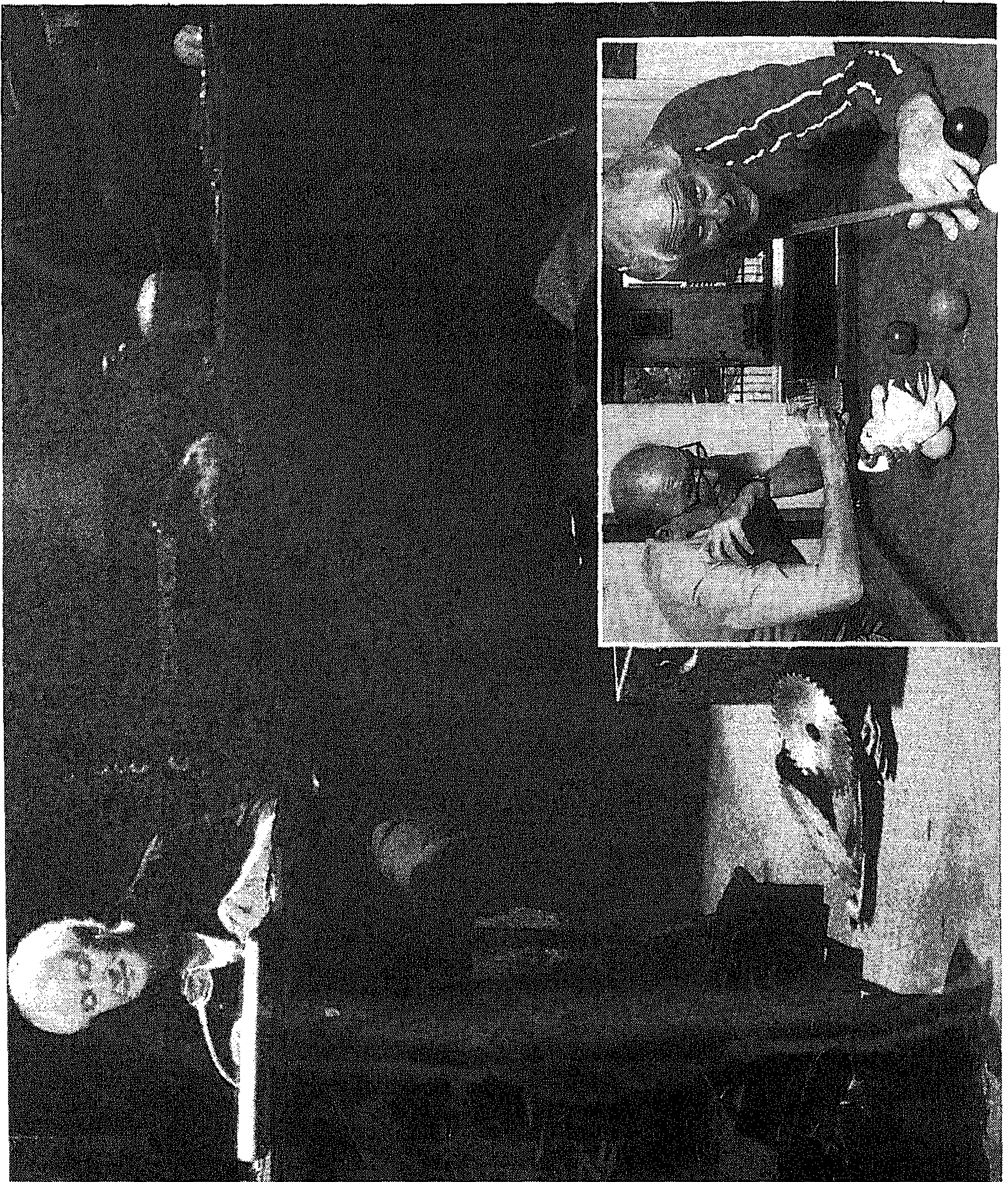
بعد هروب شاق مؤلم مكلف ، أفلت من السجن والعقوبة حتى وصل بأسرته إلى استراليا ثم فر منها قبيل اكتشافه إلى البرازيل ، واستطاع بحيلة قانونية البقاء بها دون تسليمه كمجرم إلى بريطانيا ، وعاش فى النهاية حياة هادئة هانئة مستقرة وشخصية بارزة فى المجتمع .

واعْطه اسمك ، فعندئذٍ لن تُرَحَّل من البرازيل ولن تُسَلَّم إلى بلدك . هكذا القانون هنا »! ومن جانب آخر ، لم تكن بين بريطانيا والبرازيل اتفاقية لتسليم المتهمين أو المجرمين . فرجع «سليبر» إلى لندن بُخفَّىْ حنين ، وكما قال «رونى» : «عاد مُطأطئ الرأس، والمقعد الذى كان حجزه إلى جواره بالطائرة ظل خاليا»!

ولكن من أين أَتى بالطفل المنقذ ؟ مرة أخرى يُسْعفه حظه وقَدَره . كان قد

تعرف فى الشهور السابقة على احتباسه ولقائه مع «ماريو» على «ريموندا» - المعروفة باسم «كارمينا» - حين كانت تعمل فى ناد ليلى ، وتزوجها لتؤنس وحدته بعد أن فضلت زوجته الأولى «شارميان» البقاء فى استراليا مع ولديها. وغداة يوم الحوار الذى دار بينه وبين «الناصح» ماريو ، زارته «ريموندا» فى محتبسه لتخبره أنها حامل ! وبعد أيام أُطلق سراحه لمدة غير محددة . خرج بضجة إعلامية ضخمة بعد أن عُرفت حقيقته . والكتل الجماهيرية البرازيلية - وفيها كثير جدا من الفقراء والكادحين - تعشق البطولة (كما فى كرة القدم) ، وتمجد التفوق وأصحاب الأعمال الفذة ، خاصة إذا كانوا من البسطاء الخارجين على القانون ، لأنهم حينئذٍ ينجحون فى تحدى السلطة الظالمة الفاسدة - فى اعتقادهم وخبرتهم - وكأنهم ينتقمون لهم . ومن ناحية أخرى ، زادت شهرة «رونى» داخل البرازيل مع انتشار صوره والحديث عنه فى صحف ومجلات وأجهزة الإعلام الأوروبية والأمريكية (شمالا وجنوبا) بعد أن عُرف مكان إقامته ، ومع الحملات الإعلامية الإنجليزية الداعية إلى تسليمه لبريطانيا .

وتدفقت مع الشهرة : الأموال ، من أحاديث وتحقيقات إعلامية للصحف والإذاعات والتليفزيونات ، المحلية والأجنبية . وأمسى يتناول أحيانا كثيرة العشاء مع ريموندا وطفلهما فى المطاعم الفخمة . ولما أتخمته الشهرة والأضواء والحفلات، رحل بأسرته الصغيرة إلى قرية ساحلية . وعُرض عليه الاشتراك فى أفلام سينيمائية (بدأت عقودها بعشرة آلاف دولار أمريكى ثم تصاعدت) ، وفى برامج الاستعراضات والمنوعات التليفزيونية . وفى أثناء تصوير أحد الأفلام ، حدث ما لم يكن متوقَّعا : كان دوره فى مشهد رئيسى بالفيلم أن يهرب من مطاردة ، ويقفز إلى زورق يسرع به إلى يْخت خالٍ يقف بعيدا عن الشاطئ ، فيصعد إليه وينطلق به إلى المياه الدولية ، والمطاردون خلفه يريدون اللحاق به حتى يصل الجميع إلى البحر الكاريبى . ولكن فجأة - فى أثناء التصوير - تعطل محرك اليخت الذى كان يقوده «رونى»، وكان



« رونالد بيجز » بين التمثيل في أفلام سينيمائية (إلى أعلى) والإشراف على المطعم الفاخر الذى يملكه، ولعب البلياردو في قاعة خاصة داخل فيللته الحديثة التى بها حمام سباحة وحديقة منسقة واسعة.

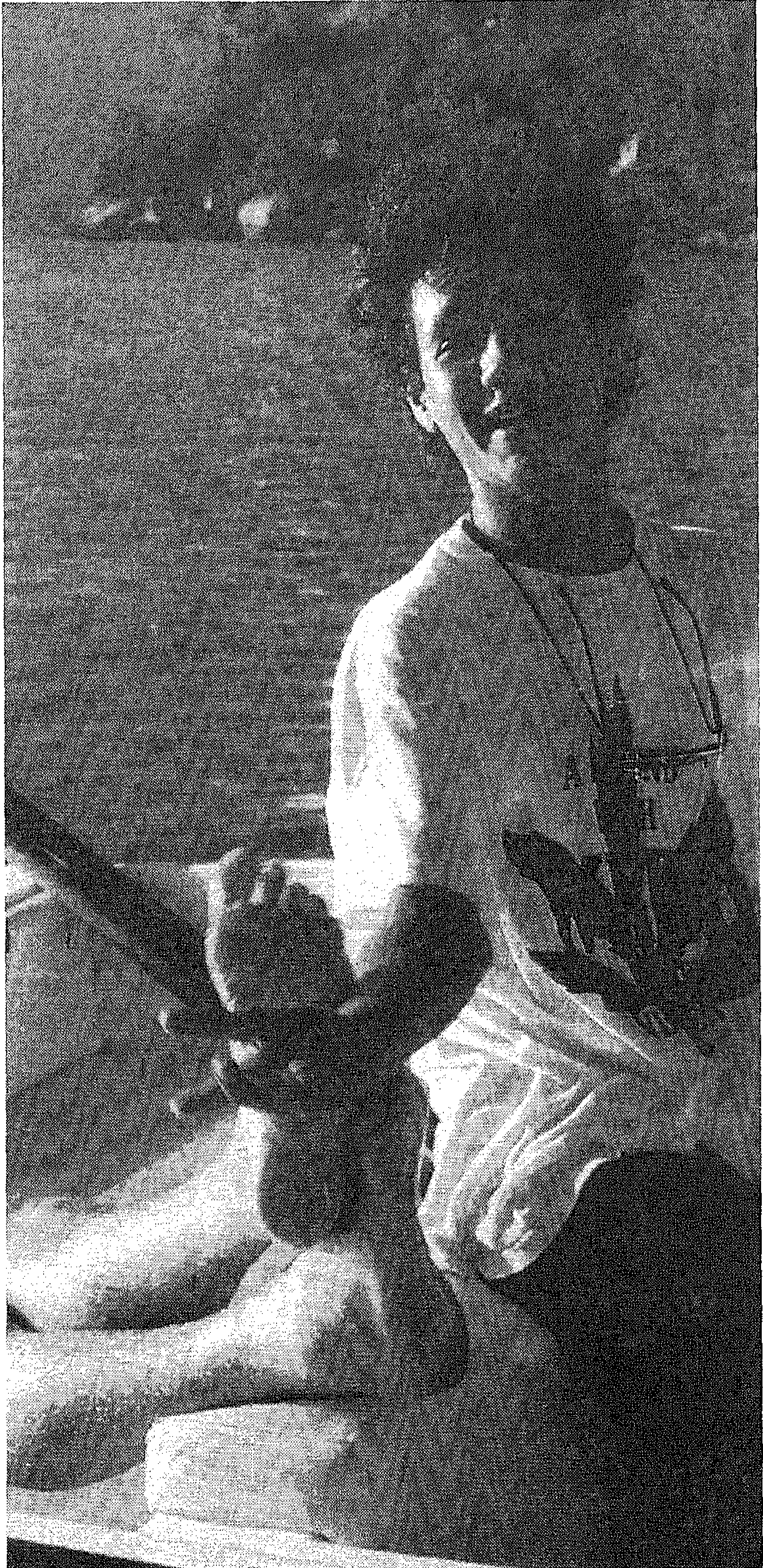
قريبا من المياه الإقليمية لجزيرة «باربا دوبس» [٤]، فألقت شرطة السواحل (فى بربادوس) القبض عليهم، وقدموا للمحاكمة، وقرر القاضى تسليم «رونالد بيجز» إلى بريطانيا. واستطاع اثنان من المحامين المدافعين عنه فى الاستئناف أن يتلمسا بذكاء ثغرات فى القانون المحلى للهجرة، فحُكم بإطلاق سراحه، وخرج من المحكمة مندهشا، إذ وجد حشدا من الجمهور فى انتظاره مهللا فرحا بالإفراج عنه، وصاحت من الجموع سيدة عجوز تخاطبه بقولها: « كنت أصلى وأدعو لك ليلا ونهارا» !

والأعجب من ذلك، أنه فوجئ عند عودته إلى البرازيل بتسليمه جوازا برازيليا رسميا مؤقتا؛ وبأن صورته وأخباره تنتشر فى الصحف بالصفحات الأولى. وسافر من العاصمة برازيليا إلى مدينة ريو دو جانيرو فى طائرة نفاثة خاصة عامرة بالمأكولات الفاخرة والمرطبات والكافيار والشامبانيا! وعلم عند عودته من باربادوس أن ابنه «ميكائيل - أو مايك» من زوجته ريموندا، اشترك (وعمره ست سنوات) فى مسلسلين للتليفزيون وتشاء الأقدار أن يحضر وزير العدل إلى الاستديو لحوار مباشر على الهواء عقب الانتهاء من تسجيل حلقة كان بها «مايك». فقدموه إلى الوزير الذى رحّب به، فتشجع الغلام وشكا إليه من متاعب أسرته بسبب عدم استقرار أبيه. فتأثر الوزير وأعلن فى حديثه (على الهواء) تعاطفه مع «بيجز» وأسرته، وأنه سيبحث موضوع جواز سفره المؤقت. وتأثر بدوره رئيس التليفزيون (CBS) البرازيلى ومنح «مايك» عقدا جديدا سخيا للتمثيل فى برنامج مخصص له.

وانفتحت الدنيا مقبلة على «آل بيجز» بالمال والشهرة والنعيم. افتتحت الأم - ريموندا - متجرا للملابس فى «ريو»، وانضم الابن - مايك - إلى فريق للغناء والتمثيل يجوب المدن شمالا وجنوبا. أما الأب - رونى - فقد

---

(٤) جزيرة بالبحر الكاريبى قرب كوبا والباهاماس، عدد سكانها (سنة ٢٠٠٠) ٢٦٠ ألف نسمة. العاصمة: بريدْجتون، ٦٧٪ من سكانها بروتو ستانت و ٤٪ كاثوليك، كانت تتبع البرتغال الذين أعطوها اسمها، ثم توالى عليها الإنجليز من سنة ١٦٠٥، ونالت استقلالها فى نوفمبر ١٩٦٦ على أن ترأس الدولة ملكة (أو ملك) بريطانيا - مثل كندا واستراليا - وبها حكومة منتخبة وبرلمان.

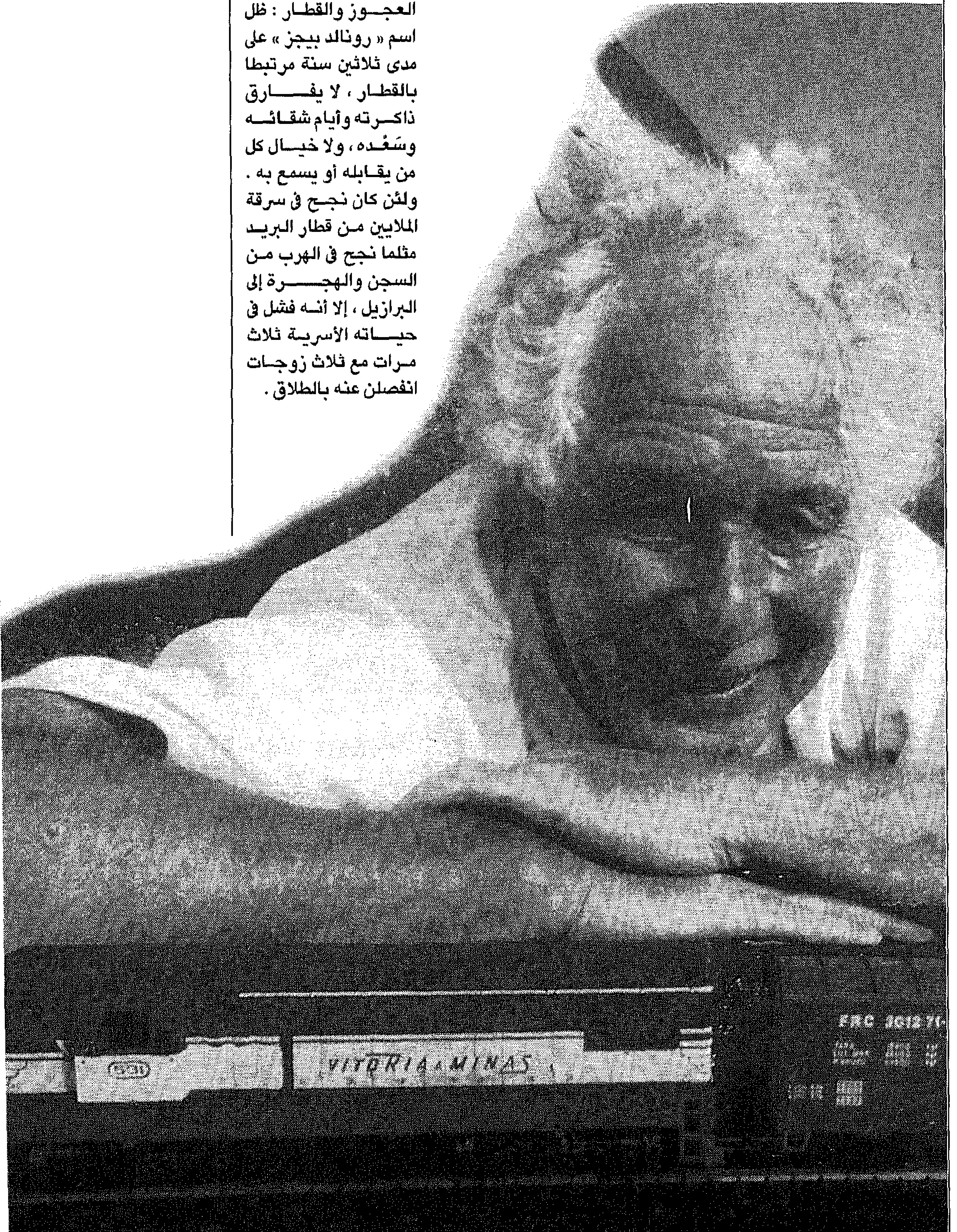


ابنه « ميكائيل - مايك » من زوجته الثانية «ريموندا» البرازيلية ، نال شهرة مثل أبيه «رونالد» بالتمثيل فى التليفزيون وأفلام السينما ، واشترك فى فريق للغناء يطوف بالمدن . وصار بيت الأسرة - الوردى اللون - مزارا فى برامج السياحة ، والصورة مع «رونى» - اللص - بخمسين دولاراً أمريكياً !

ابتنى بيتا فاخرا وردى اللون من الخارج، وفى داخله غرفة للبليـاردو . وأصبح بيته مزارا للسائحين ، وكل شيء بثمن : الصورة الفوتوغرافية مع معه الإفطار بخمسين دولارا أمريكيا للفرد الواحد . وتعاقد على إنتاج ملابس (تى - شيرت) تحمل صورته واسمه (Biggs) . وباع حق إنتاج فيلم عن أحداث حياته ، وكتاب طريف عن سيرته الذاتية ، وافتتح مطعما ، والتُقطت له صورة وهو يصافح الرياضى الشهير سير «ستانلى ماثيوس» ، وصوَّره لورد «سنودون» الذى كان زوجا لمارجريت شقيقة ملكة بريطانيا ، وعانقته نجمة السينيما الألمانية «دوللى دولار» ، وتعلم الكومبيوتر، وفى سنة ١٩٩٢ ظهر فى إعلان تليفزيونى عن سيارات «لاندروفر» ، ذلك النوع من السيارات الذى استخدمته عصابة السطو على القطار فى نقل النقود !

وبعد ذلك كله، هل صار سعيدا ؟.. لابد من متاعب ومصاعب. فالزوجة الثانية «ريموندا» طُلِّقت وسافرت للإقامة فى جنيف بسويسرا، وأقبلتْ الثالثة «أُولَّلا» ، مكثتْ معه عشر سنوات ثم انفصلت بالطلاق . وكل ما يحتفظ به من مال ومتاع مُودع فى البنك أو مسجَّل باسم ابنه ، فالقانون البرازيلى يمنعه من التملُّك . لكنه فخور بابنه مايك وبأنشطته المتعددة ، كان آخرها حصوله على الاسطوانة البلاتينية فى الغناء بعد الذهبية . وكذلك مايك، «فخور» بوالده ، ويتعارك - حتى بالضرب - مع مَن يقول عنه إنه كان لصا، ولكن بلا طائل . فالحقائق الحية المُعَاشة لا تموت ولا يمحوها سُكُوت . قد تُنْسَى لفترة أو تحتجب ، لكنها حين تُذْكَر فقلَّما تنشعِب . وربما مع مرور الزمن ، وتوالى الأجيال والعصور، تَخْبو أو تتلاشى ، وقد تُبَدل وتُعَدل وتتلبس شكلا آخر . وكم فى التاريخ من حقائق صارت أكاذيب مضَلِّلة، ومفتريات أصبحت حُجة مُجَلجلة !

العجـوز والقطـار : ظل اسم « رونالد بيجز » على مدى ثلاثين سنة مرتبطا بالقطـار ، لا يفـارق ذاكـرته وأيام شقـائـه وسَعْده ، ولا خيـال كل من يقـابله أو يسمع به . ولئن كان نجـح في سرقة الملايين من قطار البريـد مثلما نجح في الهرب مـن السجن والهجـرة إلى البرازيل ، إلا أنـه فشل في حيـاته الأسرية ثلاث مـرات مع ثلاث زوجـات انفصلن عنه بالطلاق .

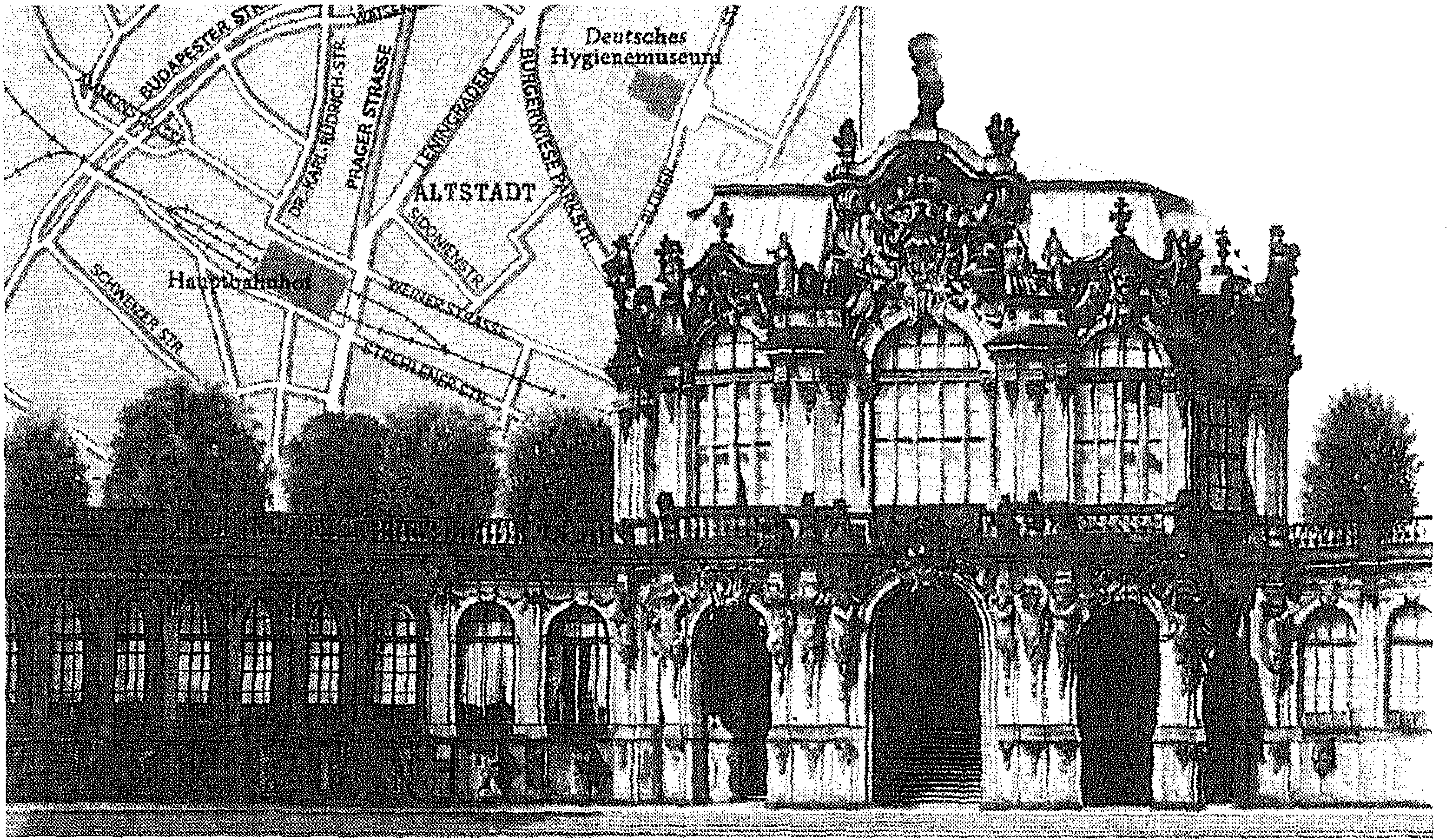


(٢) جرائم بشعة ومجرمون لايعاقبون

إحـــراق درســدن

١٣ – ١٥ فبراير ١٩٤٥ ..

كـانت الحرب العالميـة الثانيـة على مشارف الانتهـاء ، واستعدت مـدينة «درسدن» الألمانية التاريخية (سابع مدن ألمانيا كلها من حيث المساحة وعدد السكان وترجع مبانيهـا القديمة إلى القرون الوسطى الأوروبيـة)، استعدتْ للإعـلان عن تحررها من سيطـرة الحكم النازى على إنتـاجهـا وصناعتهـا وأهلها . ولهذه المدينة شهرة عالمية فى عدد من الصناعات فى مقدمتها الخزف (البلاط والصينى والتحـف) الدقيق الممتاز جمالا وذوقـا وجودة ؛ كما أنها تتميـز وتختـال على غيرها من المدن الألمانيـة وكثير من المدن الأوروبيـة بما تحوى من مبـان وطُرُز معمارية ترجـع إلى قـرون بعيـدة مضت ، مما جعل البعض يصفهـا بأنها «فلورنســة الألمانيـة المطلة على نهر إلْب» ، وفى وصـف أهلهـا قالوا : «السعـداء الآمنون فى مـدينتهم المُصـانـة من غارات الطائـرات المعادية». وصَــدَّق أهلها – لسذاجتهم – هذا الوصـف وخاصــة بَعد أن سَرَت إشاعات بأن قادة الحلفاء قرروا جَعْل درســدن العاصمة الألمانية بعد انتهاء الحرب، بديلا عن برلين التى دُكَّت أو تَحطمت معظم مبانيهـا ومظاهر الحياة فيهـا ، مثل بقية المدن الكبيرة الأخـرى، وذلك لاحتفـاظها – أى درســدن – بجذور ومعـالم ثقافية ومـدنية عريقـة، وأيضا لضَعْف قيمتهـا من الناحية الحربيـة والترتيبات العسكرية . وفى الواقع ، كـان القادة الألمان – فى العهـد النازى – حـريصين على إبعـاد درســدن عن أهوال ومخاطر الحرب ، بدليل



كانت « درسدن » ذات طابع عمراني ومعماري متميز ، وفيها كنوز من مباني تاريخية متألقة خاصة من طراز الباروك والروكوكو أقامها ملوك وأمراء منذ القرن السابع عشر ، فدمرت الحرب والأحقاد معظمها.

أنهم لم يضعوا فيها أية بطاريات للدفاع الجوى أو وحدات عسكرية مقاتلة . فكانت المدينة «مكشوفة» سالمة مسالمة ، فهل ستظل آملة آمنة أمان الحَمَل من شر الذئب الذى جاءه يشرب من النهر ففضل الشراب من دمه ؟!

كانت درسدن فى فبراير ١٩٤٥ (قبل انتحار هتلر واستسلام ألمانيا بثلاثة أشهر) مكتظة بالسكان والوافدين الهاربين من الدمار والغزو اكتظاظا شديدا يفوق كثيرا تَحَمُّلها . فقد ابتلع سكانها الأصليين الذين كان عددهم آنذاك قريبا من ٦٣٠ ألف نسمة ، طوفان مليون وبعض مليون من الوافدين المتَشَرِّدين المذعورين من تقدم الجيش الأحمر (السوفييتى) نحو المدن الألمانية المجاورة ، وأصبح على بُعد يقل أربعين أوخمسين كيلو مترا إلى الشرق من درسدن . وفى سنوات الحرب لم تكن غالبية سكان المدينة من المحاربين : وإنما نساء ، وأطفال ، وكبار السن ، وأسرى حرب ، وعمال سُخْرة يعملون فى الورشات والمصانع والمعامل بالجَبْر والقهر بعد أن اختطفهم النازيون الألمان وساقوهم من البلاد التى غزوها فى أوروبا، أو من مستعمرات ألمانيا التى اقتطعتها من النمسا وبولندا وتشيكوسلوفاكيا وفرنسا .

وفى ليلة ١٣ فبراير ، بعد العاشرة مساء ، ظهرتْ فى سماء درسدن طائرات استطلاع تُمهد المسار لمائتين وأربع وأربعين طائرة قاذفة للقنابل من طراز «لانْكاستر» تابعة للسلاح الملكى البريطانى . أسقطت طائرات الاستطلاع فى البداية كشافات متوهجة الإضاءة أحاطت بالمدينة حتى شاطئ نهر إلْب . ثم أقبلت الطائرات الحربية القاذفة ، فأفرغت حمولتها من القنابل الحارقة المدمرة ، فى موجات إثر موجات باتساع المدينة ، فاشتعلت على الفور المبانى والمنشآت والبيوت ، بداية فى وسط المدينة ، ثم اتسعت بالتدريج. ولما كان أهالى درسدن على غير علم أو خبرة بالغارات الجوية ، فقد كان ذُعرهم وارتباكهم مضاعفا ، وعبثا حاول الجيران مساعدة بعضهم بعضا ، أو إنقاذ مَن وما يمكن إنقاذه ، وعجز المهاجرون الهاربون من قبل إلى المدينة عن تقديم عَوْن أو دفع ضُر ، إذ لا حيلة - مع المفاجأة - ولا وسيلة لقد تحولتْ المدينة الآمنة الهادئة فى دقائق معدودات إلى جحيم أتُونٍ ضخم يَسْتَعِر ، ومَحْشَرِ أقوام غَشِيهم بلاء مُنْهمر ؛ وهم لا حول لهم ولا قوة ، وقد أُحيط بهم على حين غِرَّة.



أدولف هتلر

● شهود على الجريمة

«آن - مارى وِيهْمان » ، كان عمرها خمس عشرة سنة ، وكانت تعمل حارسة ليلية بمستشفى «فردريكشْتات» عند سقوط أولى القنابل . ذكرت بعد سنوات ما حدث فقالت : «أسرع المرضى القادرون على المشى يتدافعون إلى المخبأ ظنا منهم أنه مكان آمن. كانت تُسمع أصوات كالرعد ، والصفير الحاد ، والعويل المفزع ، والاصطدام المروِّع. اهتزت الحوائط ، تمايلت ، ارتجفت من شدة انفجار القنابل - كم استمر ذلك؟ لست أدرى.. ربما كان لساعات .. وصرخ بعض الأطباء : [ليَخْرج فورا كل من فى المخبأ . كل المبنى سينهار] . ركَض القادرون سراعا إلى الخارج، وبعد ثوان قليلة انهار بناء المستشفى - تطايرت أجزاء متناثرة من حطامه . وقفْتُ مذعورة أرتعد بجوار بعض الأطباء والعاملين والمرضى . ترقَّبْنا خروج أحد من بين الحطام. اثنان فقط أو ثلاثة من بين مئات دُفنوا أحياء . ثم لم تَلْبَث إلا ثوان

حتى دوى صوت انفجارات جديدة . قفزتُ مرتاعة بغير وعى إلى البناء المجاور . جرى الجميع على غير هُدى. كلٌّ يريد أن ينجو بنفسه ، ولو كالمستجير من الرمضاء بالنار»(١)!

ثم جاءت موجة ثانية من طائرات لانكاستر . عددها فى هذه المرة خمسمائة وتسع وعشرون ، فى الساعة الواحدة واثنتين وعشرين ثانية بعد منتصف الليل، فقذفت المدينة بوابل من القنابل أشد إحراقا وتدميرا . وفى الصباح، كانت طرقات المدينة مسدودة بالحطام والركام ، والهواء خانق من تكاثف الأدخنة والرماد والتراب المتطاير وتناقص الأوكسجين . وتحولت الأحياء التاريخية القديمة بالمدينة إلى مَحْرقة ضخمة الاتساع مكشوفة للعَيان نحو السماء . وعجزت فِرق الإنقاذ والإطفاء عن عمل أى شىء ، وما كان باستطاعة أحد أى يفعل أى شىء إزاء مدينة بأكملها تشتعل، ومبانيها تتداعَى، جملة وفرادَى ، وكلٌّ يقول – كيوم الحَشْر – نَفْسى نَفْسى !

وشهد شاهد من أهلها ..

والأهل هنا لا يُقصد بهم سكان درسدن المنكوبة ، وإنما أهل بريطانيا «العظمى!» وسلاحها الجوى الملكى. والشاهد هو : بيتر دو ويسلاو» خبير قنابل بالسلاح الجوى البريطانى، وكان قبل نشوب الحرب العالمية الثانية يدرس فى ألمانيا ، فى درسدن، أى كان من المفترض أن للمدينة حقا عليه أو كما يقال : «دَيْنا فى ذمته» . فى حوار أجراه معه مؤلف كتاب «قَدَّاحة الشيطان» سنة ١٩٨٤، وكان بيتر يقود طائرة من الطائرات التى أفرغت قنابلها فوق درسدن فى الموجة الثانية من تلك الليلة ، قال : «كانت درسدن إحدى التجارب المهمة بالنسبة للكثيرين منا (أى لزملائه الطيارين) . فلقد أُخْبِرنا أنها – فى ذلك الحين – كانت مركز اتصال للجبهة الروسية. وأظن أننا كنا نعلم، وربما أُخبرنا بذلك أيضا، أن مهمتنا – فى تلك الليلة – كانت تبغى التأثير على الروس وإطلاعهم على قدراتنا القيادية لقاذفات القنابل ..

(١) الرمض (بفتح الراء المشددة والميم) : شدة حرارة الشمس فى الرمل . والرمضاء : الحريق ، أو الحجارة المتقدة صيفا من القيظ .



صور ومشاهد من الحرب العالمية الثانية يعلوها (يمينا) زعماء تلك الحرب : ستالين ، روزفلت ، تشرشل فى اجتماع لتقسيم العالم بعد هزيمة ألمانيا وتدميرها .

(والثمن: المدينة بمن فيها !!). لا أستطيع بالضبط تحديد القصد .. ولا لماذا أُبْلغنا بالهبوط إلى ارتفاع ٥٠٠ قدم فوق المدينة ، أى فوق الحد الأدنى لتفجير القنابل بقليل وهو ٤٠٠ قدم .. وأذكر فى تلك الليلة أن المدينة كانت مضاءة لنا جيدا .. كنت أشاهد الناس مذعورين مهرولين فى الشوارع .. وأبصرتُ كلبا يَعْبُر الطريق خائفا ، وقد أسفتُ لمنظره (ويا للرحمة بالكلاب والمشاعر الرقيقة نحوها وليس للبشَر ؟!!) . كنت أشعر بتفَرُّد درسدن تحتى .. ورأيت الكثير ، وبدتْ لى مألوفة أكثر وأكثر ..(!!) ، وإن كانت كل هذه الغارات الجوية مفزعة بعض الشىء . لقد ذهبنا إلى درسدن يغمرنا شعور شخصى بالخوف ، وكانت مغالبتنا لهذا الشعور بالاستغراق فى

التفكير بأننا نؤدى مهمة فنية (تكنيكية) مطلوبة، مع الجهل بسبب اختيار قيادتنا لتلك المدينة لكى تُدَمَّر، فكان علينا أن ندمِّر ما أرادوا تدميره..»!

و«مارجريت فرِير» ، كانت فى الرابعة والعشرين من عمرها، نَجَحت من هَوْل الغارة الثانية للطائرات البريطانية باللجوء مع رجل واحد وأربعين امرأة غيرها إلى مَخبأ فى شارع فردريك غير مجهز جيدا للوقاية من القذف بالقنابل الحارقة. وعندما امتلأ بالدخان، وضعت منديلا مبللا بالماء – كان معها – فوق أنفها وفمها وتحسست الطريق نحو الخارج، فكانت الوحيدة التى نجحت من الموت بالاختناق . قالت:

« لم أر شيئا عند خروجى من المخبأ بسبب كثافة الشظايا المتطايرة والعواصف المشتعلة السوداء . كان ينتظرنى أَتُون بشع خارج المخبأ . اختفى الطريق تحت أكوام الركام بارتفاع متر على الأقل : زجاج متكسر ، عوارض خشبية مهشمة ، أحجار ، حُفر كفوهات البراكين. ثم صاح بى رجل : «اخْلعى سترتك (الجاكيت) بسرعة! إنها تشتعل»! فى غمرة الخوف ومن شدة الحرارة السائدة ، لم أشعر بالنار التى أمسكتْ بى. ثم مشيتُ مذعورة، وإذا بى أسقط فى حفرة عمقها متران ونصف متر واتساع ستة أمتار صنعتها قنبلة شديدة الانفجار . سقطتُ فوق ثلاث نساء . هززْتُهن من ملابسهن وصرخت فيهن، ولكن لم أجد استجابة أو حركة . خُيِّل إلىّ أننى فقدت كل المشاعر . أصابنى ذهول . ثم تبينْتُ فجأة إلى يسارى امرأة .. دققْتُ النظر فرأيتها تحمل لفافة تضمها إلى صدرها . إنه طفل رضيع. كانت تجرى هاربة فوقعتْ فى الحفرة وطار الطفل من بين ذراعيها وهى تسقط فأصابته لفْحة من النيران العالقة بالهواء قبل أن يسقط فوقها. هذا ما أدركْتُه وأنا أتفَرَّس فيهما . لم أتأثر . ماتت مشاعرى. لماذا؟ وماذا جَرَى؟ لست أدرى . إننى فقط أَرْقب ولا أفكر . العاصفة الملتهبة لا يتخيلها عقل . وفى كل ناحية تدوِّى صيحات الاستغاثة وصرخات الآلام، وكل ما استطعت أن أفعله: أننى بذلت أقصى جهدى حتى أفلحت فى الخروج من «الجُب» . المكان كله من حولى أشبه بفُرن ضخم مشتعل .. كنت على وشك أن أفقد



الحرب العدوانية مأساة، والأطماع السياسية مَخْزاة، وتدفع المدن والشعوب الثمن — والصورة من ألمانيا سنة ١٩٤٥.

الوعى.. وفجأة تـراءَى لى أشخـاص أمـامى مبـاشرة .. داخلنى الرعب والعَجب معـا إذ رأيتهم يسقطون إلى الأرض فى صمت واحـدا بعـد الآخـر . ظننْتُ فى البداية أنهم يصابون بطلقات رصاص قاتلة من الخلف. ولكن لماذا؟ عجـزتُ عن التفكير أو فَهْم مـا يَـحْدث. وعلمتُ بعـد ذلك أن هؤلاء التعسـاء كانوا ضحايا نقص الأوكسجين فى الهواء ، فأصيبوا بإغماء مباغت فسقطوا، ثم أتت عليهم النيران، وصاروا رمادا أذْرَتْه الرياح!».

وشاهد آخر ..

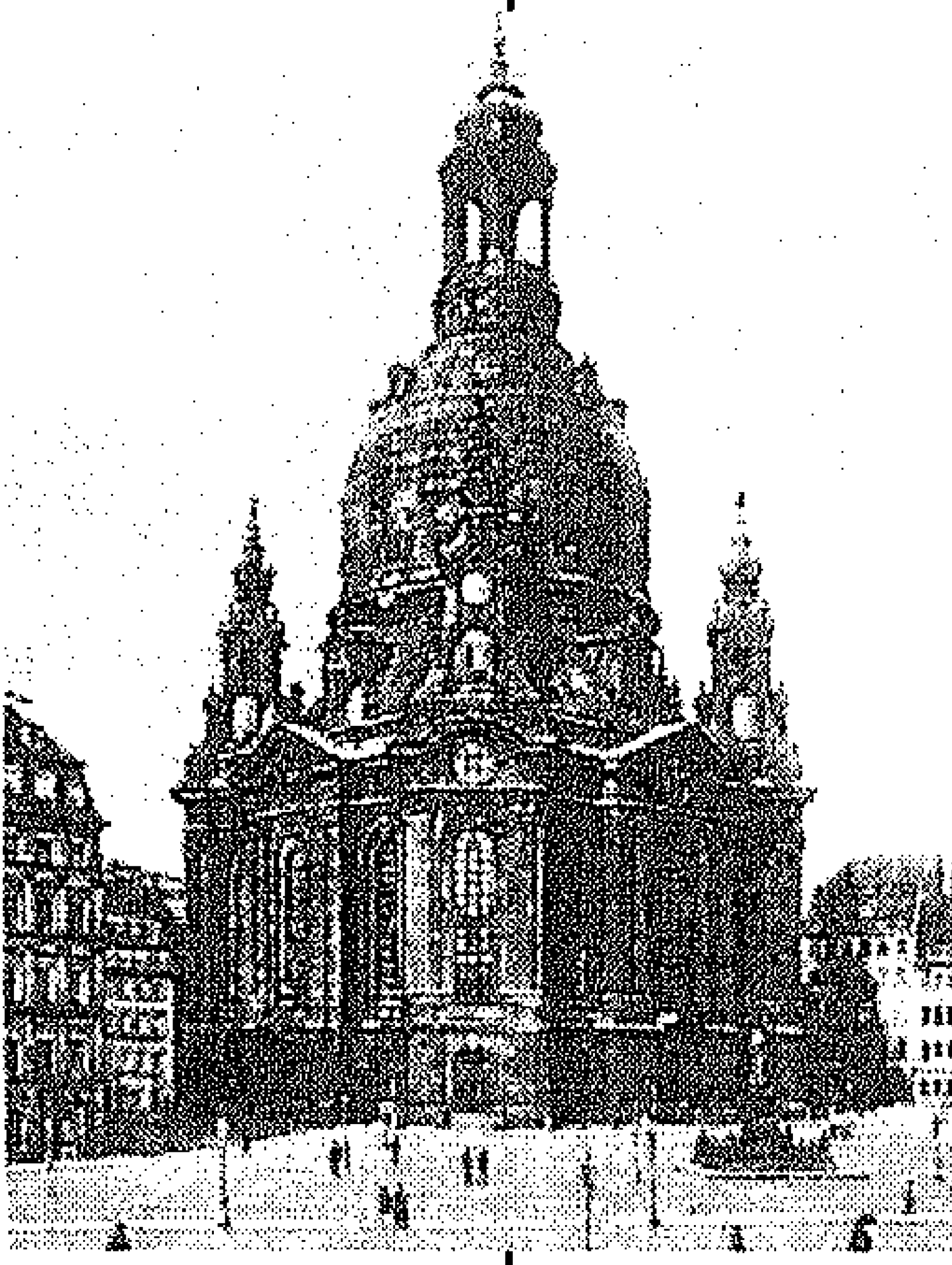
«هوجو آيِشْهـوزْن» من شمال مدينة درسدن .. كـان فى تلك الليلة الليلاء يقود فرقـة من جنود الإنقاذ، وهى إحدى الفرق التى تولـت فى الأيام التالية مهمة الإسهام فى إخلاء طرقات المدينة من الركام المتفحم . قال :

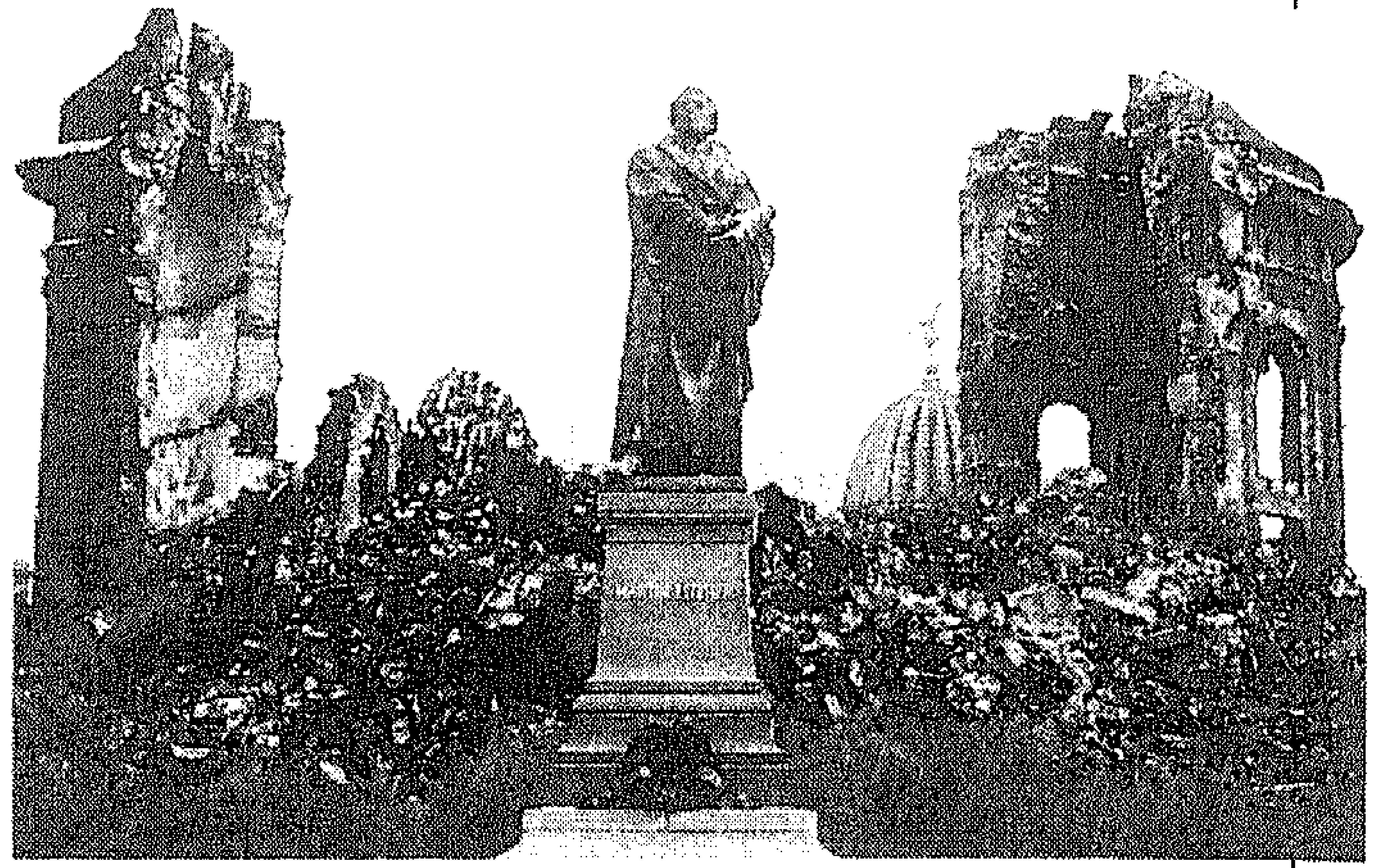
« لم يكن معنا مـا يقى أجسـامنا ، فكان جنودى يَحْتَمـون بالحُفَـر التى أَحْـدَثتهـا القنابل بالشـوارع والسـاحـات . ووقفْتُ أنا ومسـاعـدى ننظر تفجيرات القنابل من خلال منظار مُقَـرِّب . رأينا المدينة كلها تشتعل بسكانها الستمائة والخمسين ألفا وغيرهم مئات الآلاف المهاجرين إليها وكأنهم ماتوا جميعـا .. وبسبب العـاصفـة الملتهبـة، لم يكن فى استطاعت أحـد تقـديم أية مسـاعدة إلا خـارج نطاق مسـار تلك العاصفـة . وعند اقترابنا من المخـابئ الأرضيـة رأينا مـا أذهلنا وروَّعنا .. مجموعـات بأكملهـا من الناس مـوتَى وليس على أجسـادهم أيـة آثار لجروح أو حـروق، وإنما بسبب انفجـار رئاتهم.. ومخابئ أخـرى كانت تغمرها الميـاه والناس فيها غـرقَى . كم كان عدد الضحايا؟ التقديرات كلها تقـريبية ، وأعتقد أنها بين ثلاثمائة وأربعمائة ألف قتيل . ويستحيل معرفة الرقم الصحيح»!

● **وبعد الكارثة :**

لم تنته الجريمة . فلا يزال للإرهاب والرعب بقية ..

فى ليلة ١٥ فبراير التـاليـة، ظهرت فى سماء درسـدن مـوجة مـؤلفـة من أربعمائة طـائرة «B- 17» من سـلاح الطيران الأمريكـى، فى هجوم جـديد، فألقت على المدينة المتداعية سبعمائة واثنين وثمانين طنا من القنابل الحـارقة المدمِّرة، إضـافة إلى الثلاثة الآلاف طن التـى قذفتها بها الطائـرات البريطانية





مـدينـة « درسـدن » المدمَّـرة عـن عَمْـد (وتمثال مارتن لوثر بين الأطـلال) ، وإلى اليسار جانب من المدينة بعـد إعادة إنشائها .

السـابقة . فتـلاشى ما كـان قد تبقى من الأحيـاء القديمـة بالمدينة ، وبعض الأحيـاء الحديثـة ، بعـد أن اشتعلت بها النيران وانهارت مبـانيهـا . وبلغت درجة الحرارة فى أجوائها ألفا وثمانمائـة مئوية . وفرَّت الحيوانات الضارية من حـديقة الحيـوان ، وانطلقت مذعـورة هائجـة فى الشوارع التى انصهـر الأسفلت بها فتحولت إلى مايُشْبه الأنهار السـوداء . وبعد رحيل الطائرات17 ـ B الأمريكية ، أقبلتْ المقاتلات51 ـ P مَسْتانج فانقضَّتْ كـالمجنونة تَقْذف قنابلهـا وتُلْقى الرعب القـاتل فى نفـوس من بقَى حيا مـن إنسان أو حيـوان بالمدينة ، وهى تقترب من أعالى الأشجـار المشتعلة أو المتفحمة ، وتنطلق منها قذائف الرشاشات لتصيب كل شىء يتحرك على الأرض .

وفيما بعد ، كان العُذْر المنْتَحَل لتبرير ما حدث لدرسدن هو : إعاقة الألمان عن إعداد قـوة مضادة لتقَدُّم القـوات الروسية نحـو المدينة . وهل أَبْقوا على شىء من المدينة؟! ولقد كشفت الوثائق الرسمية التى أفْـرَجَت عنها بريطانيا بعـد خمسين سنة من الحرب، أن «وينستـون تشرشـل» (رئيس الوزراء آنذاك) هو الذى أصدر الأمـر بتدمير درسـدن إرضـاء للزعيم السـوفييتى «جـوزيف ستالين» ؛ وربما كـان مبعث رضـاء «الدب الروسى » أنه رد على استماتة هتلر فى محاولاته الطويلة الفـاشلة تدمير ستالينجـراد والاستيلاء عليها إبان الحرب (٢).

---

(٢) كان حصـاد معركـة ستالينجـراد (٤٢ – ١٩٤٣) : ٦٠٠ ألـف مـن القتلى والجرحـى الألمـان ، و ٤٠٠ ألف مـن الروس ، و ١٠٧٨٠٠ من الأسرى الألمان رجع منهم ستـة آلاف فقط أحيـاء إلى ألمانيا بعد انتهاء الحرب .

ولا يزال الخبراء العسكريون إلى اليوم – فيما يصدر من كتب ومطبوعات – يؤكدون أن تدمير مدينة مثل درسدن غير محصَّنة بوسائل دفاع ، وفى أواخر أيام حرب طويلة امتدت لسنوات (نحو خمس سنين) ولا قيمة لها من الناحية الحربية ، ليس له معنى ولا مبرر على الإطلاق تكتيكيا أو استراتيجيا. والتفسير الوحيد لتدمير درسدن هو فقط : الانتقام.

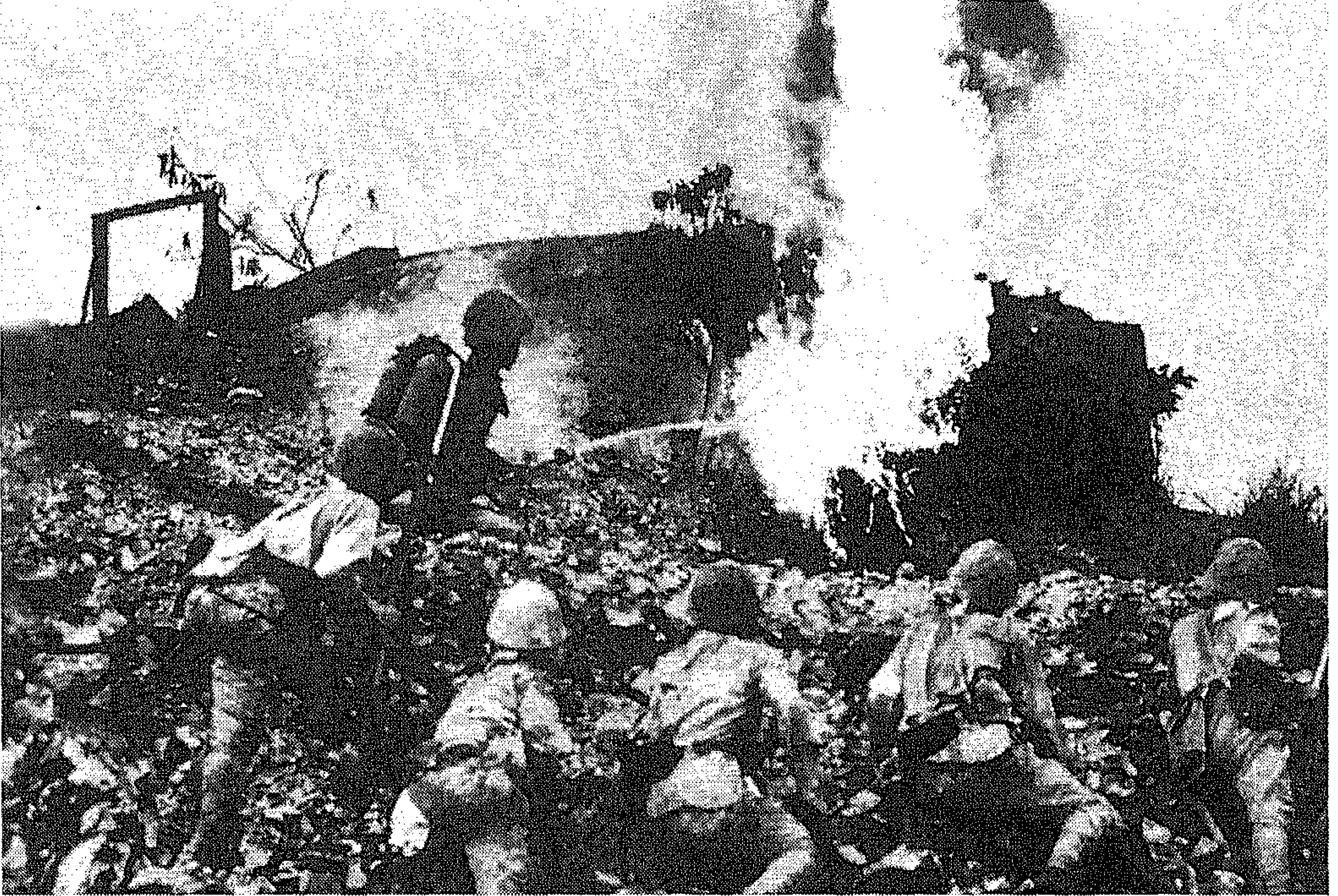
وكل ما فعله الإنجليز والأمريكان اعترافا بالذنب، أنهم فى الاحتفال بذكرى مرور خمسين سنة على انتهاء الحرب العالمية الثانية ، فى سنة ١٩٩٥، وضعوا إكليلا من الزهور – فى صمت – هناك، على النُّصُب التذكارى فى مقبرة درسدن . وهنا عندنا مَثَل شعبى يقول : اللى اخْتَشوا .. ماتوا !!

استخـــدام النابـالـم

النابالْم : جِلْ سريع الاشتعـال(١)، ينتشر رذاذا (أويترذَّذ) من قـاذفـات اللهب، أو يُختـزن فى القنابل الحارقة . وكيميـائيـا : هو صابون ألومينيـوم، يتكون من أحماض هيدروكربونات عضوية تغلِّظ الجازولين . وعندما يَغْلظ الجازولين يُسمى أيضا : نابالم. ولغويا : كلمة نابالم (Napalm) مشتقة من اسمْى مكوِّنَيْه الأساسييْن : حامض النافثين ، وحامض البالميك (أو الحامض النَّخيلى).

فى أوائل الحرب العالميـة الثانيـة ، طوَّرت بريطانيا مـادة حارقـة شديدة الفاعليـة ، من خَلْط المطاط بالجازولين. فلما غزت اليـابان جنوب شرق آسيا واستـولت على مناطـق إنتـاج المطاط، كـان على علماء الحلفـاء (بـريطانيـا وشركـائهـا فى الحرب) أن يبحثوا عن وسيلـة أخرى لابتكار سـلاح حـارق مُماثل . وعُهد بهذا الأمـر إلى الباحثين بجـامعة هارفـارد فى الولايات المتحدة الأمريكية . فعكف علماؤها مع نظـراء لهم بالقطاع الخاص على إجراء العديد من الاختبـارات على الأحماض الهيدروكـربونيـة. وبعـد عام من التجـارب والدراسات والبحوث المكثفة، خرجـوا بالتوليفة أو الصيغة المنشودة : ٢٥٪ حامض زيتيك، ٢٥٪ حامض نافثين، ٥٠٪ حامض نَخيلى (بالميك) مستخرج

(١) الجل (gel) : يفسر علميـا بأنه مـادة نصف جـامـدة شبيهـة بالهلام ، تتكون من جُسيمات غـروانيـة مشتتة فى وسط مثـل الماء أو الكحول ، وهو أيضـا غـروانى متخثـر – المعجم العلمى المصور ، الطبعة العربية عن دائرة المعارف البريطانية .



استخدم الجنود الأمريكيون قاذفات اللهب (النابالم) فى الحرب العالمية الثانية لإشعال النيران فى الأهداف عن بُعد بدرجة حرارة نحو أربعة آلاف مئوية لفترة طويلة حتى تتلاشى المادة الحارقة .

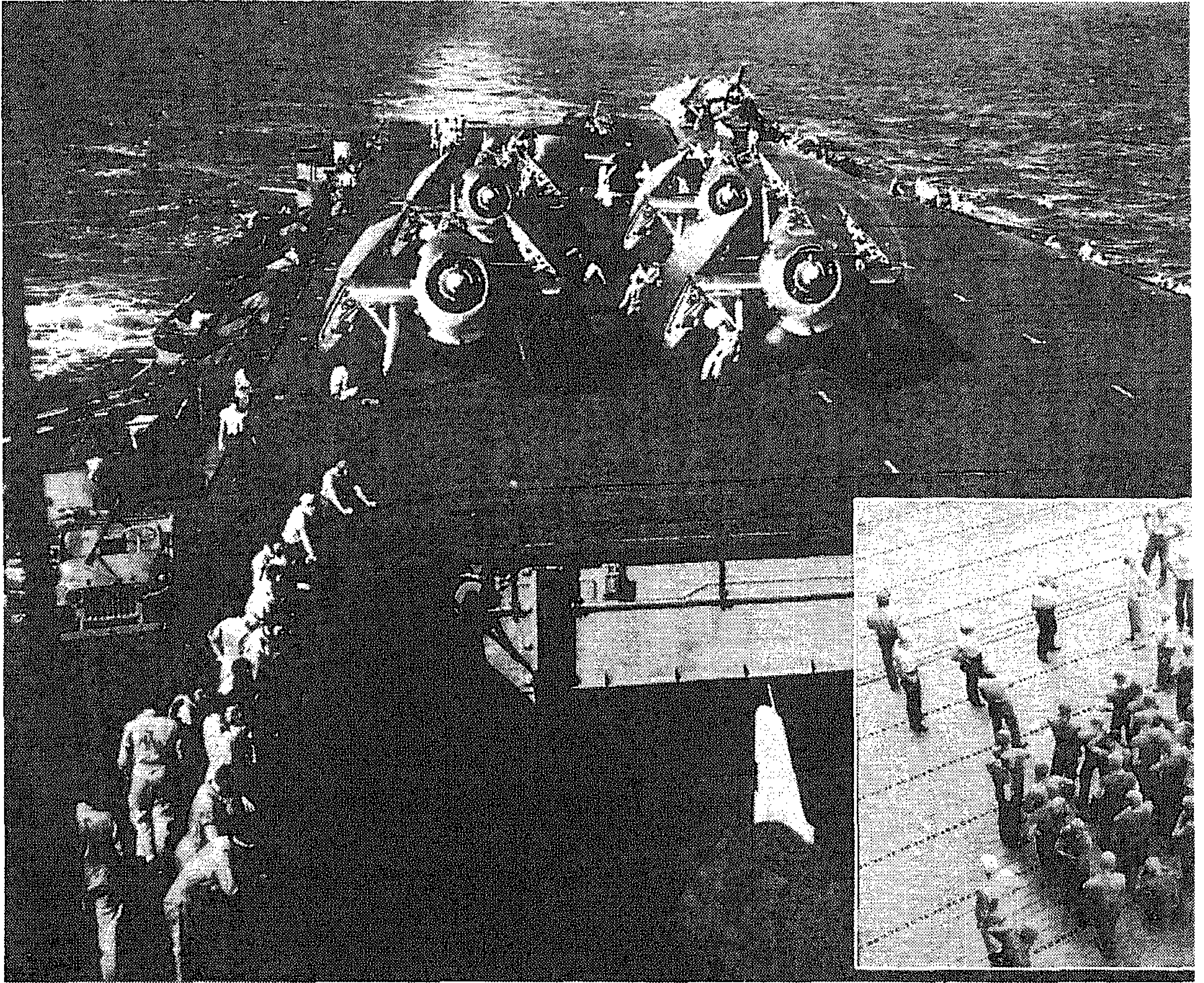
من زيت جوز الهند - ثم مزجوا هذا النابالم المستحدث بجازولين الطائرات لإنتاج جِل حارق. فكان سرور القيادة العسكرية الأمريكية عظيما بهذا النابالم الجديد، لأنه رخيص التكاليف، سهل التصنيع ، شديد التأثير فى الإحراق والإرهاب، وأثبتت التجارب الأولية أن هذا النابالم المبتكَر يشتعل مُولدا حرارة تتجاوز أربعة آلاف درجة مئوية ولفترة أطول من السابق. وميزة أخرى : أن هذا النابالم الجديد عند قذْفه يظل مشتعلا بهذه الحرارة الشديدة حتى تتلاشى تماما مادته دون أن يتوقف اشتعاله أو تتناقص شدة حرارته أو يترك نفايات تقلل من قيمته ، فهو إذن - فى نظر المتعطشين للإبادة والإحراق والتدمير والقتل معا - صالح كل الصلاحية فى إهلاك العدو ، وتدمير الأسلحة والمعدات والمؤن والمدن ، وإشعال الحرائق سريعا فى الأحراش والغابات والاستحكامات الكثيفة، لشق طريق للقوات المتقدمة بجنودها ومدرعاتها وسياراتها وأسلحتها . فأنتجت المؤسسة العسكرية الأمريكية قنابل نابالم كبيرة الحجم ، واستخدمتها لأول مرة فى ليلة ٩ - ١٠ مارس سنة ١٩٤٥ (فى الحرب العالمية الثانية) ضد اليابان.

أخفقت القنابل النابالمية الأولى فى تدمير المدن اليابانية ، ولكن فى تلك الليلة (٩ مارس) أمر القائد الأمريكى، الجنرال «كورتيس» ، وبدون إخطار واشنطون، بإعادة استخدام قنابل النابالم فى ضرب اليابان . فانطلقت طائرات «29 - 333B» القاذفة من قواعدها بالمحيط الهادى تُمْطر طوكيو بالنابالم . ومن جزيرة «جُيام» (٢)، وجزيرة «تينيان» المجاورة لها ، أَقْلعت فى المساء طائرات «29 - B» محملة بقنابل النابالم لضرب طوكيو . فلما انطلقت صفارات الإنذار فى تلك الليلة تعوى وتصرخ فى أجواء العاصمة اليابانية، كان سكانها قد تعودوا على سماعها ليلا طوال شهور الحرب فلم يُعيروها اهتماما كبيرا ، ولم يأخذوا حِذْرهم من أخطار السلاح الفتاك المدمر الجديد القادم إليهم من السماء .

تقدمت «موكب التدمير البشع» طائرتان 29 - B فأَلْقيَتا فى الساعة الثانية عشرة والربع بعد منتصف الليل حمولتيهما من أطنان النابالم، فاشتعلت على الفور منطقة وسط طوكيو . وعلى ضوء هذا الاشتعال المبهر إضاءة ، أقبلتْ ثلاث طائرات قاذفة ضخمة ، فأمطرت طوكيو بألف وستمائة طن من قنابل النابالم، أضرمت النيران الرهيبة فى بيوت المدينة ، خاصة تلك المبنية من الأخشاب فى الأحياء المكتظة بالسكان ، فأحرقتها بمن فيها ، وساعدت الرياح على انتشار الحرائق حتى بلغتْ الضواحى والمناطق المحيطة بطوكيو . واستمرت ألسنة اللهب تتصاعد لبضعة أيام فى درجة حرارة تجاوزت ألف وخمسمائة درجة مئوية ، وأسفرت عن تدمير عشرين كيلو مترا مربعا من المدينة تدميرا كاملا ، وتفَحُّم ثمانون ألف شخص على الأقل، مع إصابة مئات آلاف آخرين ، وتشريد أكثر من مليون وجميعهم من المدنيين . وكل ذلك فى ليلة واحدة . فهل يوجد على الأرض – من بين مخلوقات الله جميعا – من هو أكثر إجراما وانتقاما وتوحشا وضراوة وافتراسا من بعض البشَر ؟؟!

---

(٢) فى غرب المحيط الهادئ ، مساحتها ٢١٧ كم٢ ، وسكانها فى نهاية القرن ١٦٠ ألف نسمة تقريبا. وعاصمتها « هاجاتْنا » . تنازلت عنها اسبانيا (التى احتلتها سنة ١٦٦٨) للولايات المتحدة ثم انتقلت إلى ألمانيا ، ثم اليابان ، ثم إلى الولايات المتحدة فى يوليو – أغسطس ١٩٤٤ . وفى سنة ١٩٩٤ منحها الكونجرس الأمريكى حق الحكم الذاتى . وبها قاعدة بحرية أمريكية .



حاملة طائرات أمريكية فى طريقها إلى طوكيو لتدميرها بأطنان النابالم الذى تحمله الطائرات المتأهبة للإقلاع – مارس ١٩٤٥ .

وللأسف : من المتعلمين المثقفين «المتحضرين» التقدميين الديمـوقراطيين الأحرار !! أو هكذا يزعمون !

● واليوم

لايزال النابالم يُستخدم إلى اليـوم فى كل أرجاء العالم تقريبـا ، فى أغراض شتى، خاصة فى الدفاعات الحربية والقتالية المضادة ، وفى مهاجمة الجنود أو المحـاربين المختبئين فى التـلال والجبـال والكهـوف والمواقع المحصنة . واستخدمه الأمريكيون بكثرة فى حرب فيتنام، وإن أطلقوا عليه للتعمية اسم «الجل الحارق» لقذف جماعات المقـاتلين الفيتناميين الذين كانوا دُهاة سراعا فى الكَرِّ والفـر عند مهاجمة مواقـع وتجمعات الجنود الأمـريكيين الغُزاة (فى

سنوات الستينيات والسبعينيات من القرن) ، أو كانوا يختبئون فى الأحراش الكثيفة . وكان الأمريكيون يضربون به الأماكن والمواقع التى يظنون أن بها مقاتلين . كما استخدموه – مثل غيرهم – فى حماية ظهر وحدات المدفعية المقاتلة ، حيث يُقذف بسهولة من ورائها بقاذفات بعيدة المدى يحملها الجنود فى أيديهم.

ونظرا إلى الرعب المروِّع والدمار السريع الذى يصيب السكان المدنيين من استخدام النابالم ولا يُتيح لهم فرصة للحذر أو المقاومة أو النجاة ، فقد شَعَرتْ بعض مصانع إنتاجه الكيميائية بشىء من تأنيب الضمير وتوقفت عن إنتاجه ، ومن جانب آخر صَحا ضمير أعداد كبيرة من الناس فى مناطق مختلفة من العالم ، فتكونت جماعات نشطة تدعو – بوسائل مختلفة – إلى عدم استخدام النابالم وحَظْره دوليا ، وخاصة بعد أن قضى على آلاف من الأهالى، ليس فقط نتيجة إشعاله للحرائق وتدميره للبيوت، وإنما أيضا بسبب امتصاص نيرانه لكميات كبيرة من الأوكسجين فى مناطق قَذْفه، فيختنق الناس على الفور حتى ولو أرادوا الفرار .

وفى عام ١٩٧٢ ، ثم فى عام ١٩٧٤، أصدرت الجمعية العامة للأمم المتحدة قرارات بإدانة وحَظْر استخدام النابالم ونظائره من الأسلحة اللاهبة ، وامتنع كل من الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة الأمريكية عن التصويت . ولما خرجت القوات الأمريكية منكسرة مخذولة من فيتنام سنة ١٩٧٥ ، تركت وراءها كميات كبيرة من النابالم استخدمه بدورهم الفيتناميون فى حربهم الدموية المريرة ضد الكامبوديين. كما استُخدم النابالم فى حرب الخليج (العراق – الكويت) سنة ١٩٩١.

واستبدلت أمريكا النابالم بسلاح أحدث وأشد فَتْكا وهَوْلا أطلقتْ عليه اسم : قنابل «وقود التفجير الهوائى – FAE » (٣). وهذه القنابل «السوبر!» عندما تنفجر فى الجو فوق منطقة ما ، تُحدث ضغطا هوائيا مقداره مائتى رطل على البوصة المربعة ، ولا يتحمل الإنسان أكثر من ضغط أربعين رطلا

---

(٣) هذه الأحرف الثلاثة اختصار : **Fuel Air Explosive**

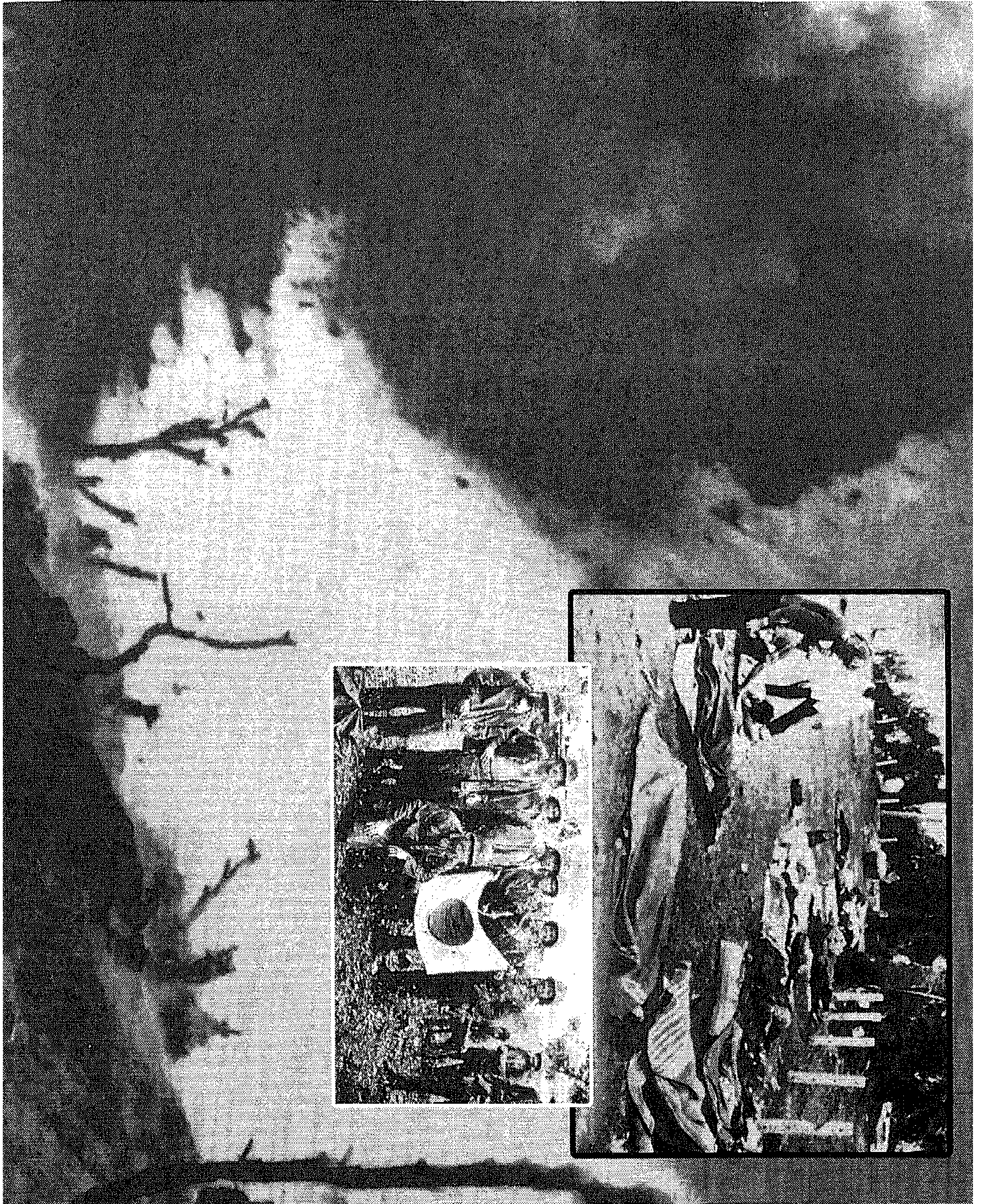
جزيرة « تينيـان » بالمحيط الهادى (إلى اليمين) بعـد استيـلاء الجنود الأمريكيون عليها « وتطهيرها » من الأهالى والجنود اليابانيين بالنابالم فبقى منهم حيا ألـف نسمة فقط من ثلاثين ألفا ، بعد استيـلائهم بالمثل على جزيرة « جيـام » . وفى الجزيرة (إلى أسفل) أقـام الأمريكيـون مقبرة لكلابهم التى قتلت فى المعـركة ، أمـا الأهالى القتلى فـدفنـوا فى مقـابر جماعية .



على البـوصـة المربعـة وبعد ذلك يهلك، والقنبلة الواحـدة من هذا النوع يكون تأثيرها القاتل فى نطاق ١٠٠٠ قدم. ويشمـل تأثيرها الفجائى السريع خارج نطاق منطقـة التأثير المبـاشر (التى يمـوت فيهـا الناس): الإصـابة بأخطار شديدة منها جروح داخلية وخارجية ، انفجار فورى لطبلة الأُذن ، انسحاق أجـزاء الأُذن الداخلية ، ارتجاج شـديد بالمخ، تمزق الرئتين وأجهـزة الجسم الداخليـة ، وربما الإصـابة بالعَمَى .. وسبحـان القـائل : ﴿**فإنها لا تَعْمَـى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور**﴾ (٤)!

---

(٤) سورة الحج – آية ٤٦ .



فى الطريق إلى طوكيو : اشتعلت الحرائق وأبيدت غابات بقذائف اللهب وقنابل النابالم وأزهِقت أرواح مئات الآلاف وحمل الجنود الأمريكيون الفـرحون للذكرى العلم اليابانى رمـز بلاد الشمس المشرقة . وكانت الحصيلة فى حرب المحيط الهادى (الباسفيك) مليون ونصف مليون قتيل من الجانبين .

الحرب البيولوجية

ويُقصد بها إطلاق ونَشْر متعَمَّد لمسبِّبات أمراض خطيرة لا تُقَاوَمُ بسهولة أو تحتَمل، فى أوساط الخصم أو العدو . وهذه المسبِّبات قد تكون من أنواع الفيروس أو البكتريا الضارة، وهى كثيرة متنوعة ، فتعالج بالهندسة الوراثية، ثم تُعَبَّأ وتُقْذَف بالصواريخ، والقنابل الهوائية (التى تنفجر فى الجو) ، والقذائف الحربية . ويتم إعدادها بحيث تحقق الأغراض الرئيسية التالية ، فضلا عن الإرهاب والرعب المُقِيم :

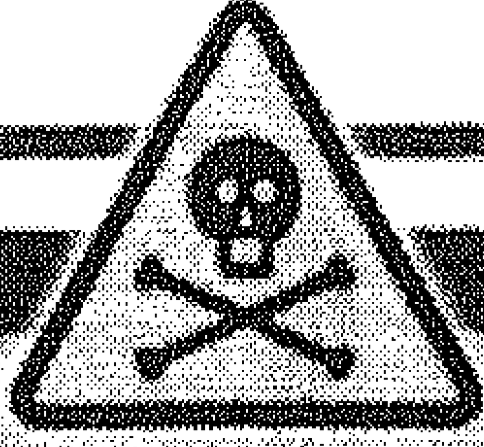
* شدة وفَداحة الأذى الذى ينتج عنها . فيجب أن تكون مُفْزِعة مُهْلكة بالقَدْر الذى يمنع أية مقاومة لها أو علاج سريع منها . ولكن قد لا يتطلب أن تكون دائما فتاكة أو حتْما قاتلة .

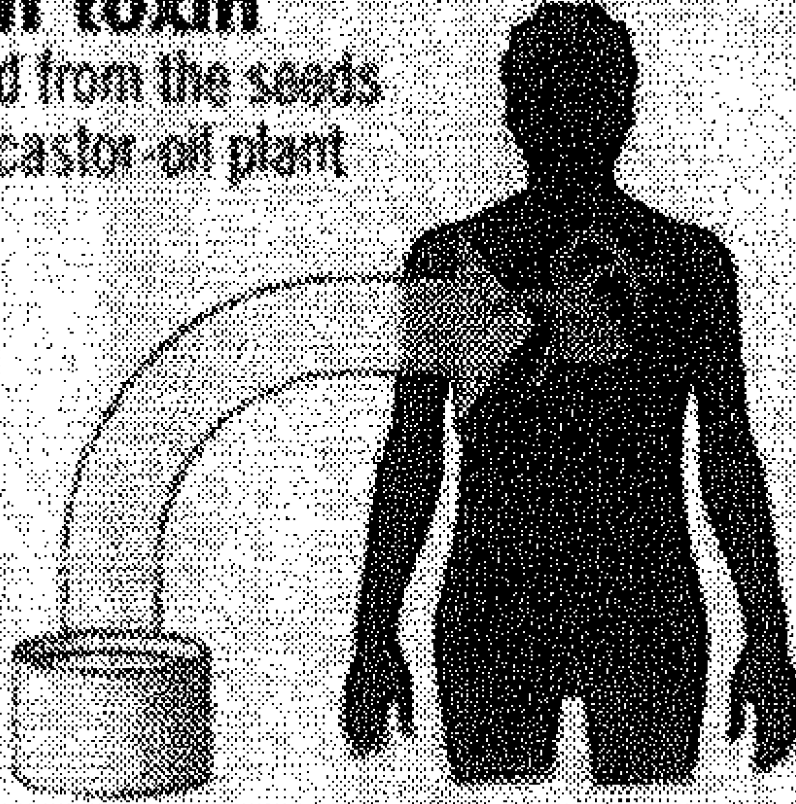
* ومن الناحية العملية ، يَحْسُن أن تكون الكمية الفعالة منها المناسبة لإحداث التأثير المطلوب، صغيرة الحجم حتى يسهل نَقْلها ونَشْرها .

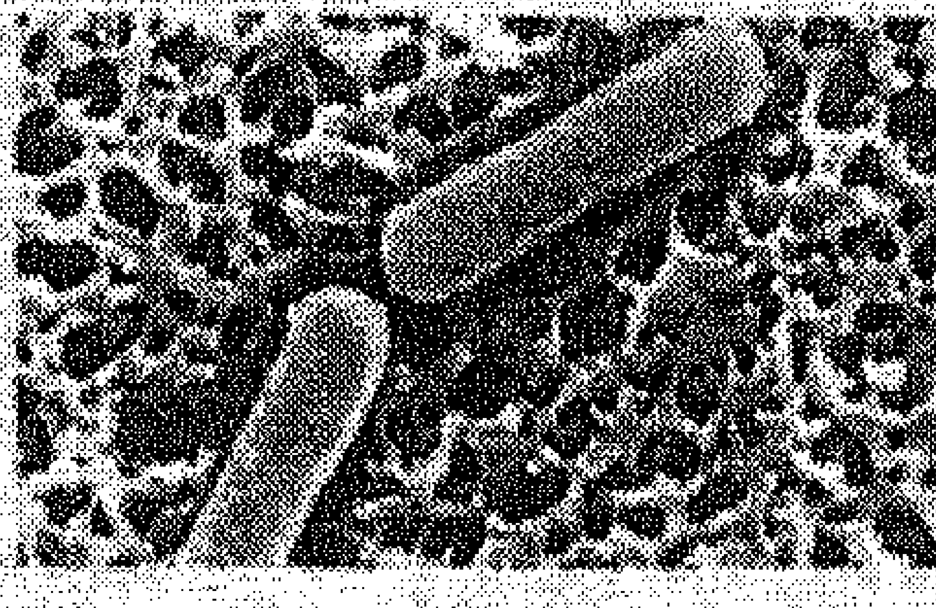
* مراعاة أن يكون الأفراد (كالجنود أو المجموعات السكانية) الذين ستُوَجَّه إليهم تلك الكائنات الميكروبية غير محصَّنين ضدها أو لديهم مناعة طبيعية تقاومها عند إطلاقها نحوهم.

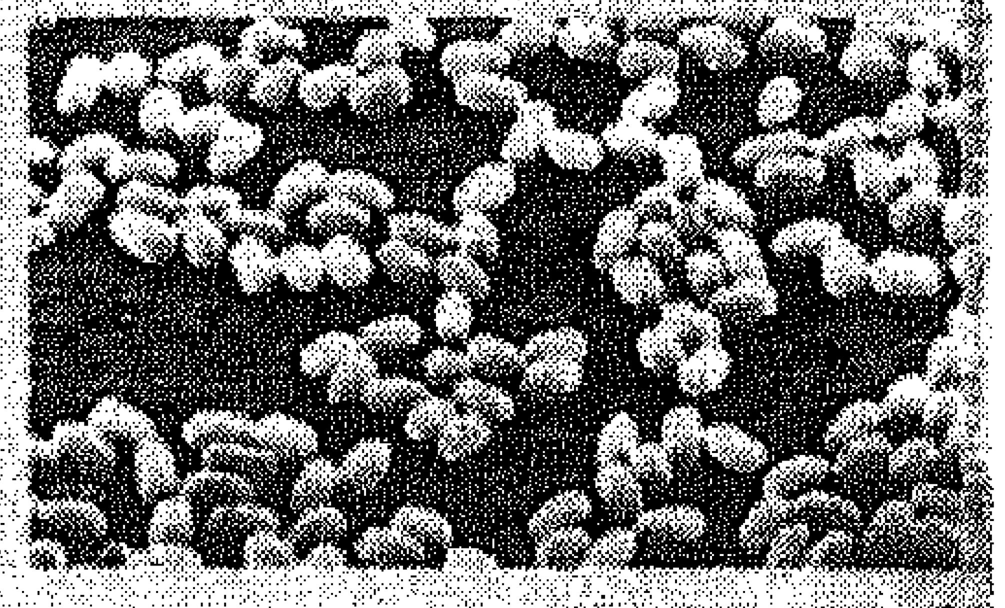
* أن تكون مصاحبة لمصل مضاد لتأثيرها يَمْلكه المنتجون لها ولا يملكه الذين ستُوَجَّه إليهم ، حتى يستطيع المنتجون لها استخدامه عند الضرورة ، كإسعاف شخص صديق أصيب خطأ بها ، أو قوم من غير الأعداء ، أو جنود من الحلفاء.

أسلحة بيولوجية قاتلة









● أبواغ الجمرة الخبيثة (أنثراكس) : [1]
- توجد عادة مقترنة ومتعايشة مع جراثيم حيوانات الحظائر ومزارع تربية الدواجن والماشية .
- تنتقل بالهواء الجوى وقد تسبب الالتهاب الرئوى والاختناق .
- يكفى ٨ جرامات منها فقط لتركيز الإصابة فى نطاق ميل مربع واحد (٢,٦كم^2) .
- يتكلف ذلك من ١٠٠٠٠ إلى ٢٠٠٠٠ دولار .

(١) البَوْغ : جسم تناسلى ينمو فيصير كائنا حيا مستقلا بدون إخصاب . وهو وحدة تكاثرية لا جنسية فى النباتات اللابذرية وخاصة فى الفطريات والبكتيريا والأوليات .

● تسمم بوتولينوم :
- ينتج عن بكتيريا مسببة لتسمم اللحوم والأسماك .
وهو واحد من أقوى السموم.
- يسبب شلل فى التنفس يؤدى إلى الموت .
- يكفى ٨٠ جراما منه لتركيز الإصابة فى ميل مربع .
- يتكلف ذلك بين ١٠٠٠٠ و ٢٠٠٠٠ دولار .

● سم ريسين :
- يُستخرج من بذور نبات الخروع .
- يسمم الدم فيسبب انهيار نظام الدورة الدموية .
- يحتاج الأمر إلى ٥٠٠ جرام منه لتكثيف الإصابة فى ميل مربع .
- يتكلف ذلك من ١٠٠٠٠ إلى ٢٠٠٠٠ دولار .

(*) تلك المواد البيولوجية المهلكة متاحة فى المجال التجارى فقط للمعامل والاختبارات الرسمية المصرح بها ، ولكن ليس من العسير الحصول عليها بوسائل تحايلية متنوعة .

* أن يكون من خصائصها الذاتية مقاومة أو عدم التأثر بمضادات حيوية مثلا ، وفى الوقت نفسه مراعاة أن يكون تأثيرها وقتيا ، إذا كان الغرض منها أن تُستخدم كسلاح حربى يشل أو يعوق تقَدُّم أو نشاط الخصم، وليس انتشار وباء عام بين الأهالى أو السكان .

وغالبا ما تكون الحرب البيولوجية سلاحا للتدمير والإرهاب موجَّها نحو الكتل الجماهيرية . ولسهولة إعدادها واستخدامها ، فإن الدول

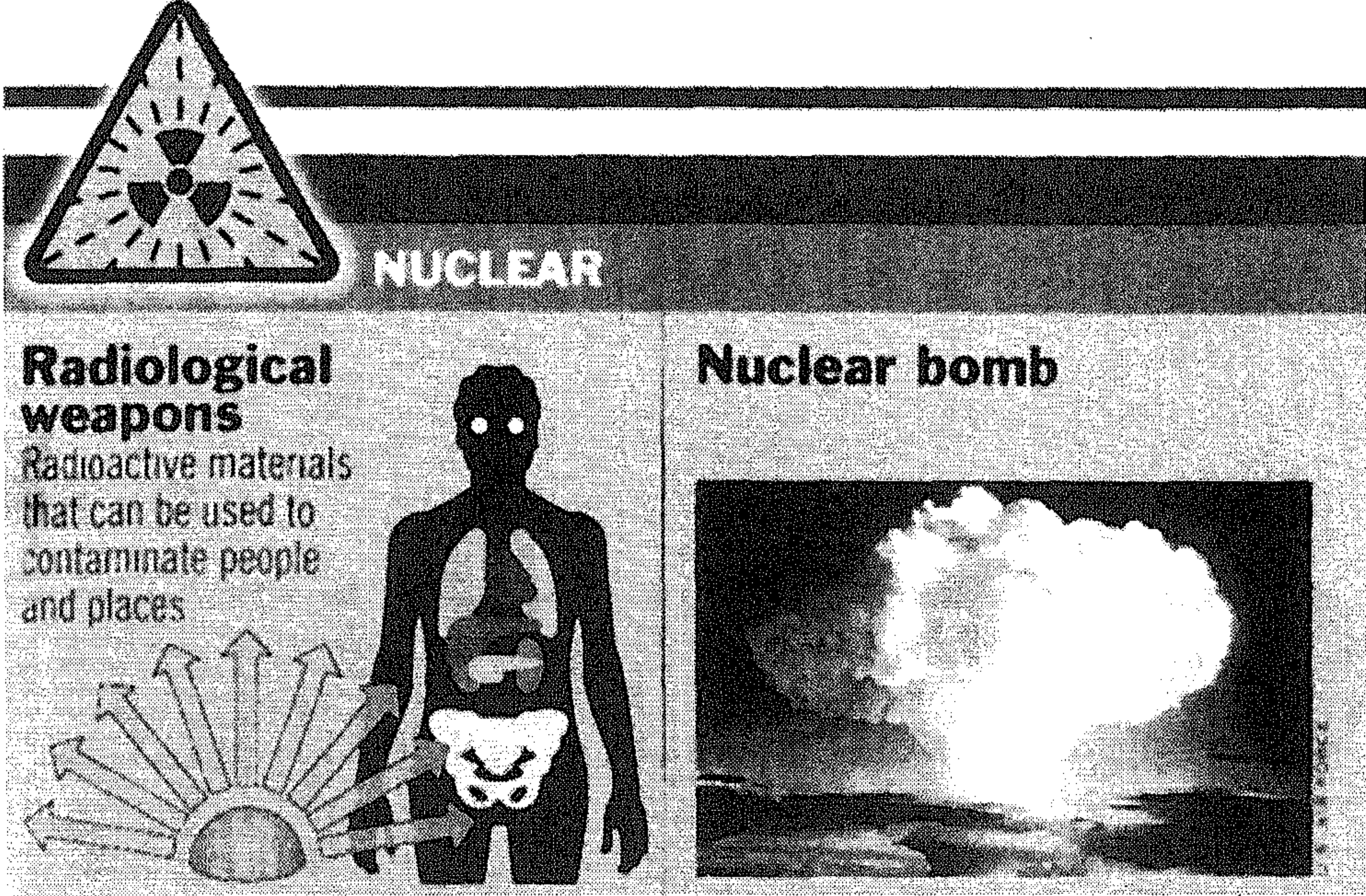
المتعاظمة الحريصة على فرض نفوذها وسيطرتها على العالم (سياسيا واقتصاديا وفكريا وتعاليا) تخشى وتسعى لمنع الدول الصغرى (أو المتخلفة فى زعمهم التى يسمونها دول العالم الثالث) من إنتاجها وتخزينها، سواء من جانب الأفراد والجماعات، أم الجيوش والحكومات. فمواد الحرب البيولوجية أرخص تكلفة و أيسر صناعة من أسلحة أخرى: كالذرية أو الكيميائية. فكل ما تحتاجه فى الأساس: مختبر (معمل) صغير، وخبير بيولوجى. ومن السهل بعد ذلك التمويه وإخفاء حقيقة هذا المختبر ومن يعمل به، بزعم أنه مجرد مختبر كيميائى أو أحيائى للبحوث المدنية، فهو إذن قانونى لا غبار عليه أو شك فيه. كما أن عناصر الحرب البيولوجية أخطر وأفتك من عناصر الحرب الكيميائية بنحو مائة وستين ضِعْفا، وأيسر كثيرا فى تهريبها خفية وفى نَشْرها. ولكن، مهما كانت سرعة اكتشاف الإصابة بها، يكون من العسير للغاية - وربما يستحيل - مقاومتها أو الحد من تأثيرها مالم يُعرف بدقة مَصْدرها الأصلى.

والمشكلة الكبرى التى تواجه المدافعين عن «هجوم» تلك القذائف أو القنابل البيولوجية الجرثومية، هى الثلاثية الحتمية المتوالية فى تتابعها ومقدار النجاح أو الفشل فيها، أولا: الحيْطة المسبقة؛ ثم: التنبؤ بالهجوم؛ ثم: الدفاع والمقاومة الفورية السليمة من اللحظات الأولى لانطلاق الخطر الداهم. وبما أن الحواس البشرية الطبيعية لا تستطيع اكتشاف الغزو الجرثومى، فيكون ضروريا تحليل عينات من هواء المناطق المستهدَفَة أولا بأول. ولما كان هذا الغزو البيولوجى يتحرك فى سِرِّية كاملة وتخففٍ شديد، فإن أول الإصابات به مع الإعلان عنها تثير موجة من الاضطراب والذعر بين السكان أو الجنود، فيتطلب ذلك اتخاذ ترتيبات حازمة سريعة منظمة حتى لا تَعُم الفوضى ويَفْلت زمام الأمور.

*** هل هى أسلحة حديثة ؟**

لا. بل هى قديمة منذ أن عرف الإنسان ودَبَّر كيف يدمِّر بسرعة، أكبر عدد من أعدائه وخصومه ومنافسيه، وبأيسر الطرق. فيسجل التاريخ أنه

أسلحة نووية (ذرية)



● قنبلة ذَرية :
- يُوَلد الانشطار النووى طاقة هائلة ويبث فى الجو إشعاعات مُهلكة .
- تحتاج إلى ١٥ كجم من اليورانيوم المخصَّب أو ٥كجم من البلوتونيوم .
- من العسير جدا على الجماعات (أو الحكومات) الإرهابية صُنع أو سرقة أو شراء هذا النوع من الأسلحة .
- التكاليف : غير محدودة .

● أسلحة إشعاعية :
- تَقتل بتأثير التسميم الإشعاعى .
- وينتج ذلك عن جميع المواد التى تلوث بالإشعاع الصنار (بكميات أو وحدات كبيرة مؤذية) فتصيب الأشخاص والكائنات والأماكن والأجواء .
- بعض أعضاء الجسم تتأثر بالإشعاعات الضارة أكثر من أعضاء وأجهزة أخرى خارجية وداخلية [١] .

(١) تفصيل ذلك وشروح وافية فى كتاب للمؤلف بعنوان : « الطاقة الذرية - النعمة والجحيم » .

كان يُلْقِى الحيوانات الميتة المتعفنة فى آبار المياه لتلويثها ، خاصة تلك التى كانت تستقى منهـا المدن المحاصَرَة. واستخدم الإنجليـز فى حروبهم بالهند، والفرنسيـون فى الهند الصينية تلك الأسلحـة الخبيثة، بأن وزَّعـوا على عدد كبير من المواطنين أغطية (بطاطين) ملوثة بميكروب الجدرى، فانتشر الوباء.

وفى العـادة، يكون استخدام هذه الأسلحـة الجرثومية بحـذَر بالغ وتكتُّم شـديد، وهو فى القرن العشرين يلقَى معـارضة شـديدة، ويحتدم من حـوله الخلاف والجدَل والنزاع . وقد ثارت ضجة إعلامية سياسية فى عام ١٩٧٩ ، عندمـا وقع حـادث عـارض فى المجمَّع رقم ١٩ للبحـوث الميكروبيـة التـابع للجيش السـوفييتى خـارج مـدينة «سفِـرْدلوسْك» حين تسرَّب نبأ انتشـار ميكروب الجمرة الخبيثة «Anthrax» فأصاب مئات من أهالى المنطقة وأزهق أرواح ثمانية وسبعين شخصا من المدنيين .

*** واليوم ..**

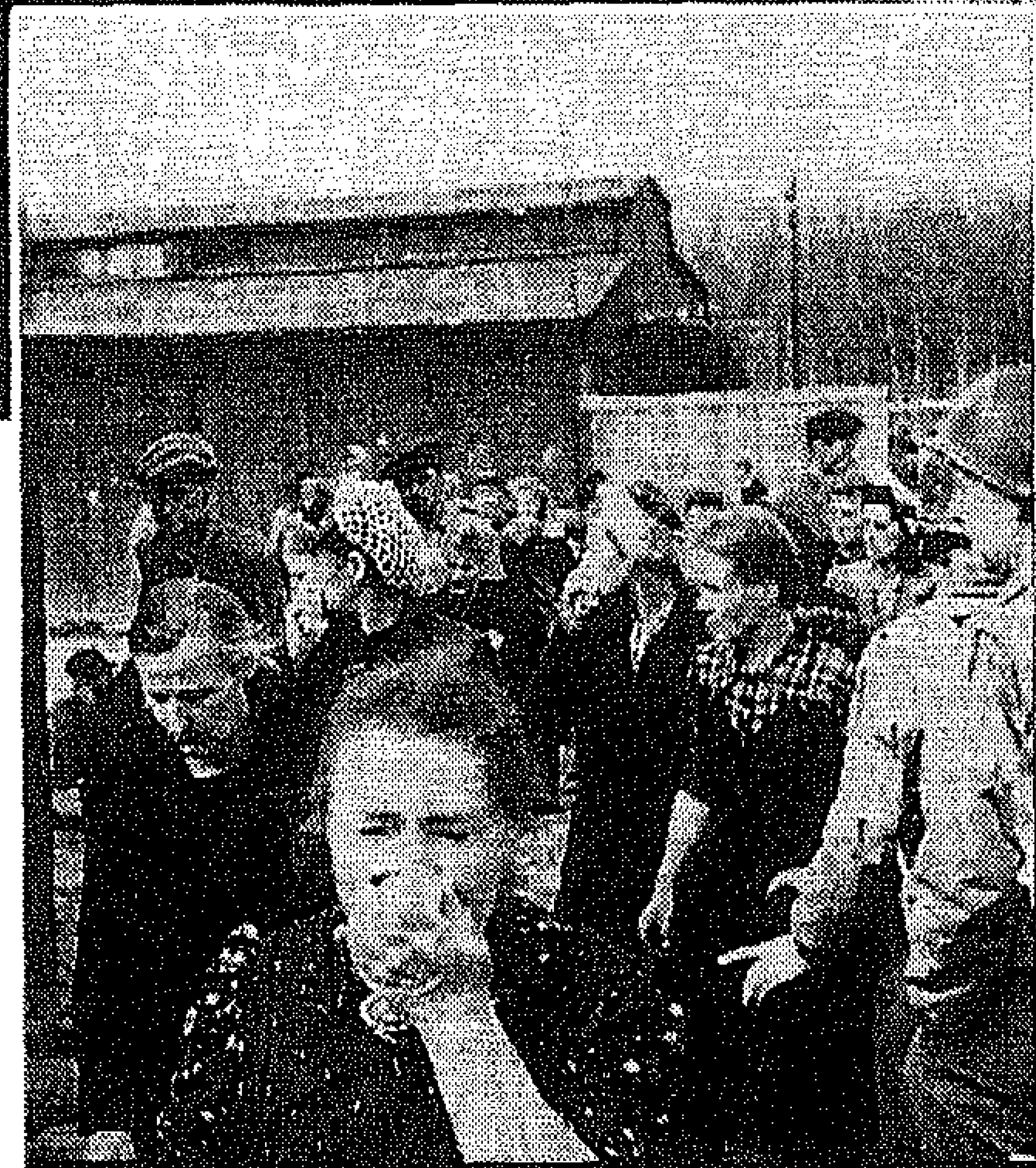
.. تضم قائمة الأسلحـة البيولوجية القائلة : الجمـرة الخبيثة ، الطاعون ، حُمى لهاسا (Lahassa) ، وأنواعا مختلفة ومتجانسة من بكتريا سامة مستخـرجـة من اللحـوم والأسماك الفـاسـدة ، وميكروب قـاتل أُعْطِىَ اسم: Coxiella burnetii ، وحُمى «ق- Q» القاتلة،وربما كـانت هذه الحمى أخطر نتائج الأسلحة البيولوجية (الجرثومية) المستحدثة فى القرن العشرين على الإطلاق : إذ يكفى ٦ جرامات (نعم .. ستة جرامات) منها فقط لنشر تلك الحمى المهلكة فى العالم كله . ولكن من رحمة الله العليم بالأبرياء ، ولإنقاذهم من شرور وبَغْى الأقـوياء ، فإن نسبـة الإصـابة بها لا تتجـاوز ١٪ من الآدميين. ومع ذلك، فإن هذه النسبة ليست قليلة ولا هَينة فى تجمعات بشرية كبيرة. فكم يبلغ عـدد المصابين بها ـ (مع نسبـة ١٪) ـ إذا انتشرت بين ألف أو خمسة آلاف أو مـائة ألف جندى ؟ أو بين شعب تعداده خمسـة ملايين أو عشرين أو خمسين أو مائة مليون من السكان ؟

وفى عام ١٩٧٢ وقَّعت أكثـر من مائـة دولة ـ من بينها الولايـات المتحدة

والاتحاد السوفيتى (آنذاك) ـ على معاهدة عدم إنتاج أو استخدام الأسلحة البيولوجية . ونقطة الضَّعف الشديد فى تلك المعاهدة ، أنه بمقتضاها يُسْمَح بإجراء البحوث والتجارب التى تؤدى إلى الوقاية والحصانة من تلك الأسلحة الفاتكة ، هذا يستدعى المعرفة الكاملة والضرورية للجوانب الضارة المؤذية لها . فكأنها حلقة مُفْرغة : تُبيح وتَحْظر فى وقت واحد !

ولقد أنفق البنتاجون (وزارة الدفاع الأمريكية) أكثر من بليون (ألف مليون) دولار على بحوث الأسلحة البيولوجية منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية (١٩٤٥) وحتى نهاية القرن ؛ وكان إنفاق نصف هذا المبلغ فى الفترة بين سنة ١٩٨٤ وسنة ٢٠٠٠ . ومع ذلك ، تزعم الولايات المتحدة أنها لا تملك ولا تبحث معمليا ولا تنتج ولا تستخدم أسلحة من تلك الأنواع . فهل صحيح ؟! الله أعلم !

الأهالى المدنيون - خاصة النساء والأطفال وكبار السن - ضحايا الإحراق والتدمير والقتل والتشريد : فى فيتنام (إلى أعلى) وألمانيا (إلى اليمين) وبلاد أخرى .



الغازات السامــة

استُخْدِمــت الغازات السامــة فى الحروب الحديثة كســلاح إرهاب وتدمير معا . وقسمــوها إلى مجموعــات وفْقا لخطر وقــوة فِعْلها ، ومــدى تأثيرها ـ شِدة أو ضَعفا ـ لتحقيق الغرض منها ـ وهذه أهَم مجموعاتها الرئيسية :

* مجمــوعــة استثــارة تهيج الرئــة ، تلك التى تهاجم الجهــاز التنفسى ، وخاصة نسيج الرئــة ، وغالبا ما تسبب الوفــاة نتيجة إحداث نوبات خطيرة من التــهاب الغشــاء البللورى (١) . وقد استُخْدِمت بكثرة هذه المجمــوعة فى الحرب العالمية الأولى (الحرب العظمى) ، وكانت مكوِّناتها من غازات ومواد ســامــة مثل : الكلورين (الكلور) ، والكلوروبيكْرين ، والفــوسْجن ، والد يفوسْجن (٢) .

---

(١) هو غشاء مـزدوج يحيط بكل رئة ليساعدها على أداء وظيفتهـا جيدا فى عمل الشهيق والزفير من التنفس، بالانتفـاخ (بهواء الشهيق) والانقبـاض (بطـرد هواء الزفير) فى التجـويف الصـدرى بسهولة وراحة. وكل غشاء يتكون من طبقتين : طبقة داخلية ملتصقة فى كل مكان بسطح الرئة، وطبقـة خارجيـة مُثَبَّتـة تمامـا بالجدار الداخلى للتجويف الصـدرى. وبين طبقتى هذا الغشـاء البللورى فراغ بسيط به سائل شفاف يجعل انزلاقهما (فى حركة التنفس) على بعضهما البعض مريحا ميسورا ، وهما مندمجتان عند أطرافهما ليصنعا ما يشبه « الكيس » . وتقع هذه الأغشية خلف الضلوع التى تحميها .

وأكثــر الأمــراض التــى تصيب الأغشيـــة البللوريـــة : الالتهـــابات الناشئـة عن النزلات الشُعَبيـة والالتهـاب الرئوى ، وتصحبهـا آلام حـادة عند التنفس ، وقـد يُسْمَع لها صـوت عند احتكاك بعضها ببعض . فإذا كان الالتهاب خطيرا ، أفرزت سائلا يتجمع بين الطبقتين الخـارجية والداخلية (وتسمى أيضـا الأحشائيـة) وهو سائل أصفـر لونه فاتح ، فإن زاد إفـرازه بدرجة كبيرة ، شغل جـزءا كبيرا من التجويف الصـدرى ، فيضغط على الرئة وربما أوقفهـا عن العمل . وتُستخدم المضـادات الحيوية أحيـانا للعلاج ، أو يُسحب (يُبـزل) السائل المجتمع دَرْأ لتفـاقم الأخطار .

(٢) الكلور : عنصر كيميـائى غـازى سام . – الكلوروبيكرين : سـائل عـديم اللون يسيل الدمـوع أو يسبب التقيؤ ، ويستخدم كثيرا فى إبادة الحشرات – الفوسجن : غـاز عديم اللون كريه الرائحة ، كان فى البداية يحضَّـر بمساعدة ضوء الشمس ولذلك جاء فى أول اسمه « phos » أى : ضوء – الديفوسجن : غاز سام .

* مجمـوعة المُقَـرِّحـات : تلك التى تُسبب بُثـورا وقُروحـا فى كل أجـزاء الجسم التى تتعـرض لها ، وخاصـة فى الأغشية المخـاطية وفى قـرنية العين. وأكبر مثال على تلك المجموعـة هو غاز الخردل الذى نشر الرعب من الأسلحة الكيميائية فى الحرب العالمية الأولى، وكذلك بعض نظائره المروعة مثل غازات الخردل النتروجينية.

* مجمـوعـة الغازات المسيلة للدمـوع : وهى تسبب تهيجـا والتهـابات بالعين، وتسيل الدمـوع بغـزارة ، ومعظم غـازات هذه المجمـوعـة لا يؤذى الجنود الذين يضعون الأقنعة (الكمامـات) الواقية . وتُستخدم هذه الغازات فى كل أنحـاء العالم لتفـريق المظاهرات ، والسيطرة على جماعـات الشَّغْب، أو عند اقتحام المواقع المحصَّنة . ومن الأمثلة على هذه المجموعة :

Diphenylchloroarsine, Diphenylchanoarsine,
Diphenylaminechloroarsine



فى كل بلاد العـالم تقـريبـا تستعين الشرطة بالغـازات المسيلة للدمـوع فى تفريق المظاهرات أو كتل التجمعـات الجماهيرية المناوئة للسلطة الحاكمـة خـاصـة عند توقُع اختـلال الأمـن (والصـورة من إيران) .

* مجموعة المُعَطِّسات : التى تسبب الضيق الشديد والتعب الجسمانى كالتقزز والغثيان ، والعطس المستمر، والتقيؤ، وعدم انتظام أو ضبط التنفس . وتصنع من مكونات عضوية سامة.

* غازات تسميم الدم : ومثال عليها كلوريد السيانوجين (٣)، وسيانيد الهيدروجين؛ وهى تتسلل إلى مجارى الدم وتمنع سريان الأوكسجين فتُهْلِك، وقد استُخدمت فى الحرب العالمية الثانية .

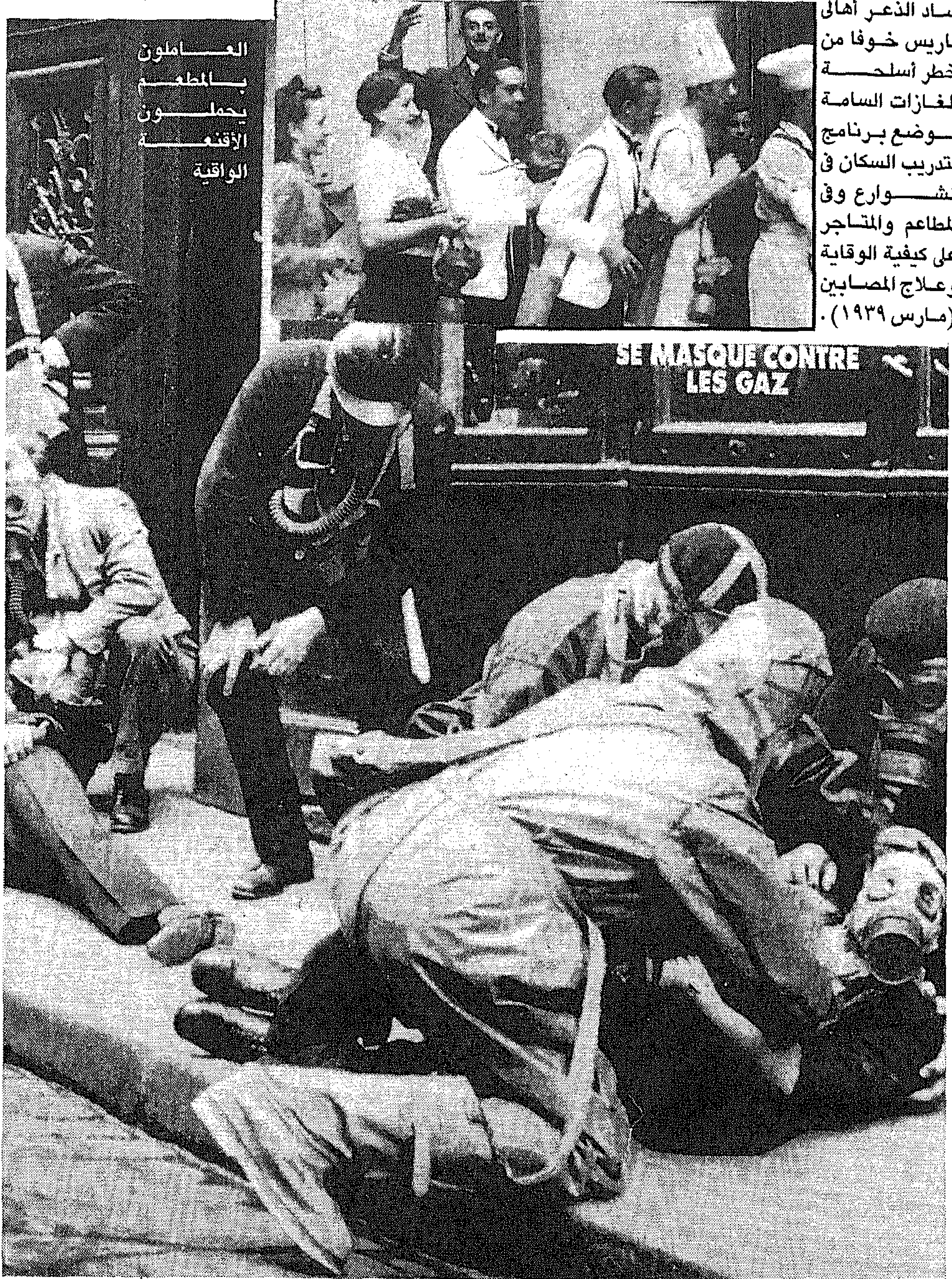
* الكيمائيات النفسية : التى تُستخدم للاضطراب النفسى والتشويش الذهنى والاكتئاب واليأس وإشاعة الفوضى والقلق فى جموع الخصم أو العدو . ومن هذه المجموعة أقراص الهلوسة المعروفة باسم LSD.

* غازات الأعصاب : كان تحضيره معمليا فى سنة ١٩٣٦ عندما كان عالم الكيمياء العضوية الألمانى «جرهارد شرويدر» يُجْرى محاولات فى البحث عن مضاد جديد للحشرات . وتعتَبر غازات الأعصاب من أخطر المواد السامة المهْلِكة المعروفة . وهى مكوِّنات عضوية فوسفورية قاتلة ، لأنها توقِف عمل أنزيم يؤدى دورا حيويا فى الجسم يُسمى: «acetylcholinesterase» (٤). وهذا الأنزيم يتولى مهمة الضابط المنظِّم لنقل الإشارات العصبية إلى الجهاز التنفسى والجهاز الهضمى فى الجسم (بإفراز مادة أسيتولكولين). فإذا منع غاز الأعصاب عمل هذا الأنزيم ، استمرت تلك الإشارات فى التدفق حتى تحترق نقاط التشابك العصبى ، فيستمر تأثر واستجابة العضلات بلا انقطاع ، فيؤدى ذلك إلى الشلل ، والارتجاف (التشنج) ثم الموت .

وإذا ما أُطلقت غازات الأعصاب فى هيئة بخار ، فإنها تكون بالاستنشاق أسرع فى الفتك. فإذا كانت سوائل عديمة اللون والمذاق، فإن مسارها يكون

(٣) السيانوجين : غاز سام سريع الاشتعال ، عديم اللون ، رائحته تشبه رائحة اللوز .

(٤) الأنزيم : يحتاج الجسم إلى عوامل مساعدة لتسهيل وتعجيل التفاعلات الكيميائية الحيوية التى تحدث فى الأنسجة ، وهذه العوامل تسمى أنزيمات أو خمائر من مواد شبه بروتينية . وكل نوع من هذه الخمائر أو الأنزيمات يكون عاملا مساعدا فى تفاعل واحد فقط . وينتج التفاعل الكيميائى من اتحاد الأنزيم مع جزىء ، وفى فترة الاتحاد القصيرة هذه، يتحول الجزىء بالتفاعل إلى الناتج المطلوب حتما وضرورة ، وإلا فالخلل ، فالتلف ، فالضعف ، فالهلاك . ومن إبداع الخالق وعظمته أن هذه التفاعلات ونتائجها تتم بكل دقةطوال سنوات العمر فى خلايا مجهرية لا تراها العين !



العاملون بالمطعم يحملون الأقنعة الواقية

ساد الذُعر أهالى باريس خوفا من خطر أسلحة الغازات السامة فوضع برنامج لتدريب السكان فى الشوارع وفى المطاعم والمتاجر على كيفية الوقاية وعلاج المصابين (مارس ١٩٣٩).

خافيا ، فتتسلل إلى داخل الجسم عن طريق نسيج البَشْرة (أى طبقة السطح فى الجِلد) بدون أن تُحْدث أى إحساس بها أو تأثير ملحوظ على الجلد، فتقضى على الحياة فى الحال بمجرد وصولها إلى مَجرى الدم.

إن أشهر وأقوى أنواع الغازات السامة المعروفة : السارين (sarin) ذلك الذى حظى بضجة فَجَّة ، وشهرة على حين غِرَّة ، فى مارس ١٩٩٥ عندما أُطْلِق عَمْدا فى إحدى محطات مترو الأنفاق فى طوكيو باليابان ، وغاز التريلون ٤٦ ، وغاز التيبون ، والسومان ؛ وأخطرها جميعا وأشدها فتكا : الغاز الجديد الذى أُخْفِى وأُعْطِى الرمز «VX» ، وهو على عكس غيره من الغازات السامة يتميز بأنه ينتشر فى الهواء ببطء شديد ، ويغطى منطقة واسعة ، ويظل ملوِّثا مُعَلَّقا خافيا بهوائها ومسلَّطا عليها لبضعة أيام .

ولقد أشار «ألبرت سبير» وزير الاقتصاد فى حكومة هتلر ، فى كتاب مذكراته ، أنه حصل على قنبلة معبأة بغاز الأعصاب «تيبون» السام فى أواخر أيام الحرب العالمية الثانية، فعزم على قتل هتلر ومن معه فى مقَره المحصَّن المدفون فى باطن الأرض ، ولكن القنبلة وضعها «سبير» فى فُوَّهة أنبوب شفْط الهواء الجوى إلى داخل عرين الفوهْور – هتلر– وكان هذا الأنبوب معطَّلا ومسدودا بحواجز معدنية ومرشحات جديدة.

★ هل غازات الأعصاب مستحدثة ؟

يقوال التاريخ : لا . فقد ثَبت أن الإسبارطيين (أهالى مدينة سبارطة فى عصر الإغريق – اليونان القديمة – بين ٩٠٠ – ٢٠٠ ق.م) كانوا يحرقون الخشب ويضيفون إليه الكبريت والقار (الزفْت) لإنتاج أبخرة من غاز ثانى أوكسيد الكبريت عند قذْفها نحو الأعداء . وفى الحرب الأهلية الأمريكية (بين ولايات الشمال وولايات الجنوب قبل اتحادها ، وذلك فى الفترة بين سنة ١٨٦١ و ١٨٦٥) استخدم كلا الجانبين قذائف معبأة بغازات سامة لكنها كانت محدودة التأثير .

★ وحديثا : فى ٢٢ أبريل سنة ١٩١٥ ، أطلق الألمان ١٦٨ طنا من غاز الكلورين السام فى منطقة «يِبْرس» فى بلجيكا ، وفى اليوم التالى نَفَثوا فى هواء المنطقة مزيدا من هذا الغاز حيث تمركزت قوات للحلفاء، فكانت حصيلة هذا الغاز الخفيف وزنا والأخضر لونا : خمس عشرة ألف إصابة ، منها خمسة

آلاف قتيل كـان من بينهم عـدد من الألمان الذين راحوا ضحية مـا صنعوه بأيديهم ، وذلك عندما عكست الرياح اتجاه سحابة الغاز نحوهم .

وقد تنبه كل من الجانبين المتحاربين عقب تلك الواقعة إلى ابتكـار الأقنعة الواقية مـن الغازات ، وبها مرشحـات تنقى هواء التنفس من أضرارها الخطيرة . وتلك الغـازات استُخـدمت بوفـرة فى الحرب العالمية الأولى ، فكان من ضحيتها مليون ونصف مليون جندى مصاب ، فى الجانبين، منهم ٨٢٥٧١ قتيـلا (ومـن هؤلاء القتلى ٥٦٠٠٠ جندى روسى).



فى الحرب العـالمية الأولى استُخـدمت الأقنعـة الواقيـة (الكمامـات) من الغـازات السـامـة لحمايـة الجنـود والكلاب المدرَّبـة . والصـورة لجندى فـرنسى وكلبـه (سنة ١٩١٧) .

★ واليوم

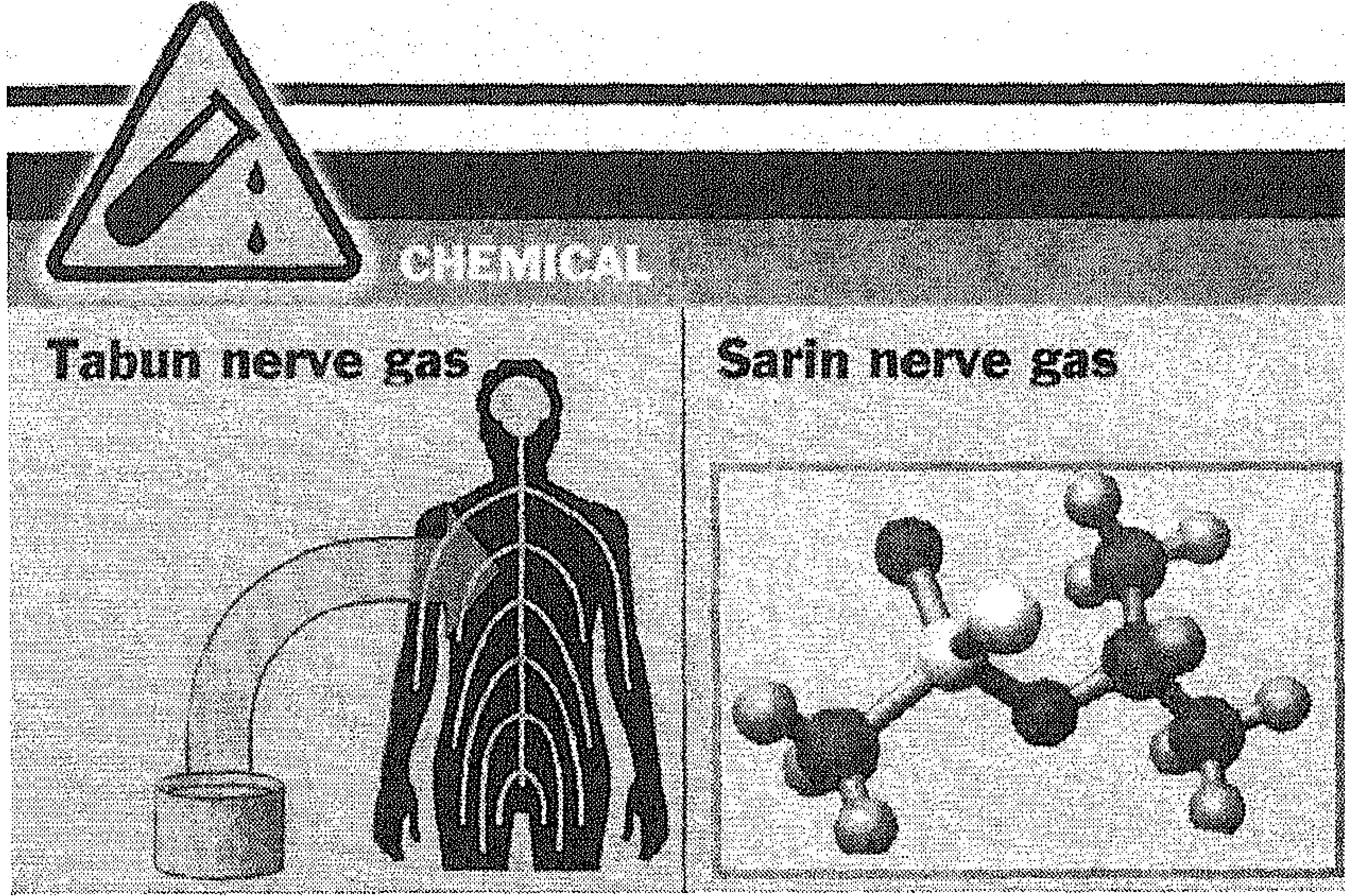
يزداد النفـور الشـديد فى معظم بلاد العـالم من استخـدام تلك الغـازات والأسلحـة الكيميـائيـة ، حتى فى المبيـدات الحشرية . وفى سنة ١٩٢٥ قـرر مؤتمر جنيف الموافقـة على اتفاقية دوليـة تُـجَرِّم استخدام الغازات السـامة والطلقات النارية السامة فى المعارك الحربية. لكن إيطاليا كانت أول من خَرَق تلك الاتفـاقية باستخـدامها غـاز الخردل فى حربها الاستعمارية بالحبشـة (إثيوبيـا) فى عامى ١٩٣٥ ـ ١٩٣٦. واستخـدمت اليـابان غازات سـامة فى غـزوها للصين فى سنـة ١٩٣٦ . واستخـدمت كل من بريطانيـا والولايات المتحـدة غازات سـامـة فى الحرب العالميـة الثـانية : الأولى ضـد الألمان حين توقعت بريطانيـا – وهْـمًـا وخطأ – أن هؤلاء سيشنُّون هجـوما مضـادا ؛ والثانيـة ضد اليـابان الذين كانوا يدافعـون بشجاعـة نادرة واستماتة عن جُزُرهم . ولم يستخدم الألمان تلك الغازات فى سـاحات القتال .



أدولف هتلر

وبدافع التـوقعات والاحتمالات ، لم تتـورع كل من بريطانيـا والولايات المتحـدة عن تنفيـذ برنامج مكثف شـديـد المخـاطر ، جسيم العـواقب، أثيم التطبيق : فقـد أجْـرَيَتا عددا كبيرا مـن الاختبارات التجـريبيـة على عشرات

أسلحة كيميائية قاتلة



● غاز الأعصاب : سارين

- يسبب الاختناق لأنه يُحْدث شللا بعضلات الصدر وتظهر علامات الموت عادة بعد ١٥ دقيقة من استنشاق كمية قاتلة منه .
- يتطلب الأمر إطلاق ٨٠٠ جرام منه لإحداث تأثيرات مُهلكة فى نطاق ميل مربع (٢,٦ كم٢) .
- يتكلف ذلك من ١٠٠٠٠ إلى ٢٠٠٠٠ دولار .

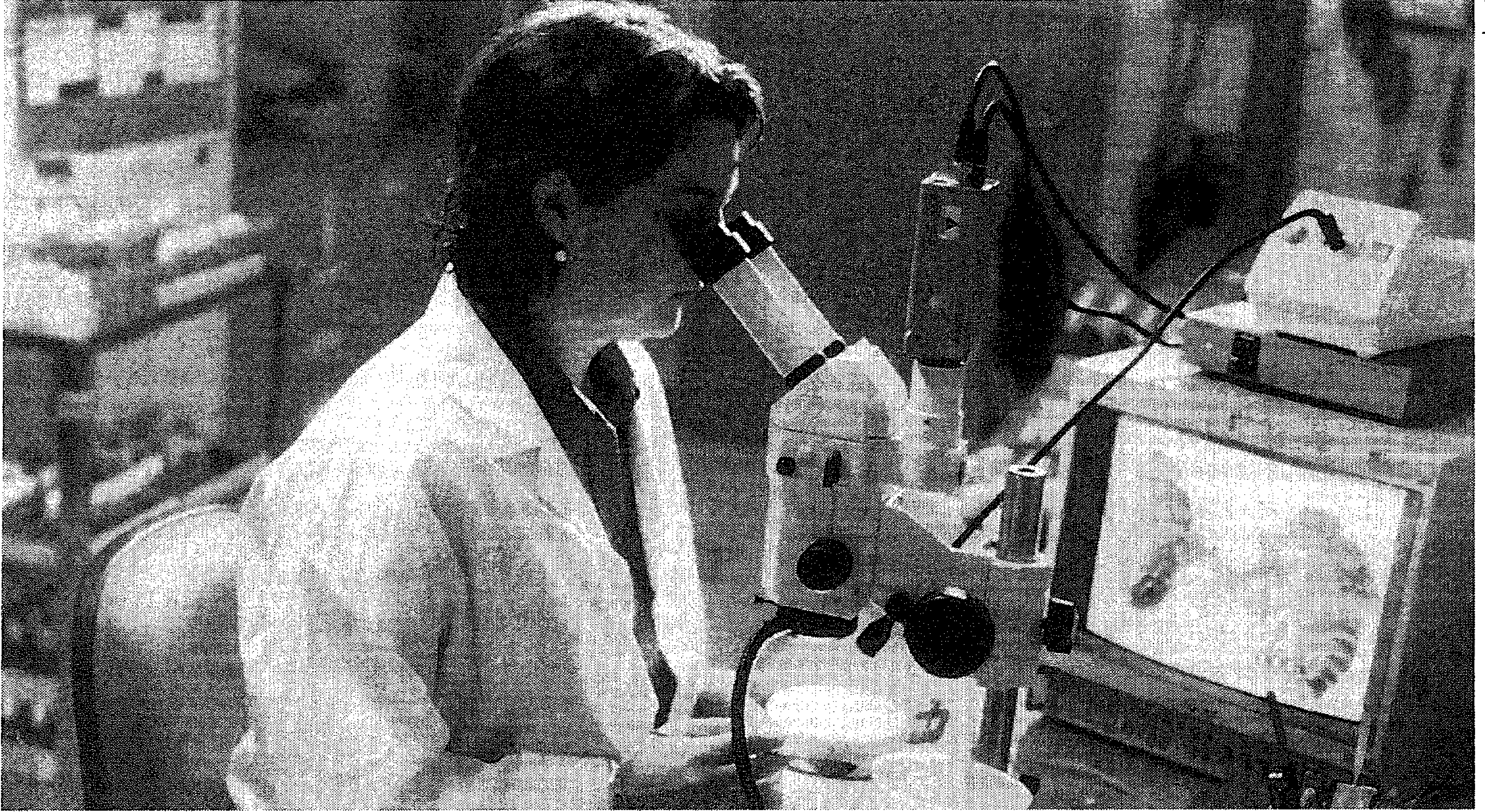
● غاز الأعصاب : تابون

- يسبب الاختناق لأنه يصيب عضلات الصدر بالشلل ، ويتدخل لإفساد الإشارات الكيميائية التى تمر عَبر الخلايا العصبية .
- يحتاج الأمر إلى أكثر من ٨٠٠ جرام منه لإحداث إصابات قاتلة فى نطاق ميل مربع واحد .
- يتكلف ذلك بين ١٠٠٠٠ و ٢٠٠٠٠ دولار .

الآلاف من الجنود (لم تذكر المصادر التى بين أيدينا هل كانوا من جنود هاتين الدولتين العاتيتين أم كانوا جنود شعوب أخرى تحت سيطرتهما ، لكنهما قالتا إنهم كانوا «متطوعين» ؛ وهل يرضى «عاقل» لنفسه أن يدخل قانعا راضيا تجربة : احتمال الهلاك فيها أكبر كثيرا من توقُّع النجاة ؟!). تَعَرَّض هؤلاء الجنود لغازات سامة متنوعة ، ولمراهم أكَّالة للجلد. وقد مات بعضهم بسبب ذلك، ولم تذكر التقارير الرسمية المعلنة عدد هؤلاء الضحايا.

واستخدمت الولايات المتحدة الغاز المسيل للدموع غير القاتل ضد كتائب «الفيِت كونج» الشيوعية التى كانت تختبئ فى الأنابيب (المواسير) الضخمة فى حرب فيتنام . ثم استخدم المتحاربون الفيتناميون غازات سامة بعد الحرب ضد بعضهم البعض ، وفى عمليات «التطهير» ضد قبائل وطنية معارضة لهم ، وعلى الحدود ضد صينيين وكمبوديين ولاوسيين فى النزاعات الدموية العنيفة التى استمرت فى عقدى السبعينيات والثمانينيات من القرن . وذُكر – بدون دليل قاطع – أن السوفييت استخدموا مواد كيميائية سامة وأخرى بيولوجية ضد المجاهدين فى فترة غزوهم لأفغانستان . وكذلك ما ذُكر – بلا دليل يُثْبت – من أن الجيش المصرى استخدم قذائف مدفعية بها غازات سامة ضد اليمنيين فى الفترة بين عامى ١٩٦٣ – ١٩٦٧ . وهذا أيضا ما قيل عن استخدام غازات سامة وغازات أعصاب (الخردل والفوسجن) فى الحرب العراقية – الإيرانية بين عامى ١٩٨٢ – ١٩٨٨ .

وعلى الرغم من تجريم وتحريم استخدام الأسلحة والمواد الكيميائية السامة على المستوى العالمى وفقا للقرارات والاتفاقيات الدولية ، إلا أن خمس عشرة دولة على الأقل لا تزال تنتجها وتحتفظ بها لاستخدامها عند الضرورة . وتحتفظ الولايات المتحدة بمخزون ضخم من تلك الغازات والمواد فى جزيرة «جونسون» بالمحيط الهادئ (الباسيفيك) ، وكذلك يملك بعض دول الاتحاد السوفييتى السابق ، رصيدا كبيرا من أسلحة الحرب الكيميائية المركَّزة .ولا أحد يدرى ماذا تُخفى إسرائيل ؟!



وتستمر مختبرات دول التحكم والسيطرة (الكبرى) فى التعامل مع الأسلحة الكيميائية والبيولوجية ولا أحد يدرى ماذا تُخفى إسرائيل !

الدَّجَل الوطنى



الجنود بأسلحتهم فى الخنادق سنة ١٩١٦.

جاء فى مقدمة الحديث عن الحرب العظمى (العالمية الأولى : ١٩١٤ - ١٩١٨) بالجزء الثانى من هذه السلسلة (صفحة ٥٤) بعنوان : «السياسة والدبلوماسية فى القرن العشرين»، ما يلى :

« لم تترك حرب سابقة آثارا بعيدة المدى مثلما حدث مع الحرب العالمية الأولى . وقد عَجَّلت تلك الحرب بأفول نجم أوروبا كقوة كبرى مقارنة ببقية العالم . ودمَّرت - بنسبة كبيرة - اقتصادها ، ومركزها الدولى ، وفتحت أبوابا لإنهاء استعمارها لشعوب وأراضٍ أجنبية ، ومَهَّدت الطريق لبزوغ نجم روسيا والولايات المتحدة ، طرفَىْ القوة الهائلة والأعظم فيما بعد ، وهما الدولتان اللتان سوف تحددان مصير أوروبا طوال القرن. كما أن هذه الحرب رفَعت مقدار الخسائر البشرية بدرجة مفزعة ، وأدخلت ألوانا من الرعب لم تكن معهودة فيما مضى : إذ قتلتْ من الناس فى سنواتها الأربع ما

يفوق عـددا كل ضحايا الحروب التـى وقعَتْ فى القرنين الســابقين عليها بما فيها حـروب الثورة الفـرنسية والحروب النابـوليونيـة ، والحروب الأهلية الأمريكية» (١). وقد أجاد «وينستون تشرشل » وصْفها حين قال :

«إن الحرب العظمى التى مـرت بنا تختلف عن كل الحروب القـديمـة : فى القوة الهائلة للمتحاربين وأدواتهم المدمِّرة ، المفزعة . كما أنها تختلف عن كل الحروب الحديثة فى القسوة المطلقة التـى صدر عنها القتال (٢). لقد اجتمعت فيها كل ألوان الرعب من كل العصور ، ليس فقط بالنسبة إلى الجيوش، وإنما أيضـا مع كل الشعوب التى انغمست فيهـا . وتصورتْ أشـد الدول فطنة – وبحق – أن مَـحْض وجـودها فى الحيـاة عـرضـة للخطر .. إن كل انتهـاك للإنسانية وللقـانون الدولى (فى تلك الحرب) قابله سريعا انتقام غـالبا أقوى وأنكى، وأكثـر دوامـا وأوسع مـدًى . لم تفلح أية هدنةٍ – ولو جـزئيـا – فى التخفيف من حـدة القسوة الصادرة مـن الجيوش . فالجرحَى يمـوتون بين الخطوط ، والموتى يتعفنون فوق الأرض . وفى البحـر ، أُغرقت سفن التجارة وسفن المستشفيات، وتُرك مَن عليها لمواجهـة مصيرهم . فإذا حاولوا النجاة بالسباحة قُتلوا . وبُذلت كل الجهود لإجـاعة شعوب بأكملها دون اعتبار أو نظر إلى سن أو جنس ، حتى تستسلم وتخضع وتركع (٣). وأبادت المدفعيـة مدنا وآثارا ومتاحف . وأُسقطت القنابل من الجو بلا تمييز، ولَفَـحَتْ الجنودَ أنواع عديدة من الغازات السامة . وأُطلقت النيران السائلة على أجسادهم ، أو أُخمدت أنفـاسـهم ببطء بغمـر رءوسهـم فى ميـاه البحـر. ولم تَردع قسـوة

(١) انتهت مأساة تلك الحرب العظمى التى روعت العالم ، وخَرَّبت ودمرت وسفكت دماء ، وقتلت – بلا مبرر معقول ولا ثمن مقبول وكان من الممكن ألاَّ تكون – من العسكريين (من الجانبين) ٨,٦ مليون جندى ، ومن المدنيين ٦,٥ مليون شخص فى أقل التقديرات ، وصبغت القرن العشرين كله بآثارها ونتائجها ، فدفعت الشعوب ثمنا غاليا من قبل ومن بعد، وربما من حساب القرن التالى.

(٢) مع مراعاة أن تشرشل ذكـر هذا فى سنة ١٩٣٨ (أى قبل الحرب العالمية الثانيـة وما تلاها حيث كانت القسوة والأحقاد والدمار أشـد وأعظم (وذلك فى كتابه : « أزمات العالم – The World Crisis (1911 - 1918) .

(٣) للمقارنة فقط : إن كل هذا مايفعله الساسة حكام إسرائيل (التى هى ثمرة تلك الحرب العظمى) بالشعب الفلسطينى الأعـزل فى السنوات الأخيرة من القـرن العشرين ومـا بعـدها على مـرأى ومسمع من العالم المؤيد لها !!

السلاح وعذاب الثأر والانتقام مـا تملك الدول من إنسانية ورجولة . واتسع النطاق ، فأصبحت أوروبا وأجزاء واسعـة من آسيا وأفريقيا سـاحة واحدة للمعـركـة . وبعـد سنوات من الصراع العنيف المخيف، لم تتكسر الجيـوش وتتمـزق ، وإنما الشعوب والدول . وعندمـا انتهى كل شىء ، كان التعـذيب ومص الدمـاء هما الوسيلة الملائمـة الوحيـدة التى اقترفتْهـا ثم أنكرتْها على نفسهـا الدول المتحضرة ، العلميـــة ، المسيحيـة ، وهذه الصفـــات جميعهـا مشكوك فى أنها كانت ذات فائدة وفاعلية فى الواقع العملى ».

هذا ما كان من تلك الحرب «البشعـة الغبية» فى أوائل القرن . وفى أواخره، وتحديدا فى ٢٥ مايو سنة ٢٠٠٠، بعد نحو مائة سنة ، ظَهر «الدَّجل والكذب الوطنى» فى الحفل الذى أقيم فى فـرنسا لتسليم جندى كندى عُثر عليـه قتيلا من ضحـايا تلك الحرب العظمى (سنة ١٩١٧) وإعادته إلى بلده . لم يُعـرف عنه شىء : لا اسمه ، ولا عمره ، ولا نشأته ، وإنما كما قيل : «الله وحده يعلم ذلك» . وقـد وقـع الاختيـار عليـه كـرمـز «للبطـولة العسكرية» - ! - لكل الكنديين الذين ضحـوا بأرواحهـم - كما قيل أيضـا فى الحفل - فى سـاحـة الشرف والوطنية . إنه «الجندى المجهـول» الذى حَظى فى ذلك الحفل بكلمات رنانة وخُطب طنانـة عن الشجـاعـة ، والشهـامـة، والحرية ، والحضـارة ، والمجـد. لم تكن كلمات رثاء أو عـزاء ولا أسف على أفعـال نكراء وضحـايا أبرياء ، وإنما هؤلاء الجنود المجهـولـون «لن يطويهم النسيـان مثلنا ، نحن الذين عِشْنا بعدهم.. لأننا سنظل نذكرهم على الدوام.»..

هكذا قيل !

كان واحدا من ١١٢٨٥ جنديا كنديا قُتلوا فى هذه الحرب ، ولم يبحث أحد لماذا ، وكيف، ومتى ، ولِمَ قتلـوا - وقـد جـاءوا من بلد هو مـن أغنى وأهدأ وأجمل بلاد العـالم فى أقصى الشمال الأمـريكـى إلى وسط أوروبا ليقـاتِلوا ويُقْتَلوا فى حرب بشعة ضَروس عَبوس لا ناقـة لهم فيها ولا جَمل. هل كانت كما زعمـوا وكـذبوا سـاحـة قتـال من أجْل الشرف والشهـامـة والحرية ،

والحضــارة ، والمجـد ؟!(٤) لن نتحـدث عن البربرية أو الوحشيـة والأعمال المشينة التى ســادت عندما اتسعت تلك الحرب واستَعَـرت – بإرادة وأوامر قـادة الدول التــى اشتركت فيهـا – ولم تفـرق فى ضحـــاياها بين عسكريين ومــدنيين، بين ميــادين قتال وميـادين عـواصم ومـدن وقـرى آهلة بسكان أبرياء. لقد كانت بحق بعثا لوحشيـة جديدة وهمجية مستحدثة (ولن تكون الأخيرة) بما ابتكرت من أسلحـة وأساليب ووسائل للتـدمير والعنف والقتل على أوسع نطاق ولكتل سكانية ضخمة فى لمح البصر . ألا يدخل ذلك فى دائرة الجرائم الكبرى فى ميزان العدل ، وتقدير الشرائـع المنصفة للحق والإنسانية العليا ومحاسن الأخلاق ؟

ويكفى للرد على تزويـر الوقــائـع والتــاريخ، والــدجل باسم الوطنيــة والحضـارة والحرية لخداع الأجيال ، ما نشر من رسائل بعض الجنود الذين كتبوهــا إلى ذويهم من ساحات المعــارك الحربية فى تلك الحـرب، وقـد سُمح بالاطلاع عليهـا بعد سنوات من كتـابتها. والمأساة الحقيقـة هى أن الكوارث والنكبات والجرائم البشرية العدوانية تتكرر، وينجو منها غالبا مرتكبوها.

■ ٢٢ فبراير ١٩١٥..

من «أوجين إمانويل لومرسييه» إلى أمه :

لن تستطيعى يا أمى الحبيبـــة أن تعـرفى مــا يمكن أن يفعله الإنســـان بأخيـه الإنسان . هذه خمسة أشهر قد مضت وحـذائى السميك تزداد فوقه فى كل يوم كثافة الطبقـة التى تغطيه دهون المخ البشرى الذى نخـوض فيه، والرقـاب التى تتهشم حين ندوسها ، والأحشاء المتـدلية من البطون المبقورة التى نَعْبر فـوقها . والرجال معى يأكلون القليل بجوار الجثث الممـزقة . إن كتيبتنا جـديرة بالبطولة : فلم يَعُد لدينا ضباط ، هلكوا جميعاً». (نشرت هذه الرسالة سنة ١٩١٩).

---

(٤) مـن عجب أن يدَّعى رسميــون فى منــاصب عليـا فى دول غربيـة فى نهايـة القـرن ، من أمثـال رئيس وزراء إيطاليـا « بيرلسكـونى » – الذى كـان متهما (هو وشقيقـه) قبـل انتخـابه بتهم الرشوة والتهرب من الضرائب والتعامل مع المافيـا والشبهة فى جمع ثروته المقدرة بالمليارات من الدولارات – يدعى هؤلاء سمو « الحضارة » الغربيـة الأوروبية على الحضارة الإسلامية ، وهذا بعض « مآثر » تلك الحضارة الغربية التى أدْمَت ولطخت وجه القرن العشرين من بدايته بهذه الحرب العظمى (بعد فظائع ومآسى عصرها الاستعمارى فى القرنين السابقين) ثم بحرب عالمية ، وحروب أخرى بشعة فى مناطق متفرقة من العالم .

□ ٢١ يونيو ١٩١٥ ..

من « هنرى باروس » إلى زوجته :

« فى الخندق الذى يشبه الأنبوب الكبير جثث كثيرة ليس لدينا وقت لانتشالها . ولا مَنْدوحة لنا عن المشى فوقها . أحد هؤلاء القتلى كان وجهه ملطخا بقناع من الطين وعيناه خارجتان من مِحْجَريهما ، وذراعه منبسط لكنه تمزق من مرور الجنود فوقه تباعا بطول الخندق الأسطوانى الضيق، وهم لا يَرَوْنه هو أو غيره من جثث القتلى لأن الظلام حالك بالداخل. أليس هذا شيئاً مروعا مريرا ، هؤلاء الضحايا الذين «يستخدمونهم» كخِرق بالية أو كائنات تافهة حقيرة ؟» (نشرت هذه الرسالة سنة ١٩٣٧).

□ من « موريس جنفوا » سنة ١٩١٥ ..

« هذه حرب بشعة مقززة بلهاء . منذ أربعة أيام وأنا ملطَّخ بالطين والدم وبقايا مخ القتلى . تلقيت إصابات شَجَّت أجزاء من وجهى ، وفى ذراعى جروح .. إن قلبى ينفطر ، وروحى تكاد تزهق من الرعب » . (نشرت تلك الرسالة سنة ١٩٩٠).

□ ٣٠ أكتوبر ١٩١٦ ..

من «فرنان ليجير» إلى صديقه «لوى» :

«بمجرد الخروج من الخنادق تظهر على الفور بقايا الأجساد البشرية. رأيت أشياء فى غاية البشاعة والغرابة : رءوس بشرية كالمومياء تطفو فوق كتل من الطين . وأطفال موتى أجسادهم تغوص فى الوحل وأيديهم بارزة بشكل مخيف .. حاولتُ أن أصورها لتسجيل وحشية ما يَحْدث . إنها تفوق أى تعبير . وما أكثر ما شاهدت من موتى أصابعهم بين أسنانهم مفصولة عن كف اليد بالضغط عليها من شدة الألم. كثير من الجرحى غرق فى الحفَر والخنادق التى غمرتها المياه ، وهى بعمق ثلاثة أمتار . يجب أن تعرف أنت وغيرك ما يحدث من مآسٍ هنا». (رسالة نشرت سنة ١٩٩٧).

□ رسالة مُقْتَضَبة من «مجهول» سنة ١٩١٨ ..

«ليكتب مَن يعثر على هذه الرسالة إلى السيد «مُوزُورير» أن «ج» (صاحب الرسالة) مات مشنوقا فى ساحة القتال بيد من لايعرف ، فى «فردون» (بفرنسا) لمجرد عبوره (أى كاتب القصاصة) الطريق ». (نشرت سنة ١٩٢١). وهذه أمثلة موجزة .

وفى سنة ١٩١٧ كتب الأديب الفرنسى «لوسْيان ديكاف» عضو أكاديمية «جُونْكُور» مؤلَّفا حصيفا طريفا يتكون من عبارات حكيمة ساخرة مثل

«لافونْتين»(٥).

وقـد كتبـه على لسان الفئـران سنة ١٩١٧ لكنه مُنع من النشر حتى سنة ١٩٢٠، فصـدر بعنوان : «إقْضِم عُـرْوة المنتصر» ، وفيـه يتخـذ من الجُمَل الحكيمـة والتعبيرات الموجـزة عن الحرب العظمى وسيلة للتثقيف والتنبيـه والنقد . وهذه أمثلة مما كتبه ، مما قـالته الفئران وهى تجرى وتقفز وتقضم وتعبث بجثث الجنود القَتْلَى والضحايا :



أسرى الحرب الألمان فى طريقهم إلى معسكرات الاعتقال خلف الخطوط الأمامية فى معركة «السوم» بفرنسا سنة ١٩١٦ .

● «إن جثة الإنسـان على ما تبدو من أى جـانب تناولتها ، لذيذة الطعم ، جيدة الرائحة .. العفنة »!

● «إلى متى يظل الإنسـان يضعنا فى قـائمـة الحيـوانات المؤذية ؟ أنحن مؤذيون حقا ؟ لسنا أكثر منه » !

● «ألم يكْفِ الآدميون أنهم يدمروننا ؟ هاهم الآن يفترس بعضهم بعضا. لن نقلِّدهم : يكفينا بهجة أن نراهم يقتتلون بضراوة».

(٥) لافونتن – La Fontaine : شاعر فرنسى (١٦٢١ – ١٦٩٥) ذاعت شهرته فى الآفاق من خلال قصصه الشعرية الطريفة الموجزة (Contes) ، وحكاياته الخيالية الظريفة (Fables) التى صاغها شعرا على لسان الحيوانات فتبدو أسطورية لكنهـا ذات مغزى بليغ حكيم (أخلاقى أو اجتماعى أو سياسى أو نقدى) تمتع الصغار وتهذبهم ، وتعجب الكبار وترشدهم . وقلده فى هذا الأسلوب أدباء كثيرون وشعراء فى العالم ومنهم الشاعر أحمد شوقى .



لحظات الهدوء الوحيدة فى جبهات القتال : عند تناول وجبة سريعة فى عمق الخنادق ، وغالبا ما كانت باردة حتى فى الشتاء القارس .

● « يقولون إننا ننشر الطاعون ، لكنهم هم الذين يوفِّرون بالحروب مَصْدره» .

● « لم يكونوا قبل الآن يستخدمون السوائل اللاهبة إلا ضدنا .. ثم هاهم الآن يستخدمونها فى علاقاتهم الدولية . ويا لها من هدية يقدمونها لإخوانهم البَشَر فى مناسبات الأعياد : الغازات السامة والخانقة ! إنهم ينْفُثون كبريتيد الكربون فى جحورنا ليشقوا لأنفسهم طريقا ، وتَسُرهم فكرة أننا نموت داخلها بأفعالهم كما يَهْلك البعوض. لكن الوحشية لا تتجزأ . من المؤكد أنهم يُسَرُّون بتطبيق ما جَرَّبوه من أسلوب قتلنا ، على أحياء من جنسهم».

● « عندما تسقط قنبلة على ملجأ من الغارات الحربية وتدمِّره ، فمن المؤكَّد أنها لا تقصد دْفننا تحت أنقاضه ، بل يوجد به أيضا ضحايا أكثر براءة».

● « لماذا يشكو منا الإنســان ؟.. فَمْن الأكثـر فســادا فى الأرض وإتلافـا للحيــاة ؟ فَلْيتركنا نعيش فى هــدوء : إذ أن ضررنا أقل كثيرا ولا يقــارَن بما يفعله بأًقرانه » .

● « لم يأت الإنسان بجديد : فنحن سبقناه فى حفر الخنادق والجحور فى جـوف الأرض. والآن، مَن يدرى ؟ فتحت وطْـأة العيش فيهـا معـا ، فلربما انتهى الأمر إلى إخاء وصداقة بيننا ».

● « الموت للفئران .. ألا ترون أنه أصبح فى النهـاية شعارهم نحـو شَعب ثم آخر؟!».

● « فى بعض الحفـائر والخنادق، لا يَسْلم أحـدنا من شظيـة قنبلة تطيح بأسنانه وهو يَنْهش جثة ميت . لكن شاعرهم كان على صواب حين قال : وقد يُسْتَخْلَف السَّعْدُ من مُسْتَخْلَص الألمِ »!

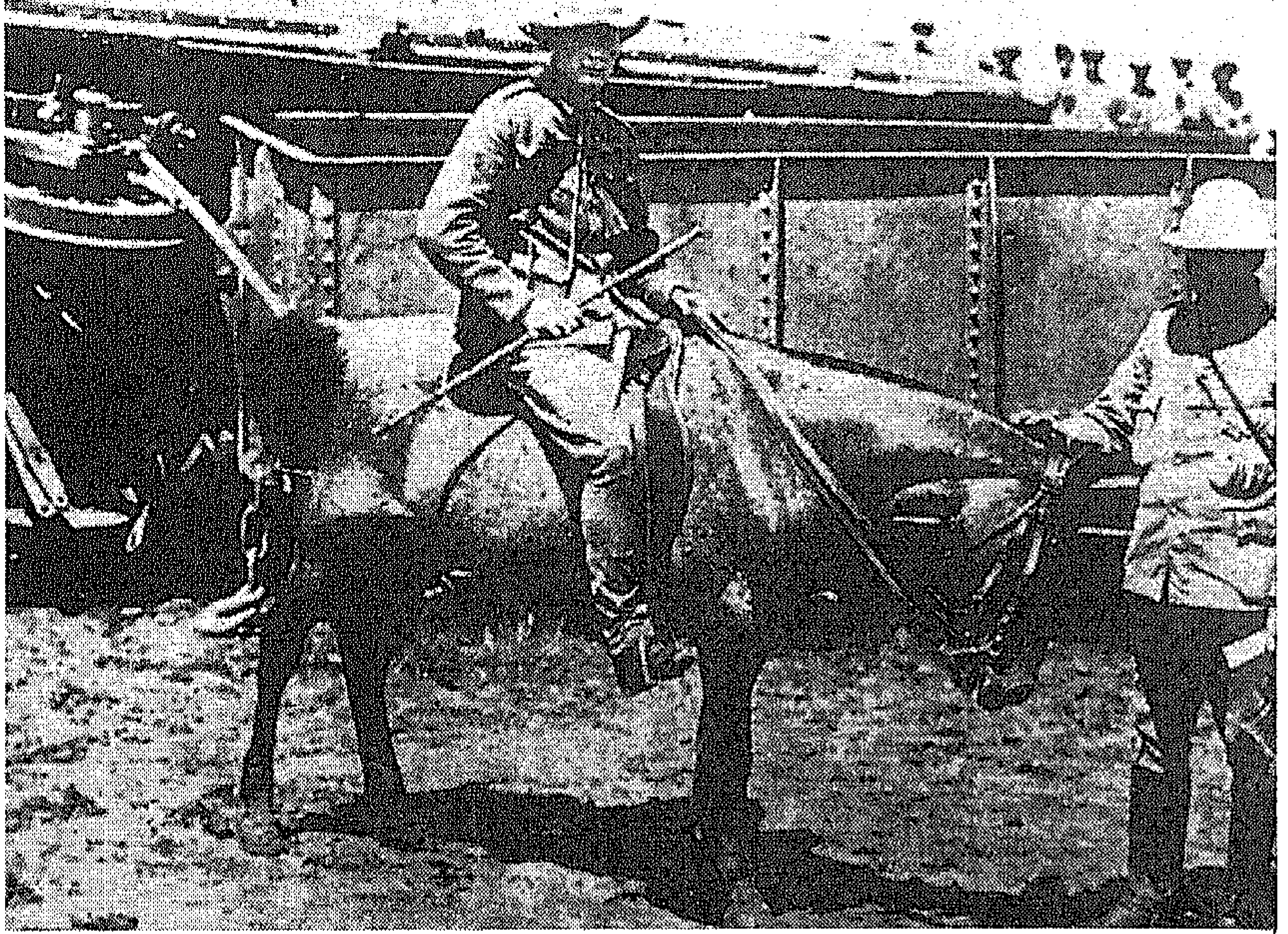
● «قليل من الصبر أيها الإنسان العَجول المشتَهِـى ! فكل شىء فى موعده وقَـدْره.. ها نحن ننظـف لك اليـوم حقل مـذبحتك، وغـــدا سـوف نَقْـرِض «التاريخ» الذى سيذكِّرك بها . فإنها أوراق فوق الرفوف »!

(٣) جرائم الاستعمار والحـــرب

الحروب المحلية والإقليمية والعالمية
فى النصف الأول من القرن

السنة	
١٨٩٩-١٩٠٢	حرب البوير الثانية (جنوب أفريقيا).
١٩٠٣	غزو بريطانيا شمال نيجيريا.
١٩٠٦	ثورة شعبية فى كوبا ضد فساد رئيسها .
١٩٠٧	نشوب حرب بين هوندوراس / نيكاراجوا / ألسلفادور .
	رومانيا تقمع فى مقدونيا ضد الحكم التركى.
١٩٠٨	عصيان ثورى فى مقدونيا ضد الحكم التركى.
	النمسا تضم إليها بالقوة المسلحة البوسنة والهرسك.
	صراع ثورى فى بوهيميا .
١٩٠٩	نزاع ثورى مسلح فى تركيا وعزل السلطان عبد الحميد .
١٩١٠	ثورة فى إمارة ألبانيا ضد تركيا .
	اليابان تعلن ضم كوريا إليها بالقوة المسلحة .
	ثورة دموية فى لشبونة (البرتغال) وفرار الملك عمانويل الثانى وإعلان الجمهورية .
١٩١١	الحرب الأهلية فى المكسيك .


السلطان عبد الحميد



« وينستــــون تشرشل » بعـــد هروبه من المعتقل بجنوب أفـريقيـا حيث كان مراسلا صحافيـا لتغطية حرب البوير.

١٩١٢ إيطاليا تعلن الحرب على تركيا وتـرسل أسطولها إلى شواطئ ليبيا ثم تضمها إليها بالقوة (فى ٥ نوفمبر).

صراع دمـوى فى الصين وإعلان الجمهـورية وإنهاء حكم المانشـو (٢٦ أكتوبر).

١٩١٣ حرب البلقان الأولى.

ثورة فى سانت – دومينجو (الآن جمهورية الدومينيكان).

تحرك جيوش بلغاريا وصربيا للحرب ضد تركيا.

بداية حرب البلقان الثانية بهجوم بلغاريا على صربيا واليونان، ثم إعلان روسيا الحرب على بلغاريا.

ثورة فى الصين تطيح برئيس الجمهورية.

صربيا تجتاح ألبانيا.

اعتقال المهاتما غاندى زعيم حركة العصيان غير المسلح فى الهند.

النمســا تعلن الحرب على الصرب (٢٨ يوليـــو) – بداية الحرب العظمى.


مهاتما غـاندى فى بداية إعلان حركة العصيان غير المسلح بـالهند.

ألمانيـا تعلن الحرب على روسيـا (أول أغسطس).

روسيـا تجتاح بروسيا الشرقيـة (٢ أغسطس).

ألمانيا تعلن الحرب على فرنسا، وجيوشها تجتاح بلجيكا وفرنسا (٤ أغسطس).

بريطانيـا تعلن الحرب على ألمانيا وتفـرض حصـارا بحريـا على بحر الشمال والبحـر المتوسط (٤ أغسطس).

النمسا – المجر تعلن الحرب على روسيا (٦ أغسطس).

الصرب والجبل الأسود يعلنان الحرب على النمسا (٦ أغسطس).

فرنسا تعلن الحرب على النمسا (١٠ أغسطس).

اليابان تعلن الحرب على ألمانيا (٢٣ أغسطس).

النمسا – المجر تعلن الحرب على بلجيكا.

روسيا تعلن الحرب على تركيا (٢ نوفمبر).

فرنسا وبريطانيا تعلنان الحرب على تركيا (٥ نوفمبر).

بريطانيـا تحتل قبرص (التى كـانت تفرض سيطرتها عليهـا منذ سنة ١٨٧٨).

بريطانيـا تعلن الحماية على مصر وتخلع عن العـرش الخديوى عباس الثانى وتضع مكانه السلطان حسين كامل (١٧ ديسمبر).

١٩١٥ ألمانيا تضرب حصارا بالغواصات حول بريطانيا (٤ فبراير).

الولايات المتحدة الأمـريكية تنذر ألمانيا بمسئوليتهـا عن أى اعتداء على السفن الأمريكية أو المواطنين الأمريكيين (١٠ فبراير).

مذابح الأرمن فى تركيا (٨ أبريل).

ألمانيـا تغرق البـاخـرة الضخمـة «لوزيتانيـا» فيهلك من ركـابها ١١٩٨، من بينهم ١٢٨ أمريكيا (٧ مايو).

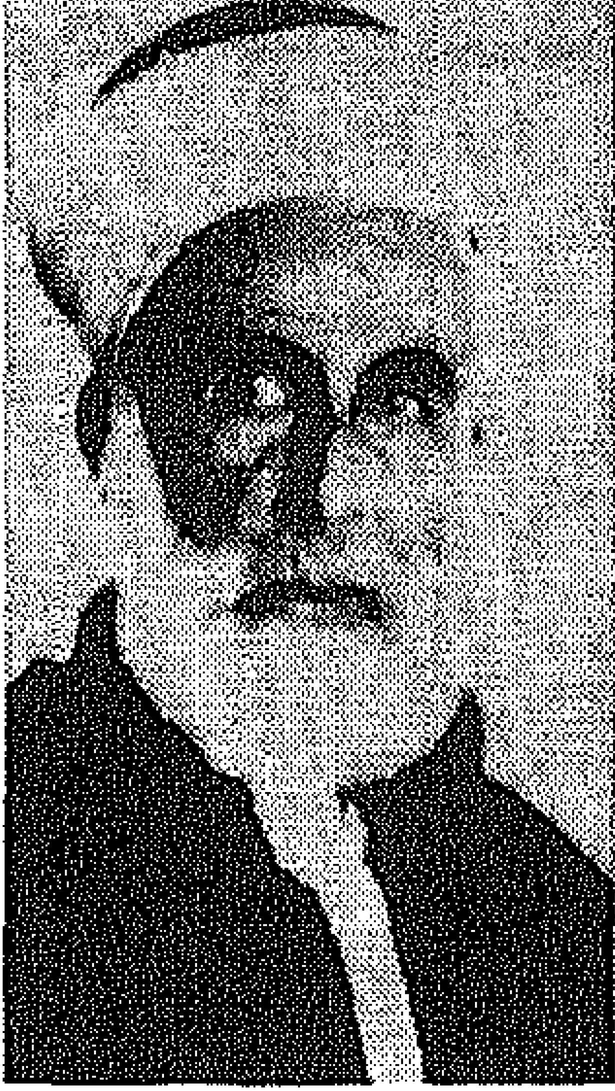
قوات جنوب أفريقيا تحتل المستعمرة الألمانية فى غرب أفريقيا (١٢ مايو).

إيطاليا تعلن الحرب على النمسا - المجر (٢٣ مايو).

إيطاليا تعلن الحرب على تركيا (٢٥ أغسطس).

بلغاريا تعلن انضمامها فى الحرب مع ألمانيا وحلفائها (٦ أكتوبر).

بريطانيا تعلن الحرب على بلغاريا (١٥ أكتوبر).


الشريـف « حسين بـن على» قـائـد الثـورة العربية ضد تركيا.

١٩١٦ ألمانيا تعلن الحرب على البرتغال (٩ مارس).

إغـارات «بانشو فيللا» وجنوده على مـدن داخل حـدود الولايات المتحدة مع المكسيك.

الحلفـاء (بريطانيـا وحلفائهـا) يوافقـون على تقسيم تركيـا (٢٠ مارس).

بداية الثورة العربية فى الحجـاز ضد تركيا بقيادة الشريف حسين (٦ يونيو).

رومـانيا تنضم إلى الحلفـاء (بريطانيا ومن معهـا) وتعلن الحرب على النمسا - المجر (٢٧ أغسطس).

تركيا تعلن الحرب على روسيا (٣٠ أغسطس).

بلغاريا تعلن الحرب على رومانيا (أول سبتمبر).

الحلفاء يحتلون أثينا (اليونان - ١٦ أكتوبر).

١٩١٧ قوات بريطانية تحتل بغداد (العراق – ١١مارس).

فى روسيا : القيصر نيقولا الثانى يتنازل عن العرش منهيا حكم أسرة رومانوف – انتصار الحرب الأهلية واستيلاء لنين والشيوعيين (البلاشفة) على السلطة (١٦ مارس) وتستمر الصراعات الدموية حتى ١٦ نوفمبر ١٩٢٠.

الولايات المتحدة تعلن الحرب على ألمانيا (٦ أبريل).

كوبا تعلن الحرب على ألمانيا (٧ أبريل).

معركة غزة بفلسطين : الجيش التركى – بمساعدة ألمانيا – يطرد القوات البريطانية (١٨ أبريل).

وزير خارجية بريطانيا بلفور يصدر إعلانا رسميا بوطن قومى لليهود فى فلسطين – بداية نزاعات وحروب دامية بين العرب واليهود (٢ نوفمبر).

استيلاء الإنجليز على غزة (٧ نوفمبر).

١٩١٨ البلاشفة الشيوعيون الروس يستولون على أوكرانيا ويحتلون عاصمتها كييف، (٨ يناير) – ويستولون على لاتفيا وعاصمتها ريجا (يناير).

١٩١٩ التشيك يحتلون منطقة بولندية فينشأ نزاع مسلح بينهما (٢٢ يناير).

البلاشفة الروس يغزون إستونيا (١٤ فبراير).

مجزرة بريطانية فى «أمْريستار» بالهند بإطلاق الرصاص عشوائيا على متظاهرين فقتلت ٣٧٩ وأصابت ١٢٠٠ .

اندلاع الحرب بين الهند (التى يحكمها الإنجليز) وأفغانستان.

بمساعدة الحلفاء : اليونان تعتدى على تركيا وتحتل أزمير (١٥ مايو).



قيصر روسيا الأخير « نيقولا الثانى » الذى تنازل عن العرش سنة ١٩١٧ وإلى جواره زوجته الإمبراطورة وحولهما بناتهما الأربع وأمامهما ولى العهد «ألكسيس » ، وقد أعدموا جميعا رميا بالرصاص فى غرفة واحدة بالتتابع فى ١٧ يوليو ١٩١٨ فى مشهد واحد بأمر من لنين .

لا تفيا تعلن الحرب على ألمانيا (٢٨ نوفمبر).

القوات الألمانية تجتاح لاتفيا وليتوانيا (١٦ ديسمبر).

١٩٢٠ قوات الحلفاء (بريطانيا وشركاؤها) تجتاح استانبول وتفرض سيطرتها عليها (١٦ مارس).

قيادة قوات الحلفاء تعزل السلطان العثمانى فى تركيا وتمنح العراق وفلسطين لبريطانيا، وسوريا ولبنان لفرنسا (٢٥ أبريل).

بداية الحرب الروسية البولندية (٦ يوليو).

الملك فيصل يعترف لفرنسا بالانتداب على سوريا (٢١ يوليو).

فرنسا تحتل سوريا وتطرد الملك فيصل (٢٥ يوليو).

مصطفى كمال (أتاتورك) يطرد اليونانيين من تركيا (١٠ أغسطس).

الجيش الأحمر الروسى يغزو جورجيا .

١٩٢١ انتصار آخر للجيش التركى بقيادة مصطفى كمال على الغزاة اليونانيين.

١٩٢٢ تجدد اشتعال الحرب الأهلية فى الصين .


فيصل بن الحسين

١٩٢٣ موسولينى يشتجر مع اليونان ويحتل مدينة كورفو .

١٩٢٤ صراع دموى بين المسلمين والهندوس فى دلهى (الهند).

١٩٢٥ الجيش اليونانى يغزو بلغاريا .

إيطاليا تستكمل احتلالها للصومال .

ثورة شعبية فى سوريا ضد الاحتلال الفرنسى - الأسطول الفرنسى يقذف دمشق (١٢ أغسطس).

١٩٢٦ ثورة الدروز فى سوريا (٨ أبريل).

ثورة الأمير عبد الكريم الخطابى - أمير الريف فى المغرب - ضد الاحتلال الفرنسى (٢٦ مايو).


مصطفى كمال أتاتورك

١٩٢٧ فارس (إيران) تطالب بضم جزر البحرين إليها (٢٢ نوفمبر).

١٩٢٨ القوميون الثوار يستولون فى الصين على العاصمة بكين .

١٩٢٩ صراع دموى بين الشيوعيين فى برلين وقوات الشرطة لثلاثة أيام (من أول مايو) .

صراع فلسطينى - يهودى عنيف فى القدس ومدن أخرى (أغسطس).

١٩٣٠ المهاتما غاندى يعلن بدء مسيرة الملح الشعبية فيُسجن.

ثورة فى أثيوبيا يقودها هيلاسلاسى شقيق الإمبراطور .

ثورة الأكراد فى منطقة الحدود التركية - الإيرانية .

فى الأرجنتين : ثورة شعبية يصحبها تمرد بالجيش .

فى البرازيل : ثورة شعبية وتمرد فى الجيش .

فى الصين : تمرد مسلح.

فى كوريا : ثورة ضد الصينيين .

غزو اليابان لمناطق فى منشوريا بالصين وحصار بعض المدن .

١٩٣١ إحياء ثورة العصيان المدنى بالهند بزعامة غاندى.

اليابان تحتل شنغهاى بالصين .

فى فنلندا : الحكومة تقمع بالإرهاب والسلاح ثورة قادها الحزب الفاشستى.

فى سيام (الآن تايلاند) : ثورة يقودها محام ثم يقيم ملكية دستورية .

فى شيلى : ثورة تحمل العسكريين على تعيين رئيس جمهورية اشتراكى.

اندلاع حرب بين بوليفيا وبراجواى لنزاع على رسم الحدود (تستمر حتى ١٩٣٥).



« هيلاسلاسى » إمبراطور الحبشة (إثيوبيا) .

١٩٣٣ بداية حملة واسعة فى كل ألمانيا لمقاطعة اليهود ومتاجرهم وأعمالهم أو توظيفهم لسوء تعاملهم وتخريبهم للاقتصاد الألمانى.

تصاعد الاضطرابات والمنازعات فى فلسطين بسبب تدفق هجرات اليهود وتحرشاتهم .

١٩٣٤ مظاهرات واضطرابات فى باريس احتجاجا على انتشار الفساد فى الحكومة ومراكز السلطة بعد الكشف عن فضائح قضية ستافسكى، والاستياء من تصاعد الفاشية.

القوات الفرنسية فى المغرب تهاجم وتعتدى على قبائل البربر (من ٢١ فبراير إلى ١٦ مارس).

عقد اتفاق سلام بين المملكة العربية السعودية واليمن بعد ستة أسابيع من الصراع المسلح (٢٣ يونيو).

بداية «المسيرة الكبرى» بقيادة ماو تسى - تونج (فى ٢١ أكتوبر)



الزعيم « ماو – تسى – تونج » يقود المسيرة الشعبية الكبرى .

مكونة من ١٠٠ ألف شخص قطعوا سيرا على الأقدام والدواب ٩٦٠٠ كم من جيانجشى فى الجنوب إلى بكين وتعرضت لهجمات فى الطريق من القوات الحكومية (استمرت حتى ٢٠ أكتوبر ١٩٣٥).

اضطرابات فى سوريا والحاكم الفرنسى يعطل البرلمان (٣ نوفمبر).

فى مصر : اضطرابات شعبية حزبية يقودها حزب الوفد تدفع الملك فؤاد إلى تعطيل الدستور (٣٠ نوفمبر).

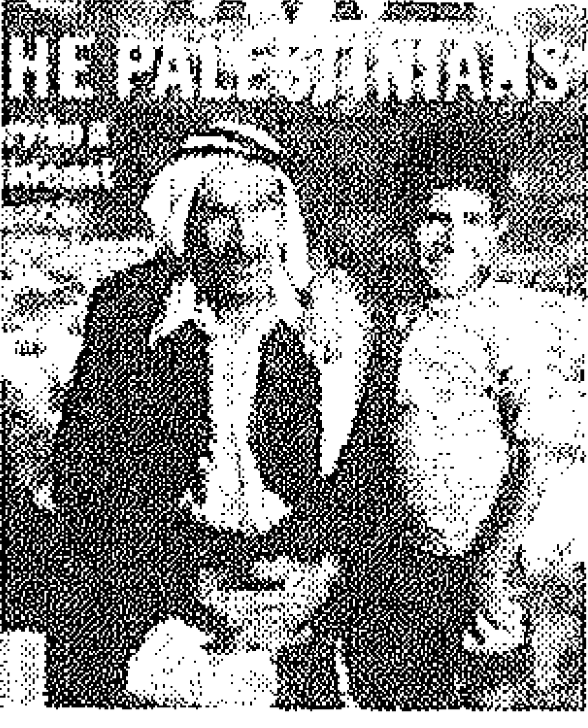


الملك فؤاد

حرب بين بوليفيا وبراجواى تؤدى إلى انقلاب عسكرى ضد رئيس بوليفيا.

اشتباكات مسلحة بين الجيش الإيطالى فى الصومال والجيش الإثيوبى فى مناطق الحدود.

١٩٣٥ اضطرابات عنيفة ومظاهرات فى بلفاست (أيرلندا الشمالية) ضد الكاثوليك.



مـــواطن فلسطينـى وابنه: غـــريبـــان مضطهدان فى بلدهما .

إيطاليا تغزو إثيوبيا (الحبشة).

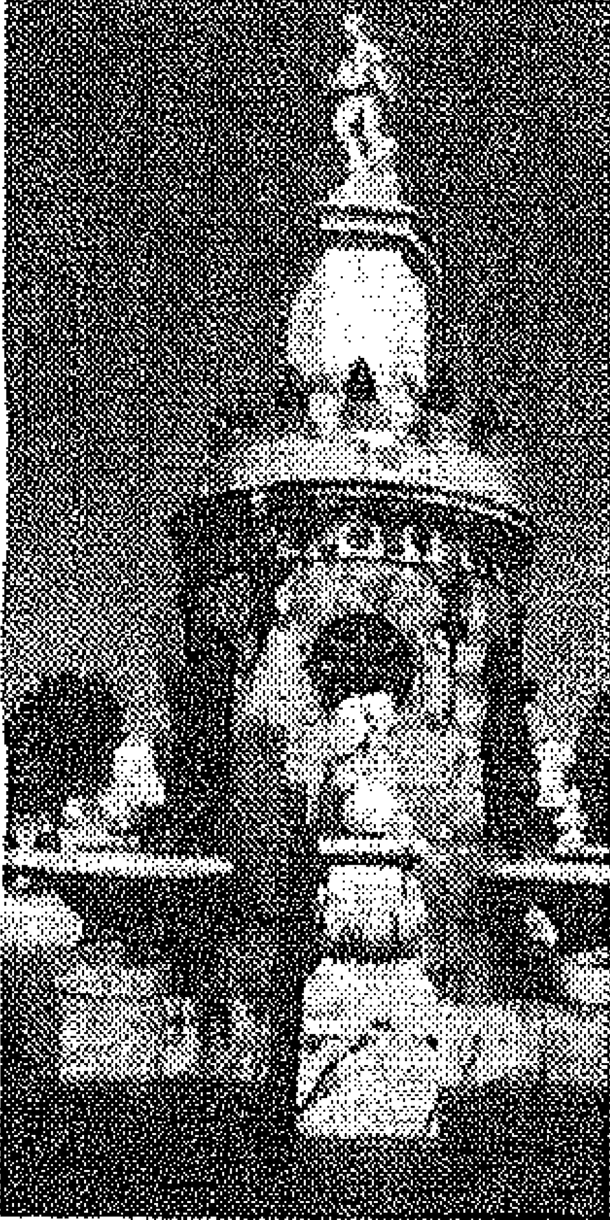
انقلاب دموى فى النمسا ضد الحكومة ذات الاتجاه النازى.

١٩٣٦ قوات مسلحة من الجيش الألمانى تحتل المنطقة المحايدة فى أرض الراين خروجا على معاهدة السلام التى أعقبت الحرب العالمية الأولى (معاهدة فرساى).

الصهيونيون اليهود فى فلسطين يثيرون قلاقل فيحتدم النزاع الدموى مع العرب (فى ١٥ أبريل).

القوات الإيطالية تحتل أديس أبابا عاصمة الحبشة .

عصيان فى الجيش الأسبانى بقيادة الجنرال «فرانشيسكو فرانكو» يمتد إلى سائر مدن أسبانيا فتبدأ الحرب الأهلية .


مدريد عاصمة أسبانيا والحرب الأهلية الدموية .

فرنسا توقع معاهدة صداقة مع سوريا مع وعد بإنهاء احتلالها سنة ١٩٣٩، ثم توقع معاهدة مماثلة مع لبنان (الأولى فى ٩ سبتمبر، والثانية يوم ١٩).

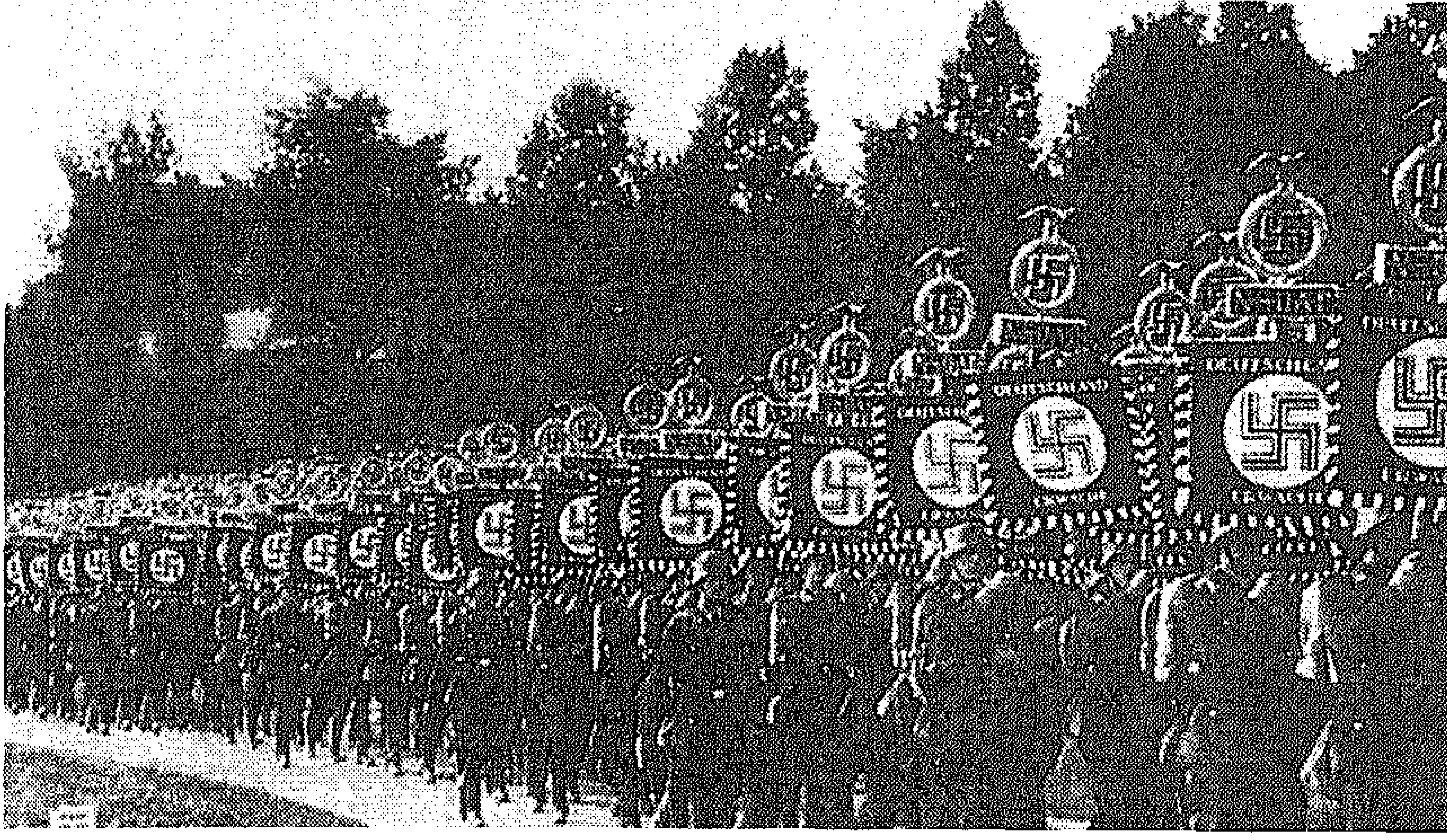
إعلان تكوين تحالف المحور بين ألمانيا وإيطاليا (أول نوفمبر).

حصار العاصمة الأسبانية مدريد فى الحرب الأهلية وتدخل قوات ومساعدات أجنبية .

المارشال «شانج» من الجيش الصينى يعتقل رئيس الجمهورية (شيانج كاى شك) بضعة أيام لموقفه الضعيف من الغزو اليابانى.

١٩٣٧ الزعيم السوفييتى «ليون تروتسكى» يصل إلى المكسيك (٩ يناير) بعد فراره من بطش «ستالين» وتنقله بين تركيا وفرنسا . وبعد أيام (٢٣ يناير) تعقد محاكمة عاجلة فى موسكو لسبعة عشر من قيادة الحزب الشيوعى بتهمة مساعدة تروتسكى والتخابر مع الألمان واليابان، فأعدم ١٣ منهم بالرصاص.

فى أسبانيا : الثوار القوميون يستولون مع مالقا بمساعدة



احتـل الجيـش الألمانى أراضى النمسا بأمر من القائد الأعلى «هتلر» الذى أمر بضمها إلى ألمانيا .

الفاشست الطليان ، وفى أواخر فبراير تدك طائرات ألمانية «جيرنكا» عاصمة إقليم الباسك الشمالى.

مؤتمر «مونترو» يلغى حق الدول الأجنبية فى حماية الأقليات غير الإسلامية فى مصر (٨ مايو) .

ثورة إسلامية فى ألبانيا يُقضى عليها بعد أيام (١٥ مايو) .

محاكمة وإعدام مجموعة كبيرة من الجنرالات الروس فى موسكو بتهمة التعامل سرا مع الألمان.

اليابان تُغير على شمال شرق الصين ثم تحاصر قواتها العاصمة بكين.

فى فلسطين : لجنة ملكية بريطانية تقترح تقسيمها إلى ثلاث مناطق: واحدة لبريطانيا، والثانية لليهود ، والثالثة للعرب الفلسطينيين تضم إلى مملكة شرق الأردن (٧ يوليو).



أدولف هتلر

مقتل ربع مليون صينى فى الغزو اليابانى لنانكينج.

١٩٣٨ بريطانيا تؤجل مشروع تقسيم فلسطين وتوفد لجنة لدراسة ترسيم الحدود فيقاطعها العرب (٤ يناير).

فى الحرب اليابانية الصينية : اليابان تستولى على ميناء «كينْجدو» شمال شرق الصين.

هتلر ينصِّب نفسه قائدا أعلى للجيوش الألمانية (٤ فبراير).

فى موسكو : محاكمة «بوخارين» أحد الزعماء الشيوعيين وأعوانه ثم إعدامهم رميا بالرصاص عقب المحاكمة .

الجيش الألمانى يدخل النمسا ويعلن ضمها إلى الرايخ الألمانى.

بريطانيا تعترف بسيادة إيطاليا على إثيوبيا (الحبشة) مقابل سحب الجنود الإيطاليين المشتركين فى الحرب الأهلية الأسبانية .

اشتباك مسلح بين الجيش السوفييتى والجيش اليابانى عند حدود منشوريا .

فى برلين : هتلر يأمر بتحريك الجيش الألمانى.

«تشامبرلين» رئيس وزراء بريطانيا يزور هتلر فى محاولة فاشلة لإقناعه بعدم ضم إقليم «السوديت» التشيكى إلى ألمانيا، وهتلر يعلن تصميمه على ذلك (حيث غالبية سكان الإقليم ألمان) ، فترضخ بريطانيا وفرنسا، وأيضا تشيكو سلوفاكيا (١٥ سبتمبر).



« موسولينى » يعلن أن ليبيا جزء من إيطاليا ، ويوقع مع « هتلر » ميثاق تحالف مشترك .

باريس : أمر بتحريك الجيش الفرنسى . وفى لندن : أمر بتحريك الأسطول الحربى (٢٦ سبتمبر).

مؤتمر ميونخ : ألمانيا / بريطانيا / فرنسا / إيطاليا فى محاولة لإرضاء هتلر وإقرار سلام فى أوروبا (٢٩ سبتمبر) . فيعود تشامبرلين من المؤتمر إلى لندن مصرحا بقوله : «رَجَعْت ومعى السلام المشرِّف، وأعتقد أن السلام سيسُود فى وقتنا هذا ».

إيطاليا تعلن أن ليبيا جزء من أراضيها (٢٥ أكتوبر).

المجر تستولى على جنوب سلوفاكيا.

فى الحرب الأهلية الأسبانية : الثوار القوميون يستولون على قطالونيا فى طريقهم إلى برشلونة التى تسقط فى أيديهم .

١٩٣٩ القوات اليابانية تستولى على جزيرة «هينان» الصينية وجزر أخرى جنوب بحر الصين.

القوات الألمانية تجتاح بوهيميا ومورافيا فى تشيكوسلوفاكيا، وفى المساء (يوم ١٥ مارس) يخطب هتلر منتصرا من العاصمة براج.

هتلر يطالب بولندا بأن يكون ميناء «دانزج» (الآن جدانْسك) مدينة مفتوحة (حرة) . فترفض بولندا .

الثوار القوميون يحاصرون مدريد، فيستسلم الجمهوريون ، وينتصر فرانكو وتنتهى الحرب الأهلية الأسبانية (٢٨ مارس).

إيطاليا تغزو ألبانيا .

«أدولف هتلر» و«بنيتو موسولينى» يوقعان ميثاق تحالف مشترك سياسى وعسكرى (٢٢ مايو).

معاهدة تعاون مشترك بين بريطانيا وبولندا (٢٥ أغسطس) – وبريطانيا تحذِّر هتلر بأنها ستقف إلى جانب بولندا إزاء مطالبه فى دانزج.

أول سبتمبر : ألمانيا تغزو دانزج .

بدايـة الحرب العالمية الثانية

٣٠ مارس ١٩٤٥ : انتحار هتلر وعشيقته إيفا براون .

٧ أغسطس ١٩٤٥ : ألمانيا توقع وثيقة الاستسلام .

٢٥ سبتمبر ١٩٤٥ : اليابان توقع وثيقة الاستسلام .

ضحايا الحرب من الجانبين : ١٨,٦ مليونا من العسكريين قتلوا ،

٦,٥ مليـونـا من المدنيين قتلوا ،

٢١,٢ مليونا مـن الجرحى والمصابين

[تحتاج يوميات الحرب العالمية الثانية إلى جدول خاص منفصل – وفى الجزء الثانى من هذه السلسلة تفاصيل وقائع تلك الحرب].

التمهيد وطلائع الحرب العالمية الثانية

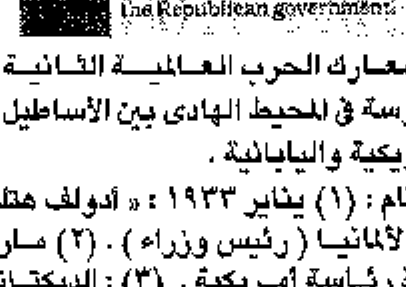
* * *


JAN 30 — Adolf Hitler, Nazi Party leader, is named chancellor of Germany. (١)


MARCH 4 — Franklin D. Roosevelt is inaugurated President of the United States. (٢)


OCT 3 — Benito Mussolini, Italy's Fascist dictator, sends his troops to invade Ethiopia. (٣)


JULY 18 — The Spanish Civil War begins with an army rebellion against the Republican government. (٤)



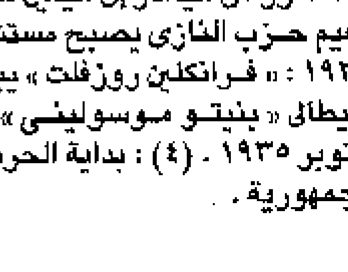

JULY 7 — Japan invades China and captures Peking, Shanghai and Nanking. (٥)


MARCH 12 — Hitler celebrates Germany's "reunification" with Austria. (٦)


SEPT 30 — Neville Chamberlain proclaims "peace for our time" after Munich. (٧)


Japanese force General and Madame Chiang Kai-shek to Chungking. (٨)


MARCH 15 — Hitler proclaims Czechoslovakia has "ceased to exist." (٩)




MARCH 28 — Madrid falls to Fascist General Francisco Franco. (١٠)


AUG 23 — Joseph Stalin and Hitler announce a Nazi-Soviet pact. (١١)

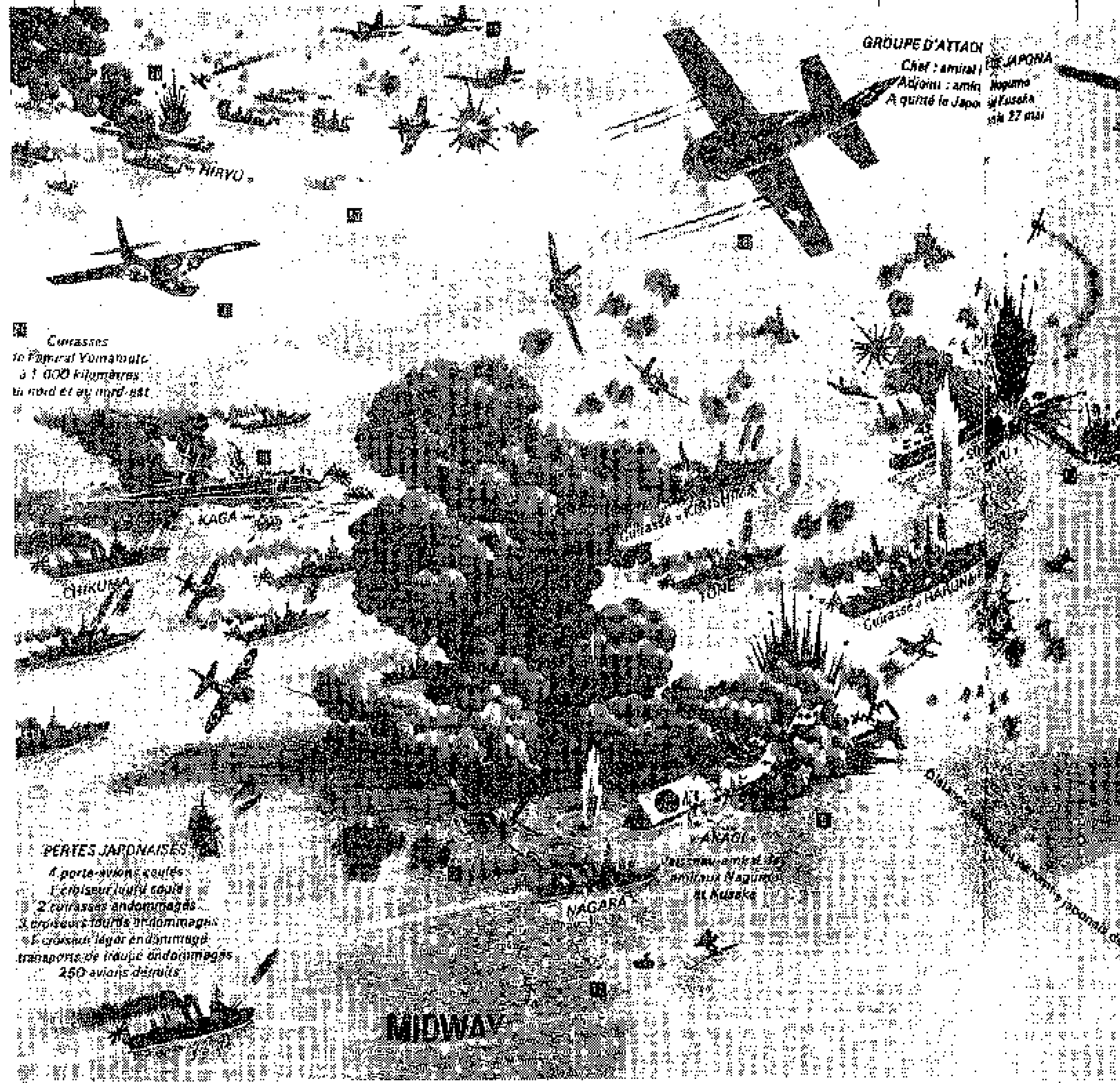

SEPT 1 — In a surprise attack, German armies invade neighboring Poland. (١٢)


SEPT 3 — Britain and France declare war. King George VI broadcasts. (١٣)


NOV 30 — Soviets invade Finland in Winter War, which ends four months later. (١٤)

من معارك الحرب العالمية الثانية الشرسة في المحيط الهادى بين الأساطيل الأمريكية واليابانية .

● الصور من اليسار إلى اليمين مع الأرقام : (١) يناير ١٩٣٣ : « أدولف هتلر » زعيم حزب النازى يصبح مستشارا لألمانيا (رئيس وزراء) . (٢) مارس ١٩٣٣ : « فرانكلين روزفلت » يبدأ فترة رئاسة أمريكية . (٣) : الديكتاتور الإيطالى « بنيتو موسولينى » يرسل جنوده لغزو الحبشة (إثيوبيا) – أكتوبر ١٩٣٥ . (٤) : بداية الحرب الإسبانية بعصيان عسكرى ضد الحكومة الجمهورية .

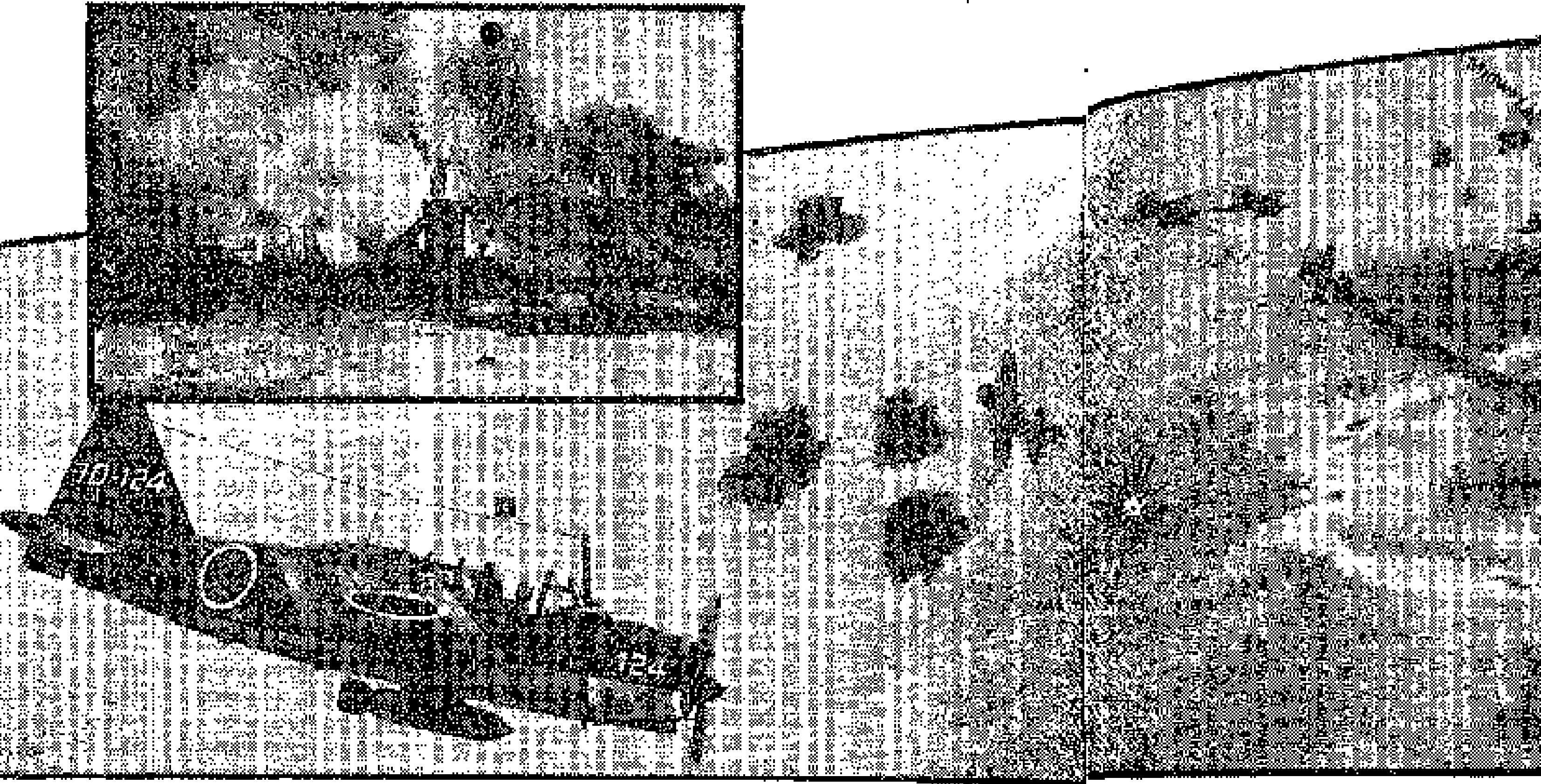


(٥) يوليو ١٩٣٧ : اليابان تغزو الصين وتحتل بكين وشنغهاى ونانكين . (٦) : « هتلر » حتفل بتوحيد ألمانيا مع النمسا – مارس ١٩٣٨ . (٧) « نفيل شمبرلين » – رئيس وزراء بريطانيا – يعلن « سلام لعصرنا » بعد عودته من مؤتمر ميونخ – ١٩٣٨ . (٨) : أكتوبر ١٩٣٨ : اليابان تجبر الجنرال « شيانج كاى – شك » وزوجته على النزوح نحو شونجكنج . (٩) مارس ١٩٣٩ : هتلر يعلن أن تشيكوسلوفاكيا « لم يعد لها وجود » . (١٠) مارس ١٩٣٩ : مدريد تقع تحت سيطرة الجنرال الفاشستى « فرانكو » . (١١) أغسطس ١٩٣٩ : « جوزيف ستالين » و« هتلر » يعلنان إبرام معاهدة دفاع مشترك . (١٢) أول سبتمبر ١٩٣٩ : هجوم مفاجىء للجيوش الألمانية باجتياحها بولندا . (١٣) ٣ سبتمبر ١٩٣٩ : بريطانيا وفرنسا تعلنان الحرب على ألمانيا – الملك جورج السادس يتنازل عن عرش بريطانيا. (١٤) ٣٠ نوفمبر ١٩٣٩ : القوات السوفييتية تغزو فنلندا لمدة أربعة أشهر .

[الصورة العليا : معارك قتالية عنيفة بين قوات اليابان والأمريكان ، وإلى اليسار كوبرى لندن ومن خلفه سحب دخان الحرائق والدمار بسبب صواريخ الألمان] .

● الصور يمينا بالأرقام :

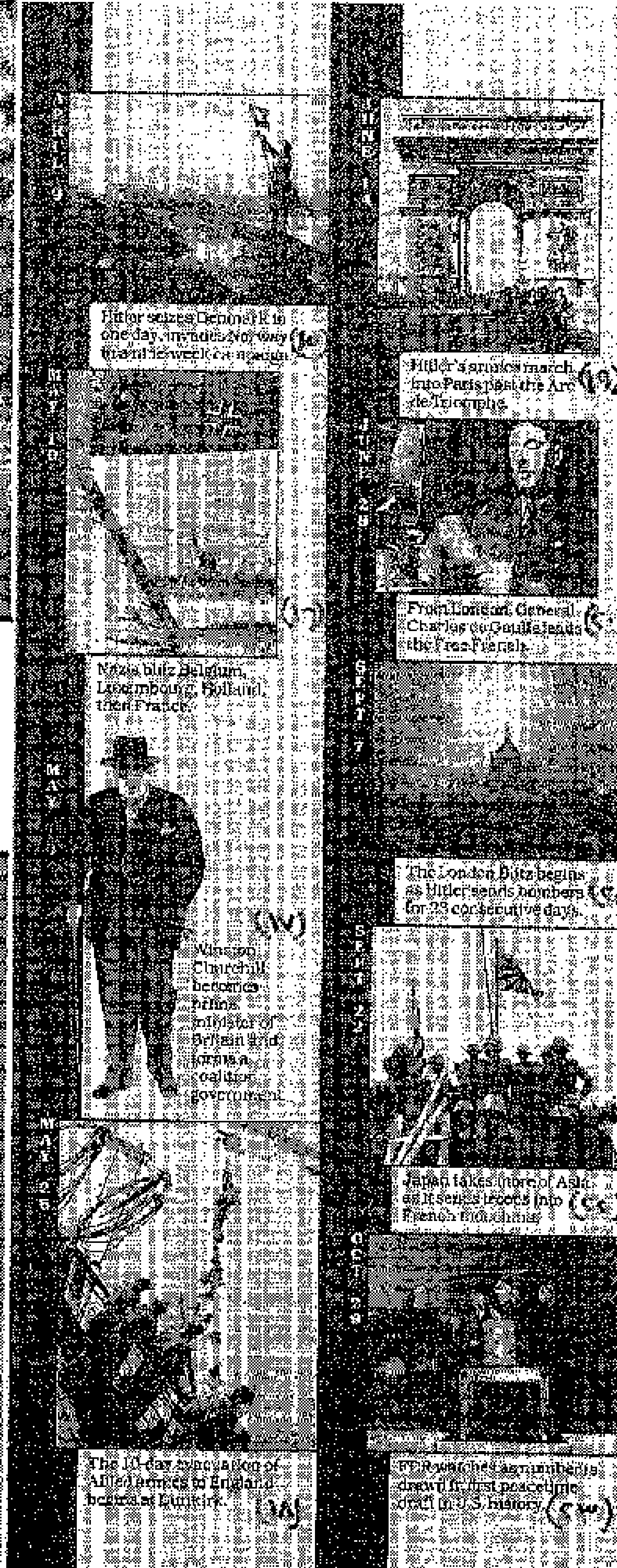
(١٥) أبريل ١٩٤٠ : « هتلر » يستولى على الدنمارك في يوم واحد ، ويغزو النرويج في حملة استغرقت تسعة أسابيع. (١٦) ١ مايو ١٩٤٠ : قوات النازى تضرب بلجيكا ، لوكسمبورج ، هولندا ، ثم فرنسا .

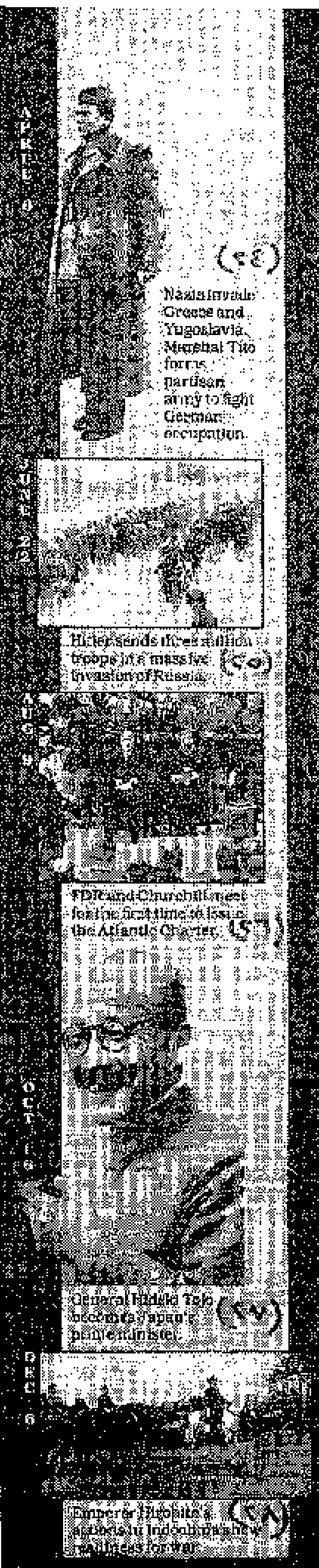


(١٧) ١٠ مايو ١٩٤٠ : « تشرشل » يصبح رئيس وزراء بريطانيا .
(١٨) ٢٦ مايو ١٩٤٠ : إجلاء جيوش الحلفاء من دنكيرك إلى انجلترا في عشرة أيام .
(١٩) ١٤ يونيو ١٩٤٠ : قوات « هتلر » في شوارع باريس مرورا بقوس النصر الشهير .
(٢٠) ٢٨ يونيو ١٩٤٠ : الجنرال « شارل دو جول » يقود من لندن « فرنسا الحرة » .
(٢١) ٧ سبتمبر ١٩٤٠ : الهجوم الخاطف على لندن بصواريخ هتلر ٢٣ يوما متتالية .
(٢٢) ٢٢ سبتمبر ١٩٤٠ : اليابان تستولى على مناطق جديدة من آسيا .
(٢٣) ٢٩ اكتوبر ١٩٤٠ الرئيس الأمريكي « روزفلت » يشاهد أول جهاز لغزو الأرقام .



سير المعارك البحرية بين أساطيل اليابان وأمريكا جنوب المحيط الهادى .





[معارك الأساطيل البحرية اليابانية بقيادة الأميرال « نوجومو » والأمريكية بقيادة الجنرال « ماك آرثر » شمال المحيط الهادى : من الجزر اليابانية (فى أقصى اليسار شمالا) إلى جزر هاواى (فى أقصى الجنوب يمينا) حيث ميناء « بيرل هاربور » وبه قاعدة الأسطول الأمريكي ، فاغارت عليه فجاة طائرات الانتحاريين (الكاميكاز) اليابانيين فدمرت تلك القاعدة بسفنها الحربية الرابطة بها فى ٧ ديسمبر ١٩٤١ ، فكان ذلك سببا مباشرا لدخول أمريكا الحرب إلى جانب الحلفاء] .

● الصور بالأرقام : (٢٤) ٦ أبريل ١٩٤١ : قوات النازى تغزو نان ويوغوسلافيا ، المارشال « تيتو » يؤلف جيشا وطنيا لمحاربة الاحتلال الألمانى .(٢٥) ٢٢ يونيو ١٩٤١ : « هتلر يرسل جيشا ضخما من ثلاثة ملايين جندى لغزو روسيا . (٢٦) ٩ أغسطس ١٩٤١ : « روزفلت » و« تشرشل » يلتقيان لأول مرة لإصدار ميثاق الأطلنطى . (٢٧) ١٦ أكتوبر ١٩٤١ : الجنرال «هيدكي» توجو يتولى رئاسة الوزارة اليابانية . (٢٨) ٦ ديسمبر ١٩٤١ : تصرفات الإمبراطور اليابانى فى الهند الصينية أقنعت أمريكا باستعداده للحرب .

١٩٤١ فى العراق : ثورة ضباط الجيش الوطنيين يطردون رئيس الوزراء ويختارون مكانه «رشيد عالى الكيلانى» (٢ أبريل).

قوات بريطانية ومعها جنود من جيش فرنسا الحرة الدوجولى تغزو سوريا لمنع جيوش المحور (أتباع هتلر) من إقامة قواعد بها (٨ يونيو).

١٩٤٢ اضطرابات عنيفة فى الهند ومطالبة بريطانيا بالجلاء عنها.

١٩٤٣ ١٢ أبريل : القوات الألمانية تعثر فى منطقة «كاتين» بالقرب من مدينة «سمولنسك» الروسية على مقبرة جماعية بها ٤٥٠٠ ضابط قتيل بأيدى الروس. فلما احتج الجنرال «سيكورسكى» رئيس وزراء بولندا ، قطعت موسكو علاقاتها الدبلوماسية مع بولندا (وفى ٤ يوليو لقى سيكورسكى مصرعه فى حادث سيارة مفتعل!).

١٩٤٤ نجاح عملية تخريب زورق غرق فى بحيرة «تينْسجو» بالنرويج كان يحمل لألمانيا كمية من الماء الثقيل المستخدم فى صنع القنبلة الذرية (٢٠ أبريل).

قوات الاحتلال الألمانى فى فرنسا تأمر بتدمير كنيسة «أورادو» الريفية على من فيها – بدون إنذار – فأضرم فيها الجنود الألمان النار فاحترقت بمن فيها من المزارعين وأسرهم وعددهم ٦٤٢ ، انتقاما من أعمال المقاومة الفرنسية ضد الاحتلال.

١٩٤٥ إلقاء أول قنبلة ذرية فى التاريخ على مدينة هيروشيما اليابانية (٦ أغسطس) .

إلقاء ثانى قنبلة ذرية على مدينة ناجازاكى (٩ أغسطس) فتستسلم اليابان .

الجيش السوفييتى يحتل شمال كوريا ، وسخالين ، وجزر كوريل اليابانية.

مصر / العراق / سوريا / لبنان تحذِّر الولايات المتحدة من إنشاء دولة يهودية فى فلسطين لأن ذلك سيؤدى إلى حرب شاملة فى المنطقة – إنشاء جامعة الدول العربية (٢٠ أكتوبر).

افتتاح جلسات محكمة نورمبرج لمحاكمة مجرمى الحرب الألمان. وكان اختيار هذه المدينة للمحاكمة إرضاء لليهود.

١٩٤٦ حرب أهلية دموية فى الصين (١٠ يناير – ١٤ أبريل).

وينستون تشرشل يستخدم لأول مرة تعبير «الستار الحديدى» فى وصف ما أقامه ستالين من حجاب صارم كثيف حول ما يجرى فى بلاده والدول الأوروبية الشيوعية، من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب، وأعلن تشرشل فى خطبته بالولايات المتحدة أن ستالين يضمر التوسع الإقليمى وبسط نفوذه عالميا، فاعتُبرت خطبته هذه بداية الحرب الباردة بين دول الشرق بزعامة موسكو، ودول الغرب بزعامة واشنطون (٥ مارس).

نشوب الحرب الأهلية فى اليونان بين الملكيين (المنتصرين فى النهاية) بتدعيم من بريطانيا، والشيوعيين بمؤازرة من ألبانيا وبلغاريا ويوغوسلافيا.

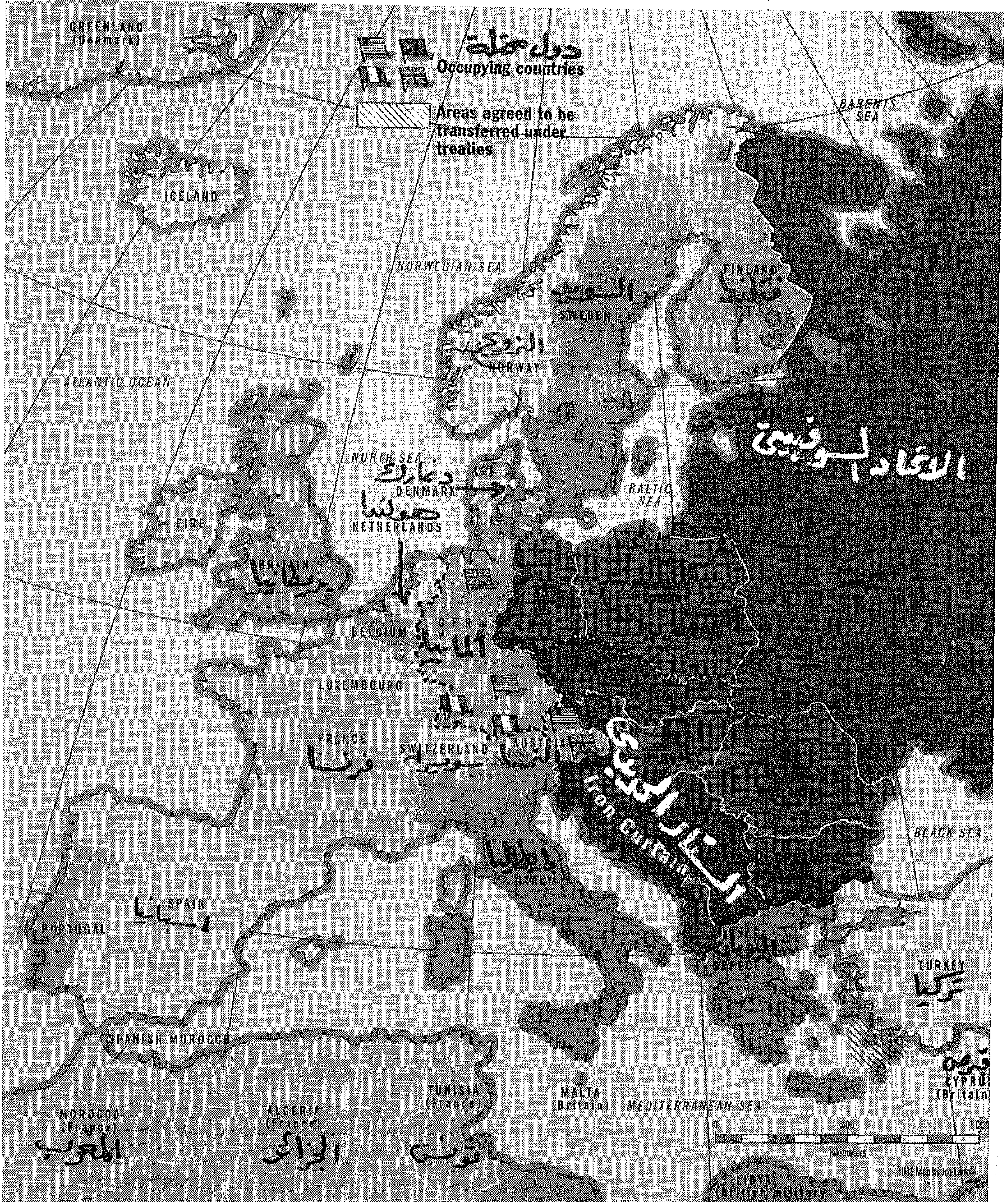
تطبيق برنامج فى بولندا للحد من إفساد اليهود (١٤ يوليو).

فى فلسطين: العصابات الإرهابية الصهيونية تنسف فندق الملك داود فى القدس حيث مقر إدارة الحكومة البريطانية والمكاتب الإدارية العسكرية ومقتل ٩١ غير الجرحى. ولم تعاقب بريطانيا الجناة ولم تغير سياستها فى مساعدة اليهود والتمكين لهم فى فلسطين العربية (٢٩ يوليو).

مؤتمر فى لندن لمناقشة المسألة الفلسطينية يقاطعه اليهود (أول سبتمبر).

إعلان أحكام محكمة نورمبرج على قادة النازى الألمان. وبعد

أوروبا سنة ١٩٤٦ - والستار الحديدى



« الستار الحديدى » تعبير أطلقه تشرشل فى مارس ١٩٤٦ على الأسلوب الصـارم الذى فرضه « ستالين » على بلاده ودول أوروبا الشرقية الاشتراكية الخاضعة لنفوذه .

أسبوعين يتم إعدام (شنقا) عشرة منهم (كمجرمى حرب) والحادى عشر «هرمان جورنج» انتحر ليلة تنفيذ الحكم بإعدامه فابتلع قرص سيانيد كان يخفيه تحت جلده .

قوات الجيش الفرنسى تفجر مدينة «هايفونج» بأكملها فى فيتنام، فتقتل عشرين ألفا فى يوم واحد إيذانا ببداية الحرب الفرنسية الفيتنامية التى استمرت حتى سنة ١٩٥٤ باندحار قوات فرنسا وانسحابها خاسرة من الهند الصينية .

١٩٤٧ العرب واليهود يرفضون مشروعا بريطانيا لتقسيم فلسطين (٧ فبراير).

اضطرابات ومظاهرات عنيفة فى فرنسا فى مناسبة أول مايو .

فى خطاب بجامعة «هارفارد» الأمريكية يعلن وزير الخارجية الأمريكى جورج مارشال عن مشروع مالى أمريكى لإنعاش أوروبا الغربية بعد الحرب العالمية الثانية عرف باسمه.

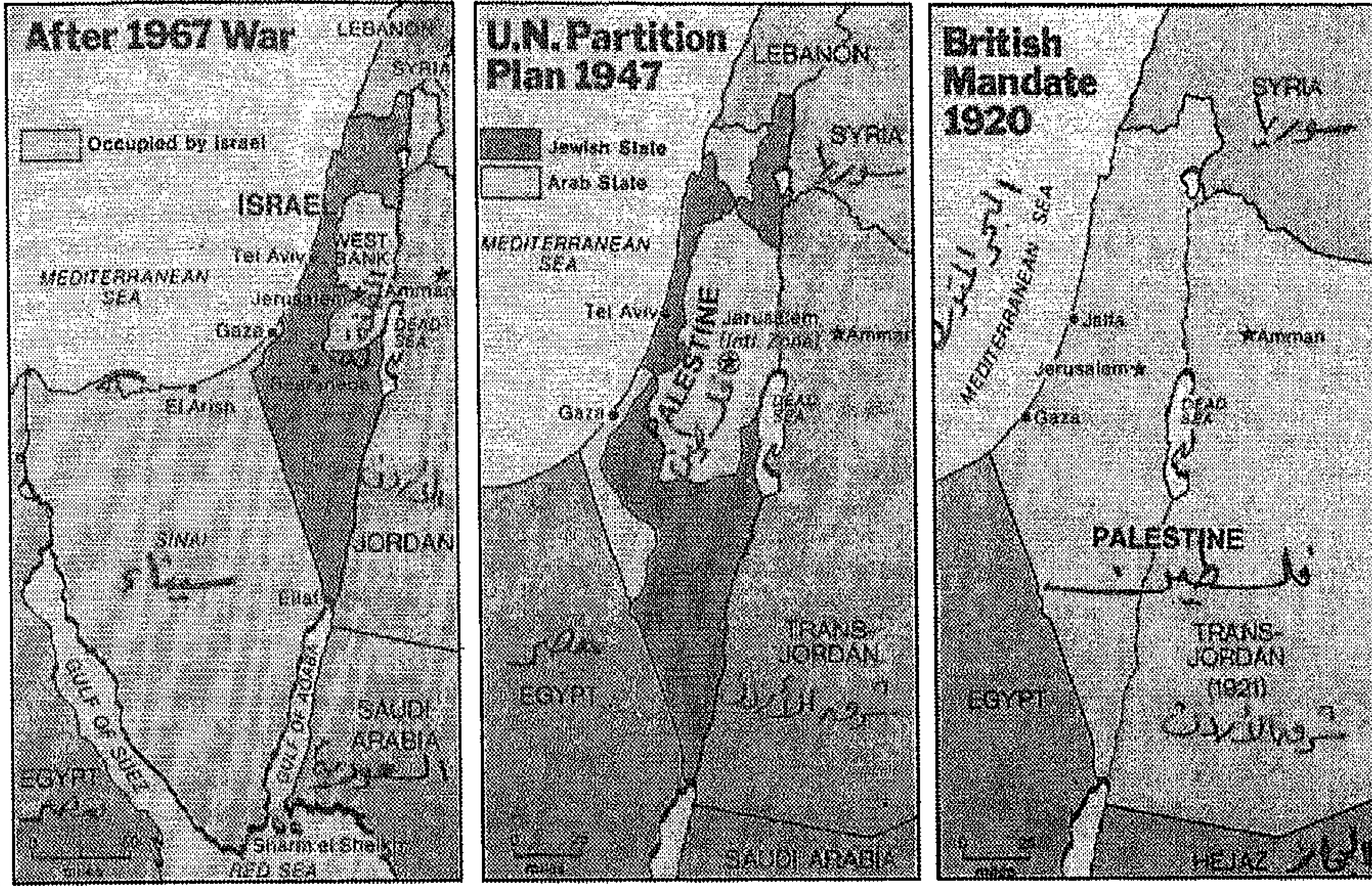
إعلان استقلال الهند وتقسيمها إلى دولتين : باكستان والهند .

قوات مسلحة هندية تسارع بغزو كشمير (بعد شهر من إعلان الاستقلال) وهى مقاطعة إسلامية (٨٥٪ من سكانها مسلمون) فينشأ نزاع مسلح بين الهند وباكستان يستمر حتى ١٩٤٩، ثم يتجدد مرارا حتى نهاية القرن .

١٩٤٨ بريطانيا تُنهى انتدابها على فلسطين فيعلن اليهود على الفور قيام دولة فلسطين على الأرض العربية المغتصبة ، وتعترف بها بعد يومين من إعلان قيام الولايات المتحدة وفى اليوم التالى الاتحاد السوفييتى (١٤ مايو).

مصر / شرق الأردن / العراق / سوريا تعلن الحرب على إسرائيل وقوات من شرق الأردن (الأردن حاليا) تسيطر على مدينة القدس القديمة (٢٦ مايو).

تقسيم فلسطين



أيام الانتـــــداب البريطانـى (١٩٢٠) [تمكين لليهـــــود والعصابات الصهيونية وإرغام العرب].

مشروع الأمـم المتحـــــدة للتقسيم (١٩٤٧) [انحسـار وتفتيت].

بعد حرب سنة ١٩٦٧ [تقليص وزرع المستعمرات].

وسيط الأمـم المتحـــدة الكونـت «برنادوت» يتفق على هـدنة لمدة شهرين بين جيوش العرب وإسرائيل، فكانت فرصة لتقوية اليهود وإمـدادهم بالسـلاح والذخيرة الوفيرة (١١ يونيـو). ومع ذلك لم يسلم الكونت من غـدر اليهـود إذ اغتـالتـه عصـابة صـهيـونيـة متعصبة داخل مدينة القـدس فى ١٠ سبتمبر . وفى ١٨ يوليو تعود المعارك الحربية فى فلسطين بين الجيوش العربية واليهودية.

الحرب الأهليـة الصينية بين الشيـوعيين بقيادة مـاوتسى تونج، والقوميين.

صـدور أحكام جـرائم الحرب فى طوكيو : إعـدام ٧ شنقـا ، و١٦ يسجنون إلى مدى حياتهم.

اجتماع عــربـى فى أريحا بفلسطين يعلن تنصيب «عبـــد الله بن الحسين» ملك شرق الأردن ملكا على فلسطين (أول ديسمبر) .

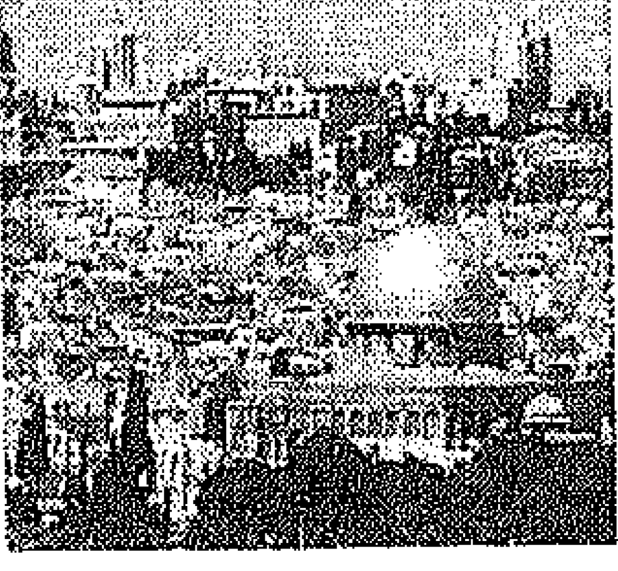
١٩٤٩ مصر وإسرائيل تتفقان على هدنة جديدة (٢٤ يناير)، ثم لبنان (فى مارس)، ثم شرق الأردن (أبريل) ، ثم سوريا (يوليو).

الشيوعيون فى المجر ينشرون الإرهاب والعنف.

زعيم القوميين الصينيين شيانج كاى شك ينتقل بقواته وأنصاره إلى جزيرة فرموزا (الآن تايوان).

مجلس الأمن يحذّر من خطر اندلاع الحرب الأهلية فى كوريا .

إسرائيل تعلن نقل عاصمتها من تل أبيب إلى القدس مخالفة بذلك قرار مجلس الأمن (١٤ ديسمبر).



القدس العربية الفلسطينية وقبة مسجد الصخرة المجاور للمسجد الأقصى .

١٩٥٠ السناتور الأمريكى «جوزيف مكارتر» يعلن الحرب على الشيوعيين الأمريكيين ويعمل بقوة على طردهم من الإدارات الأمريكية.

اضطرابات عنيفة فى ساحل الذهب (غانا حاليا) تفرض حالة الطوارئ.

صراعات دموية واشتباكات مسلحة فى جوهانسبرج بجنوب أفريقيا نتيجة فرض الحكومة البيضاء سياسة وقوانين التمييز العنصرى .

روسيا تعلن رسميا أنها أصبحت تملك القنبلة الذرية.

كوريا الشمالية تغزو بجيشها كوريا الجنوبية ، وبعد ثلاثة أيام تحتل «سول» العاصمة الجنوبية وتدمر معظم جيش الجنوب (٢٥ يونيو).

وصول قوات الأمم المتحدة (معظمها من الجنود الأمريكيين) لدعم كوريا الجنوبية بقيادة الجنرال «دوجلاس ماك آرثر» (أول يوليو).

قوات كوريا الشمالية تنسحب من عاصمة الجنوب بضغط من

قوات الأمم المتحدة (١٥ سبتمبر).

قوات كوريا الجنوبية مع قوات الأمم المتحدة تتقدم شمالا وتتوقف عند خط عرض ٣٨° شمالا (أول أكتوبر). ثم تستولى على بيونجيانج عاصمة كوريا الشمالية (٢٠ أكتوبر).

الجيش الصينى يحتل التبت .

ثورة شعبية فى بورتوريكو .

قوات من الجيش الصينى تنضم إلى الجيش الكورى الشمالى (٢٦ نوفمبر).

اتفاق على توقف الجيوش المتحاربة فى كوريا عند خط عرض ٣٨° شمالا (٢٨ ديسمبر).

* لم يتضمن هذا الجدول المنازعات المحلية البسيطة أو الإقليمية المحدودة العارضة.

* فى الكتاب التالى - بإذن الله تعالى - بيان مماثل عن الحروب المحلية والإقليمية فى النصف الثانى من القرن العشرين.



الجيش الصينى يحتل التبت.

جريمة دولة ضد مواطنيها

تُعتبر الولايات المتحدة الأمـريكية دولة جَذْب للمهاجـرين (مثل استراليا ونيوزيلندا وكندا) بشروط وترتيبـات تضيق وتزداد صعوبة عاما بعـد عام لأسباب سيـاسية واقتصـادية واجتماعية وتنظيميـة ، مع تزايد الراغبين فى الهجـرة من دول العـالم المختلفـة بأسـاليب مشروعـة وغير مشروعـة (*) . وتحرص دول الجذْب على تنوع وتنشيط الثقـافـات بها ، فى تـآلف وترابط وتناغُم ، لإثراء الحياة وازدهار الدولة .

* معلومات سكانية موجزة توضيحية :

– المواطنون الأصليـون سكان أمريكا الشماليـةهم أولئك الذين يطلق عليهم خطأ « الهنود الحمـر » الذين أباد الاستعمار الغـربى معظمهم وحاصر البـاقين منهم فى « محميات » معـزولة ، فقد كـان عددهم أكثر من مائة مليون (قبل رحلة المستكشف كريستوفر كولومبوس سنة ١٤٩٢) أصبحوا اليوم نحو مليونين فقط . فالغالبية العظمى للسكان الحاليين من المهاجرين وذرياتهم .

– فى سنة ١٦٠٧ رست ثـلاث سفـن إنجليـزية عند شـاطـئ فـرجينيا وكـانت تـحمل أول المهـاجـرين الإنجليز إلى أمريكاوعددهم ١٠٥ .

– فى سنة ١٦٠٩ كانت بعثـة استكشاف هولندية (بقيـادة المستكشف هنرى هدسون) فـاستقرت فى مدينة نيويورك تمهيدا لبداية الهجرة الهولندية المتتابعة . وبدأت فى السنة نفسها هجرة الأسبان ، وهم فى سنة ٢٠٠٠ نحو ٣٠٪ من سكان الولايات المتحدة .

– فى سنة ١٦٣٤ استقرت أول مستعمرة كـاثوليكية فى ولاية ميريلاند . وفى أغسطس من السنة ذاتها سُمح رسميا بتجارة واستجلاب العبيد .

– فى سنة ١٧١٢ تفجرت ثورة العبيد (الزنوج) فى نيـويورك لسوء معاملة البيض لهم وكأنهم غير آدميين فكانت نتيجـة ثورتهم : انتحار ٦ ، وإعـدام ٢١ ، وفى ثورة ثانية سنة ١٧٤١ : أُعـدم ١٣ ، وأُحرق ١٣ ، ونُفى ٧١ .

– فى سنة ١٨٩٦ أصـدرت المحكمة العليـا الأمريكيـة قرارا بالتفـرقة العنصرية (الفصل بين السـود والبيض) .

– فى مايو ١٩٢١ صدر قانون تنظيم الهجرة إلى الولايات المتحدة وتحديدها .

– فى أغسطس ١٩٩٩ بلغ عدد السكان ٢٧٣ مليونا (كانوا ٢٤٩ مليونا سنة ١٩٩٠) منهم ٨٢٪ بيض (٢٢٥ مليـون نسمة) ، ١٣٪ سـود وأفارقـة (٣٥ مليـونا) ، ١٪ فقط مواطنون أصليـون (هنود وسكان ألاسكا معا – ٢ مليون)، ٤٪ آسيويون (١١ مليونا) .

– المتـوقع تقديرا حسـابيـا – والعلم والأقدار عند الله – أن يبلغ عـدد سكان الولايات المتحـدة سنة ٢٠٥٠ : نحو ٣٩٣ مليون نسمة .

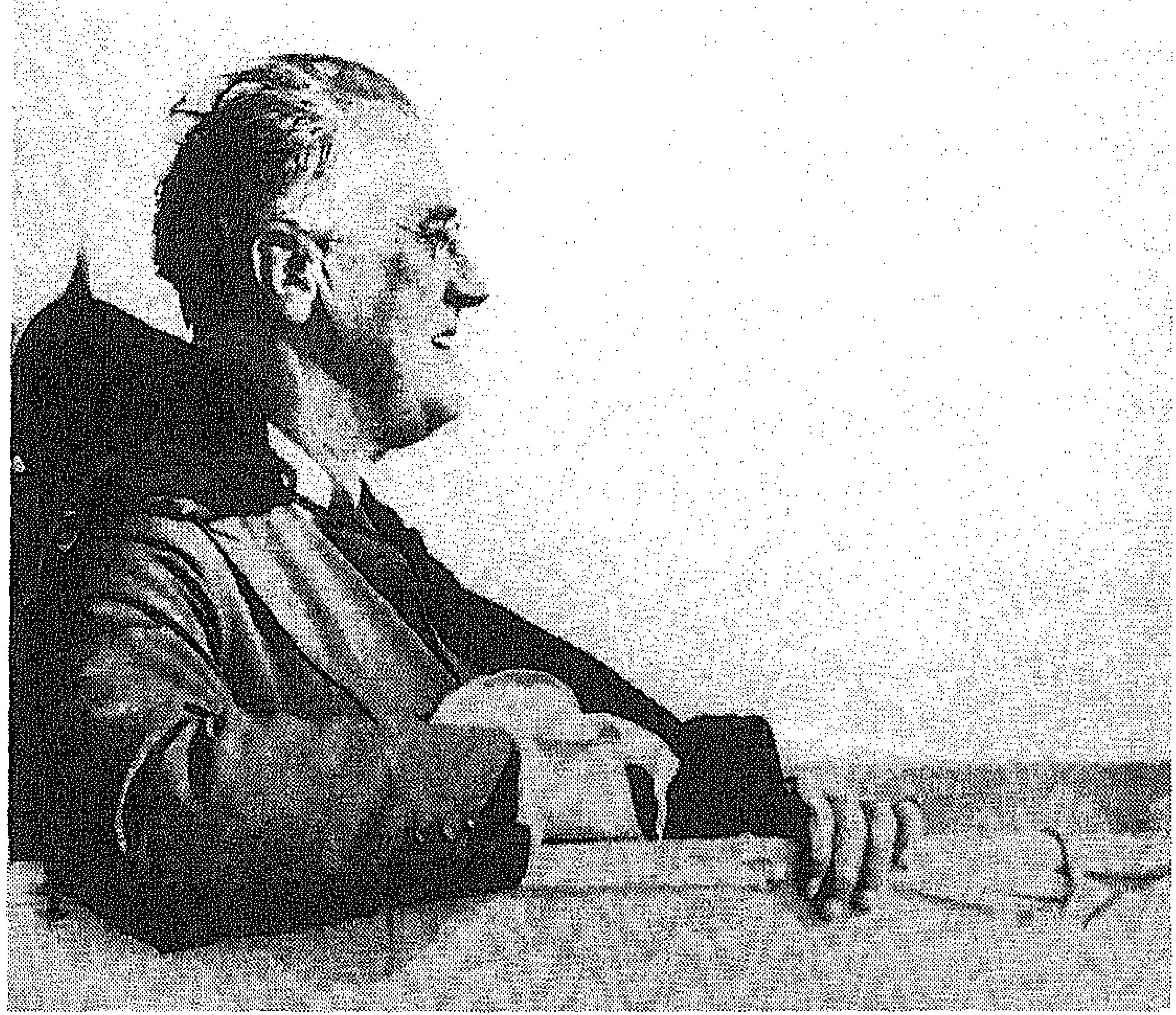
ولكن العَجَب يُفْضِى إلى رِيَب حين تتصرف الدولة المشجعة للمهاجرين ، التى منحتْهم حق المواطَنَة والجنسية فاستقروا بها وعملوا فيها ، وأنتجوا وأنجبوا ، وأثروْا وأَثْروها ، أن تتصرف معهم فى أوقات الأزمات والحروب الخارجية - التى لا صلة لهم مباشِرة بها - بأساليب جائرة ظالمة قاهرة ، لا تُقرها قوانينها الدستورية أو الدولية ، بل وتعتبرها محاكمها - عند اللجوء إلى ساحات القضاء - جرائم واعتداء على مواطنين أبرياء . وهذا ما شهدتْه - وأَشهدتْ عليه - المحكمة الدستورية العليا بالولايات المتحدة الأمريكية سنة ١٩٤٣ . ولكن لابد من الرجوع بالأحداث والذاكرة إلى سنوات ما قبل ذلك التاريخ.

كانت العلاقات الأمريكية اليابانية وثيقة ، وفى تصاعد مستمر . وعندما أخذتْ اليابان تتحرك بجيوشها نحو منشوريا سنة ١٩٣١ بزعْم إيقاف زحف الشيوعية ، اتخذتْ الولايات المتحدة حليفا لها فى الصين مناوئً للشيوعيين هو : تشيانج - كاى شِك . ثم دعَتْ جمعية (عُصْبة) الأمم اليابان إلى سَحْب قواتها وعدم اعتراف الدول الأعضاء بدولة جديدة - هشَّة - فى منشوريا (١). فانسحبت اليابان من عضوية تلك المنظمة الدولية، ومضت فى تثبيت أقدامها داخل منشوريا ، وبدأت فى التراخى علاقات الولايات المتحدة باليابان طوال عَقْد الثلاثينيات ، إلى أن انتهت بقطع العلاقات الديبلوماسية فى سنة ١٩٤١، عندما رفض الرئيس الأمريكى «فرانكلين روزفلت» بإصرار وصَلَف التقابل مع الإمبراطور اليابانى «هيروهيتو» ، ودعا اليابان إلى الإذعان بالانسحاب من الهند الصينية ومن الصين أيضا ؛ فتحولتْ اليابان إلى دول «المحور» المعادية «للحلفاء» (٢). وعقدت معاهدة مع كل من ألمانيا وإيطاليا فى سبتمبر ١٩٤٠.

---

(١) منحتْها اليابان اسم : دولة « مانشوكويو » ووضعت على عرشها « هنرى بو - يى » آخر أباطرة المانشو ، وضمت القوات اليابانية مناطق من شمال الصين (سنة ١٩٣٧) إلى هذه الدولة الدُّمية التى أوقف توسعها فى الصين الجنرال تشيانج كاى شِك .

(٢) دول المحور هى : ألمانيا / إيطاليا / اليابان / المجر / رومانيا / بلغاريا / - ودول الحلفاء : بريطانيا / فرنسا / الاتحاد السوفيتى / اليونان /بلجيكا / البرازيل / كندا / الصين / الدانمارك / جنوب أفريقيا / يوغوسلافيا / ثم انضمت إليها الولايات المتحدة الأمريكية / هولندا / النرويج / نيوزيلندا / بولندا .
وكانت الهند الصينية تشمل المنطقة الشاسعة من جنوب شرق آسيا وتضم الدول : بورما (الآن: ماينمار) / تايلاند / الجزء القارى من ماليزيا /كامبوديا / لاوس / فيتنام الشمالية وفيتنام الجنوبية (قبل التوحيد).



الرئيس الأمريكى «فرانكلين روزفلت».

وفى العام التالى تزايد شيئا فشيئا اقتناع الولايات المتحدة بأن مصالحها السياسية والاقتصادية والمستقبلية تقتضى ألاّ تستمر على موقفها السلبى الانعزالى المحايد من الحرب العالمية الطاحنة الدائرة فى أوروبا والشرق الأقصى، على الرغم من أن حملات الدعاية الانتخابية للرئاسة الأمريكية (سنة ١٩٤٠) كانت تعلن صراحة أن كلا المرشحيْن (الرئيس القائم آنذاك «فرانكلين روزفلت» الديموقراطى، والجمهورى «وِنْدل وِيلْكى») يؤكدان ضرورة الالتزام بمبدأ السلام والابتعاد عن صراعات أوروبا ومشكلاتها اللاهبة. ثم إذا بالفائز فى الانتخابات «روزفلت» – تحت تأثير وضغط العجوز البريطانى الداهية «وينستون تشرشل» – يتعلل بقرار رسمى أمريكى يُلزم بلاده بمساعدة بريطانيا فى الأزمات الخطرة، وإمدادها بالأسلحة. وأضاف إلى تنفيذ هذا القرار، إصدار أوامر إلى وزارة الدفاع بإرسال فِرق حراسة مسلحة لحماية المحيط الهادى، وألقى عددا من الأحاديث والخُطب تدور حول قوله: «إن نيران الحرب تقترب من حافة نصف الكرة الأرضية الغربى (حيث القارة الأمريكية). بل هى تتسارع قادمة إلى ديارنا».

وحــدث فى تلك السنــة المشتعلة بالوقــائع والنكبـــات ، أن نجح اثنان من ضباط تحليل الـرسائل والرمـوز السرية بالمخابرات الأمـريكية ، فى اختراق أشد الرسائل الرمزية تعقيدا (بالشفرة) اليابانية ، بطريقة أطلقا عليها اسم : «السحْـر» . وكانت أول الرســائل المشفَّـرة التى طَبَّقـا عليها تلك الطريقـة ، واحدة تقـول: « إن اليابان وضعتْ خطة لضرب مـوقع فى الولايات المتحدة» ولم تحدد هذا الموقع . وفى يوم الأحــد الســـادس من ديسمبر سنة ١٩٤١، حـاولت الآنســـة «دوروثى إدْجن» الموظفـة الجديدة بمخـابـرات البحـرية الأمريكية الاتصال برؤسائها لإطلاعهم على رسالة سرية تُـخْبر بأن الضربة اليابانيــة المتوَقَّعــة سيكون هدفها «هونولولو» . ومع ذلك، تـراخَى الضباط الذين كانوا بالخدمة يومها واستلمـوا الرسالة ، فقالوا : « لا ضَيرْ من تأجيل النظر فى أمر هذه الرسالة إلى الغد ، الاثنين».

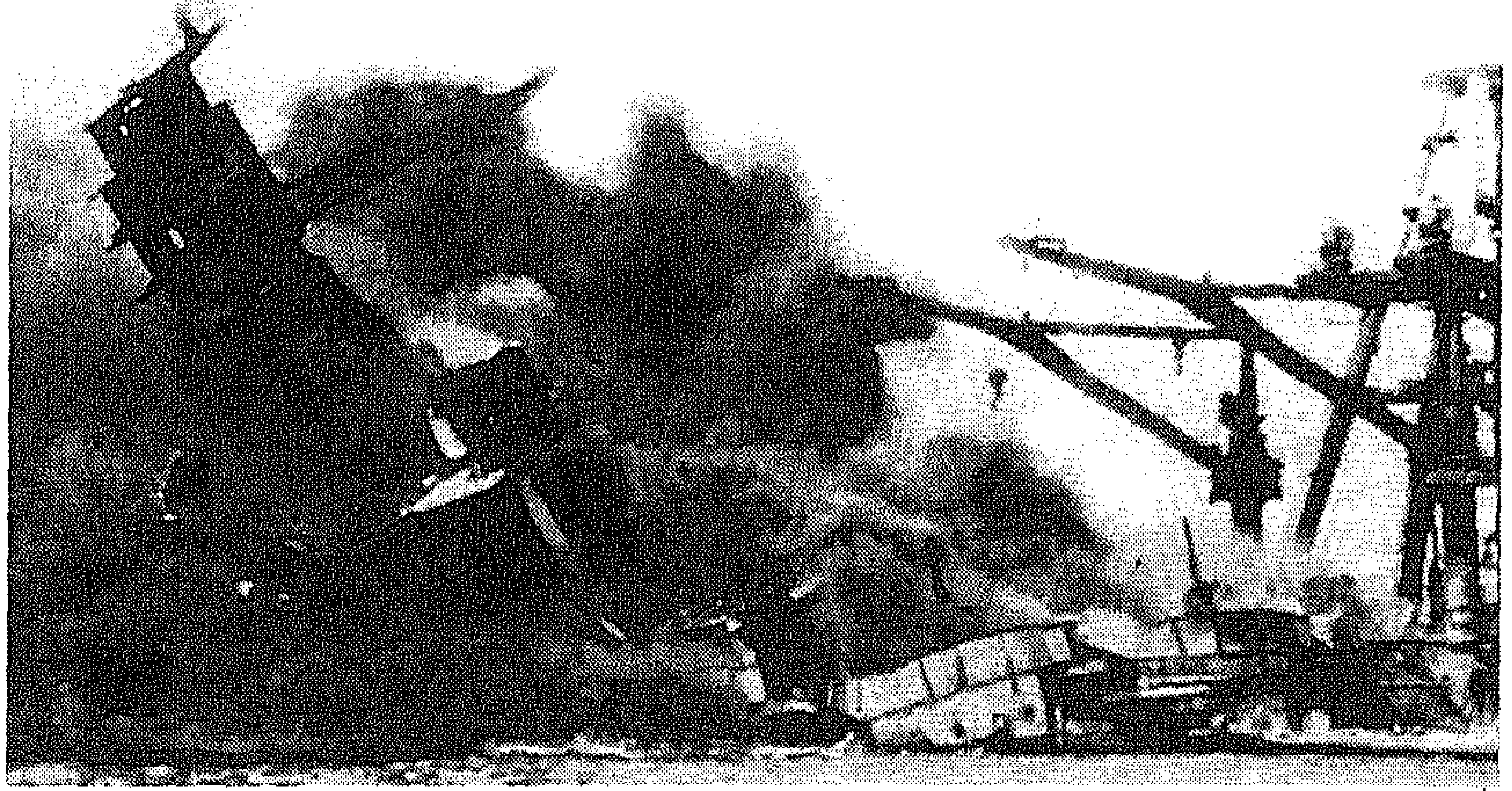

جورج مارشال

وفى اليـوم ذاته – الأحد – وقبل ثلاث سـاعات من وقـوع الكارثة ، تلقَّى الجنرال «جورج مارشال» رئيس الأركان الأمريكى رسالة سرية اعتراضية عـاجلة تشير إلى أن هجـومـا سـوف يقع وشيكا فى المحيط الهادى. فأرسل «مـارشال» على الفـور رسائل مشفَّـرة تحذيرية إلى مانيـلا (الفيلبين). وإلى منطقة قناة باناما ، وإلى سان فرانسسكو (بالشاطئ الغربى الأمريكى المطل على المحيط الهادى). ولسوء الحظ مع سوء الأحـوال الجوية تعذَّر تبليغ هذه الرسالة الخطيرة العـاجلة إلى قلعة «شافْتر» القـريبة من ميناء «بيرل هاربر» حيث تربض أهم وأكبر قطع الأسطـول الحربى الأمـريكى. فـاضطر رئيس عمليات الاتصــال إلى إرسال فحوى التحـذير (المكتوب بالشفـرة أيضا) عن طريق البريد العاجل، فتسلمتْه «هونولولو» بعد عشر ساعات !

● الكارثة

٧ ديسمبر ١٩٤١ .. الساعة ٦,٣٠ صبـاحا بتوقيت هونولولو .. اكتشف طاقــم سفينة الإمــداد الحربية «أنْتارِس» جـزءا طافيا فـوق المـاء لغواصــة غـريبـة، فأسرعـوا بإطلاق النار عليهـا وأصـابوا بـرج المنظار فى أعـلاها ، فـاختفت تحت الماء ، وبعد لحظات طَفَتْ مكـانها بقعة كبيرة مـن الزيت على

السطح . وفى الحال أبلغ رجال «أنتارس» القيـادة العليا البحرية لاسلكيا بما حدث ، إلا أن الـرد على هذا التبليغ جاءهم بعـد أكثر من سـاعة : فى السـابعة وسبع وثلاثين دقيقة !



كـارثة الأسطول الأمـــريكى فى «بيرل هاربور».

الساعة ٧,٥٥ صباحا ..

تسقط أول قـذيفـة يابانيـة مـن الجو على ميناء «بيرل هارْبر» (ومعناه : ميناء اللؤلؤ) . وبعد دقائق تُقْذَف البارجـة الأمريكية الضـخمة «أُوكلاهوما» بخمسة طوربيدات، ثم «وِسْت فيرجينيا» بست طوربيـدات ، و«كاليفورنيا» باثنين ، و«أوتاه» باثنين ، ثم كل من «ديْترويِت» و«رالى» و«هيلينا» بطوربيـد واحد .

ويحدث ارتبـاك شديـد وفوضى عـارمـة غامـرة بين رجـال الأسطول الأمريكى وقياداته التى أصابها ذهول مروِّع . واضطر رجال من البحرية لم يتـدربوا جيـــدا من قبل – ومنهم من لم يتـدرب إطلاقـــا – على استخـدام الرشـاشات والأسلحـة الثقيلة ، اضطروا إلى استعمال هذه وتلك فى محاولة بائسـة لإنقاذ مـا يمكن إنقـاذه ، ومقاومـة العـدو المبـاغِت : جوا بطائـرات انتحـارية (كـاميكاز) أو بحـرا من غـواصـات تحت الماء . حتى إن القيـادة الأمـريكيـة أمـرَتْ بـإطلاق سراح السجناء فى سجنَيْن قـريبين للاشتراك فى المعركة ! وكل ما صدر من تعليمات (أو قُل : التدريبات !) إلى هؤلاء السجناء

هو : «مَــجِّدْ الإله ثم أَطْلِق الذخيرة» ، كما جـاء على لسان ضـابط مـلازم فى البحرية شـهد الكارثة وأَدْلى بشهادته عنها بعدها .

وما أن حلَّت الســاعة العــاشرة صباحا ، حتى كـانت ثمانى عشرة سفينة حربيــة (من أغلى وأهم قطع الأسطول الأمريكى) قـد غرقت ، أو جَنَحت ، أو تَلفت . وكـان من بينهـا سفن المعارك البحـرية الواسعــة والقتـال العنيف : أريزونا ، أوكـلاهومـا ، وسْت فيرجينيـا ، كاليفـورنيـا ، تِنِسى ، ميريلاند ، بِنْسيلفـانيـا ، نيفـادا ؛ والسفينــة الهدَّافــة : «أُوتاه» ، والمدمِّــرة : «دُونِس»، و«شو» ، و«كاسِّين» ، وزارعة الألغام «أُوجْلالا»، والطرَّادة «هيلينا» ، ومثلها «هونولولو» ، و«رالى »، وحـاملة الطائـرات : «كورْتيس» ، وسفينة الإمـداد والإصلاح : «فِسْتــال» . وتحطمت ١٨٨ طائرة وغيرها ١٥٩ طائـرة أصابها تلفيات .

وكـانت حصيلة الخسائـر البشرية : ٢٠٠٨ قتلى من البحـارة والجرحى ٧١٠ ، ومن الجنود ٢١٨ قتلى والجرحى ٣٤٦ ، ومن الفنيين البحريين ١٠٩ قتلى والجرحى ٨٩، ومن المدنيين ٦٨ قتلى و٣٥ جـرحى. أمــا خســائـر اليـابانيين فكانت : ٢٩ طائـرة انفجـرت بعيدا عـن الشاطئ ، ٦ غـواصـات صغيرة ، ٥٥ طيـارا ، ٩ من طاقم غـواصــة ، وما لا يُعـرف من مصــابين فى غواصات أخرى.

وزاد من اضطراب وفـزع القيـادات الأمــريكيــة على جميع المستـويات والشعب الأمـريكى كله ، أن سَرَت إشاعـات بأن اليابانيين سيُعيـدون الكَرَّة بضرب موانئ وقواعد أخرى على الساحل الغربى الأمريكى، ولم يحدث ذلك. لكن كارثة «بيرل هاربر» المباغتــة دفعت الولايات المتحدة إلى الإسراع باتخاذ قرار الحرب إلى جـانب الحلفاء ، وإن كان بعض المعـارضين والنقاد للرئيس روزفلت أشاروا إلى أنه – روزفلت – تجاهل عامدا المعلومات السرية المحذِّرة من وقوع هجوم على الولايات المتحدة لكسب الرأى العام الأمريكى إلى قراره المبَيَّت بالدخـول فى الحرب خلافا لما كـان يزعمه فى الحملة الانتخـابية (٣). أو

---

(٣) تفصيل ذلك فى الجزء الخاص مـن هذه السلسلة رقم (٥) بعنوان : « رجــال صــاغـوا القــرن العشرين » فى فصل عن فرانكلين روزفلت .

كما قال واحد من ناقدى سياسته : «لقد كذب على الشعب الأمريكى بشأن الحرب لأنه لم يكن قادرا على قيادتهم إليها.

● **إرهاب بعد العاصفة**



هذه السيدة الأمريكية الجنسية اليابانية الأصل مع طفلها فى معسكر ، الاعتقال بين أكثر من ١١٠٠٠٠ أمريكى وأمريكية من أصول بعيد يابانية ، احتجزتهم الحكومة الأمريكية بعد واقعة « بيرل هاربور » خلافا للقانون وقواعد الدستور بحجة الخوف من ولائهم لليابان . وفقد معظم هؤلاء المواطنين الأبرياء أموالهم وممتلكاتهم فضلا عن حرياتهم طوال شهور الاعتقال الجائر .

كانت إذْن «بيرل هاربر» كارثة مروعة مفجعة بالنسبة للأمريكيين، أسخطتْهم على المعتدين الغزاة اليابانيين . ولكن .. ما ذَنْب المواطنين الأمريكيين ذوى الأصول اليابانية، الذين جاءوا مثل ملايين غيرهم من جميع شعوب وأجناس العالم ، واستقروا سنوات طويلة وتوالدوا على أرض المْهجَر جيلا بعد جيل ؟ هنالك كانت الجريمة ، أخلاقية إنسانية ، وكانت القضية ، اجتماعية سياسية ، وكان فيها القضاء شريفا شجاعا جديرا بالإكبار والتقدير .

● **القضية** : الجانى ، والمجنى عليه

بعد خمسة أشهر من هجوم اليابانيين على «بيرل هاربر» ، أصدرت الحكومة الأمريكية قرارها العجيب المروِّع إلى جيشها باعتقال جميع المواطنين الأمريكيين المنحدرين من أصول يابانية المقيمين على امتداد

الساحل الغربى من الولايات المتحدة. ليس هذا وحَسْب ، بل إن جميع أفراد الجالية اليابانية الأصل – وهم من أبناء الشعب – تم التحفظ عليهم ، ثم نُقلوا إلى معسكرات اعتقال بناء على ادعاء باطل خاطئ مُجحف بأن كل فرد من هؤلاء – رجلا أو امرأة أو طفلا – يشكِّل خطرا على أمن الدولة !

ولم يكن بعدُ من بين هؤلاء «الضحايا» شاب وُلد على الأرض الأمريكية يدعَى : «كُواكِر جورْدون هيراباياشى» ، وكان عضوا بفريق الكشافة ، (ثم سيكون معيدا بجامعة واشنطون) . وفى مايو ١٩٤٢ ، طُلب – من مَسْكنه – للمثول أمام مكتب التحقيقات الفيدرالى (FBI) فى مدينة «سياتل» بالشمال الغربى قرب الحدود الكندية ، وكان معه محاميه ، وسئل عن رفْضه تسجيل اسمه لدى مركز الشرطة – وفْق التعليمات المعلَنَة – باعتباره من أصل يابانى، وتلقى تهديدا بترحيله إلى معسكر اعتقال يضم ١٢٠ ألفا من الأمريكيين ذوى الأصول اليابانية . وأصر «كواكر هيراباياشى» على رفض التسجيل واصفا إياه بالعنصرية المكشوفة الظالمة ، وبأنه عمل مخالف لنص الدستور وحقوق المواطَنَة . فأُمِر بالبقاء الإجبارى – كالمعتقل – فى مسكنه لا يَبْرَحُه ، حتى يتم الفصل فى شأنه ، طبقا لقانون الطوارئ . فكان جوابه أن هذا الأمر جائر أيضا ومخالف للدستور . فأودعوه السجن إلى حين نظر قضيته أمام المحكمة بتهمة معارضة أمر الاعتقال طبقا لقانون الطوارئ لأنه مصمم على عدم تسجيل اسمه والخضوع لقرارات السلطة الحاكمة . فلَبِث فى السجن خمسة أشهر قبل نظر القضية .

وفى المحكمة ، طلب محامى الحكومة – الذى كان يبدو ساخطا متوترا – استدعاء والدىْ «المتهم» من المعتقل للإدلاء بشهادتهما . وتم بالفعل إحضارهما من معسكر الاعتقال ، لكنهما مكَثَا أسبوعين بالسجن فى فترة تأجيل النظر فى القضية ، وذلك قبل الإدلاء بالشهادة . وكان مقصد محامى الحكومة «الذكى الجهبذ» أن كلام والدى «المتهم» بلكْنَة أمريكية يابانية فى ساحة القضاء ، دليل ملموس قوى لإقناع المحلَّفين وهيئة المحكمة على أن اليابانيين الذين عاشوا سنين طويلة داخل المجتمع الأمريكى، لا يزالون هُم

وأبناؤهم متمسكين ظاهرا وباطنا فى معيشتهم ومشاعرهم وأفكارهم بما يستمسك به أعداء أمريكا من أسلافهم الذين شَنوا هجوما على أسطولها وجنودها وأراضيها .

أفلحتْ حيلة محامى الحكومة ، وأعلن القاضى أنه يميل إلى الرأى القائل بأن قانون الطوارئ يحل محل الدستور . فسارعت هيئة المحلَّفين – خوفا وطاعة (فى ظل الأجواء المتوترة الضاغطة التى كانت آنذاك سائدة) سارعت بإقرار أن «المتهم» مُذْنب، فأصدر القاضى حكمه على «هيراباياشى» بالسجن والغرامة ، وبعدم الإفراج عنه ولو بدفْع كفالة فى فترة الشهور الثلاثة القانونية لحين نظر المحكمة العليا فى الاستئناف إذا تقدم به إليها .

وجاء حُكم المحكمة العليا جريئا قويما فى أحد جانبيه : أن قرارات الاعتقال عنصرية الطابع والدافع ، وأن قانون الطوارئ يقف شاحبا عند حافة الدستور ، ولكن المحكمة أيدت معاقبة «هيراباياشى» لأنه ظل مُصِرًّا على رفْض الأمر الصادر إليه من الجهات الرسمية (الشرطة ومكتب التحقيقات الفيدرالى) بتسجيل اسمه وبيانات أخرى عنه .

وتمادَى العاملون الكبار فى إدارة الرئيس فرانكلين روزفلت فى غَيِّهم ، فأعلنوا صراحة أن الدستور «ماهو إلا قُصاصات أوراق» !

وأضافوا : «اليابانى يابانى» – أى يظل دائما يابانيا شكلا وموضوعا . لكن كثيرين ساءهم ذلك ، من المسئولين ومن الجماهير ، حتى إن «إدجار هوفر» رئيس مكتب التحقيقات الفيدرالية(٤) – المشهور بجبروته وسطوته وميوله العنصرية ، صَرَّح باعتقاده أن «العسكريين أصابهم بعض الهيستريا» .

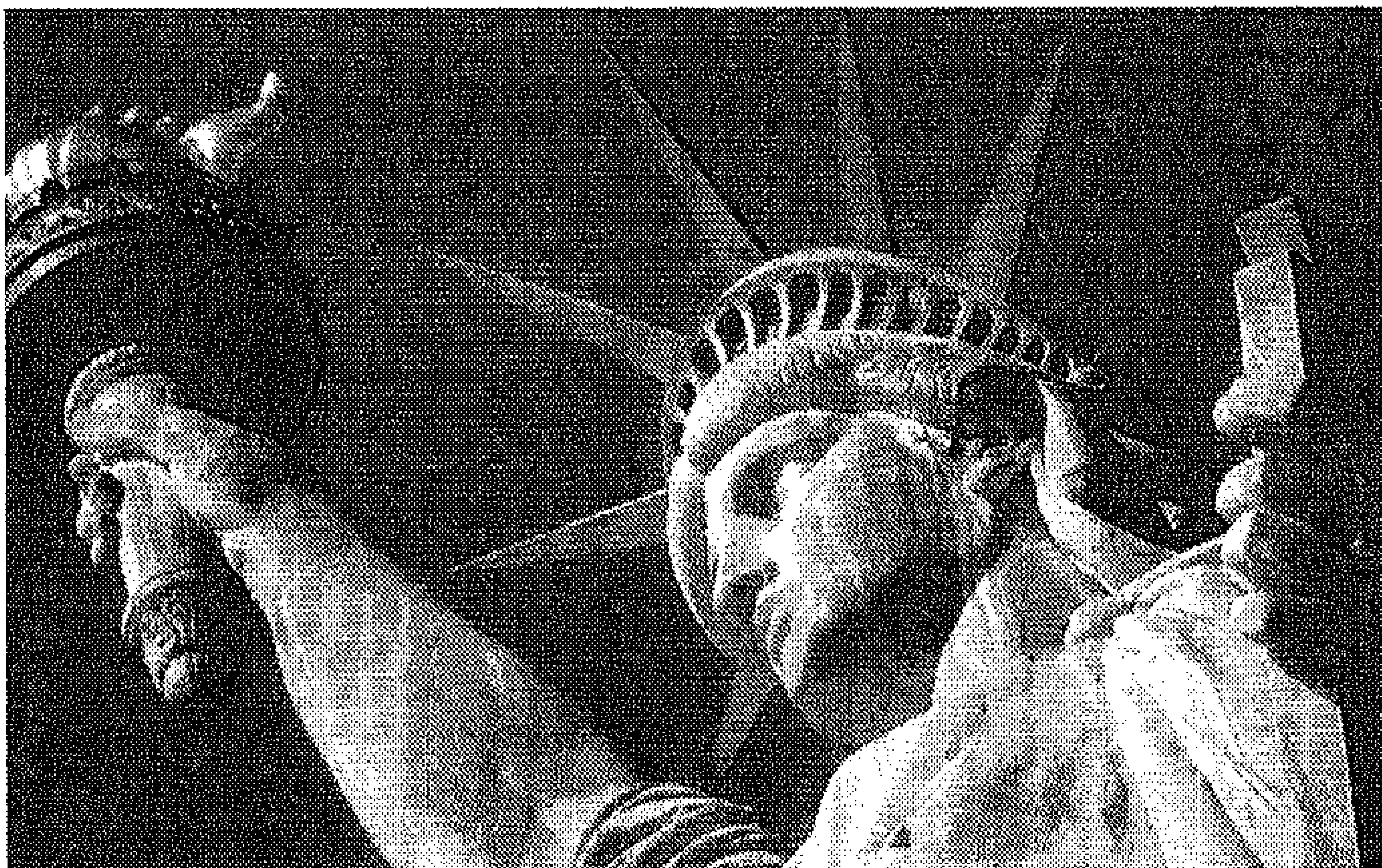
● **بعد القضية**

على الرغم من استسلام اليابان فى سنة ١٩٤٥ (بعد ضرب هيروشيما وناجازاكى بالقنابل الذرية) ، فإن اعتقال المواطنين الأمريكيين ذوى

(٤) عن هذا الرجل توضيح مُسْهب فى الفصل الخاص بالمافيا (فى هذا الكتاب) .

الأصول اليابانية ظل مستمرا حتى خرج آخر معتقل من المعسكرات بعد عام كامل . وخجل بعض مَن كان معتَقَلا - أو كرِه - العودة إلى مكان إقامته السابق أو عمله ، أو حتى الولاية التى كان يعيش فيها. وبعد أربعين سنة ، عادت هذه المأساة تطل بوجهها القبيح من جديد على المجتمع الأمريكى من خلال جيل ناشئ من أبناء الذين لقُوا عَنتا فى فترة الاعتقال الجائر، وعَضَّدهم النشطاء من دعاة رعاية الحقوق المدنية ، والمناهضين للحروب وأنصار السلام ، فى سنوات خروج اليابانيين عن صمتهم الموروث عن آبائهم الأقدمين، الذى يفرض عليهم كتمان الآلام وعدم البَوْح بها .

وفى سنة ١٩٨١ ، أُثير فى الكونجرس الأمريكى (بالبرلمان) موضوع معسكرات اعتقال اليابانيين الأمريكيين فى سنوات الحرب ، فصدر قرار بمنح كل مَن كان معتَقَلا من هؤلاء ولا يزال حيا مبلغ ٢٠٠٠٠ دولار . لكن الحكومة لم تُقَدِّم اعتذارا ، ولم تعترف علانية بأنه حدث خطأ فى التصرف مع «كواكر جوردون هيراباياشى» . فاضطر إلى رفع قضية أمام القضاء لإسقاط اتهامه بجريمة لا أساس قانونى لها . وفى عام ١٩٨٧ أصدرت محكمة للاستئناف قرارا بأن الأمر الذى صدر أولا باعتقال الأمريكيين ذوى الأصول اليابانية لم يكن له أساس قانونى وإنما هو عنصرى النزعة ، ويرتكز على تَحامل مُسبق مُجْحِف أكثر من كونه ضرورة حربية وأَمْنية . وحصل «هيراباياشى» على براءة اسمه من التجريم . وعاد ذلك الذى كان فى يوم ما شابا طالبا بالجامعة مطاردا مظلوما مضَيَّقا عليه ، عاد أستاذا جامعيا، ولكن بعيدا عن ولايات أمريكا المتحدة والأمريكان .. أصبح أستاذا بجامعة «ألبرتا» فى «إدْمنتون» بكندا .



تمثال «الحرية» بين الرمز والحقيقة .

مأساة يابانية : الجانى صار ضحية

الحرب مأساة البشرية وأيضا مَلْهاتها الأبدية !

فالواقع التاريخى وحده ، وليس التحليل والتفسير (بأنواعه) والتنظير، يؤكد للناظرين أن الأمم والدول والقبائل والشعوب، لا تكُفّ - كالأفراد - عن الاشتجار والتعارك والاقتتال، بسبب ومبرِّر، وأحيانا بدون سبب مقبول أو مبرر معقول ، وهى تعلم علم اليقين أن الحرب تخريب وتدمير وتشريد وإفناء، ولكنها كلما قَويتْ وقَدرت، ناوَشَت وغَدرت، أو على الأقل هَدَّدَت وأَرْهَبَت ، وكأنما الحرب عند البعض مَسْلاة الأحمق ، وملهاة الأَرْعن ، ومَشْغَلة الخَلِىّ (١) . وقد سبق بيانٌ شاهدٌ وبرهان، مما وقع فى القرن العشرين من حروب ومعارك طاحنة ساحقة ، (وليس كلها إيثارا للإيجاز واكتفاء بالإشارة) ، وفى الكثير منها ارتُكبت جرائم حرب وتعذيب وتحريق وتجويع وإبادة واغتصاب ونَهْب، على الرغم من القوانين والاتفاقات والمحاذير والمعاهدات الدولية ، ناهيك عن القيم والمبادئ الأخلاقية والإنسانية والدينية .

٦ أغسطس ١٩٤٥..

قنبلة غريبة الشكل ، والحجم ، والوزن ، والمحتَوَى ، والمفعول.

فشكلها بيضاوى مُنتفخ مثل كرة القاعدة (بيسبول)، وفى حجم البرميل

(١) معروف بداهة أن حرب الدفاع عن النفس والحرية والشرف والوطن والعقيدة مشروعة مكفولة فى نطاق دفع العدوان وردع المعتدى ، وفى التزام بالضوابط والقيم التى تعصم من التجاوزات ، أو استباحة المحظورات .

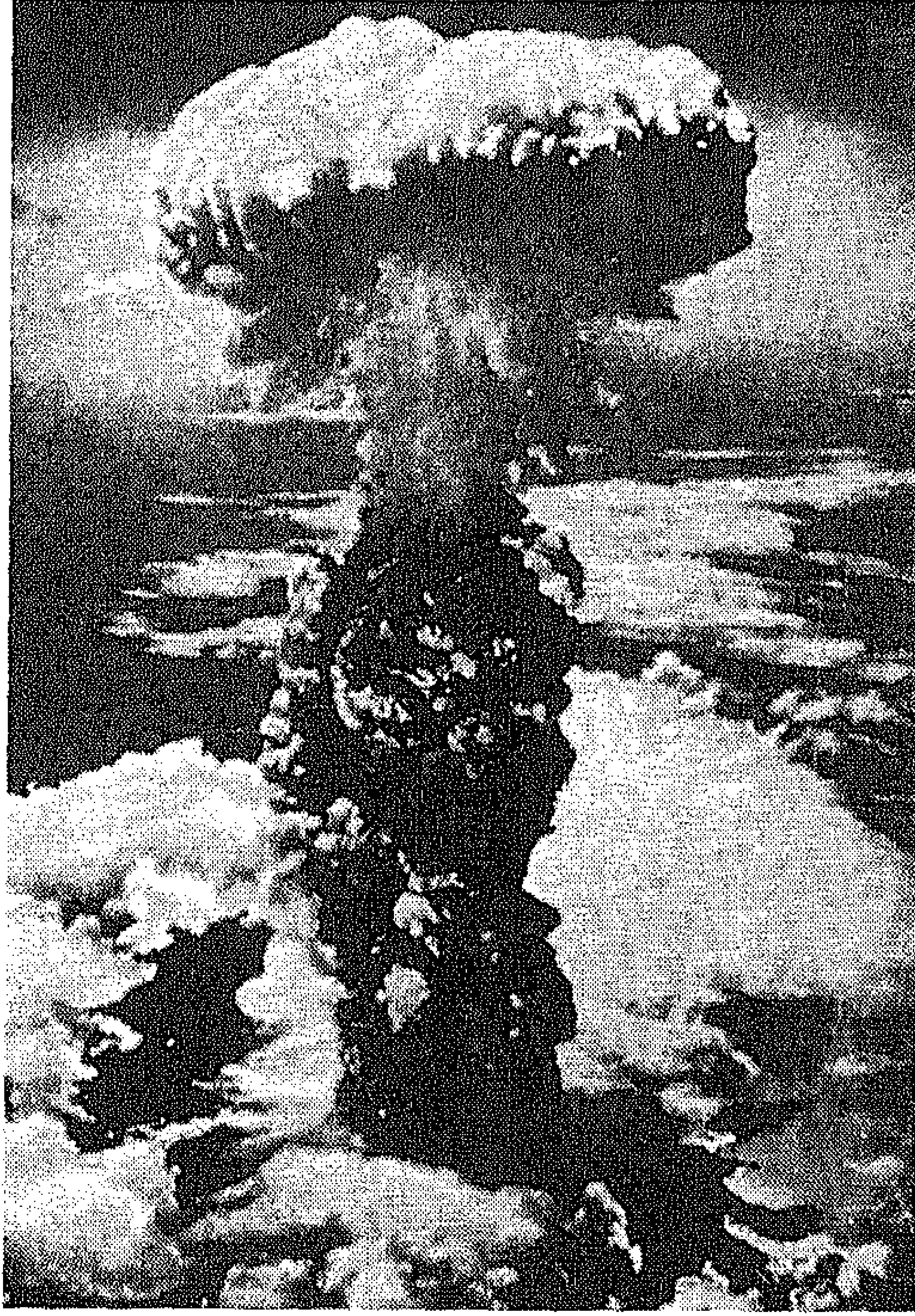
الكبير ، ووزنها ۳۰۰ كجم، وتحتـوى على مادة اليـورانيـوم المشع، وتكلف إنتـاجهـا مليارين (بليـونين) من الدولارات الأمـريكيـة . وللتفكُّه السخيف السَّمِج أطلقوا عليهـا اسم : «الولد الصغير »[٢] . أما مفعـولها ، فكان فى ذلك اليوم عجيبا غريبـا على سمع الدنيا وبصرها وتخيُّلها ، حتى عند أولئك الذين ابتكروها وصنعوها ونَكبوا بها العـالم – قبل غيرهم – وألقوها لأول مرة فى تاريخ الحروب على مـدينة هيروشيما ، لكـى تضع نهاية حـاسمـة سريعـة للحرب العالميـة الثانية، وبداية حرب أو حروب أخـرى جديدة لا يعلم مداها ومُنتهاها إلا الله ، الـذى خلق الإنسان ، فعجبتْ الملائكة من خَلْقـه لِعِلْمِها أنه سيُفْسِد فى الأرض ويسفك الدمـاء. وربما كان «قـرار» استخدام تلك القنبلة الذرية الأولى.. وسيظل، من أكثر القرارات الحربية عُـرْضة للجدل والنقد فى التاريخ العسكرى القديم والحديث .

كـان الجو صَحوا فى صبـاح ذلك اليـوم التـاريخى : السماء صافيـة ، لا سحـاب ولا ضبـاب . أو مطر . وعلى ارتفاع نحـو عشرة كيلو مترات تظهـر فجأة طائرة ب – ٢٩ من السلاح الجوى الأمريكى، فألقت قنبلة واحدة فوق المدينة اليـابانيـة . وبعد اثنتين وثلاثين ثانيـة فقط ، داخل غـلافهـا الواقى، ضربَتْ ذرات من اليـورانيوم بُعنف شـديد ذرات كميـة أخرى، فـانشطرت ذرات، انطلقَتْ منها كمية هائلة من الطاقة لفَحَتْ الأرض وكل ما عليها كأنما الشمس سقطت فوقها [٣]. وانمحتْ فى الحال مدينة هيروشيما من الوجود ! حتى إن مساعد الطيار «روبرت لويس» نظر خلفه والطائرة تبتعد هاربة من الجحيم بسرعة ، فهاله مـا رأى وقال متعجبا أو مستنكرا : «يا إلهى : انظروا لهذا الذى يَـحْدث . يا إلهى ! ماذا فعلنا ؟!».

(٢) وزيادة فى التفكه المجـوج ، سمحـوا لقـائـد الطائـرة « B - 29s » التى ألقت القنبلة على هيروشيما – ويدعى الكابتن « بول تيبتْس » – أن يكتب على طائرته الحربية عبارة راقت له وهى « إنولا جيىْ – Enola Gay » ، والكلمة الأولى « إنولا » اسم والدته ، والكلمة الثانية « جيىْ » تعنى أيضا فى اللغة : السكير أو الشاذ المنحرف .

(٣) يولد انشطار الذرة (أى يحرر ويُطلق ويُنتج) طاقـة حرارية كبيرة ، وهذا هو الهدف أو الثمـرة من التفاعل النووى ، ومع استمرار الانشطار والتفاعل تصبح « النيران » الذرية هائلة متكاثرة . وقد بلغت النيران الذرية التى ألقيت على هيروشيما وبعـدها ناجازاكى باليـابان أكثر من عشرة ملايين درجة مئوية، أى أعلى من درجة حرارة بعض أجزاء الشمس.

في خلال ساعة واحدة مات – مختنقا أو محترقا أو رُعبا – سبعون ألف يابانى (من جملة سكان المدينة الثلاثمائة ألف)، وكان من بينهم اثنان وعشرون أمريكيا وأمريكية فى سجن المدينة ، أضيف إليهم ثلاثة وعشرون أمريكيا خرجوا من حطام السجن فذبحهم الناجون من الأهالى البعيدين بأطراف المدينة ، أولئك الذين أذهلهم ما رأوا



الانفجار الرهيب المروع لأول قنبلة ذرية فى التاريخ أسقطت على هيروشيما يوم ١٦ أغسطس ١٩٤٥ .

وما سمعوا وما أصابهم من جروح وحروق وصدمات. كانوا عرايا أو شبه عرايا من أثر الانفجار، وتراوحت آلامهم بين الخفيفة والشديدة المبَرِّحَة . وكان من العسير معرفة الرجال من النساء، الأصدقاء والأهل من الغرباء والزاحفين فى الوحل. فالمطر الأسود، والتراب المتفحم، والرماد المتوهج، والظلام المخيِّم، كل ذلك غطى الأجسام والوجوه، وشوَّه الملامح وأخفى المعالم، وتناثرت – خارج دائرة مركز الانفجار حيث تلاشى كل شىء من إنسان وحيوان وجماد – تناثرت أجساد مشوهة، وأجزاء بشرية ممزقة ، والذين ألقوا بأنفسهم فى النهر فرارا من النيران والأهوال – وكانوا بالآلاف – شوهَتْهم المياه التى تغلى من شدة الحرارة وجَمْر الأحجار والمعادن المتطايرة المتقدة . وبعد أيام قلائل أضيف إلى ضحايا الساعة الأولى مائة وثلاثين ألفا هلكوا من الإصابات والحروق الخطيرة ، أو من آثار الإشعاع المدمر . كانت هذه بعض الآثار الظاهرية العامة.

ومن الآثار المتنوعة الأخرى مع الذين قُدِّر لهم الاستمرار على قيد الحياة: زوال شعر الرأس، الشلل الفجائى المؤقت ، التقيؤ ، الإسهال، الحُمى فى الليل

البـارد ، والقشـعريرة من البرد فى النهـار الحار ، وبقع دموية متخثـرة تحت الجلد، وانخفاض حاد فى كميات الكُريات الدموية البيضـاء. وارتاع هؤلاء بعد وقوع تلك الواقعة من التأثيرات البيولوجية التى طرأت عليهم ومن أخطرها: إنجـاب عدد كبير مـن الأطفال المشـوَّهين ، وحَـدَث خلل فى جينات بعضـهم . فكانت «جريمة » قَذْف هيروشيما مُرَكَّبـة مُضاعَفة : إذ لأول مرة فى التاريخ البشرى لا تؤذى وتَقتل الحرب أبريـاء المدنيين وحَسْب، وإنما أيضـا تدمِّـر وتشوه الأجنة فى بطون أمهاتهم قبل أن يولَدوا (٤).

بعد شهـرين اثنين وقف المصور «شيجيـو هاياشى» فوق أحـد الأطلال القليلة المتبقيـة، على بعد كيلو متر من مـركـز الانفجار، والتقط بآلتـه ثمانى عشرة صورة على التوالى لموقع المدينة وهو يـدور حول نفسه بالكاميرا دورة كاملة شـاملة (بانورامية) . ثم قـال بعدها : «لقد دُهشت . ذُعـرت . لا يوجد شىء . هل تفعل قنبلة واحـدة كل هـذا؟؟!» . نعم ، وأكثـر من هذا ، طالما أن قدرة «الإنسـان» ، على الفتك والقتل والتدمير ، تتجـاوز الضوابط والروابط والأخلاقيات والمحاذير :

كانت صور هيروشيما بعد الانفجار والتـدمير وثيقة مَرْئية – ومَرْثية – للذكرى والتاريخ. وبقيتْ معها للتاريخ والذكرى أيضا وثيقة وحيدة مدوَّنة، كتبها الطبيب دكتور : «ميتْشيهِيكو هاتْشيـا» مدير مستشفى الاتصالات فى هيروشيما . أصيب بجـــروح فى يوم الكارثـة حين كـان فى منـزله . وقُتل فى

(٤) من وصْف الناجين لما حـدث قولهم : كـان يوما مظلما ، بدأ بومْضـة بيضاء ، ثم حـرارة حارقـة تحوِّل كل ما تلفحـه إلى رماد ، وموجـة هوائية تصدم وتهز بعنف ، وبـرج ضخم من الدخان ظل يعلو ويعلو ثم يتمـوج ويتسع فَينْسـدل فأبْدل ضيـاء النهـار إلى ظلام ليل مخيف . واحترقت البيوت وكأنها من ورق أو رقائق خشب ؛ وكان الحديد الصلب فى هياكل المبانى يترنح ، ويتوهج قبل أن يتـداعى ويسقط ، والأحجـار أيضـا توهجت ثم تفتتت . وتـولدت رياح غَضْبَى من أتون الانفجار ، فـانتشرت الحرائق على طول مسيرتها المهتاجة المسْعَى .وسقطت أمطار : لكنهـا كانت مختلطة بدهون وشظايا وبقايا ورماد أسود مشع . كـانت تغلى من ملامستها للسحاب المتكاثف المفزع ، شكله يشبه عيش الغراب : ساق غليظة فوقها رأس مفلطح كـالقبعة . إنها أمطار تَرْجُم الأرض ومَن عليها . فتَحطم وانهار وتفتتَ وانصهر سبعون ألف بناء . وامتلأت فروع نهر «أوتا – Ota» الستـة التى تخترق هيروشيما وفـاضت ميـاهها بعـد أن قفـز فيهـا آلاف وآلاف من الهاربين المذعورين ، وهم يحلمـون بالنجاة ، فكانوا هدفـا للسهام النارية الحارقـة . وعند فجر اليوم التالى ، كـانت دائرة قطرها سبعة كيلو مترات من مركـز الانفجار ، مساوية لسطح الأرض ومتفحمة .



هنا كانت مدينة .. اسمها هيروشيما! وبعد ١٠ دقائق من إلقاء القنبلة عليها زال كل شيء ، وسُوِّيت بالأرض في دائرة قطرها ثمانية كيلومترات ، وبقيت الشوارع البيضاء من الرماد المتكلس كعلامات الموت الصاعق.

ستشفاه بالمدينة ثمانون طبيبا من بين الأطباء المائة والتسعين بها . وكان «ميتشيهيكو» هو الوحيد الذى كتب فى مفكرته - كعادته من قديم - مشاهداته وانطباعاته يوما بيوم فى الفترة بين ٦ أغسطس و٣٠ سبتمبر ١٩٤٥ . وما كَتَبه وسَجله - أدبيا وطبيا وإعلاميا - يُعتبر فريدا فى الحوليات وفى المراجع التى تتناول النواحى الفنية (التقنية) للقنابل الذرية والتفجيرات النووية وآثارها . وقد صدرت مُدَوَّناته فى كتاب سنة ١٩٥٥ بعنوان : «يوميات هيروشيما : السجل اليومى لطبيب يابانى »(٥). هذه مقتطفات منه :

«وقَفْنا فى الطريق ، تائهين مذْعورين ، إلى أن رأينا بيتا على مقربة منا يترنح ثم ينشطر ويسقط بالكاد عند أقدامنا . ثم بدأ بيتنا نحن يهتز ويتمايل وفى خلال دقيقة واحدة انهار فى سحابة من الغبار . وكذلك البيوت والمبانى الأخرى، تمزقت أو انشطرت وسقطت . واشتعلت الحرائق فضربتْها وطوحَتْ بها ريح عاتية مُزمجرة، نشرت اللهب على امتداد مسارها . فلاَح لنا استحالة الوقوف بالطريق ، فمشينا بخطوات متثاقلة نحو المستشفى . فقد أثْخَنَتْنا الجراح، وفقَدْنا المأوى (البيت)، ونحن فى حاجة إلى علاج، وقبل ذلك كله، كان من الواجب أن أبقى مع هيئة الأطباء . ولكن فيما بعد ، اكتشفت أن بقائى معهم بالمستشفى غير مُجْدٍ ولا منطقى : إذ ما جدْوَاى وأنا مصاب أنزف.

«مشيتُ عشرين أو ثلاثين خطوة ، لكنى توقفت . لم أستطع المزيد . كنت ألْهَث ، فالتنفس قصير صعب، والقلب مضطرب ، وترنَّحَتْ قدماى وعَجزتا عن حَمْلى ، وانتابنى عطش شديد لا يُحْتمل ، فرجَوْت «ييكو - سان» (زوجته) أن تُسعفنى ببعض الماء ؛ ولكن من أين ؟ لا يوجد ماء يُشْرَب ... كنت لا أزال عاريا . ومع ذلك لم أشعر بخجل . فقد كنت مضطربا من إدراك أن التقشف الكامل (لفقدان كل شىء) جفف مشاعرى .

«جلست بالطريق أنْشُد بعض الراحة . فبدأت الأمور والأشياء من حولى تتضح شيئا فشيئا بالتدريج . هاهى أشباح على شكل أُناس بعضهم يبدو فى



الكولونل « تيبتز » - أصبح بعد ذلك جنرالا - قائد الطائرة التى حملت قنبلة هيروشيما وطاقمها يصعد قبيل التحليق وأداء المهمة المروعة ، رافعا ذراعه بالتحية لمودعيه والابتسام على وجهه .

(٥) " Hiroshima Diary : The Journal of a Japanese Phy-

مشيه كالجن المخيفة . وآخـرون يتحركون بخطوات زاحفة مترددة وكأنهم مثل الفزَّاعة (خيال المآتة)(٦)، فأذرعهم مطوَّحة بعيدا عن أجسامهم ومتدلية فى استرخاء. ولقـد أدهشنى منظرهم على هذا النحـو، إلى أن ثاب إلىَّ رشدى، فأدركت أنهم أصيبوا بحروق شديدة، فهم يسيرون على غير هُدى متحاشين أن تلمس أذرعهم أجسـامهم حتى لا تحتـك بها فتـزيد آلامهم المروِّعـة . ثم تبينْت امرأة عارية تحمل طفـلا عاريا، فظننت أنها هاربة كانت فى الحمام. ثم مـر بى رجل عـار تمامـا مثلى، فأيقنتُ أن شيئـا مـا غـريبـا نزع عن الناس مـلابسـهم . ثم اقتربت سيـدة عجـوز وألقت بنفسهـا إلى جـوارى ومـلامح وجههـا تفصح عن آلام شـديدة، لكنها لم تنطق بكلمـة أو صـوت أنين. من المؤكـد أن شيئا واحـدا على الأقل كـان مشتركـا بين كل من رأيت : الصمت المُطْبَق ..

«ثم خَلَتْ الشـوارع إلا من جثث الموتى. بعضهـا فى هيئة مَن تجمـد فجأة حين دَهَمه الموت وهو يفر فـزعا ؛ وبعضهـا طُرح مستلقيا على الأرض كأنما دُكَّ بأثقال ضخام هبطت منقضَّة من السماء.

« لم تَعـد هيروشيما مدينة ، وإنما كـأرض البرارى المحترقة الحشـائش أينما نظرت يمينا أو يسـارا، فكـل شىء ولَّى والأرض منبسطة. وبدا لى كأن الجبال البعيدة اقتربت كثيراً عما كنت أعرفها . ما أصغر هيروشيما وقد خَلَت من مبـانيها وسكانها ومظاهر الحيـاة فيهـا.. العربات المتخلفـة بالطرق بها جثث الموتى والمحـروقين، ومنظر بعضهـا يوحى بأن أصحـابها مـاتوا من الغليـان وهم أحيـاء . رأيت فى حوض مـاء جف رجـلان «مشـويان» يمسك أحدهما بالآخر فى شكل مفزع . كانا يشربان من ماء الحوض المخَضَّب بالدم. وفى حوض كبير آخر رأيت ماهو أبشع : جثث مجمـوعة من الرجال والنساء هلكوا وهم يتدافعون نحو الماء المغلى وبعضـهم كان داخل الحوض لم يستطع الخروج فمات فى مكانه ..

«ما أضعف الإنسان وهشـاشته أمام قُوى التـدمير والنسف ! بعد وقوع

(٦) أو خيـال المقـاثـة (وهى القِثـاء نوع من الخضراوات كـالخيـار) : وهو شكل يُنصب فى الحقل لتخويف وطرد الطيور .

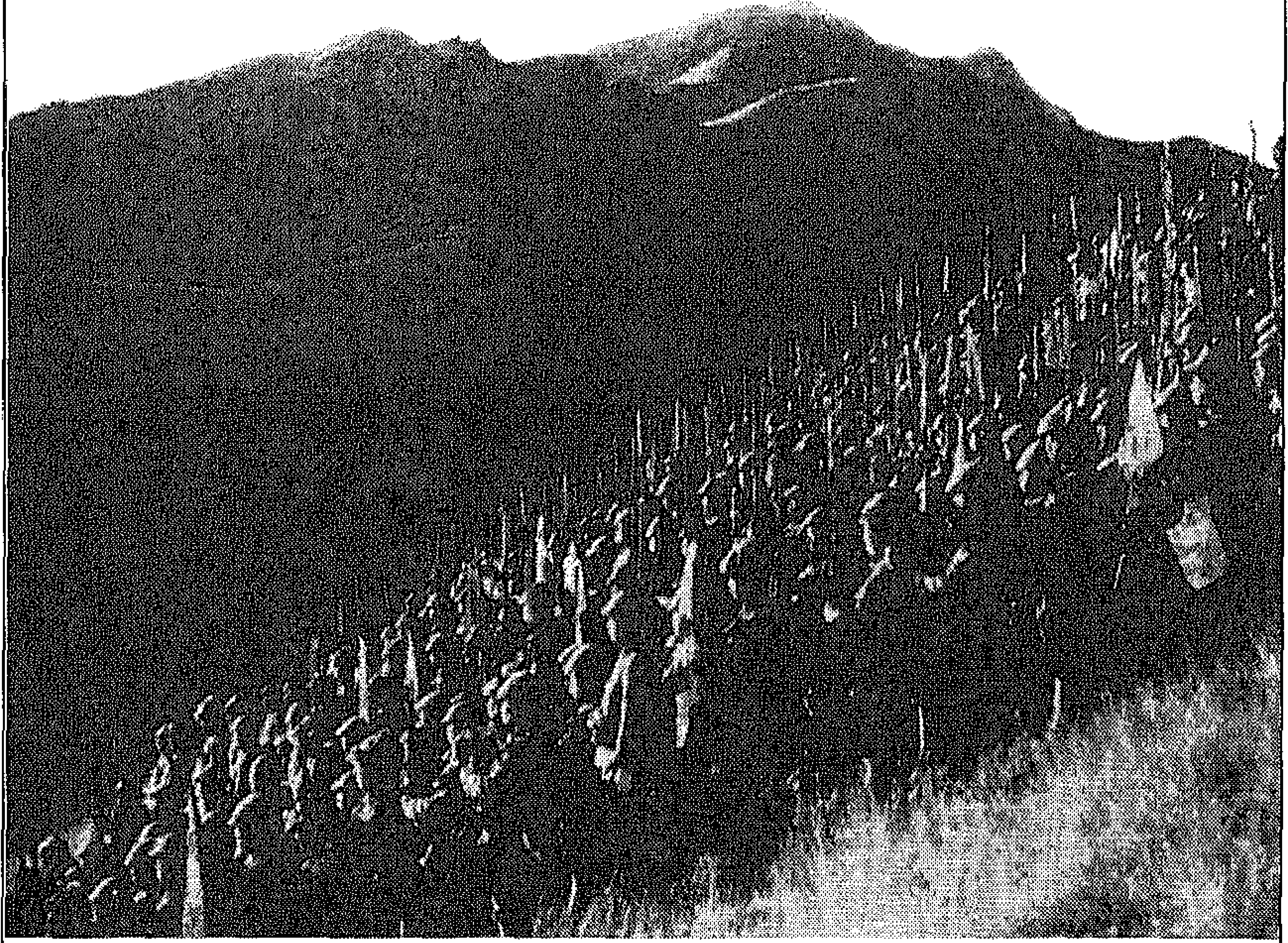
تلك الكارثة، انكمش مجتمع المدينة كله إلى مستوى جماعة من الضعفاء المنكوبين صحيا وذهنيا . وأولئك الذين بقيتْ لديهم قُدرة على المشى، ساروا حيارَى متثاقلين فى صمت نحو الضواحى أو الجبال البعيدة ، نفوسهم منهارة ، وعزيمتهم واهنة ، وإرادتهم محطَّمة. وعندما كان يُسأل أحدهم من أين أتى؟ فإنه كان يشير فى صمت الحزين المقهور اليائس إلى المدينة التى انْمَحت ، أو يقول كلمة ينطقها بصعوبة : «من هذا الطريق»! وهو لا يدرى إلى أين ذاهب. كانوا يتحركون ويمشون كالآلة الصماء . إنهم بقايا شعب محطَّم يَـهْجر مدينة أُزيلت فى لمح البصر ، فلم يَعُد معنى عنده للطريق أمامه ولا للآتى من بعَد . وتفرقوا شَراذِم على غير هُدى : بعضهم ترك نفسه ينقاد (فى مشيه المترنح) لشريط السكة الحديد، وبعضهم مضى مدفوعا بغريزة حب البقاء يخوض الحقول المتفحمة السوداء، فى حين وجد آخرون أنفسهم يتمايلون كالسكارَى وهم يمشون بلا وعى بمحاذاة نُهَيْرٍ جف ماؤه، وكل منهم لا يُدْرك من كيانه ووجوده إلا أنه يَتْبع مسار مَن تَقَدَّمه . وعندما بلغ اليوم الأول نهايته، كان الزمن عندى قد فَقَد فَحْواه ومعناه . إذ لا ساعة فى اليد ، ولا توقيت فى الذهن، ولا تاريخ فى الذاكرة..».

وبعد خمسين سنة، تذاكرتْ اليابان ما حدث لها فى الحرب العالمية الثانية، وتضاربتْ أحكام وآراء وكتابات الناس – من كل الفئات والمستويات – حول ما كان وما لم يَطْمسه النسيان . ودعا أديبهم «كِنْزا بورو» – الحائز على جائزة نوبل – إلى أن تعتذر اليابان لأنها بدأت الحرب، وأن تعتذر الولايات المتحدة الأمريكية لأنها استخدمت بوحشية وسيلة القذف بالقنبلة الذرية .

ومن هنا نُوجز نحن الحديث عن تلك النكبة أو «الجريمة» من طرفيها : اليابانى والأمريكى، على نحو ما أشار «كنْزابورو».

● جرائم الجيش الإمبراطورى

ليس افْتئاتا من الغرب المنتصر على اليابان فى الحرب العالمية الثانية أن ينشر البشائع والشنائع والفظائع التى تبلغ درجة الجرائم اللاأخلاقية



جحافل الجنود اليابانيين فى طريقهم لغزو الصين (سنة ١٩٣٧).

واللاإنسانية التى ارتكبها قادة وجنود الجيش الإمبراطورى فى البلاد التى غزوها واحتلوها فى شرق آسيا من كوريا وشمال الصين حتى سنغافورة جنوبا على امتداد النصف الأول من القرن العشرين. وقد اعتذرت اليابان رسميا عنها علانية فى نهاية القرن بعد خمسين سنة من استسلامها خاضعة ذليلة للجيش الأمريكى وإعلان إمبراطورها «هيروهيتو» اعترافه بالهزيمة فى ١٤ أغسطس سنة ١٩٤٥ فى كلمة له مذاعة بالراديو. ولم يجد المؤرخ اليابانى «يوشْياكى يوشيمى» حرجا من نشر بعض تفاصيل تلك الجرائم بعد اطلاعه على وثائق من الأرشيف الحربى فى بلده، ودعا إلى إعادة كتابة تاريخ اليابان الحديث على ضوء الحقائق والوثائق بلا إبطاء أو إخفاء.

معنى ذلك أنه سَيُبدأ فى كشف النقاب عن مدى مسئولية اليابان عن الوقائع السيئة المفرطة التجاوز والإيذاء للمدنيين الأبرياء منذ أن أعلنت طوكيو ضم فرموزا (تايوان) إلى أراضيها سنة ١٨٩٥، ثم كوريا سنة ١٩١٠، وسيطرتها الكاملة على «دولة منشوريا» التى أنشأتْها اليابان شمال الصين سنة ١٩٣١ كدُمْية تحركها كيف شاءت، ضِمْن حرب اليابان التى أطلقَتْ عليها اسم: «حرب آسيا الكبرى» بين عامى ١٩٣٠ و١٩٤٥. ونكتفى بالإشارة إلى أمثلة من ثلاث وقائع مؤكدة بالوثائق.

* **مذبحة نانكين :**

غـزت اليـابان شمال الصين سنة ١٩٣٧ . وعند وصـول قـوات جيشهـا الامبراطورى إلى مــدينة نـانكين، أطلق قـــادته يد الجنود فى العبـث بالمدينة ونَهْبها ، فكانت حصيلـة الضحايا من قَتْلى المدنيين بين ١٥٠٠٠ و٣٠٠٠٠٠ وفق أقل وأعلى التقديرات ، فى مذابح مروِّعـة بشعة ، تم فيها قتل النساء بعد اغتصابهن ، والرجـال بعد تعذيبهم وتوســلاتهم ، والأطفال الذين دُفن كثير منهم أحياء ، ثم أُحيط بالمدينة وأُضْرِمت فيها النيران . وكـانت مذبحة نانكين هى الوحيـدة التى أُدْرِجَت فى الجرائم التى نظرتْها محكمـة طوكيـو لجرائم الحرب(٧) فى جلسـات خـاصـة منفصلـة ، وأصـدرت حكمهـا على الجنرال «إيوان» بالإعدام لأنه لم يمنع الجنود تحت قيادته من ارتكاب تلك المذابح.

* **مأساة «نساء الترفيه» :**

تُثبت وثائق الأرشيـف الحربى اليـابانـى مسئوليـة الجيش عن تكوين «جيش» من الفتيـات والنسـاء – بعضهـن فى سن ١٢ و١٣ سنة وحتى سن الأربعين – بلغ عددهـن ٢٠٠٠٠٠ معظمهن كوريات والأخريـات آسيويات من البـلاد والمدن التى غزتْها اليابـان، وقد تم جمعهن خَطْفـا وقَسْرا بغرض «الترفيه الجنسى عن الضباط والجنود المحاربين» وذلك فى الفترة بين أواخر سنة ١٩٣٠ وحتى هزيمة اليابان سنة ١٩٤٥ . وقـد اعترفت اليابان رسميا سنة ١٩٩٢ بارتكاب تلـك الجرائم، فتكونت جماعـات فى البـلاد التى نُكِبَت وكـان فيهـا هؤلاء الضحـايا للمطالبـة بتعـويضـات لهن ، ولكن الحكومـة اليـــابانيـــة رفضت، ثم أذعنت، وكتـب عنهن بإسهـــاب المؤرخ اليـــابانى «يوشْيـاكى يوشيمى» فى كتـابـه الذى صـدر سنة ٢٠٠٠ بعنوان : «نســاء

---

(٧) عن جـــرائم الحـرب الأخرى أصـدرت تلك المحكمـة أحكامـا بشنـق سبعـة قـواد ، وستة عشر بالسجن مدى الحياة ، واثنين بالسجن لسنوات أقل .

ونـانكين (أو نـانكينج) فى وسط الصين ، عاصمة إقليم « يانج – تسـو – كيانج » ، ولها شهرتها من قـديم فى صناعة أنواع فـاخرة من النسيج والأقمشـة ومن الخزف الثمين ذى اللونين الأزرق والأبيض ، وبها صناعـــة كبيرة للأدوية . كـانت فى فترات مـن التـاريخ عـاصمـــة للدولة ، وفى ضواحيها مقابر أباطرة أسرة «مينج » .

الترفيـه : الرِّق الجنسى فى العسكرية اليابانيـة فى أثناء الحرب العالمية الثاني»(٨).

*** الوحدة ٧٣١:**

فى الفترة بين سَنَتى ١٩٣٦ و ١٩٤٥ ، وفى منطقـة مجاورة لمدينة «هاربين» فى منشوريا ، عُهِد إلى وحـدة عسكرية يابانية متخصصة – الوحدة ٧٣١ – بقيادة الجنرال «شيرو إيشِيِى» بإجـراء تجارب عن الحرب البكتريولوجيـة (الجرثوميـة) وعمليـات تشريح (فـورى بالقتـل إذا تطلَّب الأمـر) على ثلاثة آلاف شخص مـن المدنيين الصينيين (فى معظمهم). واكتُشِـف أن هذه الوحـدة أُجْرَت تجارب ممـاثلة على مدنيين من منطقـة نانكين بعـد إطلاق جراثيم معَيَّنـة فى خزانات للميـاه وفى آبار للشرب . وعقب انتهـاء الحرب اتفق المحتلون الأمريكيـون مع قـائد الوحـدة – شيرو – على إعفـائـه من الاتهام والمحاكمـة مقـابل إحـاطتهم علما بنتـائج أعمال تلك الوحـدة وتسليمهم وثائقهـا (وهذا الاتفـاق فى ذاته ألا يُعـد جـريمـة ، وستُفْضـى بدورها إلى جرائم أكبر؟!). ولم يكـن غريبا بعـد ذلك، أن عددا كبيرا من مسـاعدى هـذا الجنرال شغل مناصب مـرموقـة فى مصانع الأدوية اليابانية(٩).



« ترومان »

● وجريمة هيروشيما / ناجازاكى

فى ١٨ يونيـو ١٩٤٥ وافق الرئيس الأمريكى «هارى ترومـان» على خطة المرحلة الأولى لغزو اليـابان تحت اسم رمزى : «العمليـة الأوليمبية»، على أن

---

(٨) Comfort Women, Sexuel Slavery in the Japanese Military During World WarII - Yoshiaki Yoshimi .

(٩) تفصيل عمل هذه الوحـدة والاتفـاق المريـب مـع الأمـريكـان فى كتـاب « شيلـدون هـاريس » الصـادر سنة ١٩٩٤ بعنوان : « مصـانع الموت – حـرب اليابانيين البيـولوجيـة بين ١٩٣٢ – ١٩٤٥ والتستر الأمريكى » –
Factories of Death, Japanese Biological Warfare, 1932 - 1945 and The American Cover » . up. -

تبدأ فى أول نوفمبر ١٩٤٥ (بعد استسلام ألمانيا) . واتفقت قيادة جيوش الحلفاء على البرامج الزمنية للهجوم على الجزيرة الرئيسية اليابانية «كيوشو» ، ثم يتْبعها بعد خمسة أشهر الهجوم على جزيرة «هونشو» . وعُهد إلى الجيش السادس الأمريكى بقيادة جنرال «والتر كروجو» بغزو كيوشو، على أن يعاونه كرأس حربة : الفرقة الثانية والثالثة والخامسة من البحرية الأمريكية ، إضافة إلى الفرقة الأولى فرسان . وفى ذلك الوقت ، صدَّق ترومان على قرار بإنزال أكثر من نصف مليون من جنود الحلفاء للاشتراك فى معركة ضارية والاستيلاء على جزيرة «أوكيناوا» اليابانية . وهذه الجزيرة تُعْتبر المدخل الرئيسى إلى اليابان، ولا تَبعد أكثر من ٣٢٥ ميلا جنوب كيوشو.

كانت اليابان حينذاك قد دخَلَتْ مرحلة الهزيمة الحربية ، وتخربت مدنها الكبيرة ، وتوقَّف اقتصادها تماما منذ ربيع ١٩٤٥، لكن قادتها رفضوا بإصرار الاستجابة لمطالب الحلفاء بالاستسلام غير المشروط . وكان وزير الحرب ومعظم الجنرالات اليابانيين يريدون من الشعب أن يقاوم حتى النهاية المؤلمة ، وفى الوقت نفسه كانت القيادات السياسية والشعبية فى أشد القلق على مصير إمبراطورهم الذى يعتبرونه إلهًا ، أو النسل المباشر من إله الشمس . فكان واجبا مُطاعا أن يكون أفراد الشعب كله حتى الموت فى خدمة الإمبراطور وحمايته . والاستسلام بلا قيد أو شرط لا يوفر هذه الحماية . خاصة وأن معظم الشعب الأمريكى كان بتأثير الإعلام الموجَّه والدعايات، يضع الإمبراطور «هيروهيتو» صِنْوًا لهتلر وموسيلينى ، ومسئولا مباشرا عن أعمال اليابان المعادية لمصالح أمريكا . فالدستور اليابانى يجعل الإمبراطور القائد الأعلى للقوات المسلحة . وكان الأمريكيون يتوقعون أن يقف الإمبراطور بنفسه ذات يوم أمام القضاء لمحاكمته على جرائم ضد الإنسانية.

ارتفع شعار : الموت والدمار ولا المذلة والعار ! وكانت قوات اليابان فى تلك الأثناء على درجة عالية من الكفاءة والنظام. وكثيرون من بين ضباط

كانت معارك ضارية برية وبحرية . فى جزيرة « إيوُو جيما » خط الدفاع الأمامى اليابانى (طولها ٩كم × ٤) تمركز ٢٢٠٠٠ جندى يابانى بقيادة الجنرال «كونبْاياشى» على بعد ١٢٠٠كم من طوكيو . فى فبراير ١٩٤٥ بلغ عدد الضحايا فى تلك الجزيرة من الجنود الأمريكيين وحدهم ١٣٩٥ قتيلا و٣١٠٠٠ جريح . وبعدها فى جزيرة أوكيناوا كان الضحايا من اليابانيين ١٣٠٠٠٠ قتيل .



فى الطريق إلى طوكيو وهيروشيما

جنود الجيش كانوا مُصَممين على مواصلة القتال بشجاعة تبلغ حد التهوُّر، وكفاءة لا ينال منها تلاشى الأمل فى نَصْر قريب . فكان الشعور السائد بينهم أن الاستسلام يجلب اللعنة ، وهو فى ميثاق الشرف عند ضباطهم خيانة كاملة (١٠). ومن هنا ، يتخذ «البعض» هذه الروح العنيدة الجَسُور السائدة بين اليابانيين المقاتلين مبررا لقرار ترومان بضرب اليابان بالقنبلة الذرية. وهل يُلام شعب أو يُعَاقَبُ بوحشية لأنه يدافع عن أرضه وشرفه ووطنه بضراوة حتى الموت ؟!

ثم يضيف هؤلاء «المبررون» ، هذه الحادثة لكى تَسْتَدِر المشاعر الإنسانية الرحيمة : فعندما وقَعَت الهزيمة بالجيش اليابانى فى معركة «سيبان» فى الفترة بين ١٥ يونيو و٩ يوليو ١٩٤٤ ، فَضَّل عدد كبير من الضباط والجنود اليابانيين مع آلاف من السكان المدنيين وأطفالهم أن يموتوا بالانتحار على الاستسلام لأعدائهم . ويَزْعمون أن العسكريين اليابانيين أَطْلقوا إشاعة وضَخَّموها بأن الأمريكان برابرة همجيون ، وهُم يَعذِّبون ويَغْتصبون ، ثم يقتلون كل رجل وامرأة وطفل يقع فى الأَسْر . ومن أَجْل ذلك يكون من الأفضل لليابانيين أن يختاروا النار على العار، فيقتلوا أنفسهم بأنفسهم فى شجاعة وكرامة ، بدلا من أن يقتلهم أعداؤهم الغزاة بإذلال ومهانة . وقليلون أولئك الذين سَلَّموا أنفسهم وأسلحتهم للأمريكيين، بل يُقال إن القناصة اليابانيين حاولوا قتل المدنيين الذين سلموا أنفسهم. وفى النهاية : بلغ عدد الذين أَلْقَوْا السلاح واستسلموا للأمريكيين من جنود جزيرة «سيبان» ألف جندى فقط من ٢٩ ألفا كانوا بالجزيرة!

وفى يونيو ١٩٤٥ ، عندما صَدَرت موافقة الرئيس الأمريكى ترومان على غزو الجزر اليابانية الرئيسية ، كانت معركة أوكيناوا التى استغرقت اثنين وثمانين يوما أشبه بكارثة لكثرة ما سال فيها من دماء . فلما انْجلت المعركة فى ٢٩ يوليو، كان عدد الضحايا ١١٠ آلاف جندى قتيل من اليابانيين، و١١

(١٠) من الطريف ذى الدلالة : أن آخر جندى يابانى استسلم وألقى سلاحه ، كان فى ١٠ مارس سنة ١٩٧٢، بعد اختفائه وحيدا داخل غابات الفيليبين الكثيفة لمدة ٢٩ سنة وهو يجهل أن الحرب قد انتهت !!

ألفا استسلموا، ومن القتلى المدنيين ما بين ١٢٠ – ١٥٠ ألف شخص . أى أن عدد الذين قُتلوا فى معركة واحدة أكثر من عدد القتلى فى هيروشيما وناجازاكى، فى حين بلغ عدد القتلى من الجنود الأمريكيين نحو خمسين ألفا ؛ فكان أكبر عدد من الضحايا على الإطلاق فى الاستيلاء على جزيرة . ولكن، يجب عدم إغفال أن آثار قنبلتَىْ هيروشيما وناجازاكى أبعد مَدًى وأعظم خطرا من مجرد القتل والتدمير الفورى، وإن كان قَتْل المدنيين الجماعى لا تُبرر وحشيته ، ولا يمكن الدفاع عن لا إنسانيته .

ولم يكن خافيا أن المقاتلين اليابانيين استخدموا – فى غضب جامح طائح – أشد أسلحة الفتك المتاحة لديهم ضد الغزاة الأمريكيين، تلك التى أدهشت العالم : الكاميكاز، أو الانقضاض الانتحارى . فقد أباحت العسكرية اليابانية – فى معركة اليأس – تكوين «فرقة القَصْف الخاصة» من طيارين فدائيين متطوعين ، يُضَحون بأنفسهم وطائراتهم المحملة بالقنابل بالانقضاض على السفن الحربية – وأحيانا التجارية – الأمريكية . ومعنى كلمة «كاميكاز» : الريح المقدسة . وهذا الاسم أطلقه اليابانيون لأول مرة فى المعارك على عاصفة شديدة هَبَّت على أسطول للمغول كان قادما لغزو شواطئ اليابان فى القرن الثالث عشر فحطَّمَتْه .

خلال غزو أوكيناوا الذى استمر ثلاثة أشهر ، أغارت أكثر من ألف وخمسمائة طائرة كاميكاز على الأمريكيين . فلما وضَعَت الحرب أَوْزارها، كان الكاميكاز وحدهم قد أغرقوا أربعا وثلاثين سفينة ، وأتلفوا نحو مائتين وتسعين سفنية أخرى، وقتلوا أكثر من خمسة آلاف أمريكى فى ألفين ومائتين وسبع وخمسين طَلْعة جوية، كانت آخرها فى ١٥ أغسطس، أى بعد يوم من إعلان استسلام اليابان . ولم يكن هناك عَجْز مُطْلقا أو نُضوب فى أعداد المتطوعين لأداء هذه المهمة الانتحارية.

كان درس الدفاع المميت عن أوكيناوا فى غاية الوضوح: فكلما ازداد اقتراب الأعداء (أمريكا وحلفاؤها) نحو عُمق الأراضى اليابانية، كلما زاد حماس اليابانيين وإصرارهم على الدفاع حتى الموت . والسؤال : هل هذا يُعاب ؟؟ لكن المحللين العسكريين الأمريكيين عكفوا على دراسة الموقف

بالأرقام : إذا كانت اليابان قـررت التضحية بمائة وعشرة آلاف من جنودها ومثلهم أو أكثـر (ربما الضِّعف) من المدنيين دفـاعـا عن جـزيرة، فما الذى يحدث عند غزو جـزيرتهم الرئيسية الكبرى ؟ إن اليـابان كانت لا تزال تملك من جنود الاحتيـاط مليونين بأسلحـة بسيطة وذخائـر محدودة، لكن آلاف طائرات الكاميكاز تظل جاهزة للانقضـاض الانتحارى . وهى لم تَعُد تهاجم السفن الحربية الأمريكية والمدنية فقط، بل أضافت هدفا جديدا هو الطائرات القاذفة الأمريكية. فكأنما فدائيـا يابانيا واحدا يموت بطائرته الصغيرة يُهْلِك أحد عشر أمـريكيا وطائـرتهم الضخمة . إن جنود أمـريكا المجهزين لمعـركة غزو كيـوشـو - أكبر الجزر - وعددهم مـائة وتسعون ألفـا، يُتَوَقع أن يَهْلك منهم أو يصـاب تسعة وستـون ألفـا على الأقل فى بداية الغزو، ثم يمـوت أو يصاب عشرات الآلاف بعد ذلك كلما تَقدم الغـزو فى عمق الأراضى اليابانية . لم يَعُـد هناك شك فى أن مقاومـة اليابانيين الضـارية ودفاعهم عن هونشـو مدعاة للتفكير جيدا مَثْنى وثلاث ورُباع . وحَدَّدت المخـابرات اليابانية موعد الغـزو الأمـريكى القـادم بأنه فى أول نوفمبر . ثـم أصـابت فى تقـديرها بأن الهجـوم الرئيسى سيكون على كيوشـو. وقاربت الصـواب كثيرا فى معرفـة الشـواطئ التى اختارتها القيـادة العسكرية الأمريكية لإنزال جنودها . وبناء على ذلك جَهَّزت دفاعاتها القوية.

كانت خطتها التى أعدتْها لمواجهة هذا الغزو المرتَقَب (وأطلقَتْ عليها اسم: عملية الحسم Ketsu - go) ترتكز على تكثيف كل الجهود لسحق الأمريكان بمجرد نزولهم على الشواطئ . وجهزوا لهذه العمليـة مليونى جندى لمعركة كيوشو وحدها ، يَدْعمهم عدة مـلايين من احتياطى الجيش والبحرية، فضلا عن ثمانيـة وعشرين مليـونا من الرجـال المدنيين (من سن ١٥ إلى ٦٠ سنة) والنسـاء (من سن ١٧ إلى ٤٥ سنة) ، استعـدوا جميعـا لمقـاتلة الغـزاة على الأرض. وخصصوا ثُلُثـا (٢/٣) طائـرات السلاح الجوى اليـابانى (نحـو خمسة آلاف طائرة) لتحويلها إلى مقاتلات انقضاضية (كاميكاز) فى موجات متـلاحقـة . وتسلح المدنيـون - رجالا ونسـاء - بكل سـلاح متـاح، حتى بالسهام ، والحراب ، والـرماح، وقذائف اللهـب التقليدية القديمـة . ورفَعَتْ اليابان شعارات حماسية منها : «كلما أسرع اليـانكى (الأمريكيون) بالقُدُوم

كلما كان أفضل»، «مائة مليون لا يهابون الموت بشجاعة وفخر» (١١).

فى ٢١ يوليو ١٩٤٥ وجَّهت الولايات المتحدة تحذيرا عامًّا إلى اليابان عبر الإذاعة (الراديو) بأنها إذا لم تَقْبَل السلام الذى ترتضيه أمريكا فإنها سوف تواجه تدميرا شاملا. وبعد خمسة أيام أصدر الحلفاء «إعلان بوتْسدام» الذى يدعو القوات المسلحة اليابانية إلى الاستسلام بدون قَيد أو شَرط مع وَعْد بعدم استرقاق الشعب اليابانى. ولم يُشر الإعلان بشىء إلى الإمبراطور «هيروهيتو» . فرفضت اليابان هذا الإنذار فى ٢٩ يوليو. فكانت قنبلة هيروشيما بعد أسبوع من الرفض، وأعقبتها بعد ثلاثة أيام قنبلة ناجازاكى الذرية الثانية فى تاريخ الحرب النووية .

● وهل كان قرارا صائبا ؟!

أول مرة علم فيها الرئيس الأمريكى ترومان شيئا عن نجاح تجربة اختبار صلاحية وقوة القنبلة الذرية فى قاعدة «ألاموجوردو» الأمريكية، كان فى ١٦ يوليو ١٩٤٥. ثم تلقَّى تقريرا مفصلا فى ٢١ يوليو (كان سَلَفه روزفلت يخفى عن نائبه ترومان أمر هذا السلاح الذرى). فأصبح بين يديه حرية الاختيار بين استخدام تلك القنبلة بلا خسائر فى أرواح الجنود الأمريكيين، وعدم استخدامها مع التوقعات فى الخسائر التى أشرنا إليها آنفا. وكانت الأرقام تشير إلى أن مائتين وستين ألف جندى أمريكى تقريبا قُتلوا بالمعارك الأوروبية والمحيط الهادئ (الباسفيك) حتى ذلك الوقت ، وأكثر من ستمائة ألف جُرِحوا . فهل يختار إذن الحل الذرى تجنبا لإزهاق أرواح مئات آلاف آخرين ؟ يقول مؤيدوه: كان من الممكن تَجَنب هذا القرار ، ولكن ماذا يتوقع من رد فعل الأمريكيين إزاء الكوارث والخسائر المحتَملة فى أرواح أبنائهم، ثم يعلمون بعد ذلك أن أمريكا كانت تملك سلاحا متفوقا كان باستطاعته إنقاذ أرواح الجنود الأمريكيين؟

(١١) كان تعداد اليابان فى أغسطس ١٩٤٥ نحو ٧٩ مليونا . والمرجح أن عددا كبيرا من هؤلاء المدنيين الذين أُعِدوا لدعم الجيش بالقتال فى كل مكان على أرض كيوشو بأسلحة بسيطة كان مصيرهم الهلاك لا محالة . وحتى لو أن المدنيين لم يقاتلوا ، فإن تجربه أوكيناوا التى هلك فيها عشرات الآلاف من المدنيين وأيضا معارك الفيلبين الطاحنة ، تؤكدأن الكثيرين منهم سوف يُقتلون عند غزو الجزيرة الكبرى . وفى فبراير من ذلك العام قُتل أكثر من مائة ألف من السكان المدنيين فى معركة انتزاع مانيلا (عاصمة الفيليبين) من أيدى الجيش اليابانى المحتل .

CHOISIT LA BOMBE



« اختار القنبلة » .. الرئيس الأمريكى ترومان يعلن فى إذاعة على الشعب والعالم مبررات قراره باستخدام سلاح القنبلة الذرية .

لا يزال إلى الآن خلاف كبير فى الرأى حول ما إذا كان استخدام القنبلة الذرية فى حرب اليابان ضرورة حتمية . لأن البعض يؤكد – وهذا هو الأرجح – أن اليابان كانت على وشك الاعتراف بالهزيمة والاستسلام، وأن الدبلوماسية اليابانية كانت تمهد لذلك عن طريق اتصالات تمت بالفعل مع روسيا السوفيتية (التى لم تكن أعلنت بعد الحرب على اليابان) ولكن أمريكا تجاهلت هذا المسْعَى .

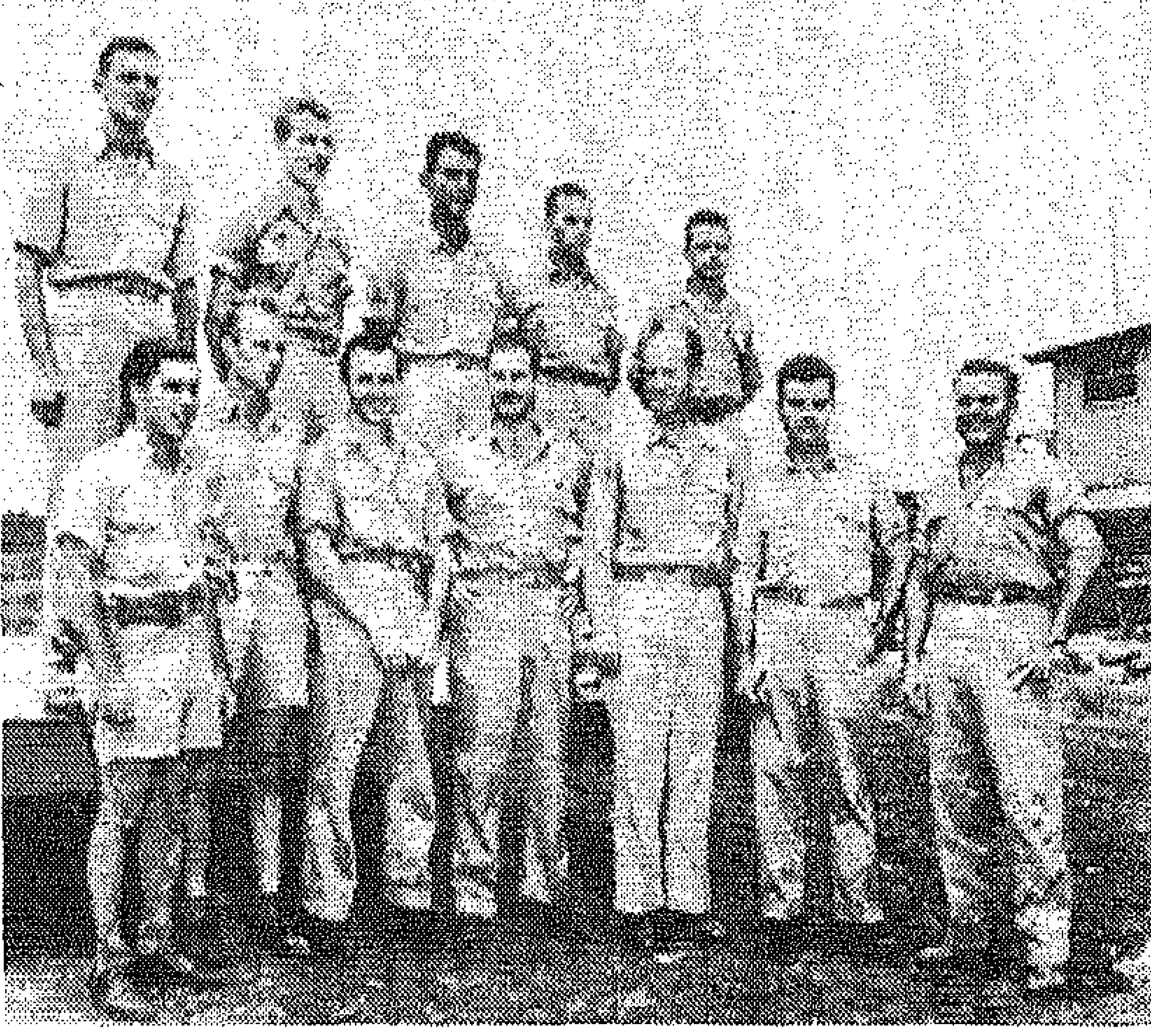
فيردُّ عليهم مؤيدو الخيار النووى بأن محاولات التمهيد للاستسلام من جانب اليابان لم تكن واضحة المعالم. وفى الوقت نفسه، كان بعض القادة العسكريين من الحلفاء والأمريكيين يروْن أن اليابان كانت على حافة الانهيار، ولم يكن هناك من ضرورة عاجلة للانقضاض عليها فى غزو شامل أو تدمير ذَرى . ومن بين أصحاب هذا الرأى : الأدميرال «ويليام هالسى» قائد البارجة «ميسورى» التى تم فوقها توقيع ممثلى اليابان والإمبراطور على وثيقة الاستسلام بحضور القائد المنتصر «ماك آرثر» ، وكذلك الأدميرال الأمريكى أيضا «إرنست كنج» ، والأدميرال «ويليام ليهى». وقد صرح هؤلاء بأن استخدام السلاح الذرى نوع من الوحشية الهمجية ضد السكان المدنيين. ومن رأى الأميرال «كنج» – وكان القائد العام للبحرية الأمريكية – أن حصار اليابان كان سيؤدى إلى إصابة الشعب بالمجاعة ويدفعه إلى

الاستسلام. فـردَّ عليه الآخَرون بقـولهم : إن المجاعـة موت وحشى بطىء ، وكان الشعب اليابانى يعانى منه بالفعل.

وسأل المعـارضـون لاستخدام السـلاح الذرى: ولماذا لم يَصْـدر تحذير واضح صريح من جـانب الـولايات المتحـدة يشير إلى استخـدام تلك القنبلة وخطر آثارهـا ؟ فيأتيهم الرد مـن أنصـار الردع الذرى ، بـأن ذلك لم يكن مُبـاحا لأسبـاب ثلاثة :لاحتمال فشل تفجير القنبلة – وهى تُستخدم عمليـا لأول مرة – وهذا الفشل يسىء إلى هيبة أمريكا الظافرة فى الحرب ولها مآرب عالمية بعدها ؛ وثانيا : لاحتمال أن تسارع اليابان بحشد أسرى الحرب لديها من الجنود الأمـريكيين والحلفـاء فى المواقـع المحـددة لإلقـاء القنبلة (وقنبلة ناجـازاكى)؛ وثالثـا : حتى لا تتمكن اليابان من إصـابة الطائـرة التى تحمل القنبلة وهى فى طريقها نحو الهدف .

وأضاف غيرهم سببيْن آخريْن : أن الروس كانوا على وشك إعلان الحرب على اليـابان (وهو مـا حـدث فى اليوم التـالى لإلقـاء القنبلة على هيروشيما) . ولهذا ، فإن ترومـــان كـان – فى تصـور هؤلاء – يريـد من وراء استخـدام السلاح الذرى تحذيـر الروس والحد من أطماع ستالين فى اليابـان، وبالتالى من اتساع نفوذه النَّهِم فى شرق آسيا . ثم سبب ثانٍ عجيب عسير على الإقناع: هو أن المؤسسة العسكرية الأمـريكية والعلماء العـاملين تحت مظلتها أرادوا أن يبرروا (أو كما يقـول العـــامـة : يحللوا) مبلـغ المليـارى دولار (٢٠٠٠ مليـون) الذى أُنفق على البحوث والتجـارب الذرية، ويُبْطلوا حُجـة – أو على الأقل يخففـوا من معـارضة – القـادة العسكريين وعلماء الذرة الآخـرين – ومنهم «ألبرت أينشتين » – الذين كـانوا يعـارضـون بشـدة استخـدام هذا السلاح اللاإنسانى الرهيب.

وسؤال أخير لعله يوضح ويُنير : هل كان اليابانيون من جانبهم يسرعون الخُطى نحـــو إنتـــاج قنبلتهم الذريـة ؟ لا دليل . ولكن فى كتـــاب «الشمس المشرقـة» الحائز على جـائـزة «بولتزر» عـام ١٩٧٠ ، يشير مـؤلفه «جـون تولاند» إلى أن رائد علماء الذرة اليابانيين «يوشيو نوشينا» ذهب مع وفد من العلماء اليابانيين فى اليوم التالى لـلانفجار (أى ٧ أغسطس) وصرح مؤكدا أن مـا حـدث هو نتيجـة قنبلة يورانيـــوم مشـابهة لتلك «التى كـان على وشك إتمامها».



طاقم الطائرة التى ألقت القنبلة الذرية على هيروشيما يعودون - فى الصورة - إلى قاعدتهم فى جزيرة « تينيان » التى استولوا عليها من اليابانيين ، وعلى وجوههم علامات الابتسام والرضا بعد ضرب مدينة كان يسكنها ٣٣٠٠٠٠ يابانى (مدنيون وعسكريون) بقنبلة واحدة صغيرة تعادل عند تفجيرها طاقة ٢٢٠٠٠ طن من مادة T. N. T.



طوكيو دُمرت واحترقت ، وهيروشيما سُحقت وأُبيدت ، فكانت صدمة مذهلة للشباب قبل الكبار ، مع الحزن الشديد على بلدهم وإمبراطورهم وجيشهم ، فخرج الناجون منهم هائمين على وجوههم بلا أمل ولا هدف ، مثل هؤلاء الفتيات الباكيات النازحات .

إغـــراق « لوزيتانيا »

إذا كـانت رصـاصتـان اثنتـان من مسـدس الشـاب الصربى المتعصب «جـافْريلو برينْسيب» اغتـالتا «فـرانز فرديناند» ولى عهـد النمسا – المجـر وزوجتـه «صوفى» (فى ٢٨ يونيـو ١٩١٤)، فأشعلتـا نيران الحرب العالميـة الأولى، فإن طوربيـدا واحـدا من غـواصـة ألمانية كـان كـافيـا لحَسْم تردد الولايات المتحدة الأمريكية وحَفْزها على اتخاذ قرار بالاشتراك فى تلك الحرب مع بريطانيا والحلفاء ضد الألمان والمحور .

التاريخ : حول الثانية بعد ظُهر يوم ٧ مايو ١٩١٥ ..

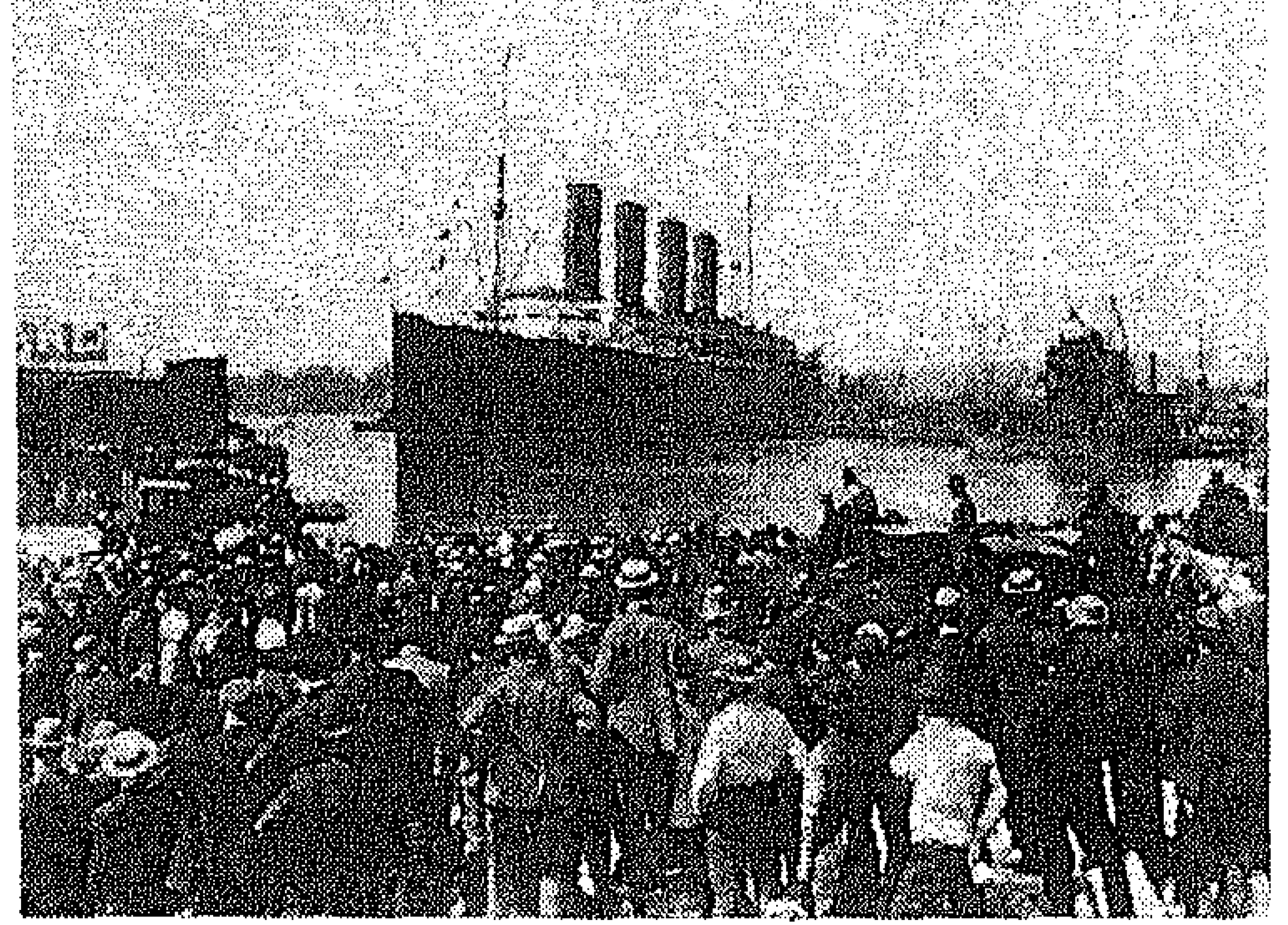
المكان : فى بحـر «السِّلْت» على مسـافـة ١٣ ميـلا من «رأْس كينْسيل» بأيرلندا .

الخسـائر : ١١٩٥ مسـافرا (إضـافة إلى طاقم سفينة الركـاب الفاخـرة العمـلاقـة «لوزيتـانيـا») معظمهم من البريطـانيين، ومن بينهم ١٢٣ من الأمـريكيين، والسفينة نفسها التى قُـدِّر ثمنها آنذاك بعشرة مـلايين دولار ، وكانت تزن ٣١٩٥٠ طنا .

● **السفينة** : الباخرة الفاخرة

كـان من حظ «لوزيتانيـا» أنها وُلِدت ولادة عَسرة ! فقـد بدأَت مشكلاتها منذ صـدور تكليف من البحـرية البريطـانيـة إلى المصمم «ليـونارد بِسْكِت» بمراعـاة مطالب محددة: أن تكون أسرع سفينة بخارية تجوب بحـار العالم، وتحمل ألفين من الركاب، بالإضافـة إلى طاقمها المكون من ثمانمائة شخص،

وتَصِل سرعتهــا إلى أربع وعشرين عُقْــدة (١)، وآلاتها المحركة الضخمة بقوة ٦٨٠٠٠ حصان، وأن تكون العنابر الأربع لغلاياتها الكبيرة تتسع لخمس وعشرين غلاية . وزاد الأمـر تعقيدا ، أن يُطلب مـن المصمم وضْع عنابـر المحـركــات والغلايـات جميعها تحت مستوى سطـح البحر فى حَيِّز متوسط ضيق (٨٨ × ٧٦٠ قدما) لتوفير مساحـة كافية على طول الجانبين لمقصورات الركـاب. وعَـجَز التصميم عن تخصيص مساحة مناسبة كافية لمواد الوقود ، ومنها ٦٠٠٠ طن من الفحم ، تكفى لتزويد «لوزيتـانيا» بالطاقة اللازمة لسفرها من ليفـربول فى بريطانيا إلى مدينة نيويورك الأمريكية أو بالعكس.



باخــرة الركــاب الفـاخـرة الضخمـة «لوزيتانيـا » تغادر ميناء نيـويورك أول مــايو ١٩١٥ فى أول رحلة لها .

اضطر المصمم أن يُـحَوِّل غُرف ضغط الماء المعادِل – بطول السفينة – إلى مخازن الفحم ، وهو مـا تـرفضـه تمامـا صناعـة سفـن اليـوم . وأضـاف «ليـونارد» فوق «شَـدَّة» – سقف – عنبر توليـد الطاقـة غير المستقر ، ستـة أسطح عالية متراكبة ، جعلتْ السفينة أطول باخرة فوق مياه البحار ارتفاعا . ولما كانت نُذُر الحرب العظمى تلُوح فى الأفق ، فقـد زُودت «لوزيتانيا» باثنى عشر مدفعا بعد الفـراغ من بنائها وتجهيزها فى ١٢ مايو ١٩١٣ . وفى الرابع من أغسطس، أعلنت بريطانيا الحرب على ألمانيا . وبعد شهر واحد ، سُـجِّلت «لوزيتانيا» على أنها طَرَّادة(٢) معاوِنَة . ومع ذلك ، سُمِح لها بنقل الركاب !

● المأساة

فى تلك الرحلة التَّعِسة ، من نيويورك إلى ليفـربول، كانت «لوزيتانيا» تكاد تكون مُتْخمـة بالمحظـورات التى تحملهـا فى جـوفهـا وعلى ظهـرها، وهى تستضيف عـددا كبيرا من الركـاب . فمثلا : كـان بها ١٢٤٨ صندوقـا تزن واحــدا وخمسين طنا من القنابل شـديدة الانفجـار ، و١٦٣٩ سبيكة من النحـاس، ٧٨ صندوقا من أسيـاخ النحـاس الأصفر ، ٤٩٢٧ صندوقـا بها

(١) العقدة أو الميل البحرى = ١٨٥٣,٢ مترا / الساعة .
(٢) سفينة حربية سريعة .

خرطوشات طلقات رصـــاص (بكل صندوق ١٠٠٠ رصاصة) وزنها عشرة أطنان . باختصار : كان بيان (مانيفسْت) محتويات السفينة يتكون من أربع وعشرين صفحة ، واحدة منها فقط تحمل التصريح بسفر الركاب !



٧ مـايو ١٩١٥ : الباخـرة الفاخـرة «لوزيتـانيـا » تغـرق فى البحـر الأيرلندى على أثر إصابتها بطوربيد ألمانى ، وقـائـدها « تيرنر » - أعلى الصـورة - الذى اتُّهم بالـرعـونة ومخالفة تعليمات التحـذير والبعد عن نطاق الغواصات الألمانية .

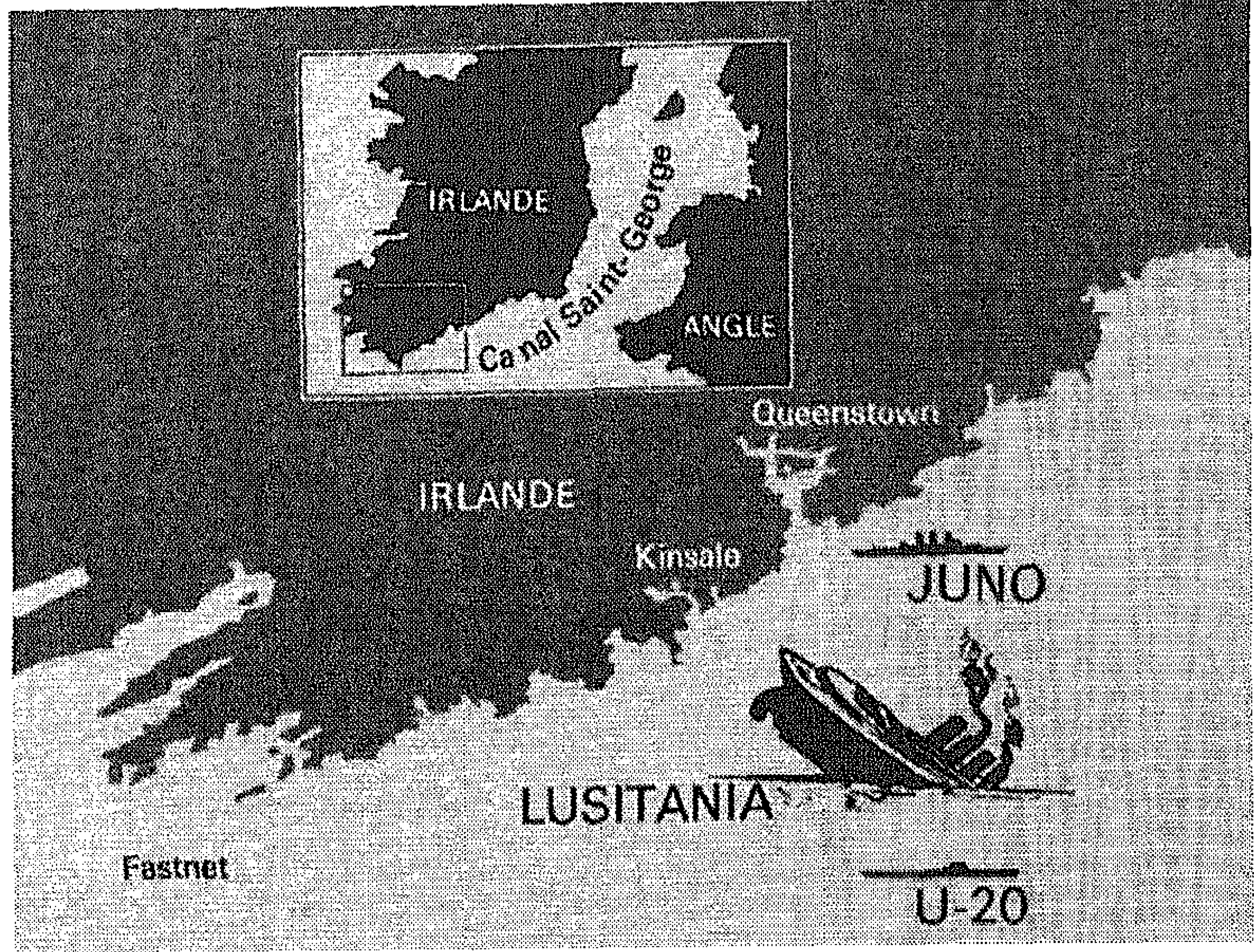
عندما أشرق صباح يوم السابع من مـايو سنة ١٩١٥، كانت «لوزيتانيا» المحمَّلة بالأثقـال الحربيـة والبضائع والركـاب تقترب من شـاطئ أيرلندا . وتوقع قبطانها كـابتن «ويليـام تيرْنر» سرعـة وصـول سفينة الحراسـة الحربية «جونو» لمرافقته حتى نهاية الرحلة . ولم يكن يعلم أن إدارة البحرية ألغَتْ قبل يومين مهمـة سفينة الحراسة . ولم يكـن يَدْرى أنه فى تلك الساعـة كـانت سفينتـه العملاقـة التى «تَـمْخُر عُبـاب»(٣) البحر بنصـف سرعتها،

(٣) تَمخر (بضم الخاء) : تشُق الماء بصوت عال . والعُبـاب (بضم العين) : أمواج البحر المتلاطمة الصاخبة .

تقترب من منطقة (حقل) غواصات حربية ألمانية تتوارَى تحت السطح . وفى اليوم السابق مباشرة (٦ مايو) أطلقت تلك الغواصات طوربيداتها على سفن بريطانية أغرقت وأتلفت بعضها . ولهذا السبب ، تلقَّى نائب رئيس البحرية البريطانية «شارلز كوك» أمرا لتبليغه إلى جميع السفن بتلك المنطقة أو القادمة إليها بعدم المبادرة بالرد على الغواصات الألمانية بقصد الانتقام أو الثأر ، والامتناع عن إرسال أية رسائل لاسلكية حتى لا تلتقطها غواصات العدو .

لكن هذا النائب « المبجَّل » خالف تلك الأوامر الصارمة، فأبلغ كابتن «تيرنر» تحذيرا فى الساعة السابعة صباح ٧ مايو – باتصال لاسلكى – أن شاطئ جنوب أيرلندا يشهد نشاطا متزايدا للغواصات الألمانية . ومع ذلك ، لم يؤثِّر هذا الاتصال على مسار «لوزيتانيا» ، إذ لم يحاول «تيرنر» الانحراف بها بعيدا عن الأخطار ، إلا أنه أبلغ الركاب بتوقُّع مصاعب ، وأصدر أمرا بإبطاء سرعة السفينة . وفى الساعة الحادية عشرة ودقيقتين، من صباح ذلك اليوم، أبلغ نائب رئيس البحرية «شارلز كوك» لاسلكيا رسالة مشفَّرة من اثنتى عشرة كلمة تأْمر سفينة السَّحْب (القاطرة) «هِلْزبونْت» بالتوجه فى الحال إلى مقر قيادته فى ميناء «كوينْز تاون» . فالتقط كابتن «تيرنر» تلك الرسالة، وقرر أن يتوجه بسفينته إلى هذا الميناء الذى يبعد عن موقعه بخمسة وعشرين ميلا . وفيما بعد ، أنكرتْ البحرية البريطانية إرسال هذه الرسالة المشفَّرة ، ولكن عُثر على نسخة صحيحة لها فى محطة «فالنتيا» البحرية.

كل ذلك كان من حُسن حظ «والتر شفَيْجَر» قائد الغواصة الألمانية «U -20» . فقط التقط مبتهجا تلك الرسائل اللاسلكية ، فتضاعف سروره واغتباطه . وهو مسرور مغتبط لأنه أنجز قدرا كبيرا من النجاح فى تدمير وإصابة سفن بريطانية كثيرة بالقرب من «كوينْز تاون» . وهاهو على وشك الرحيل والعودة إلى ألمانيا، ولم يبق لديه سوى ثلاثة طوربيدات ، فإذا به يتلقى هذا «الصيد» الثمين ! فأسرع بتغيير مساره ، ليتجه نحو «لوزيتانيا».







أعلى : موقع غرق « لوزيتانيا » بين الطرادة الحربية البريطانية «جونو» والغواصة المعادية الألمانية « U - 20 ».
في الوسط : الغواصة الألمانية « U - 20» قاذفة الطوربيدات ، وقائدها (إلى اليمين) « والتر » .

الساعة : ٢,١٠ ظهرا..

أطلق «والتر» طوربيدا سدَّده نحو مقدَّم «لوزيتانيا» . ومن أعلى السفينة ، أَبْصر «تيرنر» الطوربيد المتسارع نحوه من مسافة ٧٠٠ متر . ثم دَوَّى صوت انفجار هائل . أصيبت الباخرة ، فمالت خمس عشرة درجة . ثم دوَّى

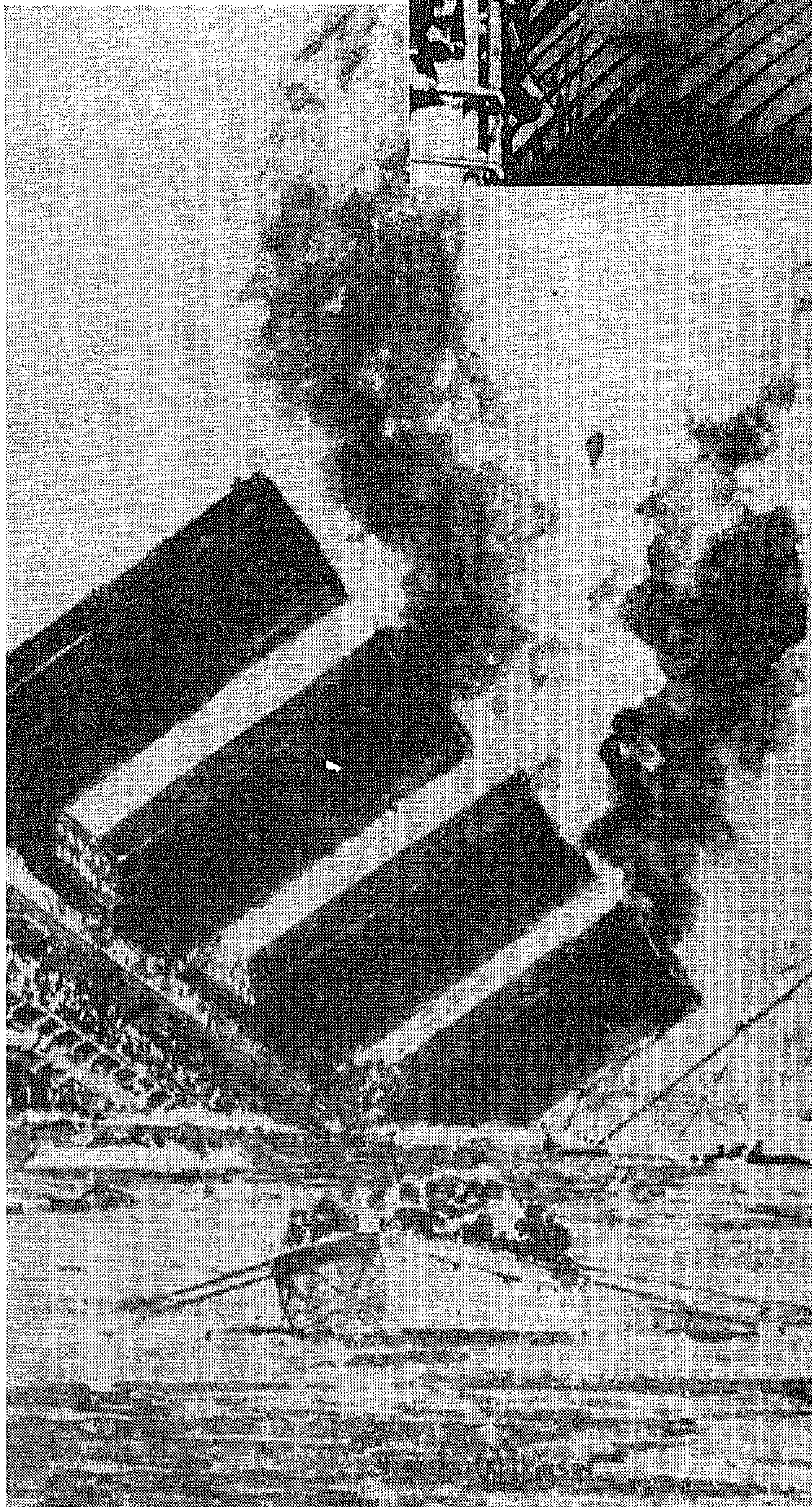
انفجار ثانٍ ، أشد صوتا من الأول، تطاير على أثره الجسر العُلوى ، وانفصل مؤخرها وسقط فى الماء. ثم شيئا فشيئا أخذت تنزلق بجانبها الأيمن نحو القاع .

عندما أقلعت «لوزيتانيا» من نيويورك، كان ينقصها عدد من البحارة المدرَّبين جيدا والفنيين. وعندما وقعتْ الكارثة ، لم يكن بها عدد كاف من البحارة الأكْفاء القادرين على سرعة إعداد قوارب الإنقاذ الثمانية والأربعين، سعة سبعين راكبا لكل منها . فحدث هَرْج شديد ومَرْج فى فوضى عارمة ضاغطة ، حيث لا وقت للنجاة، ولا وسيلة للإنقاذ ، ولا شىء يبعث الأمل .. وقوارب النفخ المطاطية مع أطواق النجاة محشورة تحت اثنين وعشرين زورقا خشبيا زنتها عدة أطنان ، ويستحيل زحزحتها بعد أن مالت السفينة بجانبها نحو الماء وتزداد ميلا . وارتطم عدد من المسافرين المذعورين بهيكل السفينة المترنحة ، وتطاير بعضهم إلى البحر مع عدد من القوارب. وفى النهاية ، كانت المحصلة : نجاة ٧٦٤ فقط ممن كانوا بالسفينة الفاخرة التى هَوَتْ نحو قاع البحر لتستقر على عمق ثلاثمائة قدم . ولم يستغرق ضربها وإغراقها أكثر من خمس عشرة دقيقة!

● بعد الكارثة

جَرَى تحقيق حول الحادث فى لندن ، وآخر فى الولايات المتحدة ، وثالث فى مقر الشركة البحرية التى تملك السفينة . فكان مثيرا للدهشة ، أن البيان الرسمى (المانيفسْت) الخاص بحمولة السفينة ومَن عليها ، كان مختلفا فى كل هذه المواقع الثلاثة . بل إنه ظَهر بيان رابع لها ، عثَر عليه الرئيس الأمريكى «فرانكلين روزفلت» بين أوراق الرئيس الراحل «وودرو ويلسون» وهو نسخة مطابقة للبيان (المانيفسْت» الذى كان مع وثائق «لوزيتانيا» وغرق معها ، ومغاير لها ! وكان هو الوحيد الذى أثبت أن السفينة كانت مسلَّحة.

وكشفت التحقيقات الدقيقة أنه بينما أطلقت الغواصة الألمانية طوربيدا واحدا أحدث صوتا مدوِّيا ، فإنه سُمِع على ظهر السفينة دَوِىُّ انفجارين



فى خلال ١٨ دقيقة فقط
كانت « لوزيتانيا » فى
قاع البحر . وظهر من
التحقيق بعد الكارثة
أن تلك السفينة
الضخمة الفاخرة
(تكلفت سنة ١٩١٤
نحو عشرة ملايين
دولار أمريكى ،
وسرعتها من ١٤ إلى
٢٤ عقدة وقد تحمل
أكثر من ثلاثة آلاف
راكب) لم يكن بها
سوى ٤٨ قاربا للإنقاذ
لعدد ١٩٥٩ مسافرا
بالإضافة إلى طاقمها
نحو ثمانمائة ! ولم
يكن إنزال تلك
القوارب إلى البحر
سهلا وسريعا (فى
الصورة العليا) .

متعاقبين . بل إن الثانى كان أشــد ضـجيجا من الأول . فكيف كان ذلك ؟ قال الخبراء : ربما كان الصوت الثانى نتيجة اشتعال الذخائر المخزَّنة بعد انفجار الغـلايات الضخمـة . وجاء فى تفسير لخبراء آخـرين : أن الطوربيـد أصــاب بعنف مخازن الفحم التى كانت شبه خاوية مع اقتراب نهاية رحلة السفينة ، فكانت تلك المخـازن معبَّأة بغبـار الفحم المتطاير، وهو شـديد الحسـاسيـة للاشتعال والفرقَعة ، فلما أصابه شرر أحدث دَوِيًّ انفجار هائل .

لكن المأساة لم تَـخْلُ من «لمســة» إنسانية فطْرية . فقـد كُشف النقاب فى ألمانيا بعـد الحرب عن سلوك واحد — على الأقل — من بحارة الغـواصة «U -20» ويدَعى : «شارل فوجل» ، الذى رفض — بإصرار — أن يشترك فى إطلاق الطوربيد على «لوزيتـانيا» وكان مكلَّفـا بإشعاله . إنه بذلك قد خـالف الأمر الصادر إليه أثناء المعركة الحربية . فقُدم للمحاكمة العسكرية . وكان دفاعه، وهو صحيح : أنه يرفض إطـلاق النار على سفينة تحمل نســاء وأطفـالا من المدنيين. فحُكم عليه بالسجن ثلاث سنوات !

ومن جانبها ، أعلنت ألمانيا أنها حـذَّرت المسافرين من ركوب السفينة قبل رحلتها . وبعـد غرقها عرضت ألمانيـا دفع تعويضات للضحـايا الأمريكيين فقط . لكن أمريكا اتخذت قرار إعلان الحرب على ألمانيا.

فرنســا والجزائــر

الاستعمار فى ذاته جريمة .. كما أن الاحتلال خطيئة ..

والكلمة فى ذاتها من كلمات الأضداد. فهى فى المعنــى العام من أصل كلمة «عَمَــر» الأرض أى حفظها ورعــاها وأثمرها ونمّاها ؛ وفى المعنى السيــاسى يُقصد بها الغصب والغَـزْو والاحتلال والاستغـلال السيئ لخيراتها وأهلها وما عليهــا . وبلاء الاستعمار السياســى فى القرن العشرين مــرذول ممقوت مروِّع ، وخاصة فى أفــريقيا وآسيا والشرق الأوسط. وتكفى الإشارة هنا إلى مثال أو اثنين.

● صور من الجزائر :

لم يكن الإرهاب والتعــذيب فى الجزائــر – وفى غيرها من المستعمــرات الفرنسية – شكلا من «الانحراف الشــاذ» أوالمصادفة العابرة فى غمار حرب لتثبيت الاستعمار . لكنه كان «صيغة» لسلوك إرادى متعَمَّد فــرضتْه فرنسا على الجزائر . وستظل تذكره الأجيال فى اشمئزاز ودهشة مفزعة . ولابد من الاعتراف بأن التعذيب مصــاحب دائما للاستعمار. وقد كان التعـذيب خلال حرب التحرير الجزائرية حقيقة تاريخية مروِّعة .

كانت الجزائـر مرتكزا للتناقضــات الاستعمارية : فبينما كانت السلطات الرسمية للجمهورية الفرنسية بالجزائر تحاول – ولو شكلا – إجراء بعض «الإصلاحات» التى تفيد المواطنين الأصليين ، كـان هناك أكثر من مليون من

صـورة تاريخية من المكتبـة الوطنيـة الفـرنسية . وهى لوحـة رسمها ضـابط بعد معركـة (أو مذبحة) الاستيـلاء على مدينة «مسكرا » وكانت من معاقل الأمير المجـاهد الشجاع « عبد القادر الجزائرى » .

بدأ جيش الاستعمار الفـرنسى فى محاصرتها ومهـاجمتهـا فى الخامس من ديسمبر ١٨٣٥ بقيادة المارشـال « كلوسل » ، ودافع عنها فـرنسان ومقاتلون جزائـريون بواسل من الاذين شهد لهم الغـزاة والمؤرخـون بأنهم « من المنتصرين دائما » . واستمـرت المعركـة ثلاثة أيام بلياليها قَتَل الجزائريون فيهـا عددا كبيرا من الفرنسيين . لكن هؤلاء كـانوا أكثر عـددا وأحدث سلاحـا وعَدة ، فكانت لهم الـغَلبـة ، وقد ساعـدهم اليهود الذين كـانوا مقيمين – آمنين – بالمدينة . وفى النهاية ، استولى الفـرنسيون المستعمرون على جميع النساء والأطفال وأخذوهم غنيمة ، ثم أضرموا النار فى المدينة ، فظلت مشتعلة حتى صـارت رمـادا وأطلالا متفحمـة . وجـاء فى نـص رواية عن الواقعـة ذكـرها أحـد الجنود الذين ارتكبوها : « وضع الفرنسان (الفرنسيون) نساء وأطفالا فوق خيـولهم ، بل إن بعض الشـواذ حملـوا فـوق أكتـافهم أو فى سلالهم»! (١)

(1) " Les cavaliers mettaient des femmes et des enfants sur leurs chevaux, les fantassins meme portaient des enfants sur leurs e'paules et sur leurs Sacs " .

PRISE DE MASCARA.

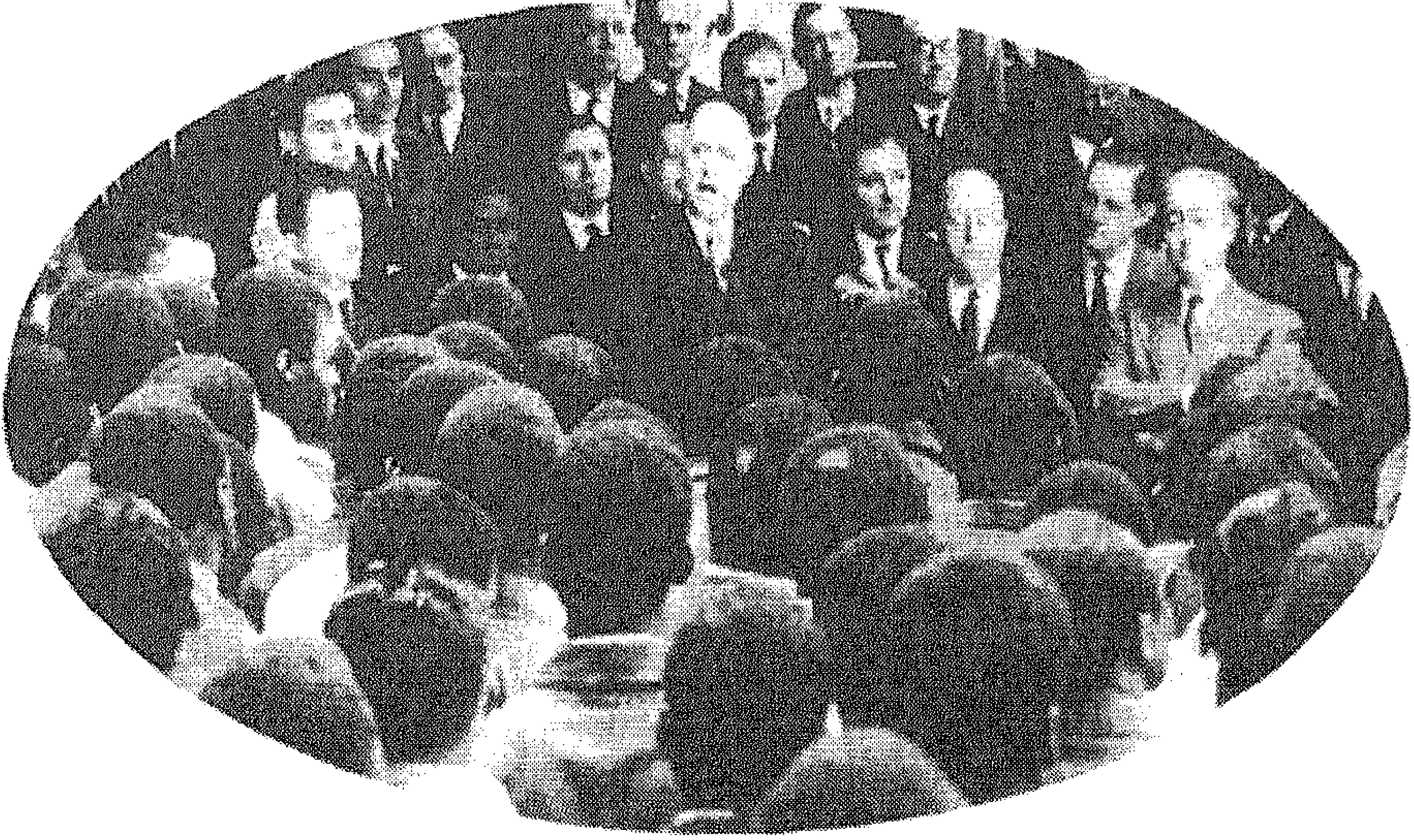


المستوطنين الفرنسيين يعارضون بكل السبل تلك الإصلاحات خشية أن تؤدى إلى نهضة عرب الجزائر . فكان التناقض واضحا بين ما تقوله قيادات الاستعمار وتُعلنه على الملأ ، وبين ما يَحدث فى الواقع العملى التطبيقى . وفى حين كانت الشعارات الزائفة تصرخ بالمساواة ، كان الواقع يؤكد ويعَمِّق اللامساواة بين المواطنين الوطنيين - وهم الأغلبية الكاثرة - والمستوطنين الوافدين وهم القلة المتعصبة المناوئة للإصلاحات السياسية والاقتصادية والتعليمية والقضائية للجزائريين . فلما أعلن «دوجول» سنة ١٩٥٨ برنامجه الإنمائى للجزائر ، كان الوقت متأخرا . وأيقن المواطنون الجزائريون أن كل ما تزعمه الجمهورية الفرنسية الاستعمارية إنما هو نوع من الخداع والأوهام . وهو فى مجموعه العام يَدَّعى إقامة «مستعمرات نموذجية» ، ولكنه فى حقيقة أمره صادر عن عقيدة فحواها «أن الجزائر مقاطعة فرنسية»، ويجب أن تظل فى قبضة المستعمر وتحت سيطرته ».

أرادت فرنسا أن تُوهم العالم بأنها ستنفذ مشروعات إصلاحية فى مجالات الحياة الجزائرية المختلفة (كالصحة والتعليم والاقتصاد ..) حرصا على تدعيم «التوازن» الاجتماعى والانسجام بين كل الطوائف والفئات، وتجاهلت أن هُوَّة الانقسام تتسع بين المستعْمِرين والمستعْمَرين .

وفى أثناء حرب التحرير الجزائرية (١٩٥٤ - ١٩٦٢) كان أسلوب التعذيب الجسدى متواصلا وبشكل جماعى ، وتجاوز أعضاء جماعات التحرير إلى المواطنين والكتل الجماهيرية . ولا يُنكر أحد من المسئولين الفرنسيين - وكذلك المؤرخين - أن التعذيب المنظَّم كان فى الجزائر متَّبعا منذ بداية الاستعمار فى العهد الملكى سنة ١٨٣٠ وحتى استقلال الجزائر عن فرنسا فى يوليو سنة ١٩٦٢ ، وكان يشتد ويضعف من مرحلة لأخرى . وهو أسلوب التعذيب نفسه الذى كان يطبقه الاستعمار الفرنسى فى داكار (السنغال) ، وتاناناريف (مدغشقر) ، والرباط (المغرب) وفى تونس، وفيتنام.

كانت عقلية الاستعمار الفرنسى - مثل غيرها من الدول الاستعمارية



الرئيس الفرنسى « دو جول » فى زيارة للمستعمرات الفرنسية الأفريقية ليرى بنفسه ويسمع قبل اتخاذه قرارا بإعطائها حرية الاختيار بين الاستقلال أو استمرار التبعية لفرنسا . فكان فى ذلك حكيما شجاعا بعيد النظرة .

وآخرهم فى نهاية القرن إسرائيل – تستبيح الإرهاب والتعذيب القاسى على أنه دفاع عن الأمن والحقوق الاستعمارية المكتَسَبَة ، وترى فى أولئك الذين يقاومون الاستقرار عناصر مُضْجِرة مفسِدة مقْلِقة لابد أن تُجْتَث حتى لا تتفاقم عدواها فى المجتمع، أو تهدد النظام الاجتماعى. فكانت السياسة الإجرامية المتَّبَعَة تؤْمن بأن الواجب يقتضى «قَمع هذه الفئة من المواطنين المشاغبين بلا رحمة أو هوادة باعتبارهم خارجين على القانون».

فى أوائل الثلاثينيات من القرن العشرين كانت جرأة من صحافى فرنسى يدعى : «أندريه فيوللى» كان فى صحبة وزير المستعمرات الفرنسى «بول رينو» وزار بعض سجون المستعمرات، أن يكتب فيقول فى كتاب له صدر سنة ١٩٣٥ : «هناك تعذيب نستطيع أن نسميه من النوع التقليدى (الكلاسيكى) : كالحرمان من الطعام إلا من كمية ضئيلة لا تتجاوز ثلاثين جراما من الأرز فى اليوم، والضرب بأنبوب معدنى (ماسورة) على الأكتاف وباطن القدم، ووضْع كماشات قابضة على جانبى الجمجمة لإبراز العينين من مِحْجريهما ، والتعليق للمعذَّب بعارضة خشبية ورأسه يتدلى إلى أسفل بارتفاع بضعة سنتيمترات عن سطح الأرض، والضغط الجسدى داخل

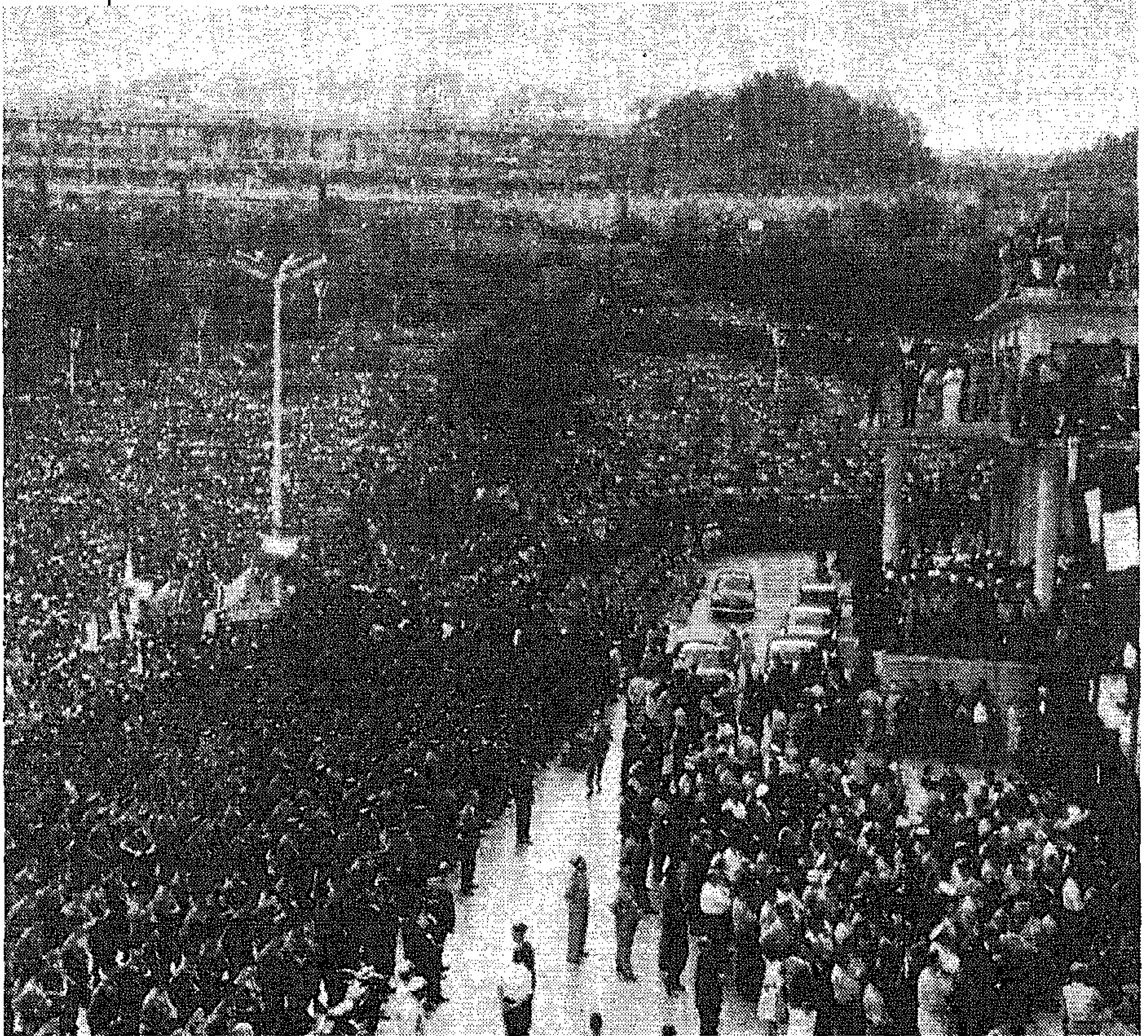
ضـاغطة خشبيـــة ، والجلوس لسـاعـات فى أحـواض أو خـــزانات ممتلئة بالبترول، وغَـرْز دبـابيس تحت الأظافـر ، ومَنْع شرب الماء وخـــاصـــة عن المعـذَّبين الـذين يصرخـون من العطش لإصـــابتهم بالتهـــابات وحُمى من التعذيب ». هكذا وصَف الكاتب التعذيب الكلاسيكى الذى شاهده.

أما «المستحـدث» فقد وصَفه بقـوله بأنه : «التعذيب الكهـربى ، وتنفيذه كـالآتى وفقـا للتعليمات الرسميـة المكتـوبة : اربـط طرف سلك من الحديد بالذراع أو الساق ، واربـط طرفه الآخر بالعضــو التناسلى، ثم صِلْ به سلكا آخر من الحديد يمتد إلى مصدر كهربى..».

وفى سنة ١٩٤٥ تحررت فرنسا - بمساعـدة الحلفاء - من عذاب وإذلال الاحتلال الألمانى، لكنها تناست ذلك وعادت تمارس سيـاستها وأساليبها فى التعذيب على نحـو أشد من أجْل استعادة سلطانها المعهـود فى المستعمرات ، بعد أن بدا لها أن الشعـوب تيقظت بعد الحرب العـالمية الثـانية ، وتطلعت إلى الحرية والاستقلال . وقد بلغتْ ذروة الضغط والقهـر فى الجزائر . وفى مقال نشر سنة ١٩٥٣ للمحـامى الفـرنسى «ستيب» الـذى كـان يدافع عن بعض المعـذَّبين قال : « صـارت أســاليب التعـذيب الدمـوية منتظمـة وتلقائيـة فى المستعمرات الفرنسية مثل مدغشقر، والجزائر ، وتونس، وإن ظلت مجهولة محجـوبة عن الرأى العـام ، ولم تُسبب أيةّ مشكلة للسيـاســة الاستعمارية، حيث كـــانت تُطَبَّـق على المتهمين الذين لا يُدْلون بـاعترافـــات للشرطة وهم يتعرضـون لأبشع أنواع التعذيب . وفى غمرة هذه الممارسات المظلمة الظالمة ، كانت الشرطة الاستعمارية تلقَى مؤازرة من الجيش الفرنسى».

وفى باريس ، كانت «مذبحة» للجزائـريين فى قلب العاصمة الفرنسية يوم ١٧ أكتوبر سنة ١٩٦١ ، حيث خرج آلاف من الجزائـريين المقيمين فى فرنسا بمظاهرة سلميــة - فى تلك الليلة - وليـس معهم أسلحـة . فـأطبقت عليهم الشرطة، وظلت تطاردهم بالعصِّى فى الشوارع التى تفرقوا فيها ، وفى البيوت التى لجأوا إليهـا . وأظهرت الصور التى التُقِطـت للمعركة قسـوة المطاردة ، والضحـايا الذيـن تُركـوا تنزف دمـاؤهم حتـى الموت فى الشــوارع وفـوق

الأرصفة ، وآخرون قُذِفوا أحياء فى نهر السين، وكُسرت جماجم بعضهم عَمْدا بالمطارق. كانت الوحشية على أشدها . ومات نحو خمسين من المقبوض عليهم بمراكز الشرطة ، إذ تُركوا مكدسين بجروحهم تنزف بلا إسعاف حتى الموت. ولم تُفلح شكاوى قُدِّمت ضد رجال الشرطة ، بل رُفضت جميعها بحجة عدم وجود دليل . ولم يتقدم أحد من المارة للشهادة - وكثير منهم كانوا خارجين من دور السينيما - وكأنهم لم يَرَوا شيئا ولم يسمعوا ضجة وصراخا ! وكانت الحصيلة : أربعمائة قتيل جزائرى فى ليلة واحدة حتى الفجر ! وفى الحق ، يرجع تاريخ الوحشية الاستعمارية وجرائمها إلى زمن بعيد .



زار الرئيس « دو جول » الجزائر سنة ١٩٥٨ للاستطلاع . وفى يوليو ١٩٦٢ وافق على إجراء استفتاء عام فى فرنسا والجزائر فأظهرت الأغلبية أنها تؤيد حق الجزائريين فى الاستقلال . ولم يرض عن ذلك فئة من العسكريين المقيمين بالجزائر بقيادة الجنرال « ماسو » فتجمعوا فى مظاهرة عسكرية (كما فى الصورة) وكأنه عصيان وتمرد . ولكن « دو جول » كان حازما شجاعا ولم يعبأ بهم وعزل قادتهم ومضى فى تحقيق إرادة الشعب الجزائرى .

● بداية استعمارية مروِّعة

عندما قرر الملك الفرنسى شارل العاشر (فى سنة ١٨٣٠) غزو الجزائر، أرسل إليها جيشا كبيرا فى أسطول حربى، بحجة رد الإهانة التى لحقت بفرنسا بعد ادعاء أن حاكم الجزائر الداى «حسين» صفع قنصل فرنسا على وجهه حين سمع منه كلاما لم يعجبه. وحقيقة الأمر أن فرنسا أرادت آنذاك أن تضع قدما راسخة فى الشمال الأفريقى قبل انجلترا، لتستفيد من خيراته، وتوسع مناطق نفوذها، وتزيد من عظمتها ومكانتها بين الدول.



آلاف الجزائريين المقيمين فى فرنسا ومعهم فرنسيون فى مظاهرة طافت بشوارع باريس فى أكتوبر ١٩٦١ فتصدت لهم الشرطة بالضرب والأسلحة النارية فسقط ضحايا كثيرون.

وبعد إخماد الثورة التى قادها الأمير المجاهد الكبير «عبد القادر الجزائرى» (من سنة ١٨٣٢ - ١٨٤٧ وتوفى سنة ١٨٨٣)، الذى جمع القبائل لصد الغزو الفرنسى، أرسلت فرنسا الجنرال «توماس بوجو» حاكما لتلك المستعمرة الجديدة. فبدأ عهده بالمذابح، وتهجير كتل بشرية ضخمة من مواقعها إلى مناطق متفرقة، وخطْف واغتصاب النساء والأطفال، واعتقال الرجال كرهائن، ونَهْب الحقول والماشية، وتدمير المحاصيل وأشجار الفاكهة والزيتون. واستمر هذا الأسلوب متَّبعا كلما ضاق الجزائريون بإرهاب وجبروت الفرنسيين ومظالمهم. ثم تلقَّى الحكام المستعمرون وضباطهم وجلادوهم أوسمة ونياشين من ملوك فرنسا (شارل، لوى - فيليب - لوى بونابرت) مكافأة لهم وتقديرا لأعمالهم.

فى تلك الحِقْبة، كتب «ألكسى دو توكفيل»(١) يبرر تلك الجرائم البشعة بقوله: «أسمع أحيانا من أشخاص أُكِنُّ لهم الاحترام لكن لا أوافقهم الرأى، كلاما يعيبون به حرق المحاصيل، والاستيلاء على مخزون الصوامع، ومهاجمة أو اعتقال أشخاص (جزائريين) غير مسلحين، ونساء وأطفال. إن هذا كله فى تقديرى ضرورة حتمية وإن كانت مزعجة مؤلمة. وما من شعب حارب العرب إلا وجد نفسه مضطرا إلى الإخضاع والقهر. وأعتقد أن قانون الحرب يعطينا الحق فى الإتلاف والتخريب، ولزام علينا أن نفعل ذلك، سواء

---

(١) Charles Alexis Tocqueville (١٨٠٥ - ١٨٥٩): كاتب سياسى فرنسى له مؤلفات كثيرة.

بتدمير المحاصيل الزراعية إبان موسم الحصاد، أو بالإغارة السريعة المباغتة فى أى وقت، وتتضمن الاستيلاء على أشخاص وقطعان ماشية، حتى يسود الاستقرار والأمن».



دوق «أورليان» فى زيارة تفتيشية بالجزائر سنة ١٨٥٥ وخلفه كوكبة من الرفسان العرب يتزعمهم «يوسف». (لوحة محفوظة بمتحف شانْتِيِّى الفرنسى).

ويضيف الكاتب «بيير مونتانيون» فى كتابه «فتح الجزائر» الصادر فى سنة ١٩٨٦ متسائلا عن عدد هؤلاء الأشخاص الذين تم الاستيلاء عليهم من الرجال والنساء والأطفال فى الفترة التى تحدث عنها «توكفيل» فيقول: «نصف مليون؟ مليون؟ إن الحقيقة تتراوح بين هذين الرقمين؛ وأقل من ذلك يعنى تصغير واقع تاريخى صحيح مؤلم مروِّع» ونضيف: كان عدد الجزائريين الوطنيين العرب آنذاك - حسب الإحصاء الفرنسى - نحو ثلاثة ملايين!

● البحث عن أم .. وأب

وهذه واقعة تاريخية أخرى، صحيحة مؤلمة مروعة (تذكِّرنا بما حدث من جرائم للمجاهدة الجزائرية «جميلة بوحريد» وآلاف غيرها، تفجرتْ قصتها إعلاميا فى العام الأخير من القرن العشرين، وفيها إشارة - بسيطة! - إلى ما اقترفه الاستعمار الفرنسى فى سنوات حرب التحرير.

«محمد جارْن»: جزائرى المولد، فرنسى الجنسية «بحق» الجريمة! عمره أربعون سنة (فى سنة ٢٠٠٠)، جاء مولده ثمرة اغتصاب عدد - غير معروف - من الجنود الفرنسيين لأمه الفتاة الصغيرة فى أثناء حرب التحرير.

فى أغسطس ١٩٥٩، أمر القائد الفرنسى الجبار المختال الجنرال «شال» بقذفٍ مكثَّف لمنطقة سكنية قريبة من مدينة الجزائر العاصمة. ففرت الفتاة «خَيْرة» خائفة مذعورة. كانت فى الخامسة عشرة من عمرها. وظلت هائمة

على وجهها حتى أدركها التعب ، فـاختبأت عند شجرة متفحمة من نيران القذائف . جلست متهالكة مُرْعَبـة تبكى. فلمحها جنود من جيش الجمهورية الفرنسيـة «الباسلـة المتحضرة صاحبة شعـار الحرية والإخـاء والمساواة». فأمسكوا بها ، واقتـادوها معهم إلى معسكر الضحـايـا المشردين فى «ثِنْيـة العهـد» الذى يبعد سبعين كيلو مترا إلى الجنوب الغـربى من مدينة الجزائـر، حيث كان يعيش أكثـر من ألف جزائـرى – رجالا ونسـاء – فى ظروف بالغة القسوة والشظف والصعوبة (٢).

وهنا بدأت حيـاة الجحيم بالنسبـة لخيْرة . أُخضعت قسرا للاغتصاب عشرات ومئات المرات. وحَمَلتْ. فلما رأى الجنود الزبانيـة ظهور الحمل عليهـا، قـرروا إجهـاضهـا بالعنف: بالضرب، والركْل، والإغـراق المتكرر فى خـزانات الميـاه، وبالصـدمـات الكهـربيـة. وتشـاء الأقـدار – لإخـزائهم وفضحهم وقـادتهم وجمهـوريتهم المتحضرة – أن تفشل كـل هذه المحـاولات فى التعـذيب والترويع. فوضعت «خَيرة» جنينهـا فى ١٩ أبريل ١٩٦٠ وأسمتْه «محمـدا» . فاختطفوه منهـا بأمـر من السلطة العسكرية وأسلمـوه إلى مُـرضعة . وبعـد عام (٢٩ مـايو ١٩٦١) أُرسل محمد إلى مستشفى القديس سيبريان القريبة من الجزائـر لأنه كـان مصـابا بكسر فى الجمجمـة، وفقـدان النوم، والإعـراض الكامل عن التغذيـة. ولم تُتَّهم المرضعة التى كان فى رعـايتها ، فـأَمْره عندهم أهون من البحث فى أسباب تلك الجريمة .



لوحة لرسـام فرنسى فى أوائل القرن العشرين عن شـارع ضيق بحـى القصبـة القـديم بمـدينة الجزائر.

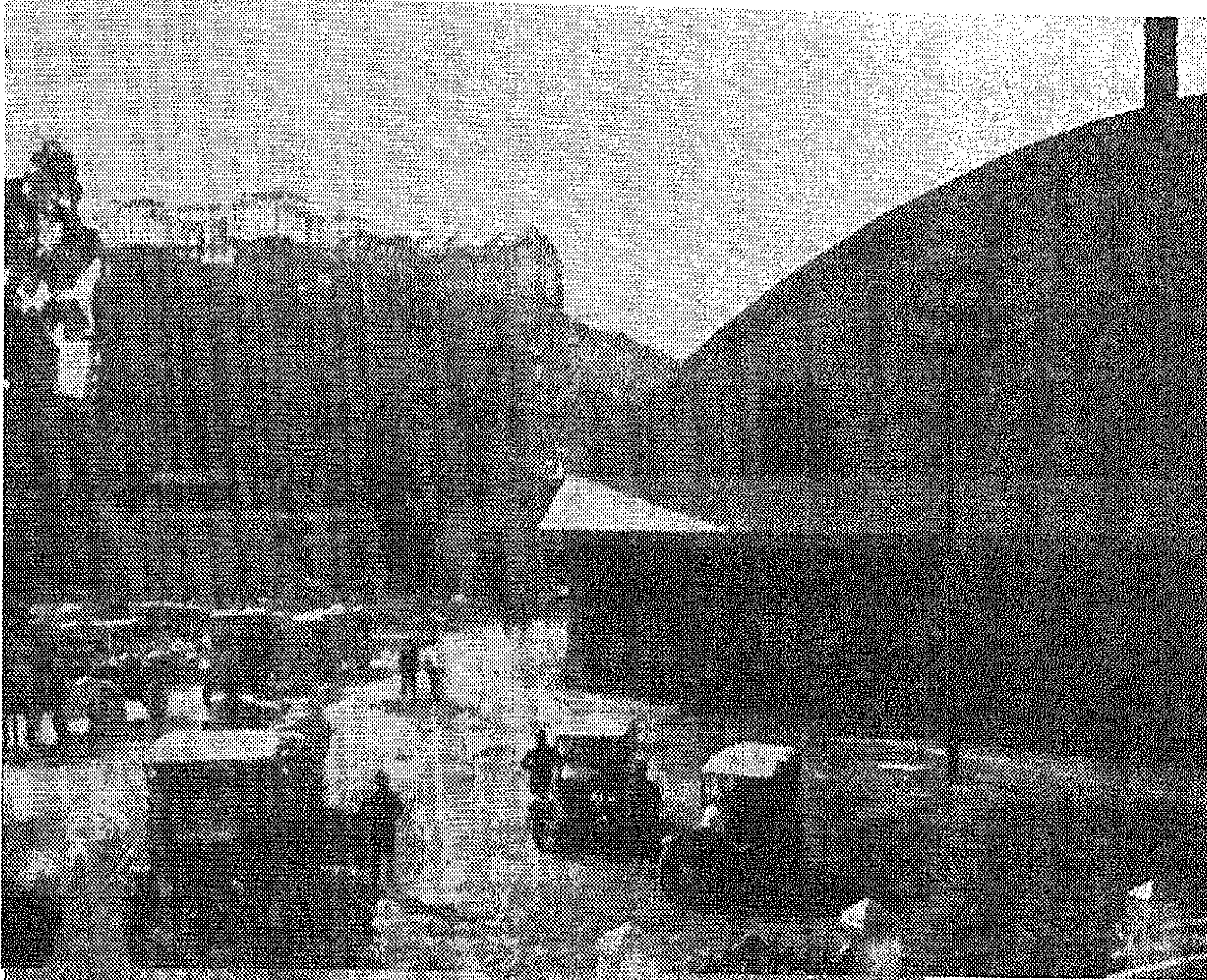
بعد سبعة عشر يوما من العـلاج، عُهد بالطفل إلى أسرة حاضنة . فظل فى

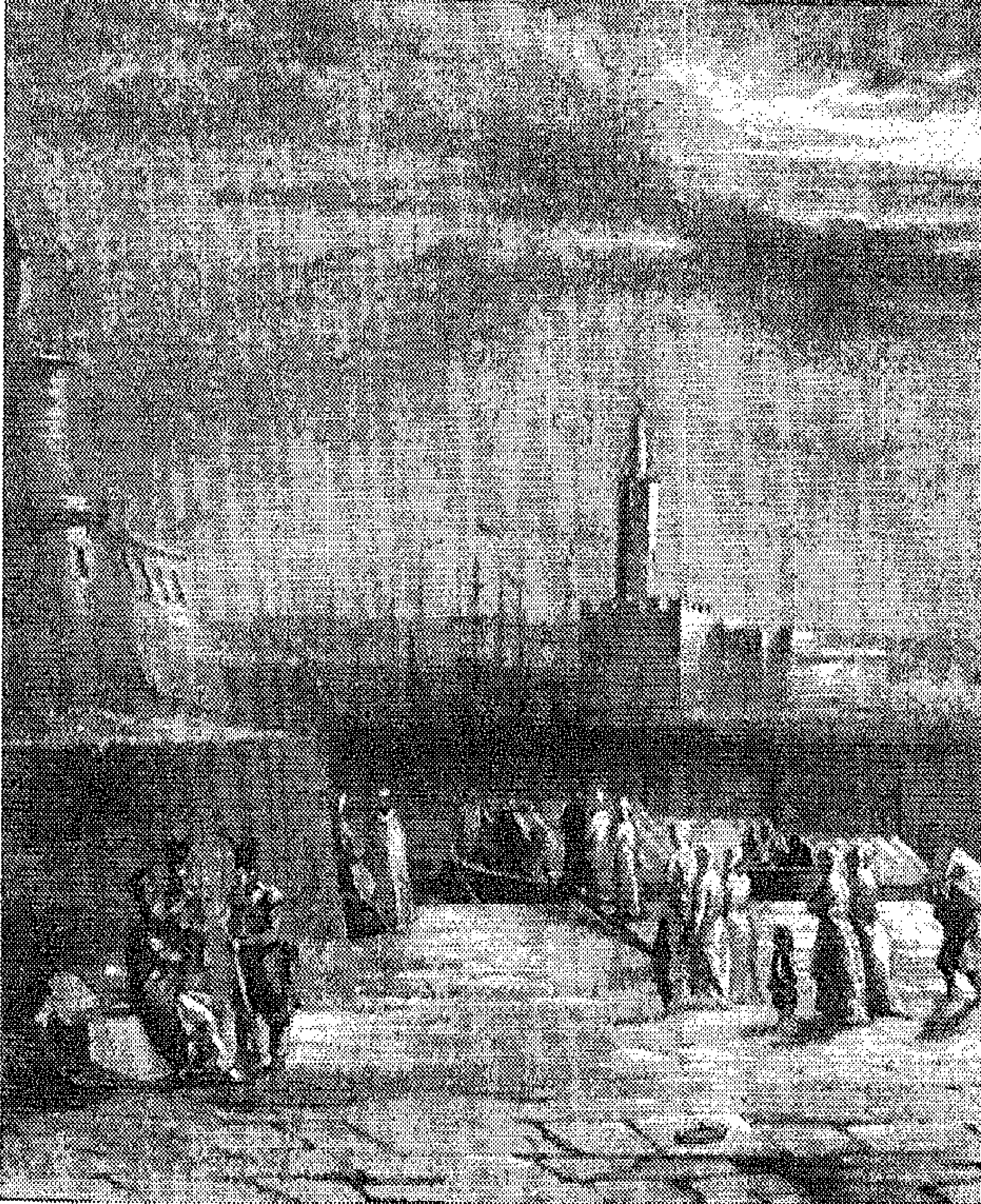
(٢) كـانت معسكرات هؤ لاء التعساء اللاجئين والمشردين تضم نحـو مليون جـزائرى ، كما جـاء فى تقرير رسمى سنة ١٩٥٩ للمفتش المالى « ميشيل روكار » .

كَنَفها حتى سنة ١٩٦٥ . ثم تبنتْه أسرة جزائرية تعيش فى باريس. إنها أسرة مثَقَّفة غير مُنْجِبة : الزوجة كاتبة معروفة، والزوج مخرج تليفزيونى سينيمائى. فعاش معهما حتى سنة ١٩٧٥ . فقد صار الزوج مدْمنا للخمر، كثير العِراك والشِّقاق ، فصاح به يوما : «أنت لست ولدنا . أنت ابن عاهرة»! فكانت صدمة للغلام مفزعة ، لم يَبْرأ منها . ثم عاجلتْه صدمة ثانية حين افترق الزوجان بالطلاق . فكان لابد من إعادته إلى الجزائر . فأقام بملجأ للأيتام – سان – فنسان دو بول – عشرة أعوام حتى سنة ١٩٨٥ . وهنا بدأت مسيرته مع التِّيه والآلام، وقد أُخرج إلى مصيره فى الحياة . ماذا يصنع؟ وإلى مَن يلجأ ؟ وكيف يبدأ ؟ حاول احتراف السرقة فأَنِف . ثم حاول الانتحار وكاد يَقْترف . ثم هداه تفكيره إلى الاشتغال «بقضية» ذات قيمة كبيرة عنده : البحث عن أمه مهما كلفه ذلك من جهد ووقت وتنقيب وسفر . كان فى سن الخامسة والعشرين .

لجأ إلى أرشيف (دار محفوظات) مدينة الجزائر لعله يعثر على خيط يهديه إلى أول الطريق . لم يُفلح . فهو يحمل اسم عائلة أمه وليس فيه شىء من اسم أبيه . فأبوه مجهول. وبمساعدة جيران مع أهل الخير والمعروف، توصل أخيرا – بعد جهد – إلى المكان الذى تقيم فيه أمه . وعلم أنهم يُطْلقون عليها اسم : «الذئبة» ، لأنها سكنتْ مغارة بين المقابر المعروفة باسم : «سيدى يحيى». صدمة نفسية مأساوية أخرى لمحمد. زاد من آلامها وقسوتها أنْ رأى أمه تحمل فى يدها على الدوام مِعْولا حادا (بَلْطة) تهدد بها من يقترب منها وتتوجَّس منه شرا . بعد ربع قرن من العذاب النفسى والعقاب الذاتى على جُرم بشع مهين لم ترتكبه بل كانت هى ضحيته، أصابها اضطراب عقلى ، ونفور بل خوف شديد من الناس، مع الرغبة الجامحة الكامنة فى الفتك بكل الناس، بعد أن فقدت الثقة بهم والأمان معهم ، ففضَّلَت الاحتماء بالأموات والأُنس بهم ! إنهم على الأقل لا يُؤْذُون ولا يَغْتصبون.

تمالك محمد نفسه، واستجمع ما بقى لديه من شجاعة وصبر ، إلى أن



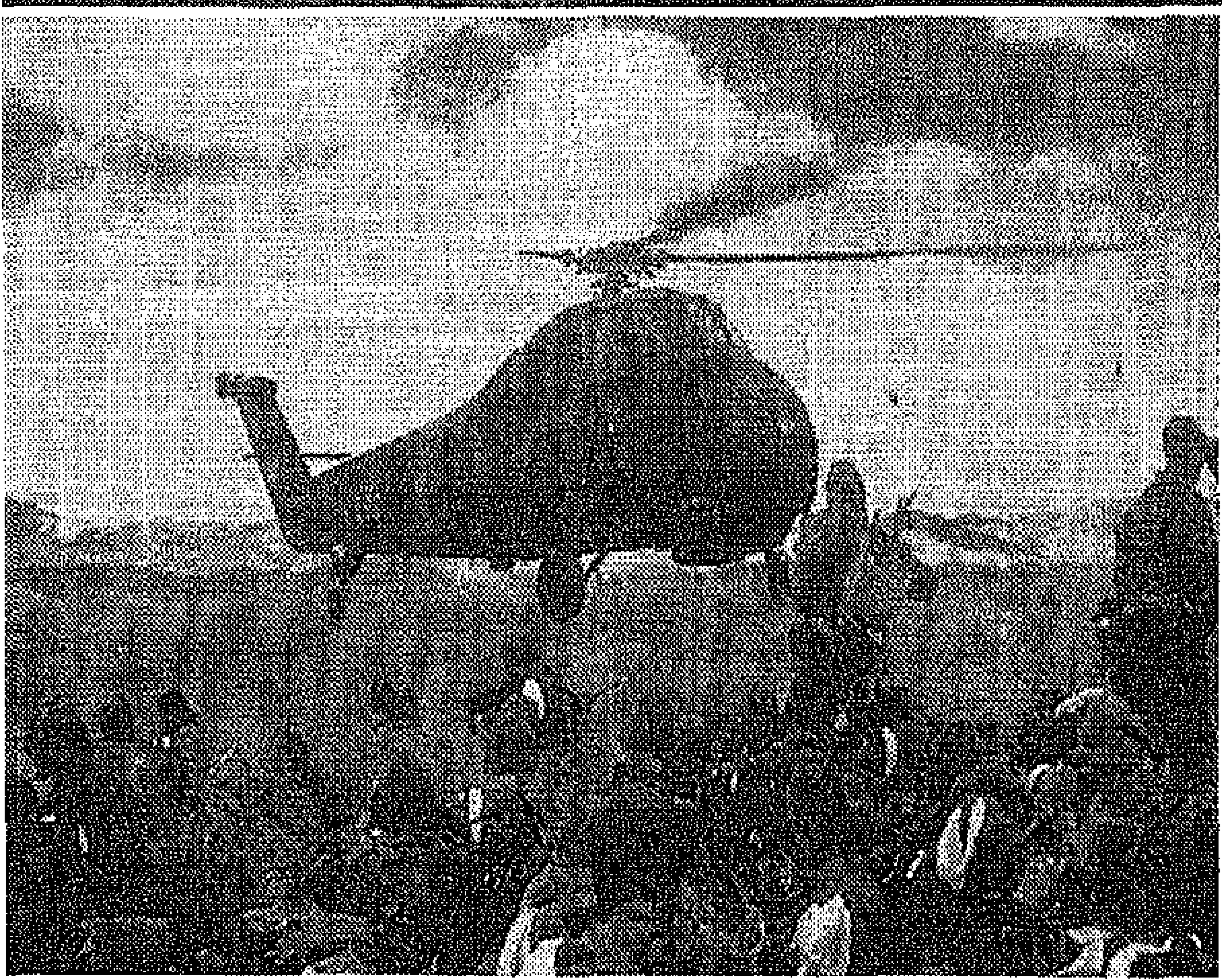


سنة ١٩٣٥ : مصنع كبير بالجزائر للمواد الكيميائية خاصة بأحماض الفوسفات الذى يوجد بكثرة فى الشمال الأفريقى.
وإلى أسفل : صورة لميناء الجزائر فى أوائل القرن العشرين.

أفلح فى إقناعها بأنها أمه، وأنه قد نذر ما بقى من حياته بحثا عنها وعن أبيه. فها هو قد نجح فى العثور عليها، فمن هو أبوه؟ بعد عدة محاولات،

في شهر يناير ٢٠٠١ نشرت مجلة « الإكسبريس » الفرنسية هذه الصورة الوثائقية الدامغة لعسكريين فرنسيين بالجزائر يعذبون مواطنا جزائريا بالمعتقل في فترة حرب التحرير الجزائرية.

وفي الصورة الصغيرة إلى اليسار : طائرة مروحية فرنسية تنقض على مواطنين جزائريين تروّع وتقتل.



Torture en Algérie

Pendant la guerre d'Algérie, des militaires français posent avec un prisonnier.

أجابت بعد صمت طويل ثقيل: «إنه عبد القادر بن غوشا» أحد أبطال حرب التحرير الجزائرية ، فلجأ «محمد جارن» إلى القضاء – سنة ١٩٩١ – فرفع دعوى إثبات كَسَبها بمحكمة «ثِنْية العهد». وفى إحدى جلسات نظر القضية ، ذكرتْ «خيرة» أنها تزوجت عبد القادر ، لكنه ليس والد محمد . لماذا ؟ لأن هذا الزوج – المزعوم – كان عاجزا عن الإنجاب .

لم ييأس مجمد ، واتجه إلى محكمة الاستئناف بالجزائر ، ثم إلى المحكمة العليا. وأمام هيئة تلك المحكمة – فى ٢٢ مارس ١٩٩٤ – انهارت «خيرة» وهى تُصَرِّحُ بالحقيقة التى انطوت على كتمان جَمْرها طوال تلك السنين، فانفجرت تَصْرخ بها علانية : «لقد اغْتُصِبْتُ بالتعذيب والقهر فى معسكر ثنْية العهد من جنود فرنسيين كثيرين سنة ١٩٥٩»!

ترك محمد جارن الجزائر – سنة ١٩٩٨ – لمتابعة «قضيته» هذه المرة فى باريس . اشتغل عاملا بمخازن متجر كبير . لقد أصبحت الصورة أمامه واضحة لا لَبْس فيها ولا شكوك : إن الدولة الفرنسية هى المسئولة ، وهى التى يجب أن تحاسَب : فبعض جنودها من رعاياها الفرنسيين ارتكبوا جريمة ولم يعاقَبوا . وعَلم بها وبمكانها رؤساؤهم فى وقت الخدمة العسكرية فلم يَحْفَلوا .

اتصل بمحام فرنسى يدعى : « جان – إيف حليمى» وقص عليه مأساته . فلم يصدِّق فى البداية كل ما سمعه . فلما اطمأن إلى صحة الوقائع ، قرر أن يبذل كل جهده لرد الاعتبار إلى هذا الضحية المأساوية، وإن كان على يقين من أن تحقيق ذلك أمر بعيد المنال : فقد سبق للدولة أن أصدرت قرارا بالعفو الشامل عن كل الأفعال (أى الجرائم) التى ارتُكبت بالجزائر خلال حرب التحرير !

١٤ مارس سنة ٢٠٠٠ ..

رفضت محكمة التعويضات القضية . فلم يتراجع محمد ومحاميه . ثم قضية أخرى أمام محكمة الاستئناف . وفى ٩ نوفمبر ٢٠٠٠، قررت المحكمة

تكليف خبير نفسى لفحص «محمــد» وتقرير مــا إذا كــانت الاضطرابات النفسية التى يعــانى منها جاءت نتيجة لما تعـرضت له أمه من آثام وعُنف فى فترة الحمل . فكان هذا الخبير من أســاتذة الأطباء النفسيين المشهـورين : د. «لوى كـروك»، المتخصص فى عـلاج المصــابين نفسيــا من جـرائم الاعتــداء الجنسى ومحاولات القتل والتعـذيـب . فكان مجرد اختيــار المحكمــة له بصيص أمل عند محمد ومحاميه.

لم يحمل مــا انتهى إليه الطبيـب اللبيب أى إبهام أو شكوك. فلقد قـرر أن «الفصل المبكر للطفل (محمــد) عن أمــه وهو فى سن ستــة أشهـر بأمـر من السلطة العسكريـة فى ظروف قــاسيــة تدفـع إلى المرض النفسى والعصبى فضلا عن الجسمانى، كانت السبب المبـاشر والمؤكد لما أصابه من اضطراب . ولئن كـانت الاضطرابات غير خطيرة ، إلاَّ أن المعـاملة السيئة المفـزعـة التى تعـرضت لها الأم فى الشهــور الأخيرة من الحمل كـان لها التـأثير الأسـوأ والأكبر على الجنين». وفى ختـام تقريره قــال : «وكل واحد من تلك الأسبــاب يُنْسَب إلى الدولة الفرنسية ويدخل فى مسئوليتها».

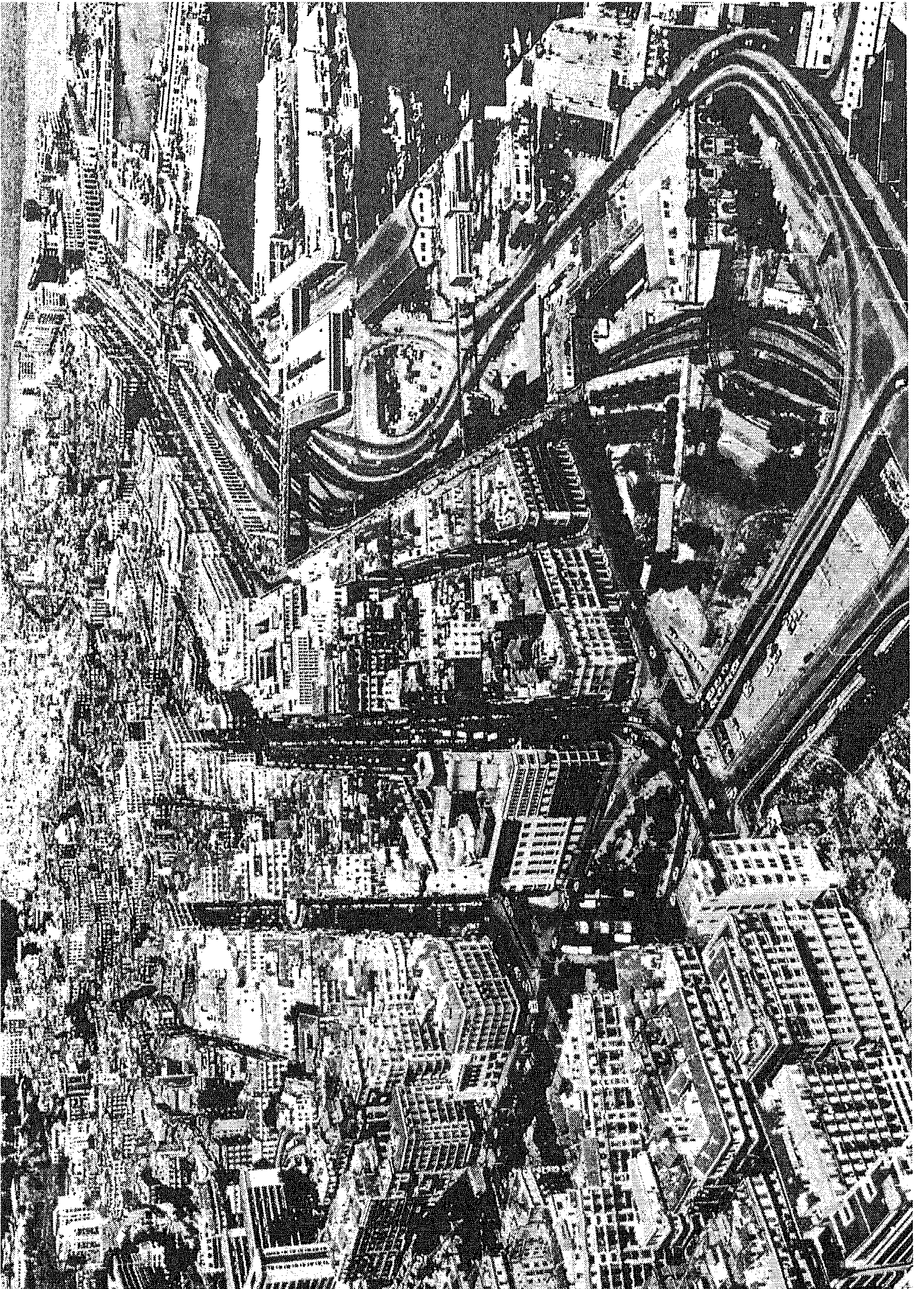


أحــزان الجزائــريين ونحيــب الجزائريات .

وفى ١٢ ديسمبر ٢٠٠١، عَقدت محكمة الاستئناف جلسة لإصدار الحكم، وجاء فيه : أنها أخذتْ بتقرير البروفســور «كروك» وما انتهى إليه . وحكمتْ بتعــويض محدود بثــلاث سنوات اعتبــارا مــن نوفمبر ١٩٩٨ إلى نوفمبر ٢٠٠١، مقداره ٩٤٥ فرنكا فى الشهر، بتقدير ٣٠٪ من حالة العجز الكلى.

إنه حقا مبلغ ضئيل (عند مستوى حد الفقر فى فرنسا) ، لكنه بالنسبة له ، ولمحــاميه، ولكل من يعنيــه هذا الأمر، شىء يستحق الثناء والتقــدير . وكما قال المحامى الحصيف: «لأن جرائم الجيش الفرنسى (بالجزائر) لم يحاسَب عليها أحد حتى الآن ، ولم يُعاقَب من أَجْلهــا أحد . فهذا الحكم فى ذاته انتصار للعدالة ».

وبهذا الحكم أيضــا أصبح «محمــد جارن» رسميــا من ضحــايا الحرب. ولكن : مَن يَقْتص لخَيْرة ، أو يعــوضهــا عن مأساتها، أو مجمــوعــة المآسى اللاأخــلاقية ، واللاإنســانية، واللاقــانونية ،واللاحضــارية التى لحقتْ بها وعاشتها سنين طويلة حتى أفقدتْها صوابها؟ وهل يَفى أى تعويض بما وقع لها ، ولآلاف مثيلات لها غيرها ؟ لا نظن!



مدينة وميناء الجزائر في السبعينيات من القرن العشرين .

(٤) مجرمون دمويـون

جوزيف ستالين : إرهاب وعقاب

لو أن هذا الرجل مات أو قُتل فى معركة ، أو اغْتيل فى مؤامرة ، ثم انتصر عليه خصومه أو أعداؤه - مثل ما حدث لأدولف هتلر - لَمَا صَدَّق العقلاء من الناس كثيرا مما كُتب مرارا عنه ، وتَحَرُّزا من قبول التزوير والتزييف والتشويش والتضخيم والحَجْب ، وكلها تُؤلَّف وتُخْتلق وتُدَس فى سِيَر الزعماء البارزين عادة من جانب أعدائهم وخصومهم المنتصرين عليهم إذا طال بقاء هؤلاء على قيد الحياة لعقود وعُهود وأجيال، قادرين بقوة على الاستمرار فى تزييف الحقائق، واختلاق الوقائع ، وخَلْط الصحيح بالباطل .

لكن «جوزيف ستالين» - أحد كبار الزعماء والقادة المؤثرين فى القرن العشرين - تَعَرض للقَدْح والنقد، بل للاتهام السافر ، فى حياته من رفاقه فى الثورة الروسية وشركائه فى المسئولية والحكم [1]، وكان أبرز هؤلاء وأَوْلاهم بالتصديق : «ليون تروتْسكى» الذى كان مرشحا لخلافة الزعيم الأول للثورة البلشفية «لنين» و«نيكيتا خروشتشيف» الذى أخذ مكان ستالين فى رئاسة الحزب والدولة ، وفاجأ أمته والعالم كله بتوجيه النقد واللوم والإدانة «لجوزيف ستالين» فى اجتماع المؤتمر العشرين للحزب الشيوعى السوفييتى ، فى فبراير سنة ١٩٥٦. فقال بالنص إن ستالين : «مسئول عن سلسلة هائلة من الانحرافات المفرطة الخطيرة المروِّعة لمبادئ

(١) وأصدرت ابنته « سفتلانا » كتابا عنه بعد هروبها - فى حياته - إلى الولايات المتحدة بعنوان : «ابنة ستالين تتكلم » ، وفيه عرضت جوانب من سيرته الخاصة ومثالبه .

الحزب ، ولديمـوقـراطية الحزب ، وللشرعيـة الثـورية »(٢). ومن هنا تَلْزم النصيحة - وهى حق للقارئ وواجب على الكـاتب - بتحرِّى الحذر فضْلا عن الدقة فى اختيار المصـادر والنصوص ، والتروِّى فى النظر والتحليل والنقد أو إبداء الرأى ، فالتـاريخ بعامة ، وسير أبطـاله ورجاله وزعمائه خـاصة (فما بالنا بنسائه ؟ !) لا تخلو أبدا من إضافة أو حَذْف ، ومن مبالغات فى المديح أو القَـذْف . ولهذا تظل مادة التـاريخ ، منذ دُوِّن تاريخ ، ومادة السِّيَر الذاتيـة ، كـلاهما مجالا فسيحا متجـددا للتناول والبحث والنقـد ، وأيضا للقبـول أو المناقشة والرفْض .



نيكيتا خروشتشيف

جوزيف ستالين

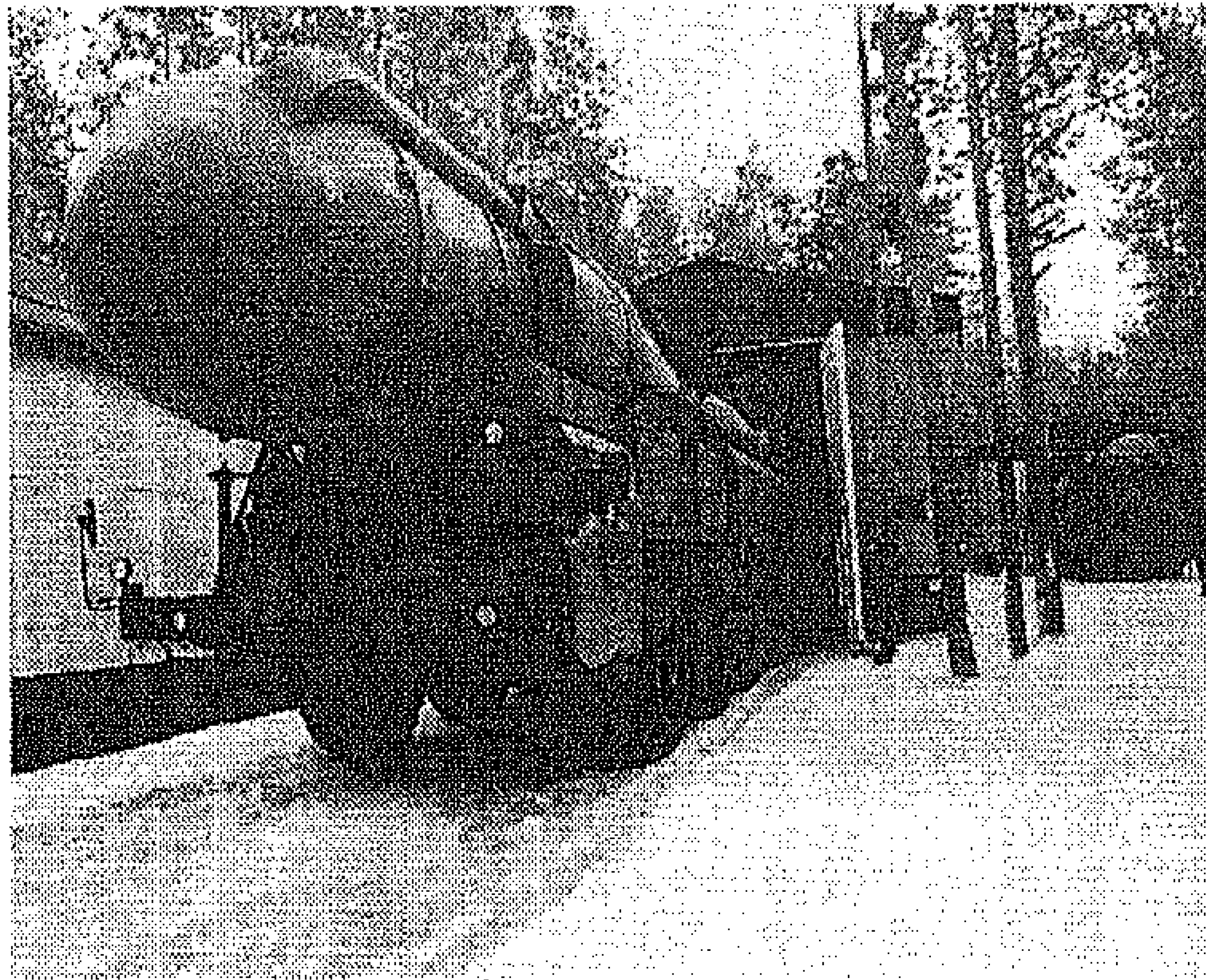
وقد لا يجادل أحد فى أن روسيا قبل ستالين تختلف كثيرا عن روسيا التى تركها ستالين بالموت (المشكوك فى أنه لم يكن طبيعيا بل كان اغتيالا) . كانت روسيا قبل ستالين دولـة متخلفة ممزقة منهوكة القـوى من الحرب الأهلية

(٢) وهنا سؤال عارض : وأين كـان ، وماذا فعل خروشتشيف نفسه ، وكـان معاصرا لستالين ، وفى موقع قيادى بمراكز السلطة ؟ ! ولمَ انتظر صامتا ثلاث سنوات بعد موت ستالين ثم نطق ؟ !

والعرقية والحزبية ، ومن الأزمات المالية والاقتصادية والإنتاجية والتنظيمية . فلما رحل عنها ستالين ، كانت دولة قوية نسبيا : سياسيا واقتصاديا وإنتاجيا وعسكريا وعلميا وتعليميا وفنيا ، وقفز بها إلى مرتبة الدولة العظمى المهابة ، والثانية بعد الولايات المتحدة فى قوة التسليح ، وامتلاك القنبلة الذرية، والأولى فى ارتياد الفضاء ، وكانت القطب المنافس للغرب فى رسم سياسة العالم والتأثير على أسواقه وأفكاره وشعوبه . لكن روسيا دفعت الثمن غاليا، بعد أن أراح ستالين شعوب إمبراطوريته من عناء الخصومة والاشتجار والاقتتال، فتولى هو هذه المهمة نيابة عنهم ، وِفْق مِزاجه ورُؤَاه أو هَواه ، وعلى نحو ما سجَّلَتْه الوقائع وشهدت به المواقف والأحداث ، وكان منها هذه « الصدمات » الثلاث:



فلاديمير لنين



السلاح الذرى السوفييتى الذى استحدثه ستالين خليفة لنين ، وجعل به روسيا دولة عظمى مَنيعة مُهابة .

● ضحايا عدم الطاعة فى سنوات المجاعة

أوكرانيا : ١٩٣٠ ـ ١٩٣٢ ..

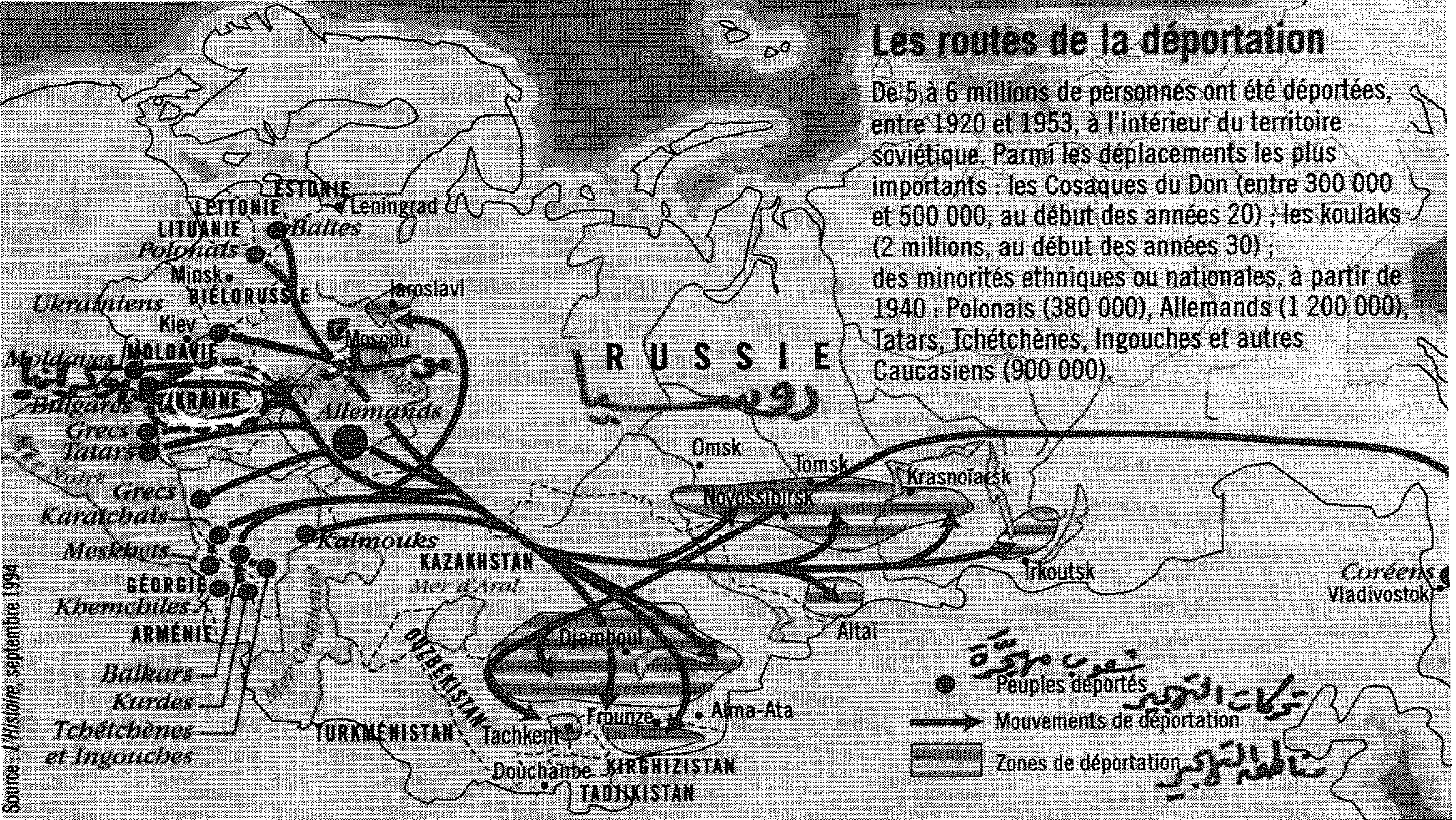
حدثت فى تلك الفترة مجاعة شديدة فى هذه الجمهورية التابعة للاتحاد السوفييتى . فكان لزاما على « سيد » موسكو أن يدبِّر سريعا مئات الأطنان من مواد الأطعمة لتلبية احتياجات العمال الصناعيين الذين سخَّرهم لتنفيذ برامجه وخططه ومشروعاته الطموحة. وكان أهم وأيْسَر مصدر للإمداد بالمحاصيل والفاكهة واللحوم ومنتجات الألبان يتركز فى أوكرانيا . وأكبر مصادر تلك المواد فى أوكرانيا يتركز فى يد طائفتين غير شيوعيتين: أولاهما « الكُولُوك » ، أصحاب المزارع الشاسعة الثرية بالمحاصيل والماشية والأغنام ؛ والثانية «المُوزْهِيك»، الفلاحون الذين فى حَوْزتهم مساحات كبيرة من الأراضى الزراعية ، وهى أيضا وفيرة الإنتاج والمحاصيل .وكان « ستالين » قد أصدر فى سنة ١٩٢٩ قرارا يقضى بخضوع جميع الأراضى الزراعية فى الاتحاد السوفييتى لسلطة الدولة . لكن هؤلاء الـ « كُلوك » والـ « مُوزْهيك » لم يَعْبَأوا بهذا القرار ، فلم يستجيبوا لأمر « السيد » الآمِر الناهى الجالس فى الكرملين .

فكيف يُرَدُّون إلى الرُّشْد والطاعة ؛ ويُجْبرون على الخضوع والاستكانة ؛ ويكونون عِبْرة لمن يأْبَى أو يَسْتكبر باستهانة ؟

فى ٢٩ ديسمبر ١٩٢٩ ، أصدر « ستالين » أمرا « بتصفية » هؤلاء الكولوك وإزالتهم « كطبقة » مناهضة للثورة . وفى الحال : انقض رجال شرطته السِّرية (NKVD) على مناطق هذه الطائفة ، واصطحبوا معهم جماعات من العصابات المسلحة ، فعاثوا فى ديارهم خرابا واسْتَمر ، كأنهم أسراب جراد مُنْتَشر . أتلفوا الأخضر واليابس ، وانتزعوا كل شىء حتى الملابس . وتركوا الناس شِبْه عرايا فى زمهرير الشتاء ، وصادروا الأموال والأغنام وحُلى النساء . وكل من أبدى مقاومة فى الحال قُتل ، وكل من أظهر امتعاضا على الفور ضُرب أو اعْتُقِل . وسيق عشرات الآلاف من الأُسَر سَوْق الأنعام إلى معسكرات سيبيريا ، أو إلى المنافِى بمناطق التجمد العليا ، قُرب مشارف الشمال القطبى ، ولا شىء معهم سوى كساء يُزْرى . فهلك من هلك، وانْمحى أثر الكولوك، إرضاء «لسيد الكرملين» كَىْ يُهاب ويُطاع، وزجْرا لمن تُحَدثه نفسه بعصيان وامتناع.

ولم يكن الموزْهيك أحسن حظا . فقد ظنوا فى البداية أنهم قادرون على التمرد . فأحرقوا بأيديهم عَمْدا مزروعاتهم ، وأتلفوا بعض أدوات وآلات حقولهم، حتى لا تستولى فرق الشرطة على شىء منها ؛ وذبحوا بالجملة كثيرا من أغنامهم وماشيتهم، فأكلوا منها وأطعَموا ، ونَبَذوا ما تَبقى ليفسد فى العراء . أما المخزون من المحاصيل فى الصوامع، فقد أتلفوا منه بأيديهم قبل وصول الشرطة إليها وتَنْقض عليها.

وأُبْلغ ستالين بما حدث. فلم يحرِّض عليهم شرطته السرية، وإنما أرسل إليهم الجيش الأحمر بدباباته ومصفحاته وقاذفات اللهب. ولما أبْدَى الموزْهيك بعض المقاومة، أعلن ستالين أنها الحرب ، فتحولت أوكرانيا فى سنة ١٩٣٢ إلى ساحة قتال مكشوفة،قتال رفاق لرفاق . ولم يكتف بهذا ، بل أصدر قرارا يفرض على أوكرانيا ما لا طاقة لها به : أن تزوِّد موسكو بعد ذلك بكميات ضخمة من المحاصيل ومواد الطعام . وأرسل مندبو الحكومة



خريطة توضيحية لمسارات النفى أو التهجير الإجبارى الذى فرضه « ستالين » على شعوب وقوميات من الاتحاد السوفييتى بغرض تشتيتها وإضعافها وإخضاعها لجبروته وقهره. ويُقدر عددهم بين سنتى ١٩٢٠ و١٩٥٣ (سنة موته) بنحو خمسة أو ستة ملايين داخل حدود الاتحاد السوفييتى. وكان من أكبر التهجيرات : القوزاق (بين ٣٠٠ و ٥٠٠ ألف فى أوائل عقد العشرينيات) ، والكولاك (مزارعو أوكرانيا – نحو مليونين فى أول الثلاثينيات) . وابتداء من سنوات الأربعينيات أمر بتهجير جماعات من قوميات وأجناس أخرى مثل ذوى الأصول : البولندية (٣٠٠ ألف) ، والألمانية (١٢٠٠٠٠٠) ، ثم التتار والشيشان ، والأنجوش وغيرهم من القوقازيين (٩٠٠ ألف) .

لجمع هذه الكميات طوْعًا أو كرْهًا ، وكان معهم شرطة مزودة بالسلاح والسيوف والمناجل والهراوات الحديدية . فقتلوا وجرحوا وأهانوا وضَربوا ، وجمعوا جَبْرا ونَهْبا كل ما يمكن جمعه : خمسة ملايين طن من القمح ، وأطنان أخرى من البيض، والزبد ، واللحوم، وبعض هذه الكميات أرسل للتصدير . فحدثتْ مجاعة فى أوكرانيا حصدت أرواح ملايين من سكانها ، وكانت أسوأ مجاعة فى التاريخ من صُنع رجل واحد !

● ضحايا ترويض وتطهير الحزب

بعد أن أخضع أوكرانيا وأرهبها وأذلها ، تحوَّل إلى حزبه . كان له فيه منافسون وخصوم ومُعارضون . وخُيِّل إليه أنهم أكثر ممن يَعْرف ويَظُن . فكان فى حاجة إلى ذَريعة يتعلل بها للتطهير والتخويف والإزاحة . فجاءته «وفْق رغبته» سهلة مُقْنِعة فى أول ديسمبر سنة ١٩٣٤ من مدينة لنينجراد ، مُزْدَوجة الفائدة.



حارس مسلح (مثل آلاف غيره) يراقب عمال السخرة فى مد خط للسكك الحديدية فى سيبيريا .

فقد اختفى فجأة الحرس الخاص المرابط عادة بمقر رئاسة الحزب الشيوعى الرابض على مقربة من مكتب رئيس فرع الحزب فى لنينجراد (سِرجى كيروف». وكان «كيروف» شخصية مرموقة محبوبة داخل الحزب ولها شعبية جماهيرية كبيرة متزايدة ؛ وترددت إشاعات بأنه «خليفة» ستالين، أو هُو أفضل من يَخْلفه . إنها إذنْ أقاويل لا تُرضى «سيد الكرملين» . وفى لحظات اختفاء الحرس، سُدِّدت طلقة واحدة إلى «كيروف» من «مجهول» فأَرْدَتْه قتيلا . وبكى ستالين وهو يمشى فى جنازته! ثم أعلن أن اسم «كيروف» سيُخَلَّد فى التاريخ بإطلاق اسمه على إحدى فرق الباليه التابعة للدولة !!

وسرعان ما وُجِّه الاتهام إلى آلاف من الأبرياء بزعم اشتراكهم فى مؤامرة للاغتيال والتخريب ، وسيقوا إلى معسكرات العمل، واعْتُقل أكثر من مائة من القادة السياسيين بالحزب ومن كبار ضباط الجيش ثم أُعدموا رميا بالرصاص . وفى السابع من أبريل سنة ١٩٣٥ أصدر ستالين مرسوما بخفض السن التى يجوز فيها السجن والحكم بالإعدام إلى الثانية عشرة ! وعُقدت محاكمات صُورية خاصة فى الفترة بين أغسطس ١٩٣٦ ومارس



بعد التهجير : الأبناء فى المناطق النائية الجديدة يبدو عليهم الإهمال والبؤس والهزال ، وأُجْبِر الآباء (الرجال والنساء) على العمل الشاق – بلا أجر كالسخرة – فى شق القنوات أو مد خطوط السكك الحديدية أو استصلاح الأراضى ، ومات منهم عشرات الآلاف بسبب الإرهاق الشديد والجوع وإرهاب « بريا » مساعد « ستالين » فى تنفيذ أوامره وبرامجه فى هذا المجال اللاإنسانى ، وقد أُعدم بعد موت سيده .

١٩٣٨ لعشرات من قيادات الحزب ، وانتهت بإعدامهم . وظهر فيما بعد أن الشخص الذى اغتال «كيروف» يدعى «ليونيد نيكولاييف» ، وأنه على صلة وثيقة بالحرس الخاص (NKVD) الذى يرأسه «ياجودا» الذى لا يفعل شيئا إلا بأمر من ستالين. ومع ذلك ، لم يَسْلم هو الآخر من الأذى – فقد قُتل – يوجودا – مع نحو ثلاثة آلاف من أعضاء الحرس، وحَل مكانه «نيكولاى يِزوف» .

ثم لاح فى خيال ستالين الدموى المريض شبح الخطر من عدو آخر : الجيش الأحمر . وهو يُكِن فى نفسه بُغْضا شخصيا لرئيس أركانه «تُوخاشِفسكى» البارع اللامع فى ماضيه وحاضره . لماذا ؟ كان «ميخائيل توخاشفسكى» فى سن السابعة والعشرين سنة ١٩٢٠، عندما نجح بذكاء باهر أن يوقف زحف الجيش البولندى المغير على أوكرانيا محاولا ضمها إلى بولندا . ولم يكتف بذلك ، بل أخذ يطارد البولنديين داخل أراضيهم. وكانوا

معه على مَيْسَرَة جيشه قائد شيوعى ذاع صيته يدعى «جوزيف ستالين»! لكن هذا القائد – ستالين – انفصل عن قيادة «توخاشفسكى» زهْوا بنفسه واستكبارا ، فانكشفت ميسرة الجيش الأحمر ، فاستدار الجيش البولندى وطارد السوفييت حتى خارج الحدود. ومن هنا نشأت كراهية ستالين لتوخاشقسكى الذى يُذَكِّر وجوده بسوء ما فعل ستالين آنذاك. فكانت فرصة أن يُعْتَقل توخاشفسكى – رئيس الأركان – فى غمرة حملة التطهير بتهمة التجسس لحساب الألمان ، وحُكم عليه بالإعدام ، وبعد تنفيذ الحكم تم اعتقال وفَصْل عدد من قيادات الجيش . فاستسلم الجيش الأحمر لدب الكرملين وأطاع صاغرا وخَضَع . ثم جاء الدور على المواطنين المدنيين من الشعب .

● ضحايا إرهاب وترويض الشعب

تضاعف عشرات المرات عدد الذين أُلْقى القبض عليهم من المواطنين فى سنة ١٩٣٨ بتهمة «ارتكاب جرائم مناهضة للثورة». وعُوقب رجال الحرس السرى الخاص (NKVD) الذين لم يَعْتقلوا عددا كافيا من المواطنين ، باعتقالهم هم أنفسهم.



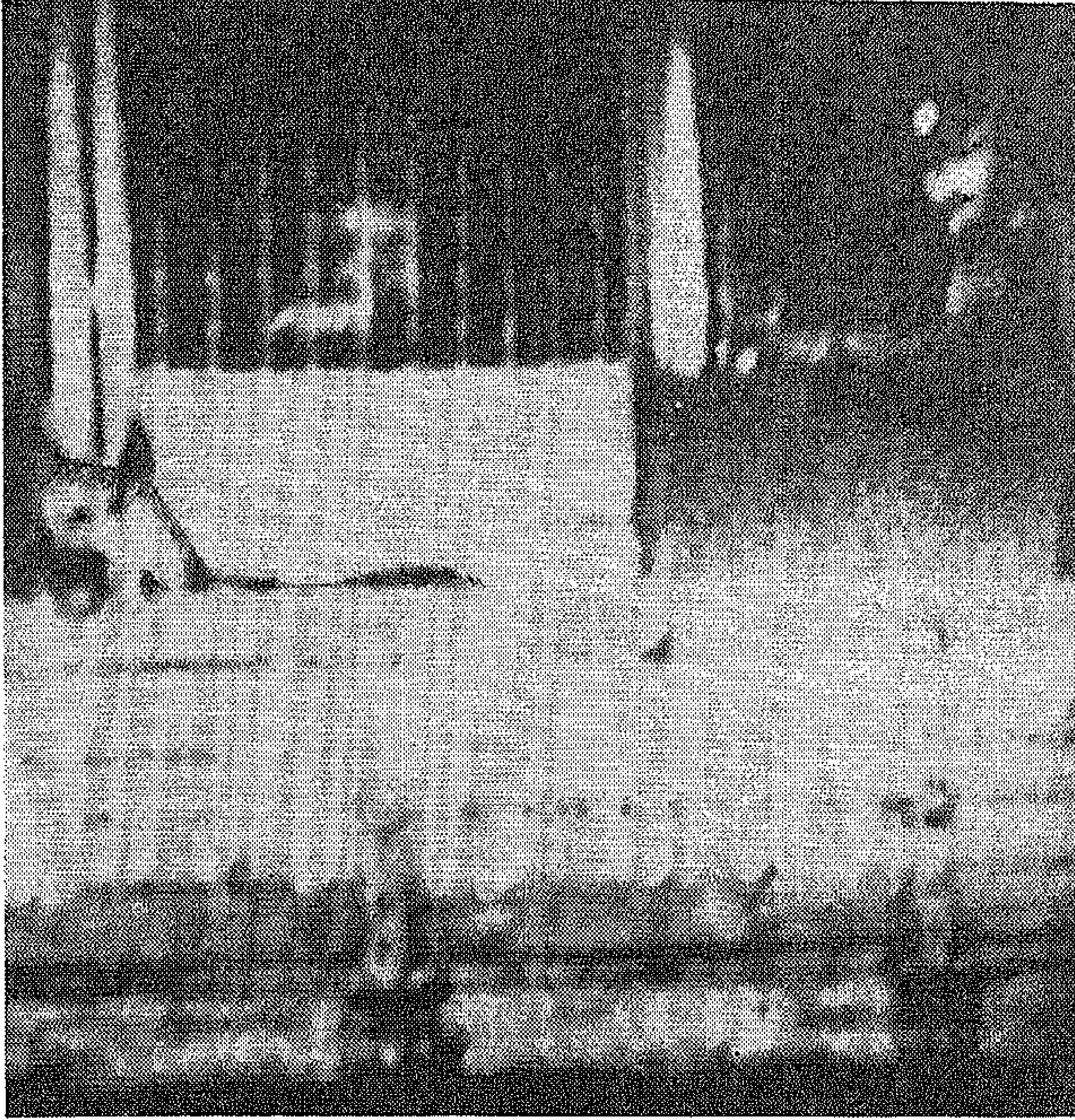
فى الوقت نفسه كانت الدعاية المزيفة تظهر «ستالين» على أنه رب أسرة رحيم ودود ، محب للأبناء والأطفال ، كما فى هذه الصورة وهو يحمل بين ذراعيه فى حنان ابنته «سفتلانا» التى أصدرت (بعد هروبها فى حياته إلى أمريكا) كتابا عن أبيها يكشف جوانب من شخصيته وقسوته وجبروته .

وبلغ الرُّعب بالناس أن كـان أفراد الأسرة يَشِى بعضهم ببعض . ووَشَى رجل واحـد من مدينة «أوديســا» بمائتين وثلاثين من أهله وجيرانه . وذَكـر تقـريـر لأحـد المراقبين أن شخصــا من كل خمســة أشخــاص فى المكاتب الحكومية والمصانع كان يشِى بزمـلائه عند الشرطة أو للسلطة. وتم اعتقال مليون ونصف مليـون من عمال المصانع بشُبْهــة أنشطة محظورة أو أقوال ممنوعة . وفى سنة ١٩٣٧، قـدَّم «يزوف» إلى «ستالين» ٣٨٣ قـائمة بأسماء آلاف من الأشخــاص يطلب محاكمتهم ، وأمـام اسم كـل منهم الحُكم الذى يقترح إصداره عليه : من الإعدام إلى السجن المخفف. ومن بين هذه القوائم ما يتضمن أسماء زوجات وبنات «أعـداء الشعب». وفى ليلة ١٢ ديسمبر ١٩٣٧ اعتمد ستالين (أى وقَّع بالموافقة) على أحكـام إعدام ٣١٦٧ شخصا ثم توجَّه لمشاهدة فيلم سينيمائى . وتشير الإحصائيات إلى أنه فى عام ١٩٣٨ كان ٥٪ على الأقل من شعوب الاتحاد السوفييتى فى السجون والمعتقلات .

● بشاعة الصورة من داخلها

فى عام المجـاعة الكبرى فى أوكـرانيا، كان آلاف الأشخـاص يهلكون فى كل يوم من ضراوة الجوع. وتَقَاتل الناس على صيد الفئران لطعامهم ، والديدان؛ وأكل بعضـهم طعامــا من نقيع جلود الأحذية المغْلى، ولحاء الأشجـار المطهو. وانتشر أكل لحوم البشر . تقـول التقـارير : «عندمـا كـان صغـار الأطفـال يمـوتون ، فإن جثثهم لم تكن تُدْفَن فى المقــابر ، وإنما كانت تُحفظ كمخـزون طعام. وما أكثر الذين أُرسلوا إلى معسكرات الاعتقال الرهيبة (أو معسكرات الموت تسمى الجولاج) بزعْم أنها «معسكرات إعــادة التأهيل للعمل» وكــان معظمها فى سيبيريـا عند حدود المنطقـة القطبية الشمالية ، وقسـوة الصقيع فيها لا تُطـاق ، حتى إن كلاب الحراسة كـانت تتجمد من شـدة البرودة. هذا فضلا عن الجوع بها ، والتعذيب النفسى والبدنى على الدوام.

وآلاف آخـرون أُجبروا على العمل الشـاق المتــواصل فى ظروف صعبـة قاسية حتى الموت. وكــان مألوفا أن الجرارات الكبيرة المحملة ، كان يــجرُّها فى المعسكرات أشخاص بدلا من الخيـول : خمسة من المسجونين أو المعتقلين للجـرار الواحـد الثقيل الأحمال، أو سَبْع من النســاء . وكثير من بين مليـون



إحدى الصور النادرة التى أمكن التقاطها وتسريبها عن معسكرات الاعتقال «الجولاج » المخصصة للمفكرين والسياسيين وأصحاب الآراء المعارضة ، وفيها يظهر الحارس المسلح – إلى اليمين – وكلب الإرهاب والتعذيب – إلى اليسار – والنزيل « صاحب الرأى أو الفكر » خلف القضبان . وكان شائعا موت هؤلاء النزلاء أو إصابتهم بالأمراض الخطيرة والجنون .

المعتقلين لتُهم سياسية ، ماتوا من التعذيب والإرهاق قبل تقديمهم للمحاكمة الصورية . وفى سجن «بُوتيرركا» فى موسكو ، حُشِر مائة وأربعون شخصا فى الزنزانة الواحدة التى تتسع لأربع وعشرين.

وبعد أن يتم الاعتقال ، كان يأتى دور التحقيق . وكان الأسلوب المفضَّل لإجراء التحقيق يسمى : «التوصيلة أو المناولة» ، بأن يُجْبَر المتهم على اليقظة – بلا نوم – لبضعة أيام ، مع استمرار التحقيق معه كل بضع ساعات بمعرفة فريق مختلف من المحققين الأشداء الغلاظ . وعندما ضاق الزعيم – ستالين – بطول أوقات التحقيق ، أُضيف أسلوب آخر : التعذيب بالماء البارد أو الساخن، ونزع الأسنان السليمة بلا مُخدر، أو عزل المتهم العنيد فى زنزانة مليئة بالزواحف والحشرات.

وكان من أقسى وسائل الإرهاب فى التحقيق : تعذيب الزوجة أمام زوجها المتَّهم ، أو ابنه ، أو ابنته . ولم يستطع أحد الشخصيات القيادية فى الحزب ويدعى «رُوسْيور» مقاومة مراحل التعذيب المتكررة المتنوعة ، عندما أُحْضِرت ابنته ذات الستة عشر عاما واغتُصبت أمامه. فاعترف ولو زُورا وبهتانا .

وبعد الاعتراف ، كان المتهم يساق إلى زنزانة مجاورة ، ويُطلق الرصاص على رقبته من الخلف. وذكر تقرير غريب من مدينة «فينيتْسا» أنه من بين ٩٤٣٢ أُعدموا رميا بالرصاص: ٦٣٦٠ مات كل منهم برصاصتين فى الرأس، و٧٨ بثلاث رصاصات لكلٍّ، واثنان فقط بأربع رصاصات لكل منهما حتى لفظ أنفاسه.

ولا يُعرف بالتحديد عدد من ماتوا فى هذه «الصدمات» الستالينية الثلاث التى أشرنا إليها . بعض المؤرخين والكتَّاب يُقَدِّرهم بعشرين مليونا فى الفترة بين سنة ١٩٣٠ و١٩٣٨. ويُقدرهم الأكاديمى الروسى «مِدْفديف» بأربعين مليونا ، فى حين يَزيدهم الأديب المنْشق على الشيوعية «ألكسندر سوْلزنيتْسين» إلى ستين مليونا .

لقد خَلَّفت المجاعة والتعذيب بين سنتى ١٩٣٠ و١٩٣٢ نحو ثلاثة عشر مليون قتيل. وهلك ما بين خمسة إلى سبعة ملايين شخص فى معسكرات الاعتقال والتأهيل من التعذيب والقتل، فى حين مات نحو سبعة ملايين آخرين من الجوع . وفى «صدمة» سنة ١٩٣٤ وحدها (واستمرت إلى ١٩٣٨). مات مابين سبعة إلى تسعة ملايين. وتُسجل الوثائق الحكومية التى أُفرج عنها فى الثمانينيات، أن مليونا منهم أعدموا رميا بالرصاص . وفى سنة ١٩٣٨ كان فى روسيا ١٢٥ معسكرا للاعتقال تضم ثمانية ملايين فرد.

وفَقَد الجيش الأحمر (الجيش الرسمى السوفييتى) خمسة وثلاثين ألف ضابط، من رتبة «فيلد مارشال» إلى رتبة ملازم . وبالمقارنة : فإن ستالين قَتَل بين سنة ١٩٣٧ و١٩٣٨ من الضباط الروس ما يفوق عدد مَن قتلهم جنود هتلر فى الحرب العالمية الثانية بكل سنواتها . ومع ذلك ، قال «جوزيف ستالين» فى إحدى خُطبه على الملأ : «من بين جميع الكنوز التى يمكن أن تمتلكها دولة ما، يأتى فى تقديرنا أن عنصر الرجال وأرواح المواطنين أغلى الكنوز قاطبة ».

فيرد عليه «بُودُو مِيديفانى» رئيس وزراء جورجيا قُبيل إعدامه رميا بالرصاص قائلا : «لقد عرفتُ ستالين منذ ثلاثين عاما . لن يهدأ بال ستالين حتى يَحُزَّ رقابنا جميعا ، بَدْءا من الطفل الرضيع وانتهاء بالجد العجوز الضرير».

بُولْ بُوت : فريد عصره فى الطغيان



بول بوت

لو صَحَّتْ أُسطورة أن الإمبراطور الرومانى «نيرون» جلس يعزف الموسيقى وهو يشاهد روما عاصمة ملكه وهى تحترق بأمره، لكانت هذه الحكاية «لعبة طفل ساذج» إلى جانب ما فَعَله - أو جناه - «بول بوت» فى كمبوديا : فقد سوَّلَتْ له نفسه إزالة - نعم إزالة وتدمير - مبانى كل المدن والقرى فى دولته، وإخراج الشعب كله ليعيش «حرا طليقا» أو منطلقا نحو حياة جديدة فى مناطق الأحراش والغابات !! ومتى ؟ ليس قبل التاريخ

(١) تولى الحكم بين سنتى ٥٤ - ٦٨ ميلادية ، وانتهى حكمه بثورة دفعته إلى الانتحار .

الهجـرى أو الميلادى أو حتى الحجـرى .. وإنما فى النصف الثانى من العَقْـد الثـامن من القـرن العشرين، أى بين سنة ١٩٧٥ و ١٩٨٠ ! أى بعـد ست سنوات من وقوف الإنسان – بشحمه ولحمه – على سطح القمر ، وقبل سنة واحدة من دورة الألعاب الأوليمبية فى مـونتريال (بكندا سنة ١٩٧٦) وفاز فيهـا الاتحاد السوفييتى بتسع وأربعين ميـدالية ذهبيـة ، وألمانيا الشرقيـة الاشتراكية بأربعين، والولايات المتحدة الأمـريكية بأربع وثلاثين. لكن «بول بوت» يستحق الميـدالية الإجـرامية الأولى فى تاريخ القـرن. ليس فقط بسبب أعداد من اغتال وقتل ، وإنما بسبب أساليبه الشيطانية الوحشية اللامعقولة واللا مُبَرَّرة فى الإرهاب والعنف والعـذاب ، والانتقـام من شعبـه بلا ذَنْب أو جَريرة . والغـريب حقا أن الجماهير رَضَخت وسكتت. فهل يفعل الخوف كل هذا الاستسلام والخضوع ؟!

من حيث الشكل : كـان سمينا رَبِعـة(٢) ، مُتَجَهِّما على الـدوام . لم يُـرَ مبتسما قَط. وكان أتبـاعه يُنادونه بـ «الأخ الأول» . ماضيـه مجهول . فقيل إنه ولد سنة ١٩٢٨ ، وقيـل سنة ١٩٢٥ . وهناك غمـوض حـول حقيقـة شخصيته. فتَذْكر بعض المصـادر أن اسمه الحقيقى «سالوث» أو «سالوت» أو «سار» . وقال هو عن نفسه لصحيفة فيتنامية سنة ١٩٧٦ : «أنا ابن فلاح . أمضيت فترة من حياتى المبكرة فى معبد بوذى، نحو ست سنوات ، وكنت فى سنتين منها راهبا».

ثم انخـرط فى الجيش الشعبى الذى قـاده الزعيـم المناضل «هو – شى – مِنْه» لمقـاومـة الاحتلال الفـرنسى فى الهند الصينيـة . وقُبِل فى سنة ١٩٤٦ عضـواً فى الحزب الشيوعى السرى، ثـم سافـر إلى باريس لدراسـة الراديو والإلكترونيات وانضم إلى «اتحاد طـلاب الخمِر اللينيين – الماركسيين» . ولم يكن طالبـا مُجِدّا فى دراسته بمـدرسـة الإلكترونيات ، لأنه كما قـال : «كنت أقضى كثيرا من وقتى فى الأنشطة الحزبيـة ، فلم أَحْضر كثيرا من الحصص الدراسية» فطُرد من المدرسـة ، وأُعيـد إلى بلده . ومن هنا – كما يؤكد الخبراء

---

(٢) رجل ربعة (بفتح الراء وكسر الباء) : لاطويل ولاقصير.

والمحللون – زُرعت فى أعماق نفسه بذور المرارة والحقد على المتعلمين والمثقَّفين ، التى ستنمو وتؤتى ثمارها المُرة المهْلِكة فيما بعد.

فى أواخر عَقد الستينيات وبواكير السبعينيات ، احتل مركزا مرموقا داخل الحزب الشيوعى الكمبودى، واتخذ الاسم الحربى الذى اشْتُهر به : «بول بوت » ، وانسحب إلى الأدغال ، وصار شخصية قيادية غامضة كالشبح ، وهو يؤدى مع رجاله أعمالا جريئة انتحارية أزعجت الحكومة التى كانت قائمة .ويرى « ويليام شوكروس » فى كتابه : « كيسينجر ، نيكسون ، وخراب كمبوديا » أن تكثيف الغزو الأمريكى لكمبوديا وللفيتناميين الجنوبيين وضراوة قذفهم بالقنابل والصواريخ ، هو المسئول الأكبر عن تقوية صفوف « الخمِر الحُمْر » (Les Khmer Rouges) وزيادة صلابتهم.

بدأ « بول بوت » قيادته (بجيش) صغير للمقاومة الشرسة مكون من أربعة آلاف شخص ، ثم ما لبث أن أصبح عددهم سبعين ألفا . وفى السابع عشر من أبريل سنة ١٩٧٥ بدأ « بول بوت » يتولى إدارة عَجَلته الشيطانية الساحقة الكاسحة الماحقة ، على مستوى الدولة بأسرها .

● أغرب حكومة تعذيب وقتل لشعبها فى التاريخ الحديث

قد نَعْرف ونفهم من شواهد التاريخ وسياق الوقائع أن يثور شعب على محتل غاصب، أو يتصدى بقوة لحاكم ظالم قاهر ، أو يَشُق العسكريون عصا الطاعة بانقلاب يطيح بالسلطة القائمة . وفى كل واحدة من هذه الحالات ، يحرص الثوار أو الغاضبون أو المنشقون الانقلابيون ، على إرضاء الجماهير وفئات الشعب ، وإبداء الوعود الطامحة إلى تحقيق الأمن لهم والهناء والرخاء ، والراحة الدائمة بعد طول عَناء . أمَّا أن ينهض قائد أو قابض على زمام السلطة ليعلن « الثورة » على الشعب ، ويُهدد ثم يُكبد الجماهير مذلة ومشقة وعذابا حتى الموت والقتل ، بالآلاف والملايين ، بلا ذَنْب جَنَوْه أو عصيان اقترفوه ، فذلك هو الغريب الفريد حقا ، لكنه حَدَث ، على يد هذا الشرير الرهيب ، فى الربع الأخير من القرن العشرين .



الموقف الفاصل بين الحياة والموت ! فى معسكرات الاعتقال التى أقامها الخمر الحمر داخل الغابات بزعامة « بول بوت » جرت عمليات تعذيب وتنكيل ومحاكمات جائرة بلا قانون أو دفاع ، للرجال فى جانب ، والنساء والأطفال فى جانب ، وينتهى التحقيق والمحاكمة فورا إما بالإبقاء على الحياة (ولو فى السجن أو التكليف بأشغال شاقة) ، وإما بالموت العاجل أمام الحاضرين .

بدأ بإخـراج سكان العاصمـة « فنوُم بنْه » المليـونين من منازلهم وفيهم نحو عشرين ألف مـريض ومصـاب وجريح كـانوا بالمستشفيات ، وأَجْبر كل هؤلاء على المشـى ـ بقـوة الإرهاب والسـلاح ـ إلى منطقة بعيـدة عن المدينة . كـان متأثرا بنهج الزعيم الصينى « مـاو ـ تسى تونج » فى شخصيتـه ، و « مسيرته الكبرى » ، وثورته الثقـافيـة . (٣) فحـاول أن يقتلع كمبـوديا من جذورها التاريخيـة والثقافية والدينية والفكرية جملة ، أى مـن كل ماضيها القـديم والحديث ، لكى « يَزْرع » الناس فى مجتمع شيـوعى خـالص فى زمن قياسى ! فكـان بذلك مغاليـا مسرفا كل الإسراف ، ولا حرج أن يقـال فى هذا الشأن إنه كان متطـرفا إلى حد الهَوَس أو الجنون . فحتى أولئك الـذين كانت لديهم معـرفة وخبرة طويلة فى الزراعـة بأراضيهم السـابقة ، فشلوا فشـلا ذريعـا فى استصلاح وزراعـة الأراضى الجديدة ، لاختلاف البيئة ، ولسـوء التغـذية ، ولما أصـابهم من إجهـاد وأمـراض وجُـروح وقُـروح من المشى القَسْرى الطويل . ومـات آلاف فى الطريـق من الجوع والأمـراض والتَّعب الشديد.

وأَغْلق الحدود ، حدود الدولة ، وأقام عليها حراسة يقظة شرسة مُشَددة ، حتى لا يَـخْرج أو يَدْخل أحد . وشاع فى العالم الخارجى أن كمبوديا صارت «لا دولة» . وعُمِّيَتْ أخبـارها وماكان يجرى فيهـا عن وسائل الإعـلام وعن الناس أجمعين . فلما كُشِف المستور ، ووضحت للعيان الأمور ، كان هَوْل ما حَدَث ، يفوق خيال الكَهْل والحَدَث.

● الهدف والمنهج

وبما أن الإنسـان عـادة كـائن مُبَرِّر (أى يستطيع تبرير أى فعل أو جُـرْم يرتكبه – على الأقل لنفسه – ولو كان بشعا مـروِّعا ممقوتا) ، فإن تبرير ما اقترفه «بول بوت» جاء على لسان واحد من مسـاعديه المقربين فقال فى بيان رسمى : «من الآن فصـاعـدا ، إذا أراد النازحون طعـامـا ، فعليهم أن يعملوا

(٣) تفصيل حياة « مـاو » والمسيرة الكبرى والثورة الثقافيـة فى الأجزاء السـابقة من هذه السلسلة بعنوان : «السياسة والدبلوماسية فى القـرن العشرين » ،و « رجال صاغوا القرن العشرين » ، وفى الحديث عن زوجة ماو فى « نساء شهيرات فى القرن العشرين » .

عدد الضحايا بين أبريل ١٩٧٥ ويناير ١٩٧٩

● قتلى في السجون: بين نصف مليون ومليون.

● الموتى جوعاً ومرضاً: بين ٧٠٠٠٠٠ و٩٠٠٠٠٠.

● الموتى في التهجير والعمل: بين ١٠٠٠٠٠ و٤٠٠٠٠٠.

● المجموع: بين ١,٣ مليوناً و٢,٣.

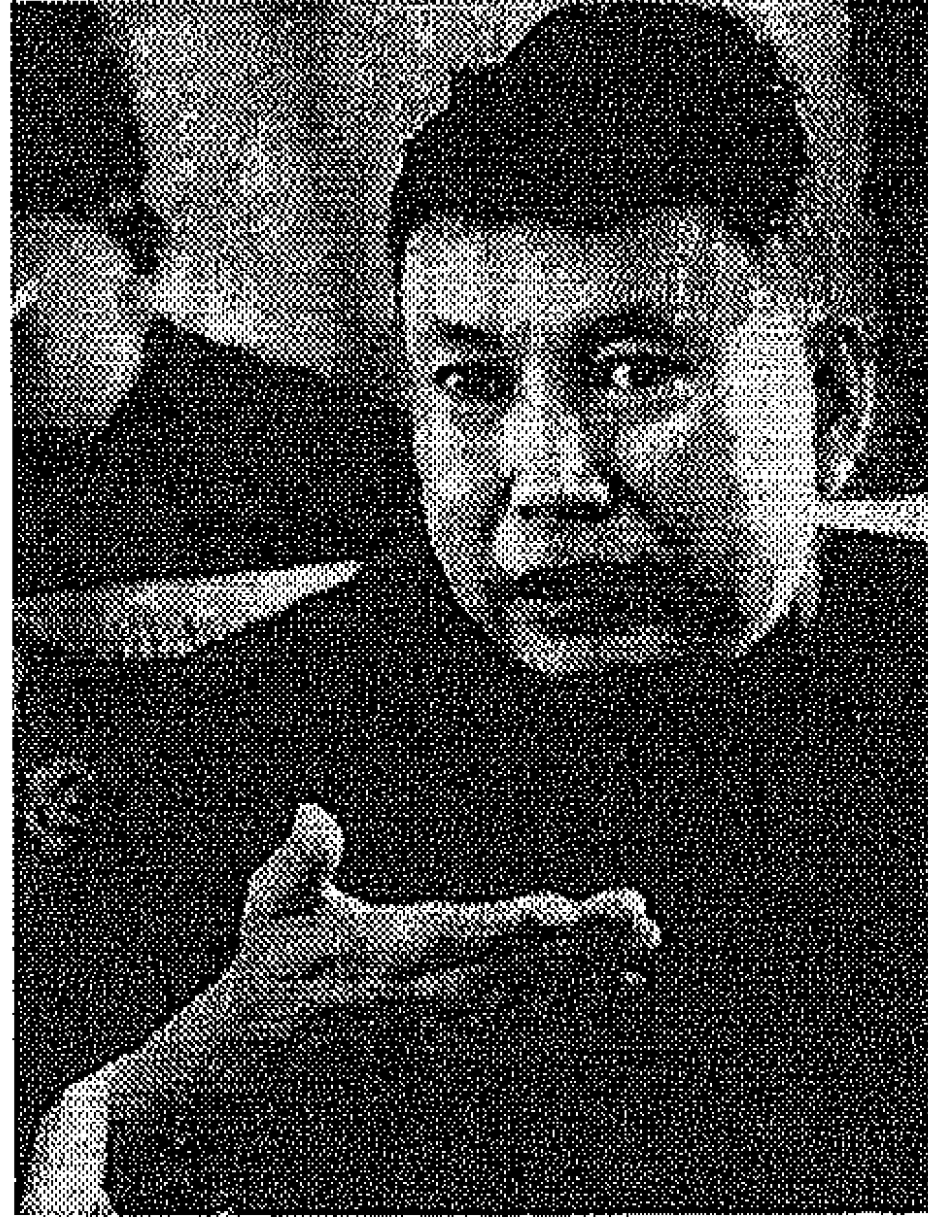
● تعداد السكان: نحو ٧,٥ مليوناً في سنة ١٩٧٥.

ليحصلوا على الطعـــام، وأن يزرعـوا حقـــولا للأرز . لا عـــودة إلى المدينة . فـالـمُدن مساكن الشيطان . لذا سـوف نعمل ونعيش بعيـدا عن المدن» . ثم أضـــاف مفسّرا : فى المناطق الريفيـــة الجديدة فقط يستطيع الناس – بعـــد تَخَلُّصهم من تراثهم العَفِن ومن جذورهم القديمـة العقيمة – أن يتحولوا إلى الشيوعية المثالية الحديثة .

وتعليقا على ذلك ، قال : «أنطونى بول» فى كتابه «قَتْل أرض طيبة-Mur " der of a Gentel Land " : «كـان بول بوت عـازمـا فى إصرار على حَـذْف الماضى لطَمْس الحاضر.. ولم يكن نَهْب المخـازن والبيـوت فى عُرْفـه بقصـد الحيـازة والغنيمة ، وإنما لتـدمير الرغـائب والقِيم . وقـد يبدو أن تحطيمـه للبيوت، وانتهـاكه للمعـابد، وتهشيمه للسيـارات، والأجهزة الطبيـة ، وكل منتجـات التكنولوجيـا الأجنبية .. قـد يبـدو ذلك ضَربا من الجنون .. ربما ، ومع ذلك فإن كل ما فعله كان بدافع هدف يتوافق مع مبدئه ومنطقِه».

وعندمـــا كـــان آلاف من الكمبـــوديين يسقطون صَرعَى الجوع والمرض والعمل الشـــاق الذى لا يُطاق، أو على أثر التعـذيـب الوحشى لارتكاب أدنى





« بول بوت » فى صورة لـه من أواخر السبعينيـات بعد استيـلائه بالقـوة والقهـــر على السلطة . وإلى اليمين جماجم من بعض ضحـاياه المليونين وقـد جُمعت من مقـابر جماعيـة ووضعت فى متاحف بمـدن كامبودية للذكرى .

خطأ أو تقصير، أو لمجرد الشكوى، أو التَّفَوُّه بكلمة تثير غضب «الأخ الأول» ومساعديه أومساعدى مساعديه، كانت حكومته تعلن عن إصدار دستور جديد يصف الدولة – اللادولة – بأنها مثالية (وغيَّر اسمها إلى : كامبوشْيا) ، وبأنها «دولة العمال والفلاحين » حيث «لابطالة على الإطلاق ، ومستوى المعيشة تَضْمَنه الدولة ».





أفراد من جيش « بول بوت » الذى بلغ تعداده فى أبريل ١٩٧٥ نحو سبعين ألفا .

وعن الحياة الأُسرية ، فقد تمزقت من الناحية العملية ، إذ كان الأبناء يُشَجَّعون على مراقبة الآباء والتجسس على ما يقولون أو يفعلون ، فيُخْبِرون رجال «بوت بول» بكل هَمْسة وغَمزة، بكل صغيرة وكبيرة . وهُم الأطفال الصغار الذين كانوا يُساقون للعمل بالمصانع والمزارع ابتداء من سن خمس سنوات . وكان الأطفال المشوهين أو العجزة أو غير القادرين على العمل أو غير المرغوب فيهم ، كانوا يتخلصون منهم بالقتل ، وأحيانا كانوا يُدْفنون أحياء . وساعات العمل كانت تمتد إلى ست عشرة ساعة فى اليوم، ومن يتوانَى أو يتهاون أو يُقَصِّر فى العمل يُقتل على الفور، لأنه عضو مُتْلِف مُعَوِّق مُفسد للمجتمع .. المثالى !

وكان فى كمبوديا خمسمائة طبيب مؤهل لم يَبْق منهم حيا سوى بضع عشرات سُمح لهم باستخدام الأعشاب الطبية فقط فى العلاج ، مثلما سُمح لغيرهم أن يمارسوا هذا العمل حتى لا تُعْطَى «أهمية طبقية» للأطباء أو المثقفين والمتعلمين ، وحتى لا يُشَكِّل هؤلاء إزعاجا للقابضين على السلطة والسيطرة ، أو يُثيروا أسئلة ومجادلات تُفسد خضوع الجماهير ، فيتقوض

النظام الحاكم. وأكثر من ذلك وأطغَى : كل شخص كان يُسْمَع متكلما بالفرنسية ، كان يُعْدَم . والأغرب من ذلك وأشْنَع : كل شخص يضع نظارة على عينيه كان يُقْتَل !!

وفى غمرة الجنون والشذوذ «البول بوتى» والإصرار الرافض لكل إنجازات ومستحدثات العصر بالرجوع إلى أسلوب حياة الأسلاف الذين عاشوا فى إمبراطورية «الخمر» القديمة (سنة ٦٠٠ ميلادية) ، أَمَر «الأخ الأول» باستخدام شبكات للرى فى المزارع الجديدة على غرار الشبكات الفخارية التى كان يستخدمها الأجداد القدماء، طبقا لخريطة أثرية مهترئة بها رسوم بدائية لقنوات ومجارٍ مائية ضيقة طولية وعَرْضية . فلما أطاع المزارعون الأمر وتم تنفيذ شبكات الرى على هذا النحو ، اندفعت فيها المياه من جانب ثم عادت أدراجها نحو مصادرها من جانب آخر ولم تَرْوِ الحقول ! فكانت مجاعة ومحاكمات وإعدام بالجملة .

ولم يقتصر الإعدام الفردى والجماعى على المخطئين والمقصرين والمشوهين والمتكلمين والمثقفين والمنشقين (أو المعارضين)، وإنما امتد سُعَاره ليشمل «التطهير» ، أى التخلص من العرقيات وأصحاب الديانات والمعتقدات . فكانت المحصلة : إعدام ١٠٠٠٠٠ فيتنامى أو من أصل فيتنامى، و٢٢٥٠٠٠ صينى أو من أصل صينى، ١٠٠٠٠٠ مسلم، ١٢٠٠٠ تايلندى أو من أصل تايلندى ، ومن جملة ٢٦٨٠ راهبا بوذيا فى أول حُكم «بول بوت» ، تبقَّى منهم فى نهاية عهده المظلم سبعون فقط . ولم يُعرف بالتحديد عدد ضحايا هذا الحاكم العجيب ، فريد العصر – أو وحيد القرن (العشرين) – فى الطغيان والهذيان . فيقَدِّرهم البعض بمليونين ، ويؤكد آخرون أنهم أربعة ملايين ، وكان عدد سكان كمبوديا آنذاك أقل من ثمانية ملايين نسمة !

وفى أوائل يناير سنة ١٩٧٩ هَبَّت عاصفة هجومية فيتنامية اقتحمت حدود كمبوديا وأطاحت بالحكومة «المثالية» ، وخلَّصت الشعْب المسكين من عذاب ووحشية «بول بوت» الذى هرب مع مساعديه بأسلحتهم إلى داخل

وأخيرا .. كان ختام حياة واحد من أكثر الأشخاص دموية فى القرن العشرين وأشدهم حذرا وسرية .

لم تنشر له صورة حديثة طوال عشرين سنة حتى ٢٥ يوليو ١٩٩٧ حين ظهر خاضعا ذليلا واهنا فى سن الثانية والسبعين للمثول أمام « محكمة الشعب » داخل غابة كثيفة الأشجار ، عقب الانقلاب الدموى الذى حدث بين قادة الخِمَر الحمر ، وحضر المحاكمة نحو ٥٠٠ من شعبه الذين هتفوا : « يسقط عدو الشعب » وكثيرا ما سمع من قبل منهم « عاش الأخ الأكبر» . وبذل جهدا فى السيطرة على نفسه ومَنْع دموعه أن تسيل .. لأول مرة منذ استيلائه على السلطة سنة ١٩٧٥ .

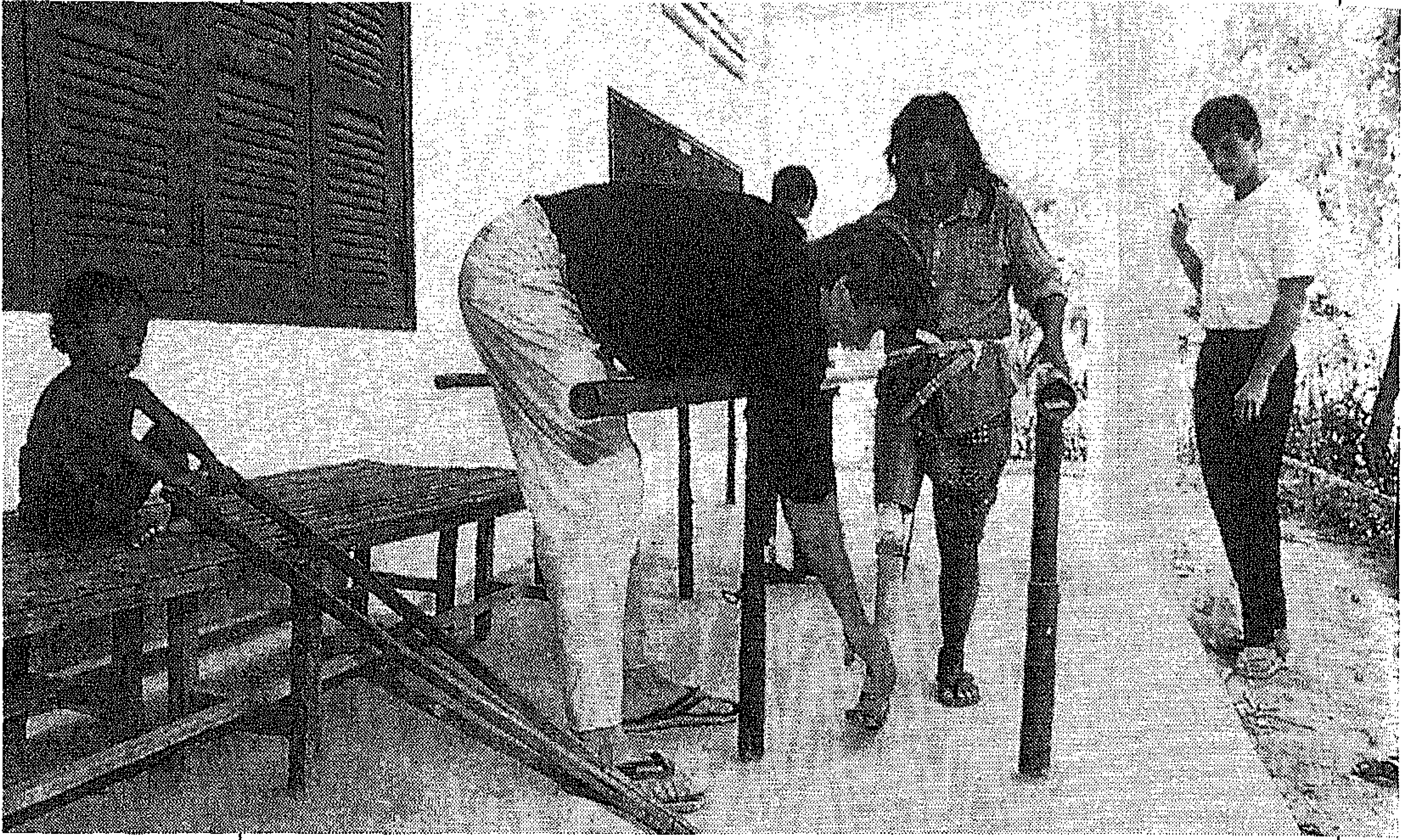


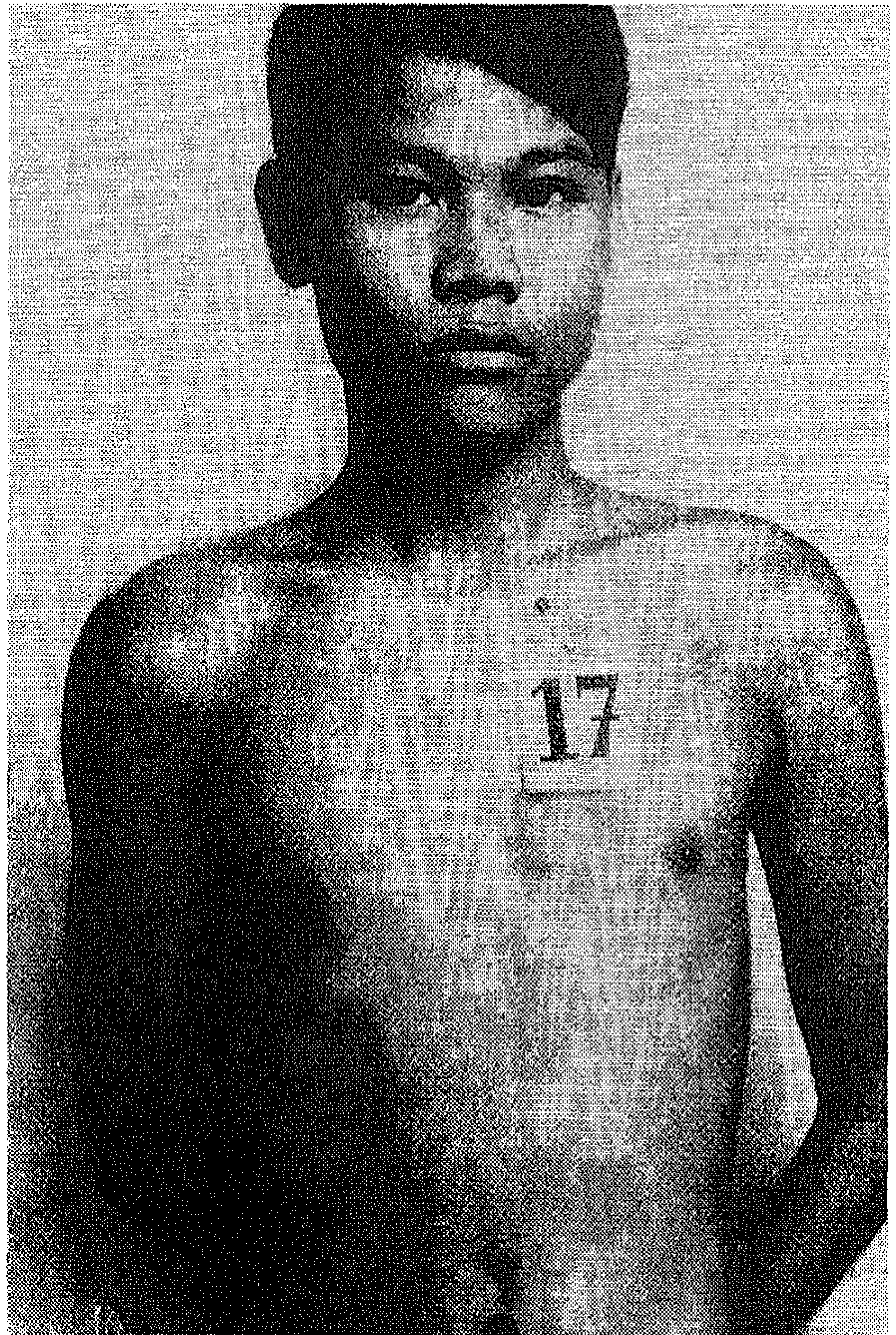


الأدغـــال الكثيفـة والغـــابات المظلمـة عند حـــدود تايلاند . وعـــدد هؤلاء «المســاعـدين» ليس بقليل ، إذ يَبْلـغ نحـو عشرة آلاف ، بأتبـاعهم وأُسَرهم ، وكأنهم جيش صغير مسلح جيـــدا . وأصبحـوا يمارســون الآن – وهو على رأسهم – أعمالا جـديدة : تهريب المخـدرات ، وتقديم الحمايـة والمساعـدات والخدمات – مقابل عمولة أو أجـر – للمهاجرين المتسللين ، ولأموال السُّرَّاق من «رجـال الأعمال» النصَّــابين والموظفين النهَّابين، ولعصــابات الدعـارة ، ولتجـار الأسلحـة والبضــائع وللهـاربين مـن جـرائم . وهكذا تحول هدف المجتمع الشيـوعى المثالى ومنهجـه الإصلاحى المبتكَر ، تحول إلى عصــابات مسلحـة لخدمـة وحماية اللصوص والمهـربين والداعـرين والخارجين على القوانين.

وفى هذا الملاذ الأخير الحقير ، لم يتخَلَّ «بول بوت» عن أسلوبه فى الإرهاب والبطش والتخـويف . فأهالى القـرى القـريبـة من مختبئه فى الغـابات ظلوا يخشـونه ويهابون وحشيـة رجاله . كـانوا دائما على يقين من وجـوده على مقربة منهم ، لكنهم لم يروْه قط ، ولم ينطقوا باسمه أو يتحدثوا علانية عنه ، وكأنه شبح مخيف مُـرَوِّع . فقـد كـان يؤمن بأن الخوف يُـخْرس الألسنة ، والبطش يَعْمى الأبصــار .. ولو إلى حين . وعاش حتى نهاية القـرن مترفا مع زوجتـه الثـانية ، وابنتـه التى كـوَّنت ثروة طائلة وهى تتـولى القيـادة لتلك العصابات بعد أن أضعفته الشيخوخة .

أزعجت تلك العصابات المسلحة الحكومات الكمبـودية المتتابعة بعد عودة الأمير «نورو دوم سيهانوك» إلى عرش بلاده . ثم حَدَث انشقاق فى صفوفها، وعُـزل «بول بوت» مع مجموعـة صغيرة من رجاله . ومع تطور الأحـداث ، أعلنت جماعتـــه أنها تخلَّت عنـه، وحَمَّلَتْـه وحـــده مسئـوليـــة كل الجرائم الشيطانيـة البشعة التى ارتُكبت فى حق شَعبـه . وقدمتْـه لمحاكمة صــورية بجوار شجرة داخل الغابة . ورفض أن يتكلم أمامها والتزم الصمت كالأبله ، فحكمت عليه فى ٢٥ يوليو ١٩٩٧ بعقـوبة مُضحكة (وشر البلية ما يُضحك): بأن يظل حبيســا فى بيتـه (الـمُتْرف) لا يَبْرَح ! وبعد تسعـة أشهـر – فى ١٥ أبريل ١٩٩٨ – مات «العدو الأول» لشعبه .



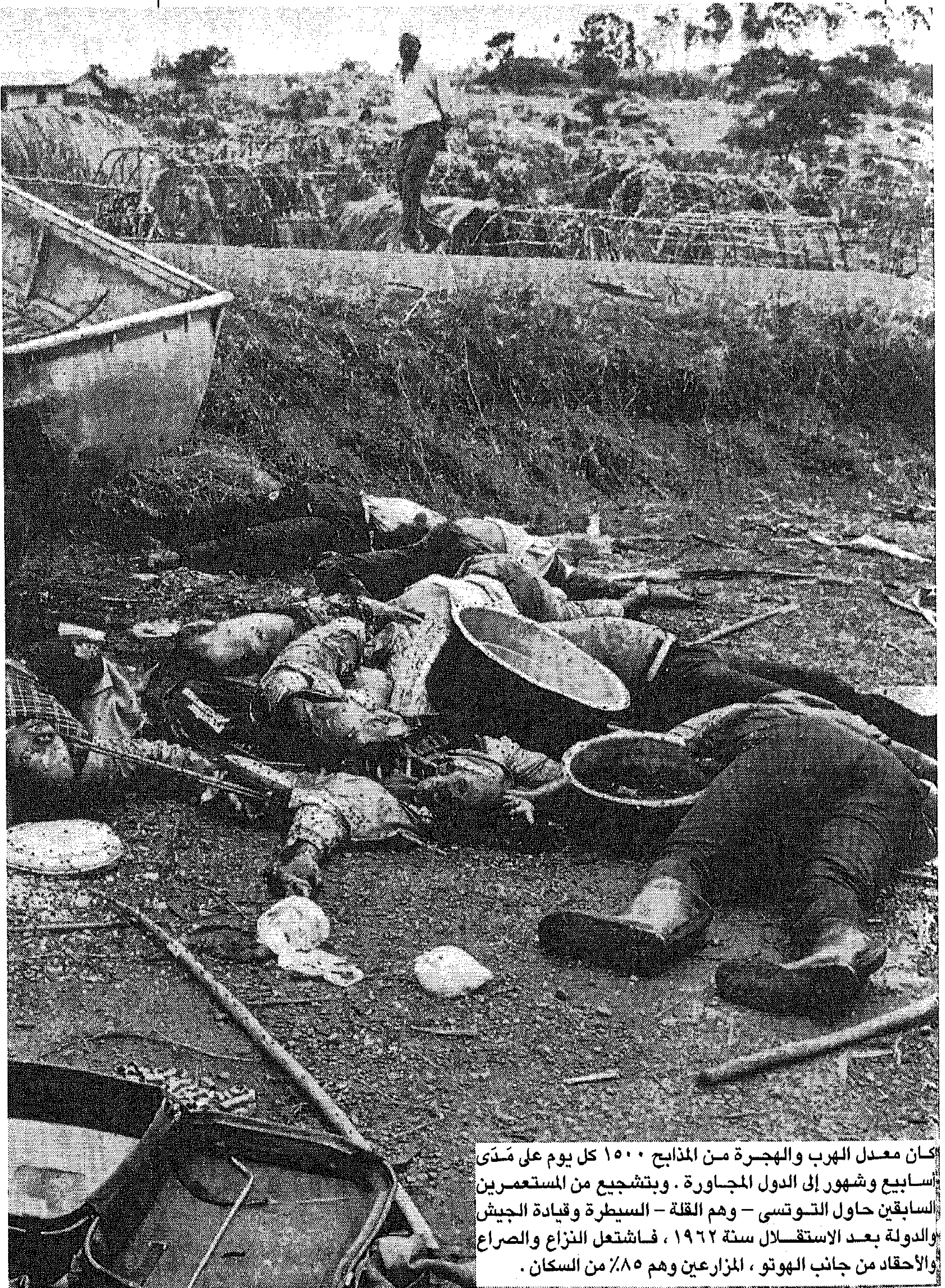


لم تنتــه المأساة المروعــة بموت الزعيم « بول بوت » . فقد سقط آلاف من الكبار والشباب والأطفال قتلى أو مشــــوهين أو مقطوعى الأرجل بسبب آلاف الألغام الأرضيــة التى دُفنت فى كل مكان وحـــول أو داخل الغابات بأمر « الأخ الأكبر »، وأقـــامت منظمات للأمم المتحــدة وأخــرى خيرية مراكز لعلاجهم .

رواندا : أسوأ مذبحة فى تاريخ أفريقيا

إذا قـالوا فى الغـرب أو الشرق عند التحـرى عن الجانى فى بعض الجرائم الغامضـة أو المروِّعة : « فتِّش عن المرأة » ، فإنه يقال فى أفـريقيا : « فتش عن الأجنبى » . وغالبا ما يكون هذا « الأجنبى » مستعْمِرا سابقا يحقد ، أو دخيلا جـديدا يطمع . وما حـدث فى رواندا مع نهاية القـرن العشرين شىء سخيف مخيف مقزِّز مـروِّع . وهو إن كان يُظهـر بجلاء وحشية الإنسـان مع أخيه الإنسان ـ فى الوطن الواحـد وفى نسيج المجتمع الواحد وإن كـان قَبَليا ـ حين تَسقط كل الأقنعـة وتنهـار كل الضوابـط والمبادئ والعقـائـد والقيم ، فإنه يوضـح أيضا بجلاء خُبث ودهاء وفساد السيـاسـات الاستعمارية ـ القديمة والمستحدثة ـ واستهـانتها بالشعوب ومصـائرها وحقها فى الحيـاة الكريمة الآمنة . وهى سياسات الدول التى تزعم تفوقها « الحضـارى » و«الأخلاقى» و «الفكرى » و « الثقافى » ، وتحـاول بكل الوسـائل والأساليب أن تفرض على الآخَرين كلمتها ، ونُظُمها ، وتَسَيـدها . ويحق للباحث أو القارئ أن يَجْزع ـ إن لم يَفْزع ـ من مطـالعة وتصوُّر مـا حَدَث فى رواندا ابتـداء من أبريل سنة ١٩٩٤ حتى ديسمبر ١٩٩٦. إنه حقا شىء رهيب بشع ، يستحيل أن يحدث مثله بين حَشْـد من الذئاب أو الضِّبـاع أو التماسيح ، داخل النوع الواحـد أو الجنس والفصيلة ! فماذا حدث ؟

إن التـوتسى والهوتو ـ القبيلتين اللتين يتكـون منهما مجمـوع سكان



كان معدل الهرب والهجرة من المذابح ١٥٠٠ كل يوم على مَدَى أسابيع وشهور إلى الدول المجاورة . وبتشجيع من المستعمرين السابقين حاول التوتسى – وهم القلة – السيطرة وقيادة الجيش والدولة بعد الاستقلال سنة ١٩٦٢ ، فاشتعل النزاع والصراع والأحقاد من جانب الهوتو ، المزارعين وهم ٨٥٪ من السكان .

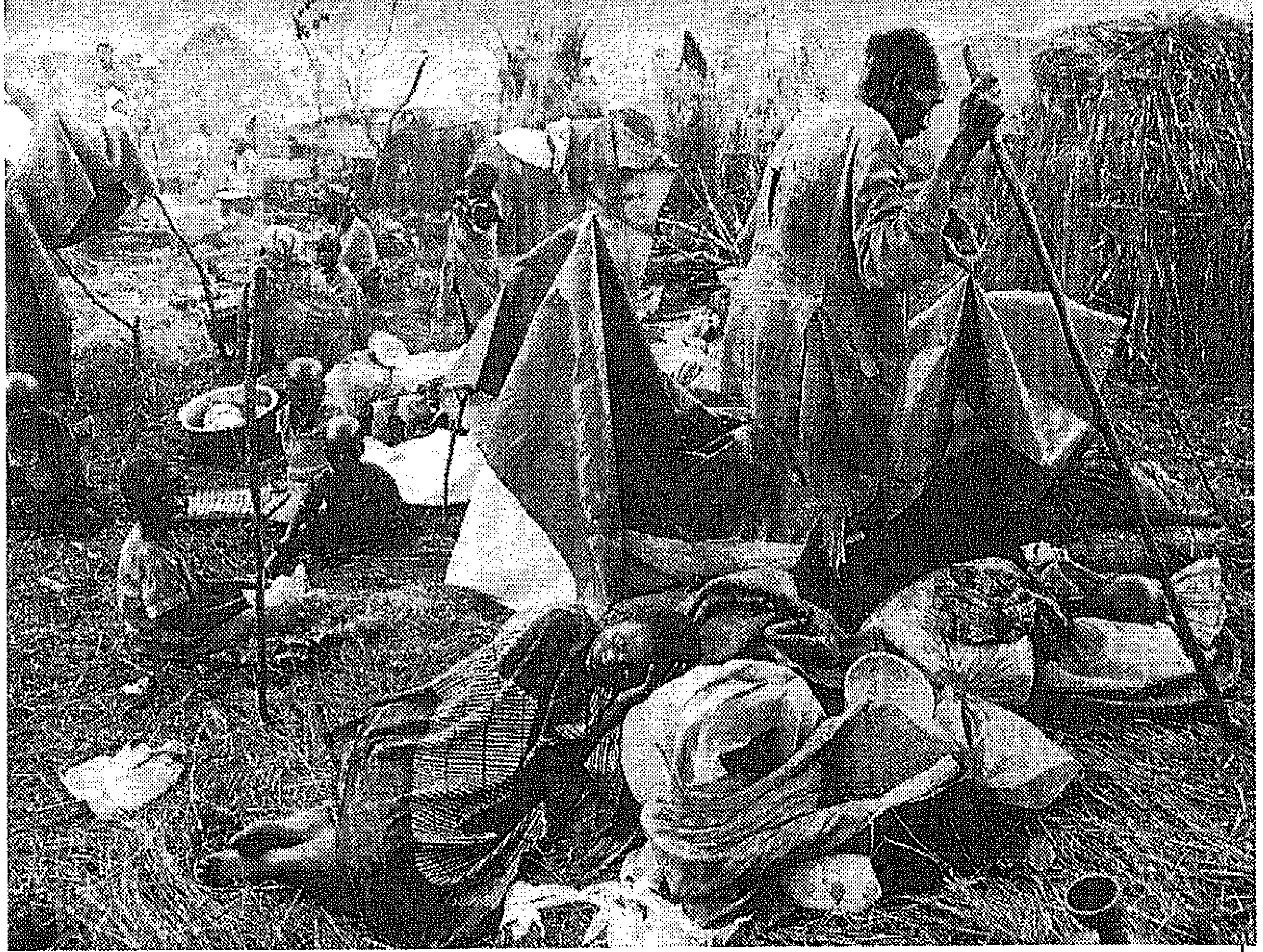
رواندا – يتكلمان لغة واحـدة ، ولهما تاريخ واحد مشترك . وكـانتا تعيشان فى حُسن جـوار مع تقسيم التخصصات المهنيـة : الهوتو لفلاحـة الأرض و الزراعـة ، والتوتسى لتربيـة قطعان الأغنام والماشيـة . فلما جاء الاستعمار الألمانى ثم البلجيكى لم يكْتَفِ بهذا التقسيم المعيشى الطبيعى ، وإنما أضاف تقسيمات خبيثـــة تثير الضغــائـن والسخــائم والنـزاع . حتى الأسماء والمسَمَّيـات : جعل التـوتسى يختــارون لأنفسهم ولذراريهم أسماء تختلف عن أسماء الهوتو ، وفضَّـل الأقليـة من التــوتسى فى التعليم ، والـوظائف ، والإدارة ، ومناصب الشرطـة والجيش ، والمناصب الكنسيـــة ، والبعثـــات الخارجيـة . فلما رحل الاستعمار عن البـلاد ، خلَّف وراءه أحقــادا وأكـدارا وغيظا يتصـــاعـد ، وكلها ضــاربة الجذور فى القلوب والنفـوس . فلما وقعت الكارثة ، تَفَجر مخزون ذلك الشر على نحو غير مسبوق . (١)

٦ أبريل ١٩٩٤ ..

كان رئيس جمهورية رواندا : « جوفينال هابْيـاريمانا » يستقل الطائرة مع رئيس جمهـورية بوروندى المجـاورة : « سيبْرين نتارْياميرا » وكـلاهما من قبيلة الهوتو . وبعد إقلاعها بدقائق سقطت سقوطا أحاطته شكوك قوية بأنه مـدبَّر . وقُتل الرئيسـان ومن كـان بـالطائـرة . فجُن جنون الهوتو من سكان بوروندى ، وانْطَلَقـوا فى الشـــوارع يَصْرخـون فى هيستيريا مطالبين

* رواندا : جمهورية تقع إلى الشرق من الوسط الأفريقى تجاورها « أوغندا » فى الشمال ، و «الكنغو» فى الغـرب ، و «بوروندى » فى الجنوب ، و « تـانزانيـا » فى الشرق . عـاصمتهـا : كيجـال ، تعـداد السكان نحـو ثمانيـة مـلايين . تمر بها بعض الروافـد الأولى لمنابع النيل والتى تصب فى بحيرة فيكتوريا . نسبة التعليم بها ٦١٪ ، ٧٤٪ من السكان مسيحيون كاثوليك ، ٢٪ مسلمون ، والباقى أصحـاب معتقـدات بيئيـة مـوروثة . وينقسم السكان إلى طائفتين قبليتين : التـوتسى (١٠٪ من مجمــوع السكان وهم طوال القـامـة ولهم السيــادة فى المناصب والتعليـم والجيش) والهُوتو (٩٠٪). وكـانت رواندا جـزءا مـن بلجيكا (نتيجـة للاستعمار) حتـى استقلت سنة ١٩٦٢ مع بوروندى . وكانتا مستعمرة واحدة لألمانيا قبل أن تضع بلجيكا يدها عليها سنة ١٩١٦ .

(١) فى سنة ١٩٥٩ (قبل الاستقلال) اشتعلت بوادر نيران الحرب الأهليـة بين الهوتو والتوتسى ، أضعفت من سطوة التـوتسى ، وفر كثير منهم إلى البـلاد المجاورة وبلجيكا . لكنهـا سرعان مـا خَمدت إلى حين . وفى سنة ١٩٦٣ عاد الفارُّون التوتسى للقيـام بانقلاب فاشل خسروا فيه أرواح عدد كبير منهم . ثـم أعادوا المحاولة الانقـلابية فى سنة ١٩٩٠ ، وانتهت بـالاتفاق (الهش) على التعدد القيادى الديمقراطى (فى مجتمع شديد التمسك بالروح والتقاليد القبلية منذ مئات وربما آلاف السنين البعيدة عن المفاهيم الديمقراطية الغربية الوافدة وقد لا تفيده كثيرا) .



فقــــد الأبناء آباءهم وفقـــد الآبـــاء الأهـــل والأسرة ورحل الجميـــــع إلى الضيــــــاع بلا متــــاع ، إلى مستقبل مجهول وحـاضر أشبـه بالجحيم .

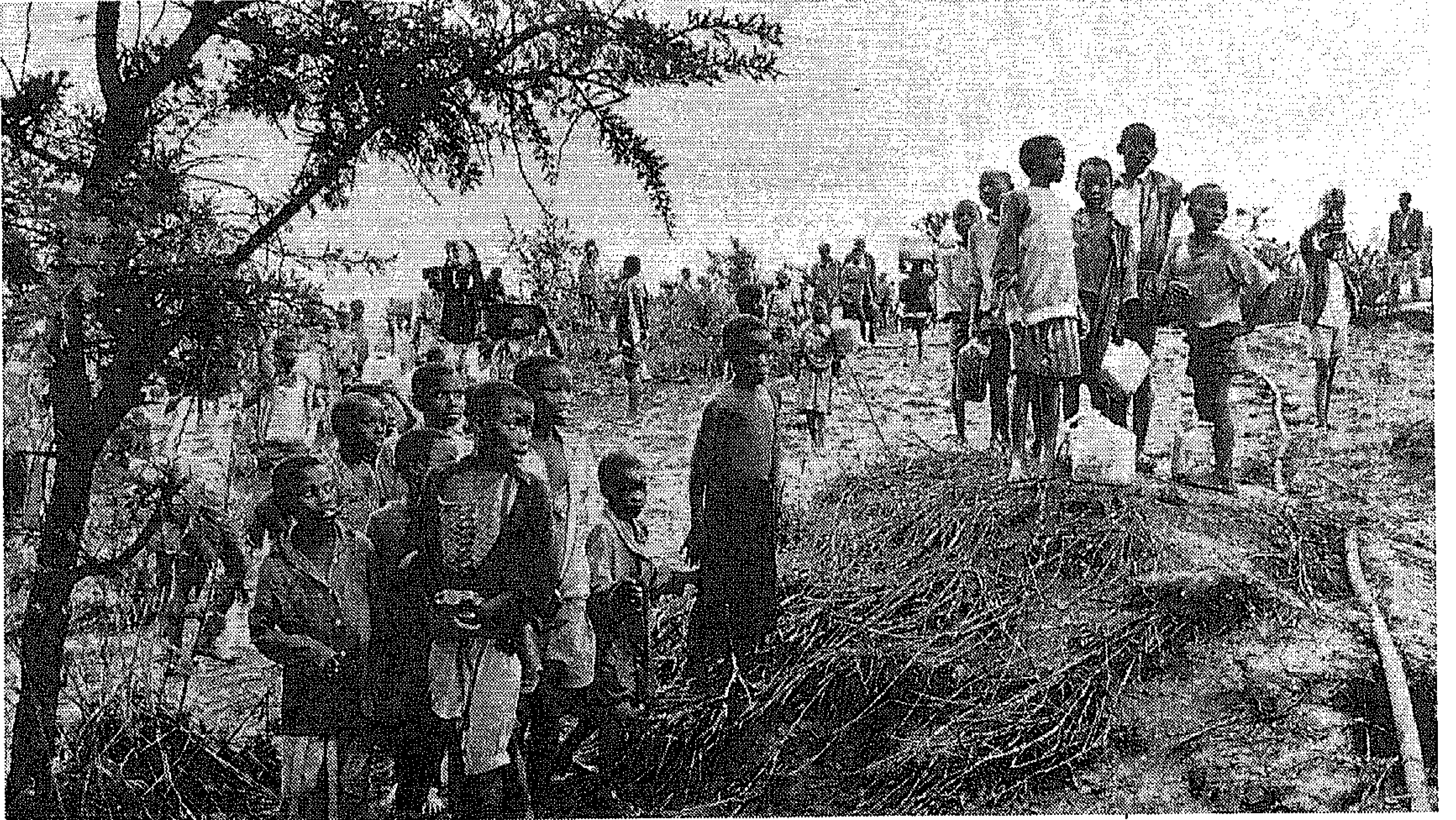
بالثأر ، وتصايحوا من خلال محطات الإذاعـة والتليفزيون يحثُّون إخوانهم الهوتو فى رواندا على قتل كل المنْتمين إلى قبيلة التــــوتسى ، وينادونهم مستَصْرِخين : « املأوا القبور الخاوية ، وأشعلوها حربا لا تُبْقِي ولا تَذَر ». واستجاب إخـوانهم للنداء ، فتطايرت الرءوس ، وبُقِـرت البطون ، وذُبح الأطفال ذبحا والنســاء ، ولم تُفلح جهود العقلاء فى كبح ثورة الغوغـاء . وتبادل الفـريقان ـ الهوتو والتـوتسى ـ المجازر البشرية والمذابح العِـرْقية . ولم يُشْف غليل الحقد عند هؤلاء وهؤلاء إلا بعـد مقتل وذَبْح خمسمائة ألف (نصف مليون !) من الجانبين على الأقل (ولن يُعرف مطلقـا العدد بالتحديد إذ غـالبا هو أكبر من ذلك) ، وبعـد فرار نحـو مليونين من مجمـوع السكان الأقل من ثمانيـة مـلايين إلى بلاد مجاورة خـاصـة إلى الكونغـو[٢] . وحتى أولئك الذين لجأوا بكثـرة إلى الكنائس أمـلا فى الحماية تحت مظلة الدين ، لم يسلمـوا من القتل والذبح من مسيحيين مثلهم بلا رحمة أو هَوادة ولا وازع إيمان وعقيدة .

---

(٢) للمقـارنة : كـانت حصيلة النزاع الدموى الـذى نشب سنة ١٩٥٩ واستمـر سبع سنوات : قتل مابين ٥٠ إلى ١٠٠ ألف من التوتسى وهروب ١٥٠ ألفا منهم إلى خارج البلاد وخاصة إلى أوغندا .

وفى حين نزع الأمريكيون والأوربيون أيديهم وامتنعوا عن التدخل لإنهاء الصراع مبكرا ، أسرع الكثير من الدول ـ خاصة تلك التى خرجت مُفْلسة من نطاق الاتحاد السوفييتى وجمهورياته ـ أسرع لإمداد كلا الفريقين المتصارعين بالسلاح بأسعار زهيدة متنافسة . ولم يكن العراك الدموى المكثف بحاجة شديدة إلى الأسلحة الحديثة، إذ كان يكفى استخدام الهراوات الغليظة ، والخناجر ، والسكاكين الكبيرة ، والفئوس، والسيوف . وكان النداء المتكرر من الإذاعة : يجب قتل كل الأطفال ، حتى ينقطع دابر الأعداء . ولا يُعْفَى من القتل أبناء التوتسى حتى ولو كانت أمهاتهم من الهوتو . وكذلك فعل التوتسى بأبناء الهوتو .

وكان رئيس جمهورية رواندا قبل مصرعه قد نظَّم فرقا للقتل الجماعى ، تتحرك وتهجم كتلة واحدة ، واختار أفرادها من الهوتو المتعصبين الأشداء ، فكانوا ميليشيات منظَّمة ومسلَّحة تأتمر بأمره ، تحت إشراف قائد الجيش . فكان لهذه الفرق تأثير كبير فى نشر الرعب وسفك الدماء بعد ساعات قليلة من سقوط طائرة الرئيس .



معسكرات الموت البطىء التى لجأ إليها فى تانزانيا والكنغو الهاربون من مذابح رواندا وقد فقدوا الآباء فأهلك الجوع والمرض آلافا منهم ، ثم نشبت بينهم معارك ومذابح جديدة وسطو واغتصاب .

● الأمم المتحدة والمذابح



عندما تفقد الدولة أو المجتمع القدرة على إطعام الجائع والأمان للخائف والحماية للضعيف، ينهار كل شيء، ويُباح للأشرار والأغمار والسفاحين والقتلة أن يرتكبوا كل جَريمة.

كم استغرق قتل وذَبْح النصف المليون رواندى؟ أقل من عشرة أسابيع ! ولو أن الأمم المتحدة تدخلت مبكرا ـ وهذا من واجباتها ومسئوليتها ـ لأنقذت أرواح الآلاف من الذين سالت دماؤهم فى الشوارع، والبيوت، والمدارس، والكنائس، وملاعب الرياضة التى التجأوا هربا إليها. ولم تُحرك بلجيكا ساكنا أو تشعر بوخز ضمير أو نبض مشاعر. كل ما فعلتْه هى وفرنسا أن أرسلتا جنود مظلات لإجلاء رعاياهما والأجانب المقيمين فى رواندا، دون اهتمام بالموظفين الروانديين الذين كانوا يعملون فى السفارات الأجنبية أو فى وكالات الأمم المتحدة والمنظمات غير الحكومية. وكانت الأمم المتحدة ـ وكذلك الولايات المتحدة الأمريكية ـ غارقة آنذاك فى مستنقع الحرب الأهلية الصومالية. فكانت الولايات المتحدة ـ مثل دول أوروبا ـ مُعْرِضة عن منطقة ليست لها مصالح مباشرة فيها أو منفعة استراتيجية. وعندما أرسلت فرنسا بعض جنودها فى وقت متأخر إلى رواندا، كان ذلك بدافع مصالح اقتصادية واستراتيجية، ولم تفعل شيئا ذا قيمة لإنهاء الصراع أو حتى التخفيف من حدته.

وهَرب من الحرب الدموية المستعمرة نحو مليونين من التوتسى والهوتو إلى معسكرات للاجئين فى الكونغو وبلاد أخرى مجاورة. ثم ما لبث المتعطشون للدماء من كلا الفريقين أن عادوا للاقتتال فى المعسكرات، ونَهْب المعونات الغذائية التى أرسلتها بعض الدول والجمعيات الخيرية ووكالة غوث اللاجئين. ومات آلاف آخرين بسبب انتشار أمراض كالكوليرا والديزنتاريا. وتبقى للتاريخ ذكرى هذه المذابح والحرب الأهلية البشعة فى رواندا كعلامة سوداء تَدْمَغ سياسات الاستعمار الأوروبى فى أفريقيا، وآثارها المهلكة المروِّعة. ودائما تدفع الشعوب المستَضْعَفة الثمن غاليا، وأحيانا من حساب أجيال قادمة.

مجرم حرب : أرئيل شارون

أيًّا كان خطر هذا الرجل الدمـوى فى الإرهاب والإجرام ، فهو بلا شك ظل طوال خمسين سنة وأكثر : صادقا مع نفسه ، صـادقا مع فكره ، صادقا مع عصـابات شعبه ، صـادقـا فى رسـم وتثبيت المرحلة قبل الأخيرة من برنامج الصهيـونيـة الإسرائيليـة – التى بدأت تُنسج خيـوطهـا منذ قـرن – بهدف السيطرة على العالم ، وتسخيره لخدمة واستغلال « أبناء شعب الله اليهودى المختـار » كما يزعمون ويعتقـدون ، بكل وسيلة مشروعة أو غير مشروعـة ، أخلاقيـة أو غير أخلاقية ، إنسـانية أو وحشية ، سلميـة أو دموية ، سرية أو علنية ، فالغـاية تبرر الوسيلة ، والوسيلة لا ترتبط بأوهام الفضيلة ، فالحق للأقـوى وإن يَكُ ظالما . وهذا ما جـرى فى دم وفكر وعقيـدة طوائف من أبناء هذا « الشعب المختار » ، وهو ما تبنتْـه سياسات الدول « المتحضرة الكبرى » منذ عصر الاستعمار فى القـرنين الماضيين ، وظهـر فى أشكال وصـور مستحدثة فى القرن العشرين ، وبلغ ذروته فى نهاية القرن بعد انهيار الاتحاد السوفييتى وسقـوط حائط برلين ، فبـدأت الولايات المتحدة الأمريكيـة تُعِد وتُمهد لهَجْمتها الشاملة على العالم سياسيا واقتصاديا وإعلاميا وعسكريا ، ومن ورائهـا – بل فى جـوفهـا – إسرائيل ودعائمهـا من المؤسسـات الماليـة والصناعية والتجارية والإعـلامية اليهودية ، والمنظمات والاتحادات وقُوى الضغط والتأثير الصهيونيـة ، محليا وعـالميا ، رغم أنف الأعـراف والقوانين

والهيئات الدولية كالأمم المتحدة التى صارت فى نهاية القرن لعبة مهترئة تلهو بها السياسة الأمريكية – وتبيعتها بريطانيا – وتُلهى بها الضعفاء والخطباء والعَجَزَة ، وكأنما المثل السائر القديم « هو يؤذِّن فى مالطة » صار : إنه يخطب – أو « يصوت » – فى نيويورك !

وسواء فى نيويورك أم فى تل أبيب ، لا يجد المراقب المنصف الواعى حُجة قوية يُعفى بها غالبية الشعب الإسرائيلى أو الأمريكى من مسئولية ما يرتكبه ساسته وقيادته – من أمثال أريل شارون كما سنرى – من أعمال جائرة ظالمة ، وأحيانا وحشية شائنة ، ثم يوصَف الشعب – هنا أو هناك – بالبراءة والطهارة من الإثم أو الذنب . لسبب بسيط: أن إسرائيل تَزْعم وتَصْخب بأنها الدولة الوحيدة الديموقراطية فى منطقة الشرق الأوسط ، والولايات المتحدة تروِّج لنفسها أنها تقود زعامة الحرية والديموقراطية فى العالم ، الغربى على الأقل ، ولأبناء الشعبين – هناك وهنا – كلمة مسموعة ورأى مُصان ، وهم الذين يَنْتخبون فيختارون بإرادتهم الحرة قياداتهم السياسية (خاصة فى الولايات المتحدة التى يُنتخب فيها العُمدة ، والشريف (رئيس الشرطة المحلية) ، ومحافظ الولاية ، والبرلمانيون المحليون ، وأعضاء الكونجرس النواب والشيوخ ، ورئيس الجمهورية ونائبه) ، وهم الذين يعرفون شخصية وهَوية وطَوية ومقصد مَن يختارون وينتخبون . وهم الذين يتابعونه ويرصُدون ، فَيَرْضون أو يَرْفضون ، أو يُسْقِطون ويُقيلون . إذنْ فإنهم فى المسئولية والنَّهج شركاء ، وفى واقع الأمر ليسوا كلهم أبرياء . فما بالنا إذا كان منَفِّذ سياسة الإرهاب والبطش والجبروت والاغتيال والإبادة والتدمير والقتل (الفردى والجماعى) من أمثال « شارون » يلقَى دعْما وتأييدا وتشجيعا – وربما إكبارا وتعظيما – من الغالبية الشعبية الناخبة ؟ وعلى مَن تقع مسئولية الجرائم التى يرتكبها علانية بلا وازع يَمْنع، أو رادع يَقْرَع ، أو سافِع يَصْدَع كل جبار عنيد ؟[1] إن الصهيونية

---

(١) السافع (بكسر الفاء) من سَفَع : أى أخذ وقَبض بشدة . وفى الآية القرآنية : ﴿ كلا لئن لم ينته لنَسْفَعًا بالناصية ﴾ . سورة العلق – ١٥ .

الباغيـة الطاغية ظلت طوال خمسين سنة – ولاتزال – تبتـز الشعْب الألمانى وتحصل منه على المليارات والتعويضات بحجة – وإن كانت زائفة – أنه كان مشاركا لهتلر فى إبادة عدد من اليهود ، وذلك بالسكوت والصمت . وما فعله « شـارون » ومن سبقه من سفـاحى صهيـون فى فلسطين العربيـة فاق مـا نُسب إلى هتلر والنازية ، وربما أيضـا ما جناه « ستـالين » و « بول بوت » فى كمبوديا و « بينوشيه » فى شيلى .

ثم .. مـا حقيقـة وطبيعـة هذه الـدولة القـائمـة أصـلا على الاغتصـاب والإرهاب والعدوان والمشاكسة والشر ، وظلت تمارس ذلك بلا انقطاع طوال سبعين سنة ـ ولا تزال مع أصحـــاب الأرض التى استلبتهـا ، ومع جيرانها الذين تزاحمهم ، ولا تريد أن تـرعوى أو تستـــوى أو تستكين ؟ وإلى متـــى تظل دائما تُسْلم قيادها إلى بُغاة عُتاة جبارين ، مصابين بسُعَار الدم والدمار، ونَشْر الكراهيـة والفساد فى الأرض ، وإهـلاك الحرث والنسل ؟ فهذا واحـدٌ منهم .



اقتحـــام المنازل الفلسطينيـــة فى الأراضى المحتلة ، وتحطم الأبـواب والأثاث وسرقـــة النقود والمقتنيات وقتل النســـاء والأطفال كلها من بـــرامـج جنـــود إسرائيل اليـومية بـأوامـــر من شـارون وقيـــادة الجيش المحتل . (مارس ٢٠٠٢)

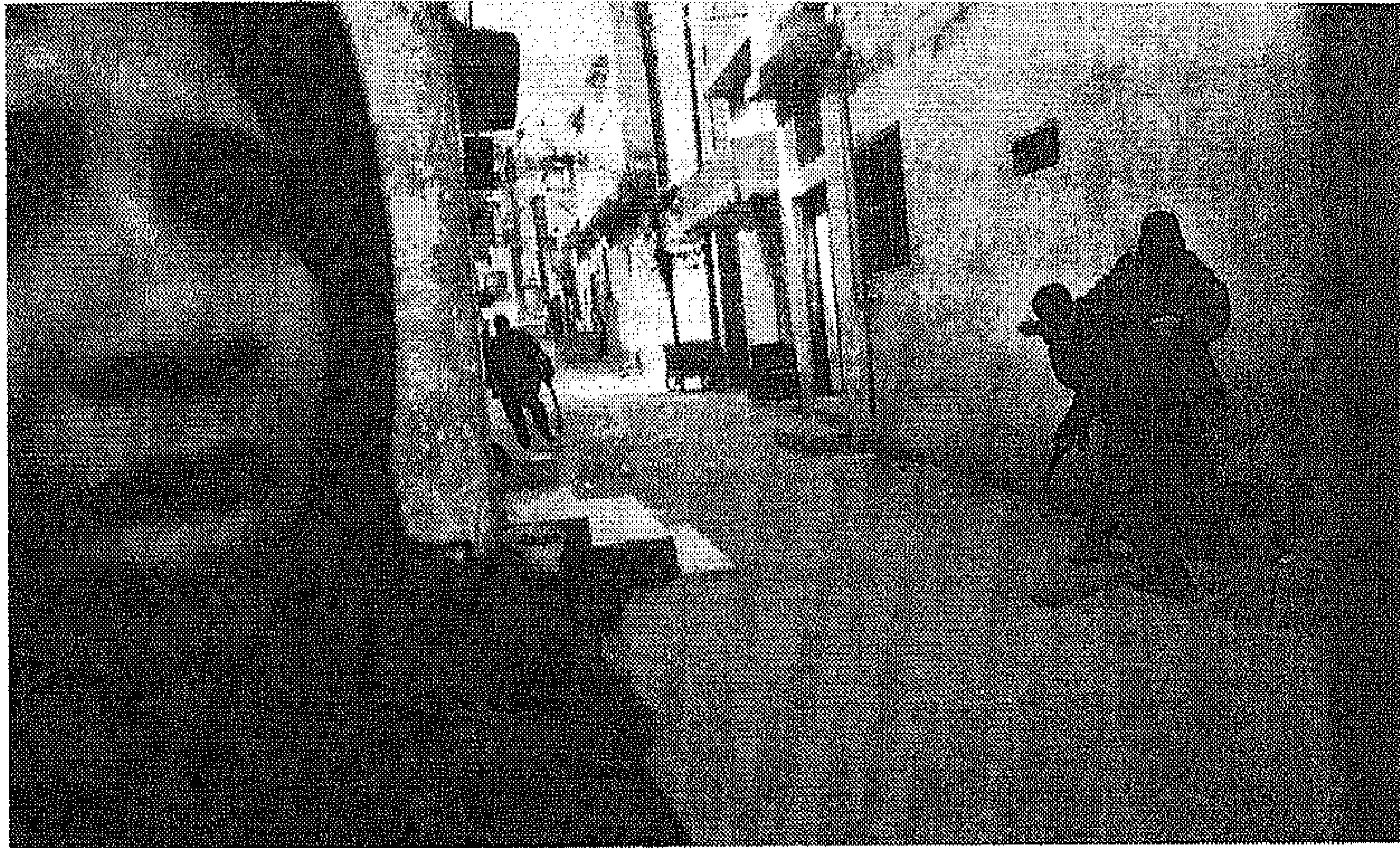
انتخبوه رئيسا للوزراء فى أول عام من القرن الجديد ـ الحادى والعشرين أى سنة ٢٠٠١ ـ لقتل واغتيال الفلسطينيين فى أرضهم التى تحتلها إسرائيل، أفرادا وأطفالا وجماعات ، وتدمير منشآتهم ومنازلهم . والاستيلاء عُنْوة على أراضيهم بلا مقابل ، وإتلاف مزروعاتهم وحدائقهم ، واقتلاع عشرات الآلاف من أشجار الزيتون ، ومحاصرة القرى والمدن ، واقتحامها بالدبابات والمصفحات والجرافات ومن فوقها الطائرات الحربية بالصواريخ والرشاشات ، ومَنْع العاملين والمزارعين والتجار من الخروج لمباشرة أعمالهم والسعى على أرزاقهم حتى تجاوزت نسبة البطالة ٥٠٪ من القُوى العاملة ، وحِيل بين التلاميذ وطلاب الجامعات وأساتذتهم وبين الوصول إلى مدارسهم ومعاهدهم وكلياتهم ، كما مُنعت النساء من الانتقال عَبْر الحواجز إلى المستشفيات للولادة ، وعند هذه الحواجز العسكرية المحاطة بالدبابات والرشاشات وَضَعَتْ أكثر من سيدة مولودها ، ومات بعض هؤلاء المواليد بالطريق تحت أعين الجنود اليهود وضباطهم بلا اكتراث . وغير هذا من الجرائم والمظالم والعدوان والإرهاب كثير ، ليلاً ونهارا ، وأمام العالم كله ساعة بساعة ، عن طريق التليفزيون وأجهزة ووسائل الإعلام والاتصال .

فمن يكون هذا الدموى السفاح ؟ وكيف أجاد تمثيل الصهيونية فى أقبح صورها ؟

اختار لنفْسه أن يجعل حياته كلها مرهونة بهدف واحد : محاربة العرب ، وسحقهم إن استطاع ، والكيد لهم بلا انقطاع ، داخل وخارج فلسطين ، وقبل أن تُستزرع فيها دولة غاصبة باغية تسمى إسرائيل .

فى سنوات الخمسينيات من القرن ، كان على رأس وحدة صهيونية إرهابية متطرفة مسلحة ، تخصصت فى الإغارة على عرب فلسطين المسالمين ، فنالت تلك الوحدة شهرة فى الشراسة والعنف ، وهى « الوحدة ١٠١ » . ولم تتغير سياستها ومنهجها وعقلية قائدها وأفرادها حتى نهاية القرن : استخدام القوة والعنف المرّوع فى القتل والتدمير للعرب ، ولكل ما هو عربى ، انطلاقا من الإيمان الراسخ بكراهية العرب واحتقارهم ، ونَشْر تلك الكراهية

بأية وسيلة فى كل مكان من العــالم يمكِّن لهم من التأثير على الناس . وعندما انتُخب رئيســا للوزارة الإسرائيليــة ، توقَّــع بعض من لا يعــرفــون حقيقــة طبيعته ومزاجــه وفكره ، أنه « سيتغير » ويصبح أقرب إلى التروِّى والاعتدا. لكنهم سرعان مــا تَبَينوا أنهم كانوا واهمين : إذ ما لبث أن كشف عــلانية عن مخزون حقده على العرب ، وبدأ فى تطبيق منهــاجه ـ السياسى والعسكرى ـ فى التدمير والاغتيال والصلافــة والقتل ، فى وقت كان المفتَرَض معه أن يكون طرفا عــاقلا عازمــا على إنهاء صراع طال واستحال إلى مشكلة عالميــة معقَّدة لأكثــر من خمسين سنــة . فكأنه لم « يتغير » مطلقــا مُــذ كــان فى أوائل تلك السنوات الخمسين . وهل تَطْرَح شجرة الشوكِ إلا الشوك ، أو تَنْفُث الأَصَلَةُ غير السُّم ؟!



داخل أحــد أزقــة مخيم لــلاجئين الفلسطـــينيين المطـرودين مـن أرضهم وديــارهم منذ خمسين سنة ، يهاجــم جنــود شارون بــالسلاح والضرب المــادرة من السكان العزل وينشرون الدمــار والفساد .

● **بداية بلا نهاية**

إحــدى أوائل « بطولاته » الإرهابيــة الــدمــوية كــانت فى قــرية « فيبيــا » الفلسطينيــة بوادى الأردن فى أكتــوبر سنة ١٩٥٣ : فقــد طلبت منه القيــادة العسكرية الإسرائيليـــة أن يُرْهب ويَقمع سكان تلــك القــرية ويدمِّـــر بعض بيوتها بعد طرد ساكنيها . فماذا فعل هذا الصهيونى السفاح ؟ حاصر منطقة كبيرة من القــرية ، وأمر عصــابته بزرع ستمائــة كيلو جرام من المتفجــرات الشديدة حولها ، فدمرت خمســة وأربعين بيتا دفعة واحدة بمن فيها ، ودُفن تحت أنقــاضها تسع وسبعــون ضحيــة نصفهم من النساء والأطفــال . ولم

يحاسبه أحد ! بل كانت إحـدى بواكير شهرته فى جبروت العنف ، والمغالاة فى فُجر الخصومة .

فكان فى كل مـرة يُطلب منه الإغارة على عـرب فلسطين ، يتجاوز حـدود الأوامر الصادرة إليه ، فيضيف من عنده مزيدا من الترهيب والتدمير والقتل. وفى فبراير عام ١٩٥٥ أغار ـ بلا مبرر ـ على معسكر للجنود المصريين فى غزة بفلسطين ، فقتل ثمانية وثلاثين ، مما حدا بالرئيس الراحل جمال عبد الناصر إلى التعجيل بعقـد شراء صفقـة أسلحـة من الكتلة الشيـوعيـة (تشيكوسلوفـاكيا)، فكانت بـداية اتجاهه نحو الاتحاد السـوفييتى والدول الشرقية الاشتراكيـة . وفى ديسمبر من السنة نفسها ، شن شـارون وجنوده هجوما على الجنود السـوريين عند بحيرة طبرية فقتل ستة وخمسين منهم ، فأثـار قلقـا فى القيـادة السياسيـة العليـا داخل إسرائيل . لدرجـة أن رئيس وزرائها آنذاك « ديفيد بن جوريون » ـ وتـاريخه حافل بالعدوان على العرب والمذابح والنسف والتـدمير ـ أبدى انزعاجـه من أفعـال شارون ، الضـابط الشاب الذى يتجـاوز المرغوب فيه والمطلوب . وكان تعليق سفـاح صهيونى آخر مشهـور « موشى دايان » : « إن حَد (وحـدة) القياس عند « أريك » أى شارون هى العشرة ومضاعفاتها . ففى كل مرة ينفِّذ بنجاح عملية هجومية ، لا تكون حصيلتها إلا بعشرات القتلى فى جنود وقرى العدو » .



نساء فلسطينيات عند نقطة تفتيش بين القـدس العربية ومدينة رام اللـه ، تحت تهديد السـلاح والغطرسـة العـدوانيـة الذميمة. (أغسطـس ٢٠٠٢)

وفى بداية عَقد السبعينيات ، تولى الجنرال شارون قيادة القطاع الجنوبى لإسرائيل ومقاومة كفاح الفدائيين الفلسطينيين فى قطاع غزة الذى احتلتْه إسرائيل بعد حرب سنة ١٩٦٧ . فوضع قائمة بأسماء أكثر من مائة من قادة العمل الفدائى الفلسطينى المشروع وفقا للقوانين الدولية التى تبيح مقاومة الاحتلال ، ثم شرع فى اغتيالهم واحدا واحدا ، وهو نفس الذى فعله فى سنة ٢٠٠١ بعد توليه رئاسة الوزارة مع قيادات الجماعات الإسلامية وغير الإسلامية الفلسطينية التى انتفضت - بعد طول معاناة وقهر وصبر - لمقاومة جرائم الاحتلال . وفى تلك الفترة الزمنية من عقد السبعينيات ارتكب عملا عدوانيا إجراميا من تلقاء نفسه بدون أوامر صدرت إليه من قيادته ، يدل على مدى قسوته وشراسته وإرهابه الدموى الشيطانى الخبيث الدفين: فى منطقة « رفح » جنوب غزة وعند الشريط الحدودى مع مصر ، أغار بوحشية على سكان تلك المنطقة من السكان والبدو فأهْلَك وجَرَح وشَرَّد ودمَّر وخرَّب وسمَّم آبار المياه ، واستولى على الأغنام والأنعام ، حتى أثار موجة من الاحتجاج والمعارضة داخل إسرائيل استنكرت تلك « السياسة اللا أخلاقية » التى تحرم شعبا تحت الاحتلال من أبسط حقوقه الأساسية . ولا يخفَى أن هذه الموجة من المواجهة والمعارضة كانت تنشط بين الحين والحين أيام وجود الاتحاد السوفييتى ونفوذ الأحزاب والجماعات والتنظيمات اليسارية فى إسرائيل وغيرها من بلاد كثيرة بدعم أو تأييد من موسكو .

ولم يستطع أن يكتم بُغْضه لمصر المنتصرة فى حربها مع إسرائيل فى رمضان - أكتوبر ١٩٧٣ ، ومَقْته لاتفاقية السلام التى عُقِدت بعدها فى الولايات المتحدة ، فقد كان من المقرر إخلاء شبه جزيرة سيناء من أى وجود إسرائيلى حدث بعد حرب سنة ١٩٦٧ ، وفى سنة ١٩٨٢ كان تنفيذ الفصل الأخير من إنهاء هذا الوجود الاحتلالى . فأراد شارون أن يكتسب سمة من نيرون : بأن دمَّر تدميرا كاملا مدينة « ياميت » الحديثة البناء والتشجير، التى أقامتها إسرائيل منتجعا لليهود فى فترة احتلالها لسيناء ظنا منها أنها ستضع يدها على شبه الجزيرة إلى مالا نهاية ، لكن حرب رمضان - أكتوبر



الانتصار المصرى العربى الكبير فى حرب رمضان / أكتوبر ١٩٧٣ .

أذلت كبرياءها وصَلفها وكسرتْ زعمها الزائف بأنها لا تُهْزَم . كان تدمير ياميت عملا تلقائيا من شارون تنفيسا عن غيظه وحقده ، قائلا إن مصر لا تستحق أن تَنْعم بهذه المدينة الجميلة .

وبعد أشهر قلائل (فى يونيو ١٩٨٢) اندلع لهيب الحرب الأهلية الطائفية فى لبنان من جديد ، فوجدها وزير الدفاع الإسرائيلى المتعطش للدماء « أريل شارون » فرصة سانحة لمتابعة منهاجه الإجرامى الإرهابى ، فتصدى بنفسه لتنفيذ خطة وضعها ـ بنفسه أيضا لنفسه ـ للإغارة على العاصمة بيروت ، بذريعة أن بها مقر رئاسة الفدائيين الفلسطينيين المناوئين

لإسرائيل. فقذَفَتْها الطائرات الحربية بالصواريخ والقنابل التى قتلت مئات من المواطنين اللبنانيين ـ من الرجال والنساء والأطفال ـ الذين لم يشتركوا فى الصراع الدائر آنذاك على الساحة اللبنانية ، ولم يصيبوا الجنرال السفاح وقومه بأى أذى أو مَضَرة .

وفى منتصف سبتمبر ١٩٨٢ ـ أى بعد أسبوعين من رحيل المقاتلين من منظمة التحرير الفلسطينية عن العاصمة اللبنانية ، اقتَحَمها شارون بجنوده، ناكِثا تعهده السابق بعدم غزوها بعد خروج الفدائيين منها . وفى اليوم التالى مباشرة ، أعطى الإشارة للجماعات المسلحة من حزب الكتائب المارونية الشديدة التطرف والتعصب ولها علاقات بإسرائيل ، وساعدها على اقتحام معسكرات « صابْرا » و « شاتيلا » جنوب لبنان التى تأوى عشرات الآلاف من اللاجئين الفلسطينيين الذين اغتصب الصهيونيون اليهود أرضهم وديارهم . فعاثت تلك الميليشيات الكتائبية المارونية فى المعسكرات بغيا وفسادا ، تقتل وتذبح فى مجازر جماعية على مدى يومين كاملين ، وجنود شارون يحيطون بالمعسكرات حماية للجُنَاة ومَنْعا لخروج الفارين من المعسكرات ، فكانت واحدة من أبشع وأخس المذابح التى شهدها الصراع العربى ـ الصهيونى طوال القرن العشرين .وبعد ساعتين اثنين من بداية المذبحة التى دبَّرها شارون مع حزب الكتائب ، بلغ خبرها قيادة الجيش والحكومة فى إسرائيل ، ولم يتحرك أحد للردْع أو مناقشة الوضع . فلما انتهت المذابح ، كانت حصيلتها أكثر من ثلاثة آلاف قتيل ـ وقيل خمسة أو أكثر ـ معظمهم من النساء والأطفال والمسنين ـ بخلاف المصابين والجرحَى والمشوَّهين . وظل مئات غير هؤلاء وهؤلاء بعد عشرين سنة فى عِداد «المفقودين » .

وتحت ضغط الرأى العام العالمى الساخط ، تكونت لجنة فى إسرائيل للتحقيق فيما حدث ، فانتهت فى تقريرها إلى أن « الجنرال شارون يتحمل شخصيا مسئولية المذبحة، وطلبتْ تنحيته عن منصب وزير الدفاع ، واستجابت الحكومة لهذا المطْلب تخلصا من تضامنها فى المسئولية ، وإرضاء

20 - SEPTEMBRE 2002 - *LE MONDE DIPLOMATIQUE*

« LE PASSÉ, C'EST ENCORE LE PRÉSENT »



Sabra et Chatila, retour sur un massacre

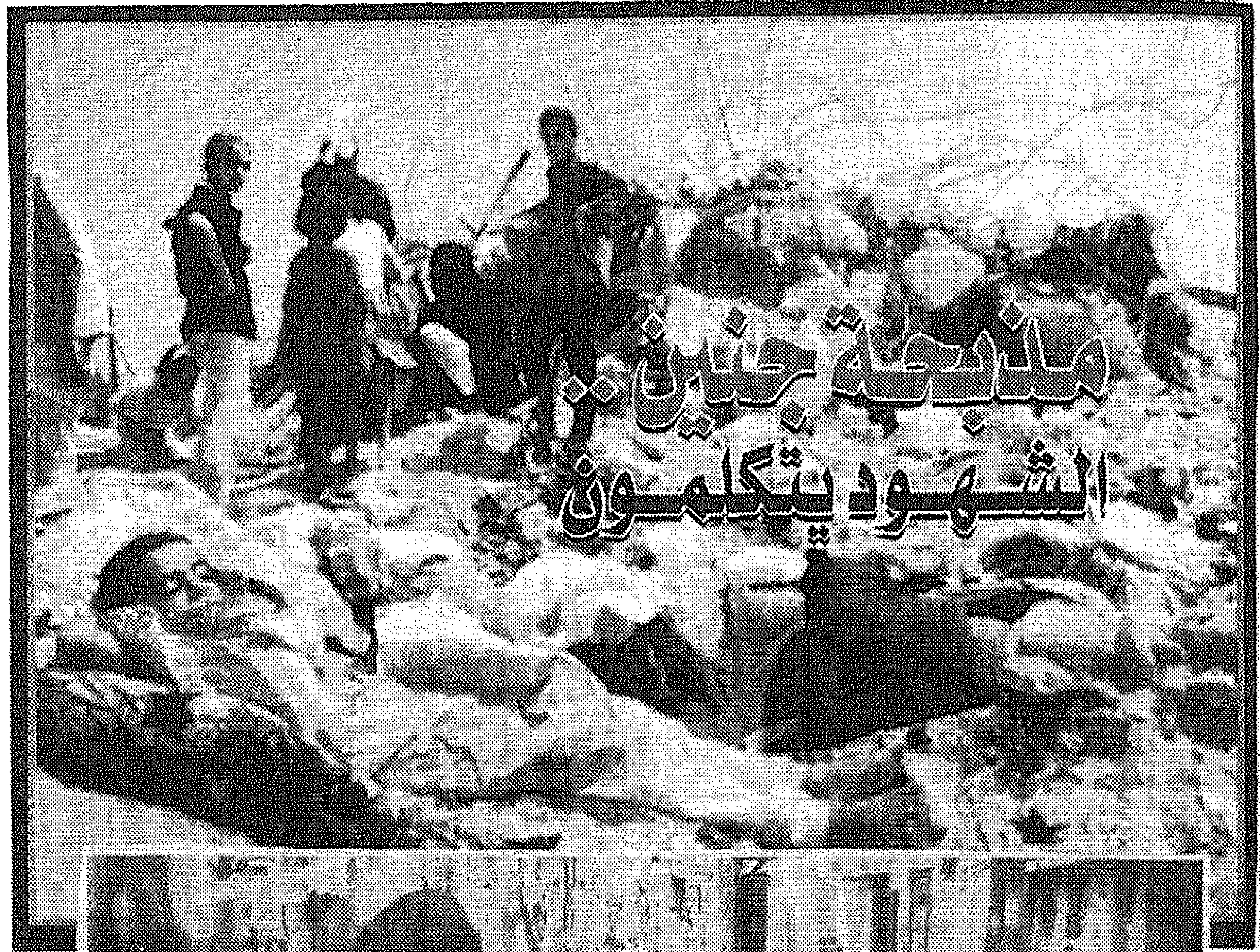
Dans les territoires de Cisjordanie et de Gaza, l'armée israélienne poursuit sa politique d'occupation, de blocus des villes, de destruction des institutions civiles, de chasse aux militants, d'assassinats ciblés. Pour la première fois, elle a reconnu qu'elle utilisait des « boucliers humains » dans ses opérations, un crime de guerre selon les conventions internationales. C'est un long calvaire qui se poursuit ainsi. Le massacre de Sabra et Chatila perpétré il y a vingt ans, en septembre 1982, qui vit l'assassinat de centaines de civils dans les camps du Liban par les milices libanaises de droite, sous l'œil complice des soldats israéliens, est vécu par les Palestiniens comme une étape supplémentaire dans une histoire ponctuée de massacres et d'exactions,

« الماضى لا يزال هو الحاضر »
صَبْرا وشاتيلا ، عودة إلى مذبحة [جريدة « لوموند الدبلوماسى » — ٢٠ سبتمبر ٢٠٠٢] .
« فى أراضى غَوْر الأردن بغـزة ، تابع الجيش الإسرائيلى سياسته فى الاحتلال ، وحصار المدن ، وتدمير المؤسسات المدنية ، ومطاردة المناضلين ، والاغتيالات المرصودة . ولأول مرة يعترف باستخدامه « دروعا بشرية » فى عملياته ، وتلك جريمة حرب طبقا للأعراف والاتفاقيات الدولية . إنها محنة تُتَّبع على هذا النهج . إن مذبحة « صابرا وشاتيلا » التى ارتُكِبَت من عشرين سنة فى سبتمبر ١٩٨٢ ، والتى شهدت مقتل مئات من المدنيين فى معسكر (اللاجئين) فى لبنان بأيدى الميليشيات اليمينية اللبنانية تحت سمع وبصر الشركاء من الجنود الإسرائيليين ، عاشها الفلسطينيون كمرحلة إضافية لتاريخ يتسم بانتظام المذابح والاغتصاب » .

لبعض القيادات العسكرية المنافسة لشارون، الطامعة فى هذا المنصب . ومع ذلك ، ورَدَتْ فقرة فى تقرير اللجنة ـ المعروفة باسم « لجنة كاهان » ـ تقول بالنص : « يجب أن يُلْصَق اتهام بوزير الدفاع لعدم تداركه خطر أعمال انتقام ومذابح من جانب الكتائبيين ضد سكان معسكرات اللاجئين ، ولإهماله أن يضع فى حسابه هذا الخطر عندما سمح للكتائبيين بدخول تلك المعسكرات . وفوق ذلك ، يجب أن يتحمل وزير الدفاع مسئولية عدم الأمر باتخاذ الترتيبات المناسبة لمنع أو لتقليل خطر المذبحة المترتبة على دخول الكتائبيين إلى المعسكرات . وهذه الأخطاء تُشَكِّل تهاونا من وزارة الدفاع تتحمل مسئوليته » .

لقد تكلَّف غزو شارون وجنوده للبنان ، وحصاره لبيروت (فى الفترة بين يونيو ـ أغسطس ١٩٨٢) مقتل ١٥٠٠٠ ، نعم خمسة عشر ألفا من المدنيين اللبنانيين والفلسطينيين . كانت الطائرات الحربية الإسرائيلية تُغير يوميا على بيروت . وفى بداية شهر أغسطس ، كانت قاذفات القنابل تُسقط حمولتها بكثافة على العاصمة اللبنانية ، لدرجة أن الرئيس الأمريكى « رونالد ريجان» قدَّم احتجاجا إلى « مناحم بيجين » رئيس الوزراء الإسرائيلى واصفا هذه الاعتداءات بأنها « أعمال مرفوضة » . فاتخذ بيجين قرارا غير مسبوق فى إسرائيل : مَنَع وزير دفاعه من حق إصدار أمر إلى الطائرات الحربية الإسرائيلية بقذف بيروت من الجو . وكأن هذا هو كل العقاب الرادع الملائم للجنرال الإرهابى السفاح !

وتعقيبا على جرائم شارون فى لبنان ، كتَب مؤلفا كتاب : « حرب خادعة » وهما الإسرائيليان « زيف شيف » الكاتب بالصحف ، و « إيهود يعارى » المعلق التليفزيونى، كَتَبا يقولان : « هذه الحرب التى جَرَت فى لبنان ، إنما صدرت عن نفس مضطربة لرجل أرعن عنيد بلا حدود ، ساق دولة بأَسْرها إلى البحث عبثا عن هدف وهْمى . إنها حرب قامت على أساس من الأوهام الخادعة ؛ فطريقها كان مفروشا بالزهور ، ونهايتها الحتمية كانت مليئة بخيبة الأمل ...

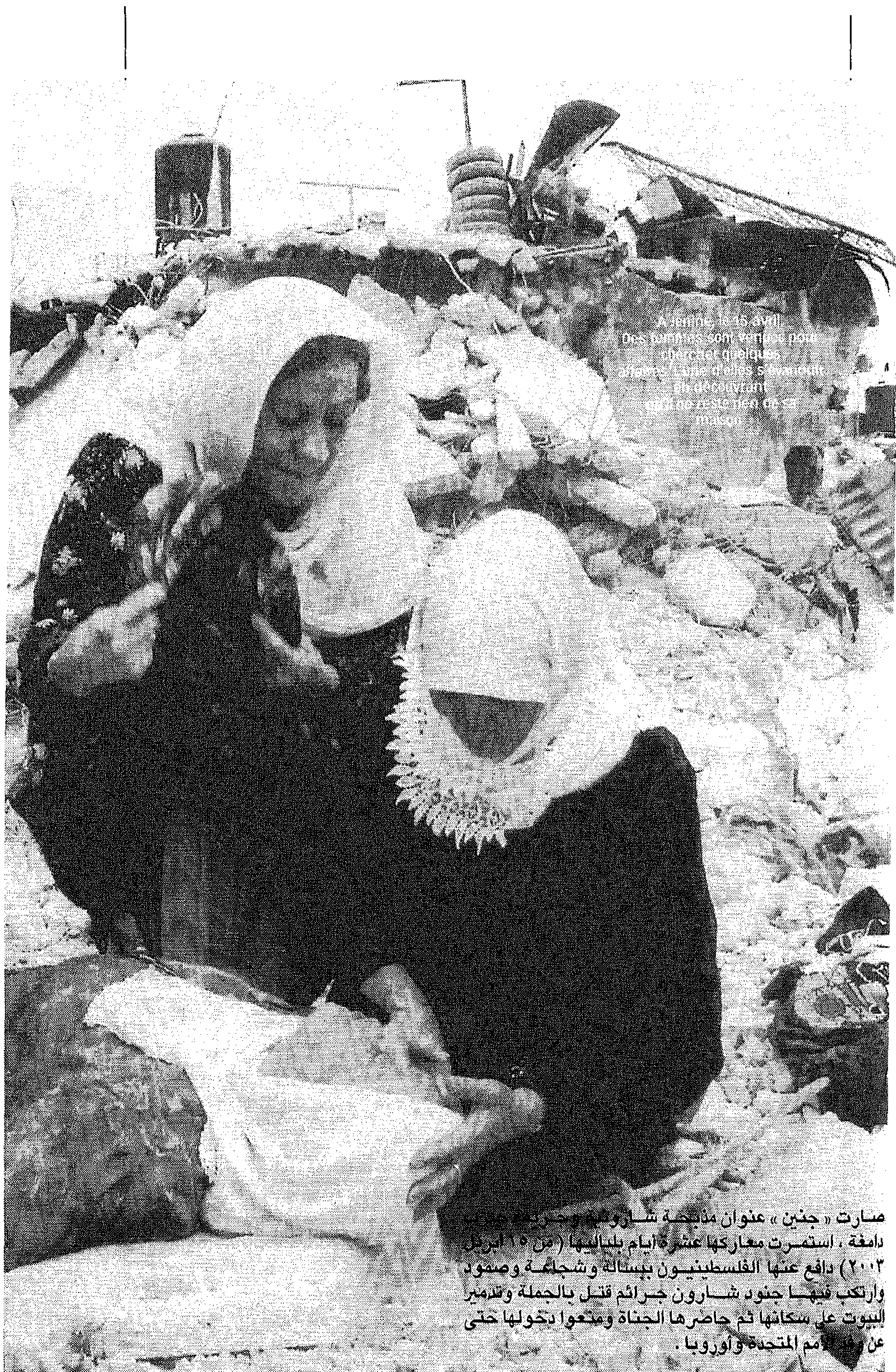




« جنين » وأهلها وشبابها الغاضب وجيل المستقبل المتوعد ، بين الأمس (فى الصورة العليا) واليوم - (بين أبريل ٢٠٠٣ ، ويوليو ٢٠٠٣) .



« وباستخدام لغة قاطعة ، يستطيع المرء أن يؤكد ما انطوى عليه التخطيط والإعداد لتلك الحرب ثم التنفيذ فى الشهور الأولى ، من إثارة الإحساس فى داخل إسرائيل بأن نوعا من الانقلاب العسكرى غير معهود قد حَدَث ... وبدلا من الاستيلاء على المؤسسات التى هى الأساس فى اتخاذ قرارات الدولة ، أو حَلِّها كما يفعل عادة قادة الانقلابات ، فإن شارون هَيَّأ لنفسه صيغة سمَحَتْ له بأن يمسك فى يده بوسائل اتخاذ القرارات . فكأنه ألغَى المؤسسات الديموقراطية ، وحَرَمها من سلطتها فى الإشراف والضبط والمراقبة ، وأضعف الكوابح (الفرامل) التى هى جزء حيوى من نظام السلطة ... » . ويالبشاعة وقُبح السلطة إذا تجمعَتْ فى يد سفاح جبار عنيد ، متعطش منذ نشأته للإرهاب والاغتيال والتدمير والقتل وسحق الأبرياء ، وإن جَنَحوا ـ قهرا ـ للسَّلْم ، فى عالم مُتْخم بالظلم !



صارت « جنين » عنوان مذبحة شارونية وجريمة حرب دامغة ، استمرت معاركها عشرة أيام بلياليها (من ١٥ ابريل ٢٠٠٢) دافع عنها الفلسطينيون ببسالة وشجاعة وصمود وارتكب فيها جنود شارون جرائم قتل بالجملة وتدمير البيوت على سكانها ثم حاصرها الجناة ومنعوا دخولها حتى عن وفد الأمم المتحدة وأوروبا .

(٥) الاغتيالات

جرائم الاغتيال .. لمـــاذا ؟



لوحة للرسام «دى مـــاركـــو» سنة ١٩٨٤ : « الاغتيال فى مكان عام » .

الاغتيـال أو الغِيْلَة (بكسر الغين وسكون اليـاء) نوع من القَتْل المفـاجئ ولكن مع تدبير سابق ، والتخفِّى والتربُّص ثم الانقضـاض . وفيه شىء من الخديعة والغَدْر والمكرْ والاستعداد بعده للإرهاب والفرار . ودوافعه كثيرة ، وما يَعْنينا هنا هو الاغتيال السياسى . وهو شائع معروف من قديم الزمان .

سواء أكان اغتيال أشخاص فى مواقع الحُكم والسلطة والنفوذ أو خارجها ، أم كان اغتيال زعماء وقادة ورؤساء أحزاب وجماعات وجمعيات ومنظمات لهم سُموم أو خُصوم ، وانحرافات وأحقاد . وكثيرا ما يرتبط الاغتيال بالتطرف والتعصب . وأحيانا يكون باعثه مرض نفسى أو خلل عقلى أو انحراف فكرى ومذهبى . وهو فى جميع أحواله خروج على القانون السائد فى المجتمع ، ودليل ضَعف أو عجز فى إبداء الرأى ، وفى إظهار الحُجة ، وفى المجادلة بالحسنَى والنقد السديد . فإذا عجز اللسان عن الكلام ، وانصرف العقل عن الرشد ، وضاق الصدر بالصبر ، نَطق سلاح الغدر .

وفرق كبير بين الاغتيال السياسى ، ومقاومة العدوان أو الغزو الخارجي والاحتلال . فالأول مرفوض ويُجَرَّم ، والثانى مشروع ويعظَّم . وربما كان أَسْوَأ أنواع الاغتيال وأخبثها ، ما كان يبغى قَتْل حرية الفكر ، ونزاهة الكلمة ، وشجاعة الرأى ، وثقافة شعب أو أمة .

ولقد شاعت حوادث وجرائم الاغتيال السياسى فى القرن العشرين . وليس بين أيدينا إحصاءات دقيقة وافية للمقارنة ـ عالميا ـ بين ما وقع منها فى هذا القرن وبين ما حَدَث فى سابق القرون ـ ولكن الزيادة المستمرة فى أعداد سكان العالم – على الرغم من الحروب والخطوب والكوارث والأمراض – وتغيرات النظم الحاكمة ، وانتشار المذاهب والأفكار والمعتقدات والأحزاب – وانحسار الخرافات والجهل والاستعمار والاسترقاق ، وتعدد وتطوُّر أساليب ووسائل التعليم والتنوير (أو التضليل) والإعلام والاتصال ، وتشابك العلاقات المحلية والإقليمية والدولية ، وتعقد مشكلات الجوع والفقر ، وتزايد الفجوة بين الغنَى والفاقة ، وشيوع الفساد والانحراف والظلم فى كثير من المجتمعات ، واجتذاب الشباب المصاب بالوَهَن والإحباط والاكتئاب والإحساس بالإهمال والضياع إلى جماعات وتنظيمات ربما مالت إلى التعصب والعنف والتخريب والقتل .. كل ذلك وغيره يُزَيِّن عند بعض الناس مشروعية الاغتيال ، بل يُتَّخذ سبيلا إلى الانتقام والفدائية والبطولة .

ولا يَسْلَم بلد – فى عالم اليوم – من بلاء الاغتيال ، حتى فى الدول التى



محاولة اغتيال الرئيس الأمريكي «ريجان» – مارس ١٩٨١ – ولم يُصَب بسوء لسرعة انقضاض حرسه الخاص عليه فطرحه أرضا لحمايته ، وانقض آخرون على الجانى « جون هنكلى» – فى خلفية الصورة يسارا – الذى برر جريمته بأنه أراد أن يعلن على الملأ حبه للممثلة الشابة «جودى فوستر» ويبين لها شجاعته بعد أن أعرضت عنه !!

تزهو بنُظمها الديمقراطية وحمايتها للحريات الفردية . وفى تعليق طريف لكاتب أمريكى على كثرة محاولات اغتيال رؤساء الولايات المتحدة قال : « على الرغم من تطبيق النظرية الديمقراطية فى أمريكا اليوم – أيًّا كان هذا التطبيق – فليست الفرصة متاحة لكل مواطن أمريكى لكى يتفوق ويصبح رئيسا للجمهورية ، ولكن كل فرد يستطيع أن « يقتل » « الرئيس » ! وهناك أغنية تتوافق مع هذا الرأى من كلمات «ستيفن سونْدهَيم» تقول : « كل ما عليك أن تفعله : أن تُحرك إصبعك الصغير (أى على زناد المسدس أو البندقية) وتُغَيِّر العالم » !

وعندما سئل قاتل المغنى الشهير « جون لينون » فى سنة ١٩٨٠ : لماذا اغْتَلْته ؟ أجاب ببساطة : « قرأت كتابا عنه مصادفة . وأعتقد أن الكاتب كاذب مخادع ، فهو يحشو كتابه بأكاذيب مؤداها أن صوت « لينون » سيئ . وأنا مُعجب بصوته على أية حال . وأردت أن أحدا يكتب عنى . إن ما قرأْتُه عن «لينون » جعلنى أفكر فى نفسى ، وفى أن حياتى من طراز خاص ، وشعَرْتُ أنه لا أحد يهتمُّ بى » ! وكان هذا القاتل – ويدعى « ديفيد شابان » يرتدى قميصا (تى – شيرت) مطبوعة عليه هذه الكلمات بحروف كبيرة : « إننى فريد . أفكر فى نفسى ـ I'm unique. I Think for my self » ! فلما ألح عليه الطبيب النفسى بالأسئلة عن الدافع الحقيقى للاغتيال قال : « أنا مؤمن بفرقة « البيتلز » ، وبقيمة جون لينون ـ لكنهم كانوا يقولون زيفا وخداعا . لقد حطموا حياتى . جعلونى تافها ، لاشىء » .

وهذه قائمة بأهم حوادث الاغتيال التى وقعت فى النصف الأول من القرن العشرين .

أهم حوادث الاغتيال فى النصف الأول من القرن

السنة		
١٩٠٨	أول فبراير	: اغتيال الملك « كارلوس » الأول (بالبرتغال) وولى عهده .
١٩١٠	٢٠ فبراير	: اغتيال « بطرس غالى » باشا رئيس الوزراء المصرى بيد طالب.
١٩١١	١٤ سبتمبر	: اغتيال رئيس وزراء روسيا : « بيتر ستولوبين ».
١٩١٣	٢٣ يناير	: اغتيال نظيم باشا رئيس وزراء تركيا .
	٢٣ فبراير	: اغتيال رئيس المكسيك « ماديرو » .
	١٨ مارس	: اغتيال « جورج » الأول ملك اليونان .
١٩١٤	٢٨ يونيو	: اغتيال الأرشيدوق « فرانز فرديناند » ولى عهد النمسا وزوجته « صوفى » .
١٩١٨	١٤ ديسمبر	: اغتيال رئيس جمهورية البرتغال « سيدونْيو بيز » .
١٩١٩	٢٠ فبراير	: اغتيال أمير أفغانستان .
	٢١ فبراير	: اغتيال رئيس وزراء حكومة بافاريا الألمانية .
١٩٢٠	٢٠ مايو	: اغتيال رئيس جمهورية المكسيك : « كرانزا » .
١٩٢٢	٢٢ أغسطس	: اغتيال رئيس وزراء حكومة أيرلندا المؤقتة : «ميكائيل كولنز » .
١٩٢٤	١٩ نوفمبر	: اغتيال « لى ستاك » سردار الجيش المصرى وحاكم السودان العام .
١٩٣١	٦ مايو	: مهاجر روسى فى باريس يغتال « بول دوميه » رئيس جمهورية فرنسا .

	١٥ مايو	: ضباط من الجيش اليابانى يغتالون رئيس الوزراء «تسو يوشى » .
١٩٣٤	٩ أكتوبر	: اغتيال ملك يوغوسلافيا «ألكسندر» بيد كرواتى عند زيارته لمرسيليا .
	أول ديسمبر	: اغتيال « سيرجى كيرون » أحد قادة الحزب الشيوعى السوفييتى بإيعاز من ستالين .
١٩٣٥	١٠ سبتمبر	: اغتيال حاكم ولاية لويزيانا بالولايات المتحدة الأمريكية .
١٩٣٦	٢٦ فبراير	: عصيان عسكرى فى اليابان واغتيال ثلاثة وزراء فى الحكومة بأيدى مجموعة من صغار الضباط
١٩٤٢	٢٤ مايو	: مصرع الحاكم العام لبوهيميا ومورافيا بإطلاق النار عليه فى براج .
	٢٤ ديسمبر	: اغتيال الأدميرال الفرنسى «فرانسوا دارلان » رئيس دولة بشمال أفريقيا ـ كان تعيينه قبل شهر واحد بأمر دوايت ايزنهاور قائد عام قوات الحلفاء بشمال أفريقيا.
١٩٤٣	١٢ أبريل	: القوات الألمانية تعثر على مقبرة جماعية بالقرب من مدينة سمولنسك الروسية بها ٤٥٠٠ ضابط بولندى اغتالهم الروس .
	٤ يوليو	: تدبير اغتيال الجنرال « سيكورسكى » رئيس

فى الساعة الاولى من بعد ظهر ٢٠ فبراير ١٩١٠ سجل « ابراهيم ناصف الوردانى » افندى اول اغتيال سياسى عرفته مصر فى هذا القرن.

كان « صاحب المطوفة »بطرس غالى باشا ، رئيس النظار « الوزراء » ، وناظر الخارجية ، يتهيا لمغادرة ديوانه كعادته كل يوم فى الساعة الاولى من بعد الظهر . مضى فى طريقه الى الباب وهو يتجاذب اطراف الحديث مع رشدى باشا ، وثروت باشا ، وارمولى باشا ، من رجال وزارته . وهبط بطرس باشا السلم الخارجى ، وعندما هم بركوب عربته ، برز من خلفها شاب نحيل فى الحادية والعشرين من عمره .. دنا منه واطلق عليه رصاصتين ، استقرت اولاهما فى خاصرة بطرس باشا ، والثانية فى صدره . وما كاد يلتفت الى « الجانى » حتى تلقى الرصاصات الاربع الباقية فى مسدس الوردانى . وسقط بطرس باشا يتخبط فى دمه ..

لم يهرب الوردانى .. لم يحاول النفاذ بجلده بعد ان قتل خصمه ، بل انتظر مصيرا يعرفه جيدا . لماذا ؟ تلقى الوردانى دراسته الاولى فى مصر حتى نال شهادة البكالوريا فارسله عمه ، الذى كفله بعد وفاة والده ، الى اوربا لاتمام دراسته العالية ، فاقام بسويسرا عامين درس خلالهما الصيدلة ، ثم سافر الى انجلترا حيث حصل على درجة جامعية فى الكيمياء .

ما نشرته الصحف عن اغتيال « بطرس غالى » .

وزراء بولندا ومصرعه فى حادث سيارة .

١٩٤٥ ‖ ٢٤ مارس : اغتيال « أحمد ماهر » باشا رئيس وزراء مصر .

١٩٤٨ ‖ ١٠ سبتمبر : اغتيال وسيط الأمم المتحدة فى فلسطين الكونت « فولك برنادوت » بأيدى إرهابيين متعصبين يهود بالقدس .

٢٨ ديسمبر : اغتيال « محمود فهمى النقراشى » باشا رئيس الوزراء المصرى .

* لم تتضمن القائمة محاولات اغتيال كثيرة جدا لم ينتج عنها مصرع المقصودين .

* ولم تتضمن أيضا الذين تم اغتيالهم وكانوا خارج مراكز الحكم والسلطة .

* فى الجزء التالى من هذه السلسلة ـ بإذن الله تعالى ـ استكمال لقائمة الاغتيالات حتى نهاية القرن .



نادر شاه والد الملك ظاهر شاه اغتيل عام ١٩٣٣ .

اغتيال السـردار



وسط القاهرة فى سنوات العشرينيات .

أشرنا من قبل إلى أن الفـرق كبير ـ فى البـاعث والقيمـة والمقْصـد ـ بين الاغتيـال السيـاسى والفكرى ، والاغتيـال الجهادى الوطنى ضد عدو غادر مُـحْتل .

وفى مصر ، وقعت فى أوائـل القـرن العشرين حـوادث اغتيـال كثيرة لضبـاط وجنود بـريطانيين ، أيام الاحتـلال البغيض ، تمت بنجـاح بـأيدى مصريين وطنيين شجعـان ـ رجـالا ونسـاء ـ من جميـع الفئات والمستـويات ، أزعجت سلطات الاحتلال ورموزه وأعوانه . ونذكر على سبيل المثال لا الحصر :

* اغتيـال المستر « براون » المفتش بـوزارة المعـارف (التعليم) ، والمستر «جوردان » صاحب مصنع بالشرابية بالقاهرة ولم يُعرف الفاعلون (فبراير ١٩٢٢) .

* اغتيـال المستر « مكنتوشى » مـدير قسم القـاطرات بالسكة الحديد قـرب منزله بالزيتون (مارس ١٩٢٢) والفاعل مجهول .

* إطلاق الرصاص على البكباشى « كِيف » مسـاعد حكمدار فمات ، بشارع الفلكى بالقاهرة ، والفاعل مجهول (سنة ١٩٢٢) .

* إطلاق الرصـاص من مجهـول على الكـولونيل « بيجـوت » الموظف المالى بالجيش البريطانى (١٥ يوليو ١٩٢٢) .

* أطلق مجهولون الرصاص على المستر « توماس براون » مدير البساتين بوزارة الزراعة فجرح هو وابنه وخادمته وقُتل سائق عربته المصرى (أغسطس ١٩٢٢) .

* اغتيال المستر « روبسون » الأستاذ بمدرسة (كلية) الحقوق الملكية ، فى شارع الجيزة ، وفر الفاعلون الثلاث المجهولون (ديسمبر ١٩٢٢) .

* إطلاق الرصاص على المستر « امبلر » الموظف بمصلحة السكة الحديد (فبراير ١٩٢٣) .

* إلقاء قنبلة من مجهول على المعسكر البريطانى بجزيرة بدران بشبرا قتلت شخصا يونانيا وأصابت اثنان من الجنود الإنجليز (فبراير ١٩٢٣) .

* إلقاء قنبلة على متجر بائع سمك بحى الأزبكية بجوار دار التمثيل العربى ، كان به ثلاثة جنود إنجليز فجُرِحوا . وإلقاء قنبلة أخرى على المعسكر الإنجليزى لكنها لم تنفجر ، ولم يُعرف الفاعلون (مارس ١٩٢٣) .

أما حادث الاغتيال الأكبر والأخطر ، فذلك الذى أَوْدَى بحياة سردار (قائد عام) الجيش المصرى وحاكم السودان ، السير « لى ستاك » فى يوم الأربعاء ١٩ نوفمبر سنة ١٩٢٤ . ونَذْكرها هنا فى سياق الجرائم ، لامن أجل الواقعة ذاتها (وإن كان قد تسرب من الوثائق البريطانية التى سُمح بالاطلاع عليها بعد أكثر من خمسين سنة من وقوع الحادث أن لبريطانيا ذاتها يدا فى هذا الاغتيال لتحقيق ما ترتب عليه من نتائج كانت تريدها) ، وإنما نذْكرها لإلقاء نظرة ـ بل نظرات ـ على الملابسات التى أحاطت بها ، والتى أدت إليها ، وكشْف دهاء وإجحاف وتعسُّف السياسة البريطانية ، وجبروت وظلم الاحتلال ، وخُنوع وهوان بعض السياسيين المصريين آنذاك إزاء المطالب الشاذة البريطانية .

فى الساعة الثانية من ظُهر ذلك اليوم ، كان السردار فى سيارته عائدا من مكتبه بوزارة الحربية إلى داره بالزمالك ، فأطلق عليه الرصاص خمسة أشخاص كانوا متربصين له فى سيارة ، فأصيب السردار فى بطنه ويده وقدمه ومات فى اليوم التالى ، كما أصيب ياوره البكباشى « كامبل » ، وسائق

صورة نشرتها مجلة المصور » المصرية ومعها التعليق المصاحب لها .



حادثة الاعتداء على السير لى ستاك باشا سردار الجيش المصرى، والصورة خيالية للحادثة . واعتمد المصور فى رسمها على جميع المعلومات المعروفة ليمثلها كما حصلت تماما فى موقعها .

"وطنى..وطنى" وانطلقت أولى الرصاصات

سيارته ، وأصيب جندى من حرس وزارة المعارف كان مارا بالطريق وأراد أن يتعقب الجناة .

كان حادثا خطيرا مدويا ، فى مصر وفى بريطانيا وأوروبا . ثارت من أجْله الحكومة البريطانية ، وهدَّدت مصر وحكومتها بالويل والانتقام ، وحَملَت الصحف فى لندن حملة شعواء على المصريين الإرهابيين المعتدين على السيادة البريطانية ، واتهمت رئيس الوزراء المصرى « سعد باشا زغلول » بإثارة

الشعب وحَفْزه على كراهية الإنجليز الذين «يقدمون خدمات جليلة للقطر المصرى»– هكذا قالوا !! – فهو – أى « سعد » – يتحمل مع وزارته مسئولية ارتكاب الجريمة .


السير لى ستاك باشا
سردار الجيش المصرى

وكان علَى « سعد باشا » – من موقع رئاسته للوزارة – أن يعلن أسفه واستنكاره للحادث ، وقال فى خطبة له يوم ١٣ نوفمبر سنة ١٩٢٥ : « إن جريمة اغتيال السردار قد أصابت مصر وأصابتنى شخصيا » . فقد أدرك أن الحادثة ستؤدى حتما إلى استقالة الوزارة .

وفى مساء اليوم الذى شُيعت فيه جنازة السردار (السبت ٢٢ نوفمبر) توجَّه المندوب السامى البريطانى – اللورد « أللِّنْبى » – فى حشد عسكرى إلى مقر رئاسة مجلس الوزراء[1] ، وقَدَّم إلى « سعد » فى جفاء وكبرياء إنذارين من حكومة « صاحب الجلالة البريطانية » . ويتضمن الإنذار الأول مطالب محددة بعد مقدمة حافلة بالغطرسة والاستعلاء والكذب مثل : « إن الحاكم العام للسودان وسردار الجيش المصرى قد قتل قتلا فظيعا فى القاهرة » – «إن هذا الاغتيال يُعَرِّض مصر كما هى محكمة الآن ، لازدراء الشعوب المتمدينة » – « وهو نتيجة طبيعية لحملة عدائية ضد « حقوق » – ! – بريطانيا العظمى وضد الرعايا البريطانيين فى مصر والسودان » – « هذه

(١) كان هذا الحشد الإرهابى يتكون من مائتين وخمسين جنديا بريطانيا من حملة الرماح فى مقدمة موكب المندوب السامى ومثلهم خلفه . أى خمسمائه جندى مسلح بالرماح على غرار حروب ومعارك القبائل البدائية والهمج وقطاع الطرق فى البرارى والأدغال وشراذم الهنود الحمر فى الأفلام الأمريكية . ولو كان هذا المندوب « السامى » مكتمل العقل والرشد لما فعل هذاالمظهر السخيف المزرى .

الحملة القائمة على إنكار الجميل - !! - إنكارا مقرونا بعدم الاكتراث للأيادى التى أَسْدَتْها بريطانيا العظمى » !!!

أما المطالب فتتلخص فى الآتى :



١- اعتذار الحكومة المصرية اعتذارا « كافيا وافيا » عن الجناية .

٢- أن تبحث الحكومة بأعظم نشاط دون مراعاة للأشخاص عن الجناة وأن تُنْزِل بالمجرمين أيا كانوا ومهما تكن سِنهم أشد العقوبات .

٣- أن تمنع الحكومة من الآن فصاعدا وتَقْمع بشدة كل مظاهرة شعبية وسياسية.

٤- أن تدفع الحكومة فى الحال إلى حكومة حضرة صاحب الجلالة غرامة قدرها نصف مليون جنيه (ما يعادل نحو ٥٠ مليونا اليوم) (٢).

٥ - أن تُصدر الحكومة المصرية خلال أربع وعشرين ساعة الأوامر بإرجاع جميع الضباط المصريين ووحدات الجيش المصرى من السودان.

٦- زيادة مساحة الأطيان التى تزرع فى أرض الجزيرة بالسودان بغير حدود(٣) .

٧- أن تتخلى الحكومة المصرية عن كل معارضة لرغبات حكومة صاحب الجلالة (البريطانى) فى الشئون المتعلقة بحماية المصالح الأجنبية فى مصر (٤) .

وما جاء فى الإنذار الثانى تفسير لمطالب بريطانيا فيما يتعلق بوحدات الجيش المصرى بالسودان ، والقواعد والشروط الخاصة بحقوق الموظفين الأجانب الذين يعملون بالحكومة المصرية ومرتباتهم ومعاشاتهم .

---

(٢) للمقارنة : أظهر إحصاء سنة ١٩٤٥ أن مجموع دخْل ٢٧٣٢٩٢ فردا من صغار ملاك الأراضى الزراعية فى مصر بلغ ٦٠٩٤٨٠ جنيها (بعد عشرين سنة من قتل السردار !) .

(٣) كان المقرر قبل ذلك تحديد هذه المساحة بثلاثمائة ألف فدان فقط وفقا لتوزيع مياه الرى التى كانت من اختصاص وزارة الأشغال المصرية فى السودان ومصر .

(٤) يتضمن هذا البند إعادة النظر لرفع مرتبات ومعاشات الأجانب الذين يعملون فى وظائف بمصر والإبقاء على منصبى وسلطات المستشارين الأجنبيَيْن المالى والقضائى ، ونظام القسم الأوروبى فى وزارة الداخلية بموظفيه الأجانب .

وفى اليـوم التـالى سلَّم وزير الخارجيــة المصرى (واصف بطرس غـالى باشـا) رد الحكومــة المصرية إلى المندوب السـامى البريطانـى ، وفيـه نَفْى المسئولية عن الحكومة المصرية وقبول المطالب الأربعة الأولى . ويقول المؤرخ الأستـاذ « عبد الرحمن الـرافعى » فى هذا الصدد : « قـد صِيغ الرد فى قـالب حكيم ، ولايُلام « سعد » على أنه قَبل المطالب الأربعة الأولى ، لأن الموقف كان يقتضى قبولها ، دَرْءا لما هو أشد منها » . فلما استقالت وزارة سعد باشا بعد أن أمـر اللورد اللنْبى جنوده البريطـانيين باحتـلال جمارك الإسكندرية على الرغم من تسلمه تحويلا على البنك الأهلى بمبلغ نصف المليون جنيه فى الموعد المحدد (فى اليـوم التالى مبـاشرة للإنذار) ، تولى رئاسـة الوزارة أحمد زِيوَر باشا (يوم ٢٤ نوفمبر) فاستجاب لكل مطالب بريطانيا ، وبسخاء !


عبد الرحمن الرافعى

* فى تعليق الأستـاذ « عبدالـرحمن الرافعى » على حـادث مقتل السردار ونتائجه قال فى كتابه : « فى أعقاب الثورة المصرية ـ الجزء الأول » :

« إن نظرة فاحصة إلى البلاغـات البريطانية فى حادث مقتل السردار يتبين منهـا مبلغ الظلم والعَسْف الذى بدا مـن الجانب البريطانى إثْر هذا الحادث . فإن الاعتـداء على السردار كـان ولاشك حـادثا فـرديا ، فمن الظلم أن تُحَمل الحكومة والبلاد مسئوليته . ومن أفظع مظاهر الظلم أن تُرَتب عليه الحكومة البريطانية إقصاء الحُكم المصرى عن السودان ، وإطلاق يد الإدارة الإنجليزية فيه ، وزيادة مساحة أطيان الجزيرة (الخصبة) إلى مقدار غير محدود خدمة للشركـات الاستعمارية ، ومضـاعفــة التـدخـل البريطانى فى شئون مصر الداخلية . ففى أى شرع وبموجب أى قانون دولى أو غير دولى تكون الحكومة القائمــة فى أى بلد من البلدان مسئولة عن كل حادث جنائـى يقع على فرد من الأفراد مهما عـلا مقامه ؟ وأى منطق يجعل البـلادكلها مسئولة عن مثل هذا الحادث؟

« لقد قُتل المارشـال « ويلسـون » القائـد العام للجيش البريطانى ورئيس أركان حربه فى الحرب العالمية الأولى فى شارع من أهم شوارع لندن فى يونيو ١٩٢٢ ، قَتَله إرلنديان لأسبـاب سياسيـة ، واهتزت إنجلترا لمقْتله ، وحـوكم

القــاتلان وحكم عليهما بالإعـدام ، ونُفـذ فيهما الحكم ، ولكن الحكومـة البريطانيـة لم تُحَمِّل إرلندا المسئولية الجنائيـة مثلما فعلتْ مع مصر فى مقتل السردار .

« بل تأمَّل فيما يقابل به الإنجليز جرائم الإرهابيين الصهيونيين التى تقع عليهم فى فلسطين ، تَجد الرحمة والتسـاهل يبلغـان أقصى حدودهما . فقـد قُتل اللورد « مُـوين » وزير الدولة البريطانيـة فى الشرق الأوسط ، فى نوفمبر ١٩٤٤ ، قتله بالقاهرة صهيـونيان اعترفا بجرمهما ، وحـوكما أمام محكمة جنايات مصر وقَضت عليهما بالإعدام ، ولم ينتقم الإنجليـز من الصهيونيين اللذين حـرضـوهما ودفعـوهما إلى ارتكـاب الجريمـة ، وتابع الإرهابيـون ارتكاب جـرائم القتل والتـدمير فى فلسطين ، ونسفوا فى يـوليو ١٩٤٦ مقـر الحكومة بفنـدق الملك داود بالقدس ، وقُتل فى هذا الحادث عـدد من الإنجليز من ضبـاط ومـوظفين ، فلم تتحـرك السلطات البريطانيـة للانتقـام بَلْه القَصـاص ، كما فعلتْ عقب السردار ، وإنك لترى مـن هذه المقـارنة أن مقتل السردار مـا كان إلا فـرصة انتهـزتْها الحكومة الإنجليـزية لقضاء أغـراض استعمارية كانت تُضْمرها من قبل .

«إن البلاغات البريطانية فى حادثة مقتل السردار تفوق فى لهجتها وشدتها بلاغـات الحكومة النمسـوية إلى السِّـرْب (الصرب) فى يوليـو سنة ١٩١١ ، على أثر مقتل الأرشيدوق « فـرانسوا فـرديننـد » ولى عهد النمسـا فى بلغراد (بلجراد) . تلك البلاغات التى عَـدَّتْها الدول المتمدنة عدوانا منكَرا من النمسا على استقلال السِّـرب ، أدى إلى نشوب الحرب العالمية الأولى ..

« فالبلاغـات الجائرة ، والمطالب الظالمة التى توجهت بها إنجلترا إلى مصر فى أعقاب حـادثة السردار ، لم تكن إلا مَظهرا لسيـاسة العـدوان التى دَرَجَت عليهـا بإزاء مصر من قَبل ومن بعد . وهى منطق القـوة الغشوم فى الاعتـداء على الحق . وما كانـت حادثة السردار إلا فرصة سَـنَحَت ، فاتخذتْها ذريعة لتحقيق أغراضـها . وبعبارة أخرى كانت هذه المطالب برنامجا سابقا لإنجلترا حيـال مصر . تلك حقيقة دلَّـت عليها الحوادث المترادفـة . وقـد أيدها الكاتب

السياسى الفرنسى « موريس برنو » فى كتابه : «قلق الشرق - أو على طريق الهند » الذى ظهر فى منتصف سنة ١٩٢٧ ، فقد ذكر أنه قابل اللورد اللّنْبى بعد مقتل السردار وتقديم البلاغات البريطانية ، وسأله عن وجهة نظره ، فأجابه اللورد فى صراحة الجندى الذى يَصْدَع بما يُؤمر : « إن كل ما حدث كان متوقَّعا ، وقد كان البلاغ النهائى فى دُرج مكتبى قبل أن يُقتل السردار بوقت طويل ، ولكنى غَيَّرت فقط صيغته التى جعلتُها أكثر شدة » .

● الحكم فى القضية

بعد جهود كبيرة تمكنت الحكومة المصرية من معرفة الجناة ، واعترف بعضهم على بعض ، وقُدموا للمحاكمة . وهم :

(١) عبد الفتاح عنايت – طالب بمدرسة الحقوق .

(٢) عبد الحميد عنايت (شقيقه) – طالب بمدرسة المعلمين العليا .

(٣) إبراهيم موسى – خراط بعنابر السكة الحديد .

(٤) محمود راشد – مهندس بالتنظيم .

(٥) على إبراهيم محمد – براد بالعنابر .

(٦) راغب حسن النجار – بمصلحة تلغرافات الحكومة .

(٧) شفيق منصور – محام .

(٨) محمود أحمد إسماعيل – موظف بوزارة الأوقاف .

(٩) محمود صالح – سائق سيارة أجرة .

ونُظرت القضية أمام محكمة الجنايات المؤلفة من : « أحمد عرفات باشا » رئيسا ، والمستر « كرشو » و « محمد مظهر بك » عضوين . وصدرت الأحكام فى ٧ يونيو ١٩٢٥ كالآتى : الإعدام شنقا على الثمانية الأُول ، وحبس محمود صالح سنتين . ثم استُبدل حكم الإعدام للأول وجُعل الأشغال الشاقة المؤبدة . وتم تنفيذ الأحكام .

● وللقضية بقية

حاولت وزارة « زيوَر باشا » اختلاق صلة بين حادثة مقتل السردار وحوادث اغتيال سياسى أخرى وقعتْ من قبل على بريطانيين ، وذلك إرضاء

و « كرمـا » من زيور للإنجليز . وكـان حريصا على اتهام عـدد من الوفديين بأن لهم يدا فى الحادث . وانتهى الأمـر بتقـديم كل من الدكتـور أحمد مـاهر (باشا ورئيس الوزراء فيما بعد) ، ومحمود فهمى النقراشى (باشا ورئيس الوزراء بعد اغتيال أحمد ماهر) ، وحسن كـامـل الشيشينـى (بـاشـا) ، وعبـد الحليـم البيلى بـك ، ومحمـد فهمى عـلى ، ومحمـود عثمان مصطفى والحاج أحمد جـاد الله . وقُـدِّمـوا للمحـاكمـة بتهمـة تدبير حـوادث قتل والاشتراك فيها . وتكونت هيئة المحكمة من المستر « كرشو » رئيسا ، وكامل إبراهيم بك ، وعلى عزت بك عضوين .


مصطفى النحاس

فكان لهذه القضيـة السيـاسية ضجـة كبـرى فى مصـر ، واحتشـد للـدفـاع عـن « المتهمين » عـدد كبير من كبار المحامين ، فكان منهم : زهير صبرى ، إبراهيم رياض ، مصطفى النحاس (باشـا) ، مرقص حنا (باشا) ، مكرم عبيد (باشا) ، نجيب الغرابلى بـاشا ، سـلامـة ميخائيـل بـك ، محمد يـوسف بـك ، عبـدالله حسين أفنـدى ، أحمد لطفى بـك ، مصطفى الشوربجى بك ، وهيب دوس بك .

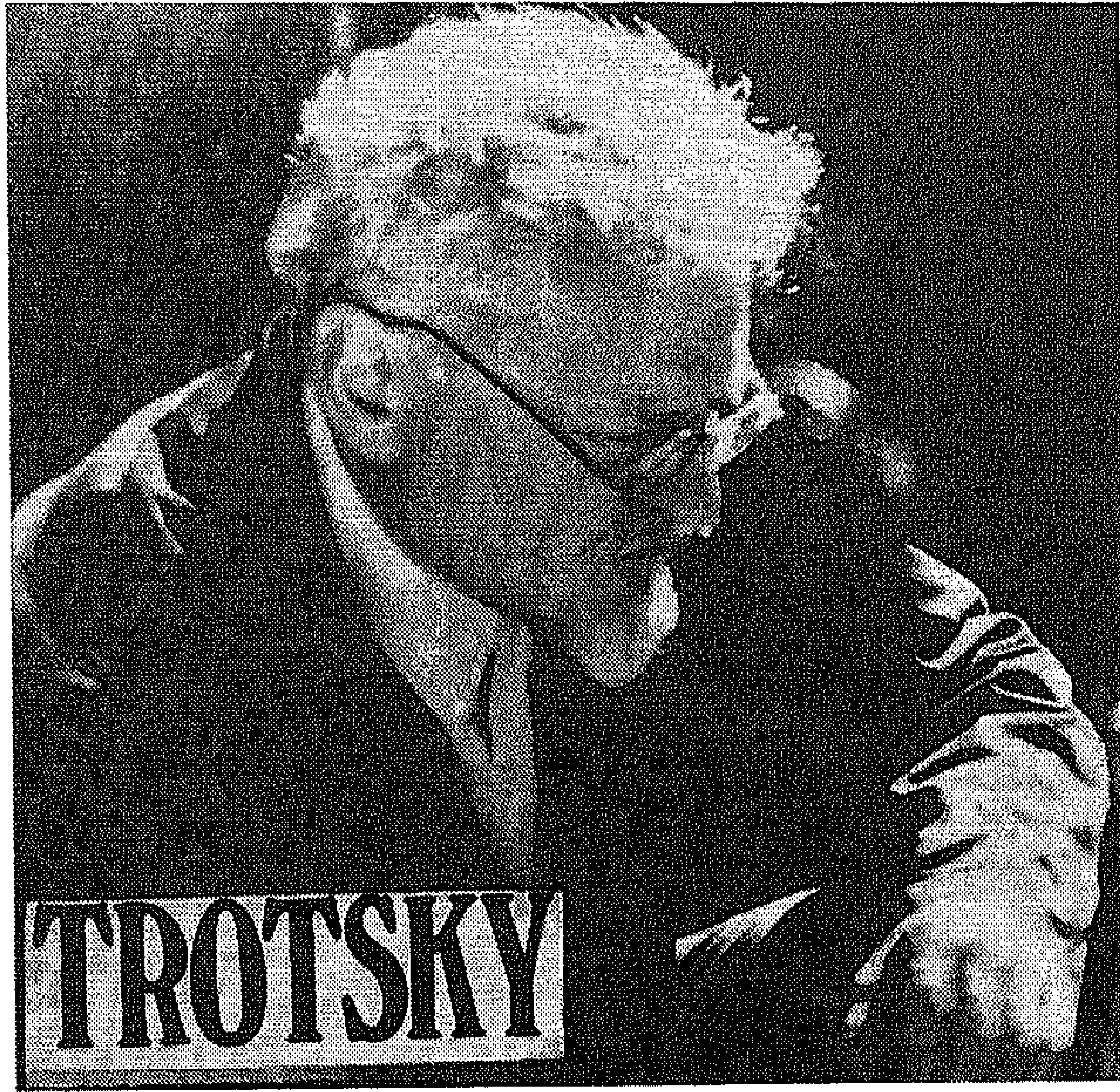

مكرم عبيد باشا

وصـدر الحكـم فى ٢٥ مـايو سنة ١٩٢٦ ببراءة جميـع « المتهمين » عـدا محمد فهمى على الذى حكم عليه بالإعدام شنقا . ولم يكن القاضى « كرشو » مـوافقا على براءة أحمد مـاهر والشيشينى والحاج أحمد جاد الله ومحمـود عثمان ، لذلك قدم استقالته من وظيفته عقب إصدار الأحكام .


النقراشى بك


الدكتور أحمد ماهر

اغتيال تروتْسكى



ليون تروتْسكى

يهودى مثل زعيمه لينين : اسمه الحقيقى « ليفى داود فيتش برونشتّين».
كان مقدَّرا له بين كبار قادة الحزب الشيوعى السوفييتى أن يتولى الرياسة والزعامة بعد موت لنين ، تقديرا لدوره البارز الحيوى فى إنجاح الشيوعيين وتمكينهم من استغلال ذكى ماكر لثورة الشعب الروسى على المَلَكية والسلطة الحاكمة ، ثم احتواء تلك الثورة وتوجيهها نحو اقتلاع جذور النظام القيصرى . وإنَّ الأسلوب الذى تم به التخلص جسديا من «تروتسكى» ليس بجديد أو غريب على عالم الجرائم والصراعات السياسية



« تروتسكى » عند اعتقاله الأول سنة ١٨٩٨ .

والطائفية والحزبية : وهو « إزاحة » مَن يقف عقبة كأْداء فى طريق من يملكون السلطة أو القدرة أو النفوذ، ومَن يَحُول (ويحولون) دون تحقيق أطماعهم ومآربهم أو نزواتهم الشخصية ، حتى ولو كان من رُفقاء السلاح ، أو زملاء الكفاح ، أو ندماء المذهَب أو المشْرَب والنجاح .

فهل كان « ليفى داود فيتش ـ تروتْسكى » حقا ولى عهد لنين ؟ أم نسأل مع بعض المؤرخين والمحللين السياسيين حتى اليوم : هل كان الأفضل لقيادة الحزب الشيوعى « تروتسكى » أم « ستالين » ؟ سوف نرى .

● **من هو ؟**

مؤسس الحركة البُلشفية الروسية ، ومُنْشِئُ الجيش الأحمر [١] ، وأعدى أعداء «جوزيف ستالين » منذ ظهور هذا الفلاح الفظ المرعب على الساحة السياسية الشيوعية الروسية بعد بواكير الثورة الحمراء .



« جوزيف ستالين» العدو اللدود المناوىء لتروتسكى .

عَرف « ليون تروتسكى » طريقه إلى السجن والمعتقل مرتين فى شبابه ، بسبب ميوله وآرائه الثورية ، ونُفى إلى سيبيريا . واستطاع الهرب فى كل مرة . فلما اشتعلت ثورة أكتوبر ١٩١٧ عاد إلى روسيا كواحد من أبرز مُضْرِمى نيرانها وقادتها ، والساعد الأمين الأيمن لزعيمها « فلاديمير لنين » . فلما مات الزعيم سنة ١٩٢٤ ، أَسْفر « ستالين » فورا عن طموحه وعزمه : خلافة لنين فى قيادة الحزب والدولة ، وقطْع لسان كل متكلم ويد كل متألم ، ورقبة كل مُنافس أو مُعارض ، فى أى منصب أو موقع ، والتخلص سريعا من « تروتسكى » وأنصاره . وإذ لم يكن « تروتسكى » فى دهاء

(١) تفصيل ذلك فى الجزأين الأول والثانى من هذه السلسلة بعنوان : « مطلع الفجر » . و « السياسة والديبلوماسية فى القرن العشرين » .

«ستالين » وجبروته وبطشه ـ وإن فاقه كثيرا ثقافة وكفاءة وخبرة ـ فقد كان هو الخاسر فى المنافسة والصراع على السلطة . فعزله ستالين مطرودا من الحزب الشيوعى سنة ١٩٢٧ ، ومَنْفيا من الاتحاد السوفيتى سنة ١٩٢٩ ، وعازما على قتله .

هرب تروتسكى ـ أو كما يقال « نَفَد بجلده » ـ بحثا عن بلد يُؤْويه ، ويَقْبله لاجئا يُقيم فيه . وكلما حَط الرحال فى بلد ، مارس دُب الكرملين ضغطه وأظهر غضبه ، فيؤْمَر تروتسكى بالرحيل . وهكذا تنقل مهدَّدا مذعورا بين تركيا ، وفرنسا ، والنرويج . فلما أصدر كتابه : « خيانة الثورة» الذى يَكيل الاتهامات الجارحة الصريحة لستالين ، طلبت منه السلطات النرويجية الرحيل عن أراضيها . فاتجه إلى المكسيك . وفى الحق ، كان للدول التى رفضت استقباله أو قبلَتْه على مضض ثم طردتْه ، كان لها العُذر ؛ إذ كيف ترحب وتحمى رجلا يدعو علانية إلى إشعال ثورة عالمية ؟!

وفى مدينة مكسيكو التى رضيتْ أخيرا أن يقيم لاجئا بها ، سكن مع زوجته « ناتاليا » وابنه « سيفا » (بعد أن لحِقا به) فى ضاحية « كُويُوَاكان » ـ سنة ١٩٣٩ ـ فى بيت ريفى قديم حوَّله إلى ما يشبه القلعة الحصينة : فأحاطه بسور عالٍ دائرى من المسلح ، تعلوه شبكة من الأسلاك المكهربة متصل بها جهاز للإنذار عند الاقتراب منها أو محاولة اختراقها ، وبالسور برْجان بهما فتحات ضيقة ينفذ منها رشاشات أوتوماتيكية لإطلاق الرصاص . وبوابة المسكن ـ الحصْن ـ مصفَّحة يقف أمامها ليل نهار جنود شرطة مكسيكيون مسلحون خصصتهم الحكومة لحراسة اللاجئ المهدَّد. وخلف المسْكن ينتشر رجال حراسة خاصة يراقبون الموقع فى يقظة دائمة . فكان الوصول إلى بيت « العجوز » المطارَد (هكذا كانوا يسمونه فى ضاحية سكنه) أو اقتحامه مستحيلا . ومع ذلك ، أمكن تجاوز هذا المستحيل مرتين !

من داخل تلك القلعة المحصنة أخذ تروتسكى فى شن حرب إعلامية ملتهبة ضد عَدُوه ، القابع فى موسكو وعيناه ترصدان كل صغيرة

وكبـــيرة تحدث فى بيت « كـويُوَاكان» . فـأصدر تـــروتسكـى سلسلة مــن الكتب مثل : « جـريمـة ستـــالين » ، و « واقع الحال الحقيقى فى روسيـا » ، و«مـدرسة ستـالين فى التـزييف » . ولجرأته الشديدة فى كتـاباته وإفـراطه المذهل فى كشف الأسرار والحقائق وتعرية ستالين وفضائحه ، كـان تعليـق الكاتب الأديب السـاخـر « بـرناردشـو » : « عنـدمـــا يـكسر (تروتسكى) دمـــاغ خصمـه ، فـــإنـه يرفعها عـاليـا ليبيِّن أنهـا خـالية من المخ » ! وفى سنة ١٩٤٠ ، استعد تروتسكى لإنجـاز كتابه التـالى : « السيرة المضادة عن ستالين» .

● اغتيالات بالجملة

موسكو : مارس ١٩٤٠ ...

صَدَرَتْ أحكام قضائية غيابية على « تروتسكى » وغيره من « المهرطقين » بالإعـدام . وبعث « ستـالين » برهْـط من شرطتـه السرية الخاصــة لمطاردة خصومه ومُعارضيه أينما كانوا على سطح الأرض وقَتْلهم (الأسلوب نفسه الذى اتبعتْه على الجـانب الآخـر وكالة المخـابرات المركزية الأمـريكية (CIA) كما ظهر من تحقيق لجنة مجلس الشيوخ الأمريكى سنة ١٩٧٥) [٢] . وكان رجـال ستـــالين السريين هؤلاء قـد اغتـالوا فى سنـة ١٩٣٨ ابن تروتسكى واسمه : « ليفى سيدوف » البـالغ من العمر اثنتين وثلاثين سنة وكان مقيما فى باريس .

وفى مايو سنة ١٩٤٠ قاد الرسـام المكسيكى اليهودى الشيوعى « ألفارو سيكيروس » [٣] . مجمـوعـة من عشرين رجـــلا لاقتحـام بيت تروتسكى . واستطاعـوا خداع بعـض الحراس عن طريق إغرائهم بعـدد من العـاهرات شغَلْنهم عن الحراسة ، وتغلبوا على بقية الحراس ، ثم وضعوا مدفعا رشاشا

(٢) تفصيل ذلك فى الفصل الذى تناول اغتيال « لومومبا » فى هذا الكتاب .

(٣) فى الجزء الخاص من هذه السلسلـة عن الفنون فى القـرن العشرين فصل كـامل عـن هذا الفنان ومدرسته الفنية . وكان سيكيروس عضوا قـديما برتبة كولونل فى الفرق الدولية اليسارية التى اشتركت فى الحرب الأهلية الأسبـانية (التى انتهت بانتصـار فرانكو) وهو يهودى كـان يأنس إليه تروتسكى ، وقد اختفى فترة طويلة بعد هذا الحادث .



استعراض القوة : فى ذروة اشتعال الثورة البولشفية الروسية وقف بعض كبار زعمائها وبينهم « تروتسكى » – بالزى العسكرى – فى ميدان توريدا فى بتروجراد (يوليو ١٩١٧) يُحَيون كتائبهم المسلحة ، وليس بينهم « ستالين» الذى اغتال معظم هؤلاء بالتتابع .

آليا خارج غرفة نوم تروتسكى أطلق سبعا وخمسين رصاصة ، وقذفوا قنبلتين حارقتين ، أشعلت إحداهما النار فى باب غرفة الابن « سيفا » ثم فروا هاربين . ومن العجيب أنه لم يُصَب أحد من أهل البيت : تروتسكى ، وزوجته ناتاليا ، وابنه سيفا . ولم يُصَدِّق رئيس الشرطة السرية الذى حضر متأخرا أنها عملية مدبَّرة من الخارج ، وظن أنها محاولة خبيثة ساذجة من «العجوز» لجذْب الانتباه وتشديد الحراسة عليه . إذ كيف ينجو الجميع بدون أدنى إصابة وسط كل هذه الطلقات والحريق وهم داخل الغرفتين ؟! ولما سأل « سالازار » رئيس الشرطة السرية تروتسكى : « ومَن تتهم بمحاولة اغتيالك على هذا النحو كما تَزْعم ؟ » أجابه « العجوز » هامسا فى أذنه : « جوزيف ستالين » . ولم يفهم رئيس الشرطة مقصده وظن أنه يمزح! ثم حامت شبهات قوية حول حارس تروتسكى الخاص وسكرتيره فى الوقت نفسه ويدعَى « روبرت شلْدون تِتْ » ، وأنه هو الذى يَسَّر لمجموعة سيكيروس الدخول وقادهم إلى داخل البيت . وعقب الحادث وُجد شلْدون قتيلا وجثمانه مدفون فى كومة من الجير بحقل منعزل . فهل كان جانيا أم ضحية ؟ أم الاثنين معا ؟ لاأحد يعرف . فالموتى لايتكلمون !



« تروتسكى » فى المكسيك (الثانى من اليمين) وإلى يمينه «أندريه بريتون » ثم «ريبا هَنْسين » ، ثم «ناتاليا » زوجة تروتسكى الثانية ، ثم «فريدا كهْلو » الرسامة الشيوعية المكسيكية ولها شهرة كبيرة فى الأمريكتين .

● الاغتيال الأخير

كوْيُوَان : ٢٠ أغسطس ١٩٤٠ ..

بعد ثلاثة أشهر من المحاولة الأولى جاءت الثالثة . هل ستنجح ؟

كان من عادة تروتسكى أن يقول لزوجته عندما يستيقظ فى الصباح أنه يزداد وهْنا على وهْن بسبب مقْتل ابنه « ليفى سيدوف » ـ بتدبير من ستالين ـ وقد عَجَّل ذلك بشيخوخته ، ثم يضيف قائلا فى تهكُّم :



شعار وكالة المخابرات المركزية الأمريكية (CIA) .

« ها نحن لم نُقْتل فى الليلة الماضية ، وقد لا يسرُّك ذلك ! » . وفى صباح ذلك اليوم من شهر أغسطس زاد قوله : « نعم ناتاليا .. لقد سمحوا لنا بتأجيل الوفاة » ! كان مستريحا نشطا عندما نهض من فراشه ، وسَرَّه أنه فى كامل صحته ، فقال لها : « منذ وقت طويل وأنا لم أشعر بمثل هذا النشاط والصحة . تناولتُ بالامس كمية مضاعَفة من الحبوب المهدئة ، ولهذا أجدُنى فى حالة جيدة » . فأجابته ناتاليا : « ليست الحبوب هى التى جعلتْك هكذا ، وإنما هو النوم ! » . وبعد التدليك الصباحى المعتاد ، نزل إلى فِناء البيت الخلفى ليُطعم أرانبه . وتلك علامة على انشراح صدره . فهذا العجوز الذى يقضى معظم وقته فى العمل المكتبى لا يَكَل منه ولا يَمَل ، له هوايتان فقط

يقطع بهما نظام يومه الرتيب : تربية الأرانب وإطعامهم بنفسه ومراقبتها وهى تأكل وتقفز ، لساعة أو بعض ساعة ؛ وزراعة ورعاية الصبار الشوكى الذى يستجلبه من الجبل القريب . وعندما يشعر بالإرهاق أو الملل ، يُطلق سراح الأرانب فى الفناء لتجرى وتلعب وهو يتأملها فى صمت .

فى صباح ذلك اليوم ، طالت كثيرا فترة جلوسه الى الأرانب . ثم راودتْه فكرة قام لتنفيذها : طلب من سكرتيره الجديد أن يتْبعه إلى غرفة مكتبه ، وأمْلى عليه مقالا عن تحرك الولايات المتحدة الأمريكية واعتزامها الاشتراك فى الحرب العالمية الثانية . ثم انصرف إلى استكمال مخطوطة كتاب شرع فى تأليفه عن السيرة الذاتية المجهولة عن ستالين ، بناء على وثائق لم تُعرف من قبل حملها معه خُفية وهو هارب من روسيا .

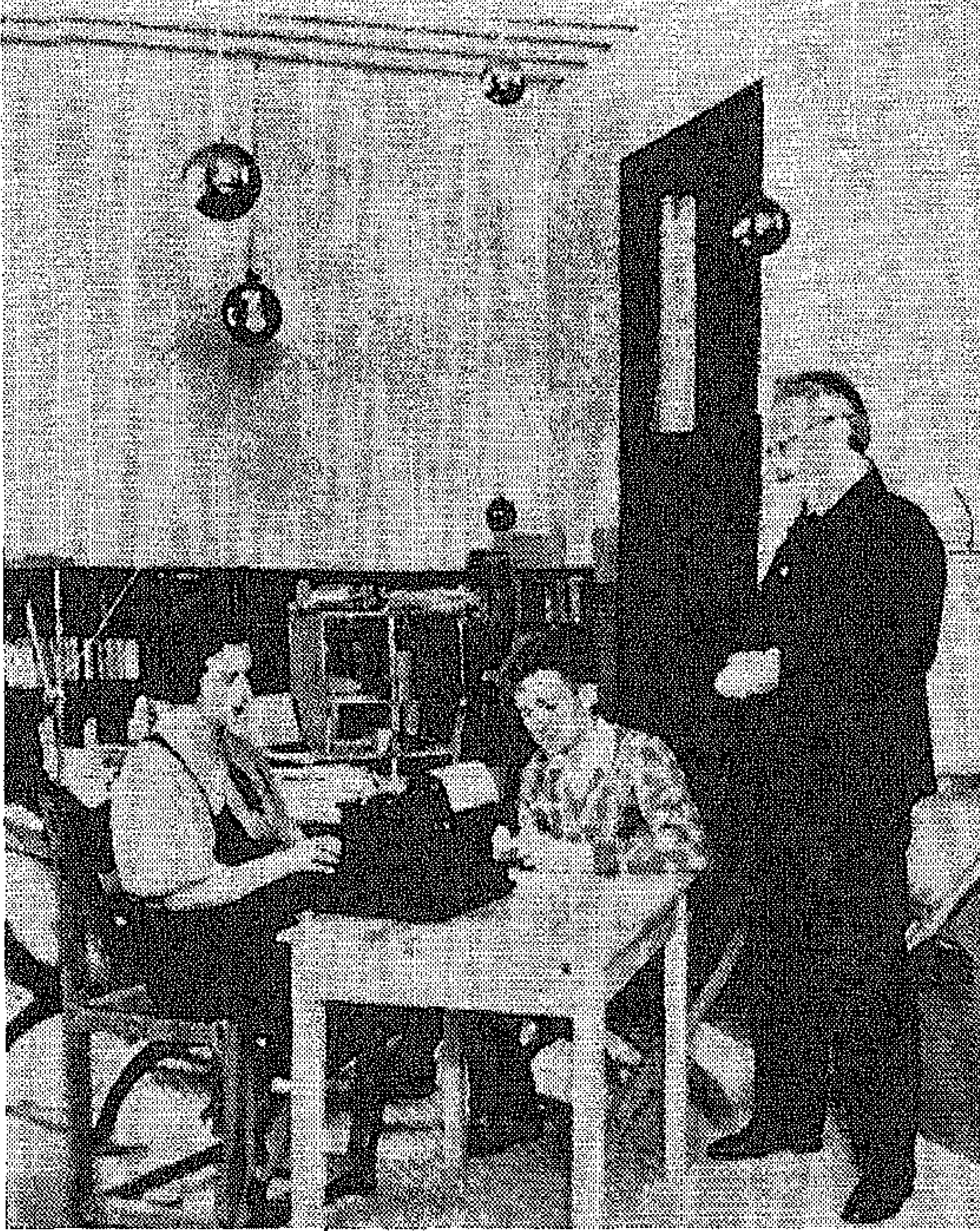
بعد تناول الإفطار ، عاد لمراجعة مقاله الذى أملاه ، ثم استرخَى قليلا قبل أن يعود إلى مكتبه . وفى الساعة الخامسة مساء تناول الشاى مع زوجته . وفى الخامسة وخمس وعشرين دقيقة أطلتْ عليه ناتاليا من شرفة بالبيت وكان يُطعم أرانبه وإلى جواره رجل يضع على رأسه قبعة رمادية بها شريط أسود . ولفتَ نظر الزوجة أنه على الرغم من صفاء السماء واعتدال الجو فإن الرجل كان يضع على ذراعه معطفا مطويا من النوع الواقى من المطر . تَمْتمت ناتاليا تحدِّث نفسها فى ضيق : «جاكسون مرة أخرى ؟ .. ما الذى جاء به فى هذه الساعة ؟! ». ثم نزلتْ الدَّرَج تستطلع الأمر .

ومَن يكون جاكسون هذا ؟

لابد أولا من معرفة « سيلفيا أَجِرلُوف » ،شابة أمريكية الجنسية ، تروتسكية نشطة وُلدت لأبوين روسيين ، كثيرة التردد على بيت « العجوز » الذى يحترمها ويعدِّد إخلاصها له ولأفكاره . تعَرَّف عليها « فرانك جاكسون» فى باريس ، وقدَّم نفسه إليها فى لقائهما الأول على أنه « جاك مورنارد فانْدرشْد » يعمل بالصحافة ، وأن مولده كان فى طهران لأبوين بلجيكيين ، ولكى يهرب من التجنيد ، فقد حصل على جواز سفر كندى باسم « فرانك جاكسون » . وصارت بينهما صداقة توثقت حتى أصبحت سيلفيا



إلى اليمين « سيلفيا أجرلوف » التى قَدَّمت جاكسون » - فى الصورة تحتها بعد القبض عليه - إلى « تروتسكى » الذى يُرى واقفا فى الصورة إلى اليسار فى مكتب صديقه « ريفيرا » يراجع كتابه عن حياة غريمه « ستالين » .





عشيقتـــه . فصحبتْه معها إلى الولايات المتحدة ثم إلى المكسيك وقدَّمَتْه إلى تروتسكى وأسرته على أنه إلى جانب اشتغاله بالصحافة يرغب فى العمل بالمكسيك فى مجال الاستيراد والتصدير . وتكررت زيارتهما لبيت « العجوز» معا بين الحين والحين . كان فى سن السادسة والعشرين .

لكنه فى خلال الأسبوعين الأخيرين - قبل يوم ٢٠ أغسطس - زار بيت تروتسكى أربع مرات بمفرده بعد أن تيسَّر له اختراق الحصار الشديد المضروب حول هذا البيت . وفى الليلة السابقة مباشرة جاء زائرا بحُجة إطلاع تروتسكى على مقال ثورى كتبه ، لكن « العجوز » رآه يتضمن كلاما سطحيا وأفكارا مشَوَّشة ، فنصحه أن يترك الكتابة ويتفرغ لعمل آخر . كان يحمل على ذراعه فى تلك الليلة ذات المعطف الواقى من المطر حيث كان الجو صحوا

لا يُنذر بمطر . ولهذا استاءت ناتاليا عندما ظَهر بالبيت فى اليوم التالى ، ولفَتَ نظرها رؤية المعطف والقبعة . وتذكرتْ على الفور ما أخبرها به زوجها بعد انصراف جاكسون بالأمس : فقد لا حَظ شيئا غريبا فى سلوكه ، إذ رآه يجلس فوق المكتب ، ولم يخلع قبعته كما يقْضى العُرف أثناء المحادثة . وأضاف إليها الزوج فى دهشة : « إن سلوكه لم يكن مطْلقا فرنسيا مهذبا » . ثم ها هو يعود فى اليوم التالى مباشرة بزعْم أنه أعاد صياغة مقاله ويريد أن يُطلع تروتسكى عليه .

تضايق « العجوز » ، وبدا عليه التأفف وهو ينزع قفازه ويُغلق باب حظيرة الأرانب بعُنف . .وسمعتْه ناتاليا وهو يَزْجُر جاكسون بقوله : « إنك تبدو مُملا ، ومنظرك سيئ ، وهذا الذى تكتبه هُراء .. ردىء » ! ثم سكت برهة قبل أن يتابع كلامه الغاضب : « تريدنى إذنْ أن أقرأ هذه المقالة ؟ .. هيا ندخل » .

تَوَجه ثلاثتهم إلى داخل البيت . وقالت ناتاليا تصف ماحدث : «صَحِبْتهما حتى غرفة المكتب ، فدخلا ، وأغلقا الباب خلفهما ، فاتجهتُ إلى الغرفة المجاورة وفى نفسى ريبة مخيفة . بعد دقيقتين أوثلاث سمعتُ صراخا لم أعرف بالتحديد مَن أطْلَقه » . فى الواقع .. كان صراخ تروتسكى !

بينما كان تروتسكى يطالع المقال ، وضع جاكسون معطفه على منضدة بالغرفة وظَهرْه إلى « العجوز » . كان يُخفى تحت المعطف مِعْولا (يشبه البَلْطة) من النوع الذى يُستخدم فى قطع الأشجار فى الغابات قصير اليد ، وكان معه أيضا خنجر . ثم استدار وهَوَى بضربة قوية بالمعول على رأس تروتسكى ، فأحدث سلاحه الحاد العريض شقًّا بالجمجمة من الجانب الأيمن وجرحا بعمق سبعة سنتيمترات ، فتفجر الدم من الرأس مع أجزاء من المخ . لكن العجيب أن « العجوز » الذى بلغ من العمر ستين سنة ومثلها من الأحزان والنكبات والإحباطات والهموم والخوف من المطاردة الدائمة والقتل ، استطاع بعد الاعتداء عليه أن ينهض من مقعده ويقفز نحو الجانى



غرفة مكتب تروتسكى عقب جريمة الاغتيال ، ودمه يلطخ الأرض وأوراقه مبعثرة .

وينقضَّ على يده ويَعُضها بشدة ، ثم أطلق صرخة ، تلك التى سمعتْها ناتاليا فى الغرفة المجاورة ولم تحدد مَصْدرها . ولابد أنها كانت صرخة استغاثة مؤلمة مروِّعة ، فقد قال عنها جاكسون نفسه فيما بعد : « لن أنسى ما حَييت وقْع تلك الصرخة .. كانت طويلة جدا كأنه لا نهاية لها .. كانت عويلا مختلطا بأنين مفزع ، حَسِبْته سيخرق سمعى ويمزق مُخى ».

عندما أسرعتْ ناتاليا مذعورة نحو غرفة المكتب ، ولحق بها حارسان ، رأت زوجها مستندا إلى إطار (حلْق) الباب الذى استطاع فتحْه بيدين مرتعشتين ، ثم سقط أرضا ، فانحنت نحوه ناتاليا تحاول إيقاف النزيف الذى غطى وجهه ورقبته وصدره :ومن بين الدم المتدفق فتح فمه ليقول لها : « ناتاليا .. أُحبك ! عِدِينى أن أى شخص يأتى بعد الآن لزيارتك يُفَتَّش أولا جيدا .يجب أن تأخذى «سيفا » (الابن) وترحلا بعيدا عن هذا كله .. أتَعْلمين ؟ عندما كنت جالسا هناك (غرفة المكتب) أحسستُ بما يريد أن يفعله » . ثم سكت وأغمض عينيه . فلما أقبل مزيد من الحراس سراعا وعلا

ضجيجهم مختلطا بنحيب ناتاليا ، فتح عينيه قـائلا : « حذار أن تقتلوه (أى الجانى) .. يجب إجبـاره على الكلام والاعتراف » . فكانت هذه آخـر كلماته . وبعد ست وعشرين ساعة فارق الحياة بمستشفى قريب من البيت .

● الجانى بعد الاغتيال

كانت آخر كلمات نَطق بها تروتسكى وهو مشجوج الرأس غارق فى دمه ، بسيطة واضحة : « حـذار أن تقتلوه .. يجب إجباره على الكلام والاعتراف ». فهل كان بسيطا واضحا انتـزاع اعتراف من الجانى بدوافع الجريمة والذين وراءها من قريب أو من بعيد ؟ ! كلا .


فرانكو

تكلم « جاكســون » فأعاد ما أفضى به إلى « سيلفيا » فى أول لقـاء معها فى باريس : أنه « جاك مونارد » من مواليد طهران لأبوين بلجيكيين .. إلخ . لكن اتضح أن هذا كله كذب وتلفيق وتضليل . فقـد ظل يستجوبه فريق من علماء النفس المكسيكيين ست سـاعات كل يوم على مـدى سـتـة أشـهر متـواصلة ! ولقد صارحهم فى بداية أول لقاء قـائلا : « لن تستطيعوا أن تنتزعوا منِّى أى شىء » . وصَدَق فيما قـال . فكل ما انتهى إليه تقريرهم بعـد تلك الشـهور فى ألْف وثـلاثمائـة وتسـع وخمسين صفحـة مكتـوبة تتضمـن حصيلة الاستجوابات المضْنية :أنه من « المحتمل » أن يكون هذا الجانى «أسبانيا » تم تدريبه فى الاتحاد السوفييتى . ولا شىء غير ذلك ! وقُدم إلى المحاكمة فى سنة ١٩٤٣ . ورفض الكلام . فحكم عليه بالسجن لعشرين سنة .

وفى سبتمبر سنة ١٩٥٠ – بعد عشر سنوات كاملة من مقتل تروتسكى – حَمل دكتـور « ألفـونسو كيروز كـوارون » – أحـد الأطبـاء النفسيين الذين استجـوبوا جـاكسون – حَمل نسخـة من بصمات أصـابعـه إلى العاصمـة الأسبانية مدريد ، وفحصهـا مع رجال الشرطة المختصين هناك ، فظَهر أنها تتطابق مع بصمات قُطب شيوعى اسمه : « جيم رامـون مِرْكادِر دِلْ ريو هِرْ نانديز » ، اعتُقل ببرشلونة فى ١٢ يـونيو ١٩٣٥ . وتأكـد ذلك من مضـاهاة الصور الفوتوغرافية المحفوظة بأرشيف الشرطة الأسبانية لجيم رامون مع صور « فـرانك جاكســون » ،فجاءت أيضـا متطابقة . وتتابعـت المعلومات :

أُفرج عن جيم رامون فى يوليو ١٩٣٦ بناء على قرار العفو العام عن المسجونين السياسيين .

فى أثناء الحرب الأهلية الأسبانية ، مُنح « جيم رامون » رتبة ملازم لحُسْن بلائه فى المعارك ضد الجنرال فرانكو ،ثم جَنَّده الكولونل « ناعوم كوتوف » (اسمه الحقيقى : ليونيد إيتنْجون) للعمل مع المخابرات السوفييتية ، وكان « ناعوم » عشيقا لوالدة «جيم » وهى كوبية شيوعية تُدعى : « كاريداد مرْكادر دل ريو » . واتضح أن «ن. كوتوف » و«كاريداد » كانا فى انتظار « جيم – جاكسون » عند مدخل جراج سيارات قرب بيت تروتسكى ساعة اغتياله .



٢٠ أغسطس ١٩٤٠.. آخر صورة لـ «تروتسكى » وهو راقد فى غيبوبة كاملة بعد الاعتداء عليه وقد شُج رأسه، ومات فى اليوم التالى مباشرة.

وفى السجن بالمكسيك ، كان « جيم رامون مِرْكادِر » مثاليا فى سلوكه . واشترك فى برنامج لتعليم السجناء الأميين القراءة والكتابة . واشتغل – فى السجن – كمهندس كهربائى ، وتولى مهمة صيانة والإشراف على شبكة الكهرباء به . ومُنح– مكافأة له – غرفة واسعة للإقامة طوال فترة العقوبة ، وكان مصرَّح له باستقبال عشيقته فيها . وبعد انتهاء فترة العقوبة ، أُطلق سراحه فى ٦ مايو سنة ١٩٦٠، فسافر إلى براج (تشيكوسلوفاكيا – قبل التقسيم) حيث عمل بالصحافة ، ثم رحل إلى موسكو وعاش بها خمسة عشر عاما مُنح خلالها وسام الاتحاد السوفييتى، ومات فى هافانا (كوبا) فى أكتوبر ١٩٧٨.

● وفى السينيما

أنتجت السينيما العالمية أكثر من فيلم عن « تروتسكى » ومأساته الحزبية ونهايته الدامية ، ربما كان أفضلها فيلم المخرج « جوزيف لوسيىْ– J.Losey » عام ١٩٧٢، وأدى أدوار البطولة فيه « ريتشارد بورتون (فى دور تروتسكى) ، وألان ديلون (فى دور قاتله) ، والممثلة « رومى شنَيْدر » فى دور سيلفيا ، وكتب قصته الأسبانى: «جوليان جوركين » .



آلان ديلـون ..
ورومـــــى
شنَيدر.

اغتيال ولى عهد النمسا


« فرانسوا جوزيف » إمبراطور النمسا .

فرانْز فرديناند .. وُلد فى مدينة « جراتْز » بالنمسا فى ديسمبر ١٨٦٣. وصار وليا لعهد النمسا - المجر على غير رغبة منه أو كفاءة فيه . فقد نشأ فى القصر الإمبراطورى مُتْرفا بعيدا عن مسئوليات الحُكم وتبعاته ومشاغله . وإذا به يصبح فجأة وريثا للعرش بعد « انتحار » ابن عمه ولى العهد الرسمى الأمير « رودولف » ، ثم وفاة عمه الأرشيدوق « كارل لودفيج » فجأة ، فكان ترتيبه التالى مباشرة لخلافة عمه الجالس على العرش : الإمبراطور العجوز «فرانز جوزيف » ، أكبر ملوك أوروبا سنا ، وعميد الأُسر الملكية الحاكمة بها كلها .

تزوج الأرشيدوق « فرانز فرديناند » فى يوليو سنة ١٩٠٠ الكونتيسة « صوفى شُوتِكْ » . ولما كان عمه الإمبراطور « فرانز جوزيف » يرى أن «صوفى » دخيلة على آل هابسبورج العريقة التى ينتمى إليها الإمبراطور ، فقد ألزم ولى العهد الجديد (فرانز فرديناند) أن يكتب إقرارا بعدم أحقية أبنائه وأحفاده فى وراثة العرش

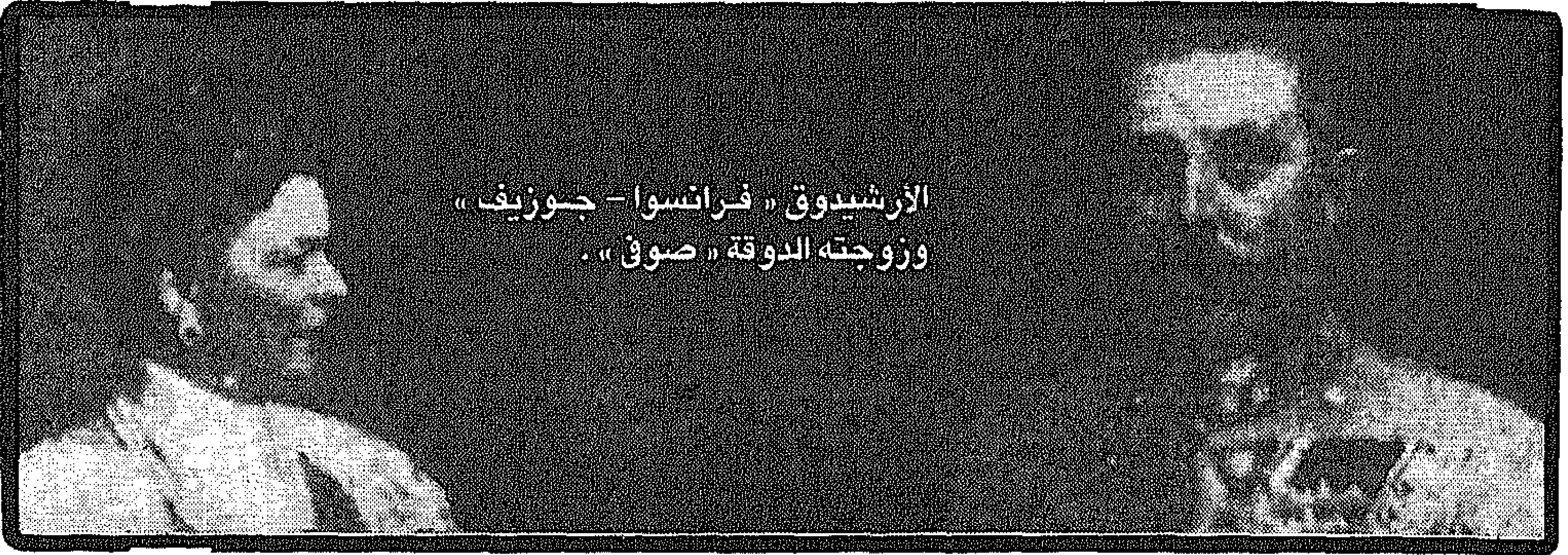
مستقبلاً (١).

كان «فرانز فرديناند» يهوَى الصيد. ويقال إنه قتل بنفسه فى رحلات الصيد أكثر من مائتين وخمسين ألف حيوان ، منها نحو ستة آلاف من الوعول الكبيرة. وكان يرفض استخدام البنادق الآلية أو ذات المناظير فى الصيد ، ويعتبر ذلك بعيدا عن الشجاعة الرياضية . ولما كان دائما تحت المراقبة الطبية فى أثناء الصيد خشية الإجهاد المفرط ، فقد كان يَقْبع جالسا فى مكانه ويتولى عدد ضخم من حاشيته وحراسه دفْع الحيوانات البرية ناحيته حتى يتمكن من صيدها .

فى السادس من أكتوبر سنة ١٩٠٨ أعلن الإمبراطور « فرانز جوزيف » ضم البوسنة – الهرسك إلى مملكته . وفى سنة ١٩١٤، أعلن الأرشيدوق «ف. فرديناند » – بصفته المفتش العام لجيوش الإمبراطورية ـ أنه سيزور البوسنة وعاصمتها سراييفو لحضور مناورة حربية بها . فتلقَّى تقريرا من سلطات الأمن والمخابرات فى بلده تحذِّره فيه من خطر رحلته إلى سراييفو ، ومن محاولة الاعتداء عليه خاصة من جانب الصرب الذين ساءهم ضم المقاطعة إلى النمسا ، كما أن توقيت هذه الزيارة غير مناسب إذ تأتى فى أيام احتفالات دينية قومية كبيرة عندهم . لكنه لم يكترث بهذه التحذيرات ، واعتبرها نوعا من الخنوع لأوهام الصدفة ، قائلا : « إن التحذيرات والاستسلام للمحاذير من أَوْخم العوائق التى تخنق الحياة » ! ثم أضاف فى حكمة فيلسوف : « الخوف مَفْسدة ، والرهبة مَضْيَعة ؛ ونحن جميعا فى مواجهة دائمة مع خطر الموت ؛ وعلى المرء أن يكون ببساطة واثقا بالله » . وأصرَّت زوجته « صوفى » على مصاحبته فى تلك الزيارة ، ظنا منها أن أحدا لن يُقْدم على اغتياله إذا كانت هى – كامرأة – بجواره . فليس ذلك من حُسْن الذوق أو من شِيَمَ التحضُّر . يبدو أنها كانت ساذجة ، أو طائشة ، وربما معتوهة ! ويؤكد ذلك : أنها حملتْ معها – وأقنعت زوجها بأن يحمل معه – «حجابا » به تعويذة تحمى من الشرور ، ومن وقوع المحظور ! ولله فى خَلْقه – حتى الكونتسات – أُمور ، يتحقق بها المقْدُور .

---

(١) تشاء الأقدار أن تنهار أسرة هابسبورج التى حكمت النمسا – المجر زهاء أربعة قرون ، وذلك عقب الحرب العالمية الأولى . تفصيل ذلك فى الجزء الثانى من هذه السلسلة بعنوان : « السياسة والدبلوماسية فى القرن العشرين /جـ١ » .


الأرشيدوق « فرانسوا - جوزيف »
وزوجته الدوقة « صوفى ».

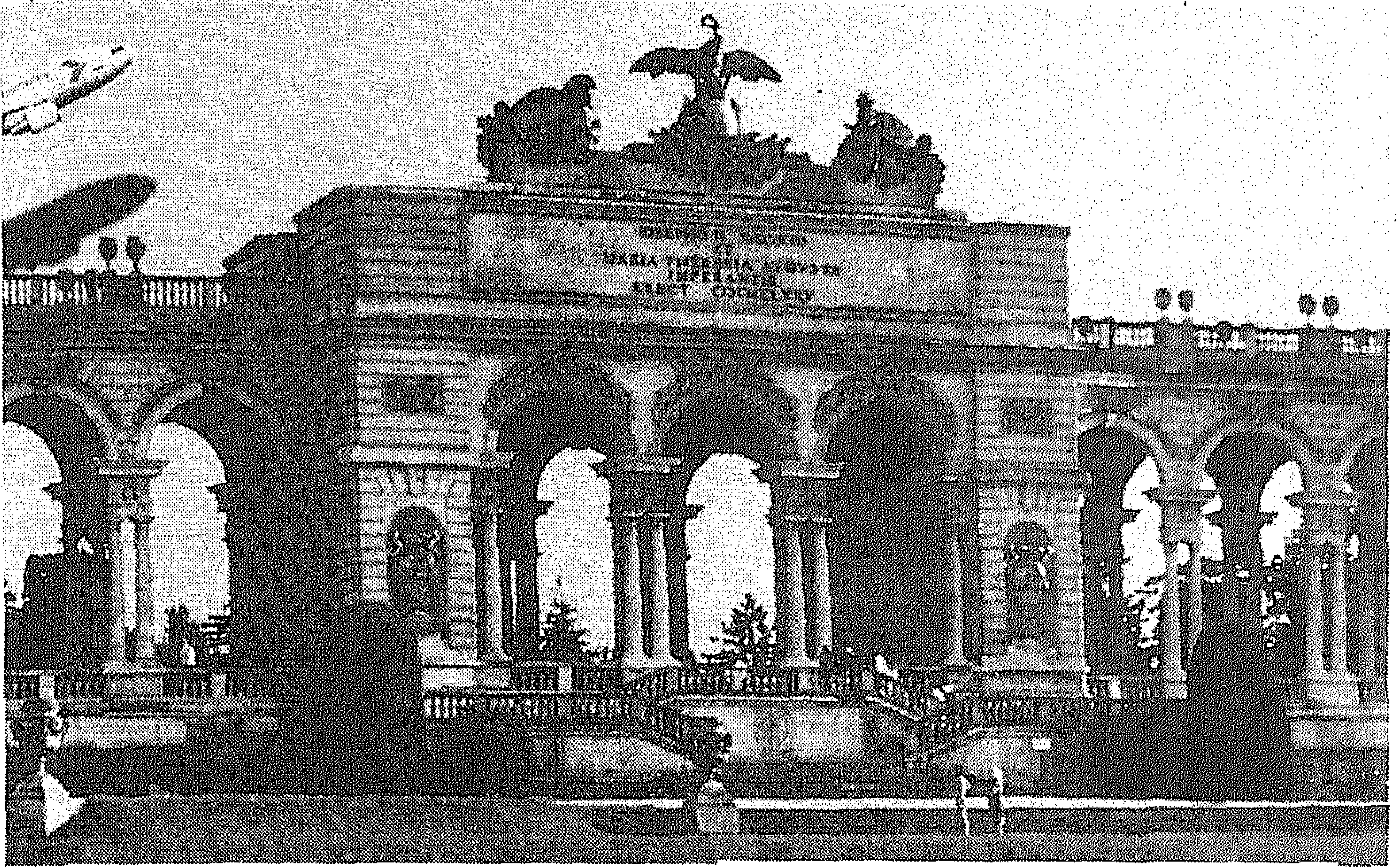
● الاغتيال

٢٨ يونيو ١٩١٤..

يصل الأمير ومرافقوه إلى « سراييفو » فى قطار خاص بعد انتهاء المناورة الحربية . وكانت جميع صحف الصباح قد نشرت تفاصيل برنامج الأرشيدوق فى ذلك اليوم ، ويتضمن جولة فى سيارة مكشوفة يزور خلالها المتحف الجديد ، مرورا بالشارع الرئيسى فى المدينة ، ثم زيارة المجلس المحلى، ثم تناول الغداء فى قصر المحافظ ، بصحبة « أوسكار بُوتْيورِك » الفظ المتعجرف ممثل الإمبراطور فى البوسنة . كان الموكب يتألف من سبع سيارات متتابعة ، جلس الأرشيدوق فى السيارة المكشوفة الثالثة ، يرتدى الزى الرسمى الكامل لجنرال بسلاح الفرسان ، وإلى جواره الكونتسة صوفى ، وأمامها السائق « جراف » . وجلس على مقعدين صغيرين خلف السائق فى مواجهة الأرشيدوق وزوجته : أوسكار (ممثل الإمبراطور) ومالك السيارة الكونت « فرانز هارّاش » . (٢)

ومن جانبه، رفض « بوتيورك » تصديق تقارير المخابرات الحربية وجهات أَمْنية غيرها بأن حياة الأرشيدوق « فرديناند » فى خطر . وعلى الرغم من تلك التحذيرات ، لم يوضع لحراسة ولى العهد وزوجته سوى مائة وعشرين فقط من رجال الشرطة على امتداد الشوارع التى أُعلن أن موكبه سيمر بها وفى الأماكن التى سيزورها . فكان من الميسور على ستة شبان يحملون مسدسات وقنابل أن يندسوا بين جموع البوسنيين المحتشدة على جانبى الطريق الرئيسى . وأقْبل الموكب يتهادى فى مسيرته بسرعة لا تتجاوز

(٢) كانت هذه السيارة يمينية ، أى من الطراز الإنجليزى حيث مقعد السائق إلى اليمين .



بوابة النصر التاريخية فى « فيينا » عاصمة النمسا .

عشرة أميال فى الساعة . وعندما عبرتْ سيارة الأرشيدوق أمام المتآمر الأول - من الشبان الستة - تَجَمد من الرهبة وعَجز عن الحركة . وكذلك ارْتاع المتآمر الثانى بعد مسافة قصيرة ، وهو نفس ما حدث للمتآمر الثالث .

أما الرابع فى المؤامرة « نِدِليكو كابْرينوفيتش » ، فقد كان أكثر ثباتا وجرأة . كان فى سن التاسعة عشرة . ومنذ الصباح الباكر فى ذاك اليوم ، حاول إلزام نفسه بالسكينة والسلوك الهادئ المعتاد ، حتى إنه ذهب متأنقا إلى ستديو تصوير فوتوغراف ، وطلب التقاط صورة شخصية له . وكانت فى جيب سترته قنبلة !

برز « ندليكو » من بين الجمهور وسأل رجل الشرطة الواقف منتصبا لحراسة الموكب : « فى أى سيارة يجلس الأرشيدوق ؟ » ، فأجابه الشرطى الساذج بأنه فى السيارة الثالثة . فأخرج الفتى القنبلة من جيبه على الفور ، ونزع منها فتيل الأمان وقذفها نحو السيارة . لكنها ارتطمت بمؤخرة سيارة الأرشيدوق فانزلقت متفجرة إلى الشارع ، وأصابت شظية منها الكولونل « إرك » مساعد « بوتيورك » ، الذى كان بالسيارة التالية (الرابعة فى الموكب) فاتجهت به إلى مستشفى قريب . ولم يشعر أحد من ركاب

السيارتين الأولتين بما حـدث ، فمضيتا فى طـريقهما ،أما الأرشيـدوق ، فقد أدرك أن محاولة جَرت لاغتياله : فأمر السائق – وهذا يدعو إلى الدهشة – أن يتـــوقف ، ثم طلب من الكونت « هـارّاش » أن يذهب ليرى بنفســه إن كـــان أصيب أحـد فى السيـارات الخلفية . وهنا جـاء الدور على المتـآمـر الخامس : «جافريلو برينْسِيب » ، المدبِّر لخطة الاغتيال .

كان « جافريلو » فى سن التاسعة عشرة ، قصير القامة ، وعلى بعد خطوات من زميله « نِدِليكو » . وقد منعـه قِصر قامته الشـديد بين تكتل الجمهور من معرفـة حقيقة مـا حدث . صحيح أنه أدرك توقف سيـارة فى الموكب بالقرب منه وسمع لغَطـا مختلطا بهرْج ومَــرْج ، لكنه لم يَر ولم يفهـم أيه سيـــارة توقفت فجأة ؟ وسبب ذلك ؟ ومَن رُكابها؟ وإذ أيقن أن قنبلة انفجرت وسمع صوتها ، فقـد ترجَّح عنده أن محاولة الاغتيال نجحت ، فاستـدار منصرفا ، ولمح « ندليكو » فى قبضة الشرطـة ، فتأكد لديه مقتل الأرشيـدوق . ثم حانت منه التفاتة عن غير قصد نحو الموكب ، فرأى من فُرْجة بين الواقفين « صوفى» جالسة بالسيارة وإلى جوارها الأرشيدوق سليما لم يمسَسْه سوء. فارتبك ، وهو الذكى الحرِك ، ثم أفاق فانطلق نحـو المُعْتَرَك ! لكن الموكب كان قد ابتعد نحـــو مجلس المدينة . فلـم ييأس أو يتراجع ، بل مضـى فى اتجاه المجلس ، واتخذ لنفسه مـوقفا عند منعطف لابد لسيارة الأرشيدوق من المرور أمـامه عند التوجه إلى المتحف .



كـان مـن المتـوقَّع أن يَحدث تعـديـل فى برنامج زيارة الأرشيدوق ، أو ربما يُغَيَّر تـرتيب المسار ، أو حتى يُلْغَى بأجمعــه . لكن الأقـدار أبَتْ إلا أن يُصرَّ «فرانز فرديناند » على متـابعة البرنامج وكأن شيئا لم يكن ، إظهارا للثبات والشجـاعة ، والثقة بالنفس المِطْواعـة (لإرادته العنيـدة) . وإرضـاء لزوجتـه التى كـانت تتحسس بين الحين والحين «حجابها » و « حجابه » الطارديْن للشر . فزادت لهفة المتآمرين على مـلاحقته حيثما اتجه، وإعـادة المحـاولة . ومضى المشْرفون على تنفيـذ



« جافريلو برنسيب » عند القبض عليه عقب اغتياله الأرشيدوق وزوجته .

البرنامج فى الأداء وفْق الترتيب المقـرر ، بـدون أيه إضـافـات أَمْنيـة . وكـان بعضهم خـالى الذهـن تمامـا ممَّا حـدث ، ومن هؤلاء : « فهيـم كُـورْشِيتْش أفندى» عمدة المدينة الذى كان يجهل محاولة الاغتيـال ! فوقف يلقى كلمة فى استقبال الأرشيـدوق وقرينته عند وصـولهما إلى مجلس المدينة ، وبدا عليه الابتسام الديبلوماسى والتهليل المصحوب بكلمات الترحيب الفياض بالبِشْر والبهجة والسرور . فإذا بالأرشيدوق ينفجر غيظا ويصيح به : « إلى الجحيم أنت ومـا تقول ! وعن أى ترحيب تتحـدث ؟ لقد جئت لزيارة سراييفـو فكان استقبـالى بالقنابل » ! ثم سكت ، فسـاد صمت مـروِّع ، وغَشِى الجميع قلق محيِّر ووجوم . وتجمد العمـدة المسكين فى مكانه . فلما ذهب عن « فرديناند » الغضب ، أشار إلى «فهيم أفندى » قائلا : « حسنا ! هيا أكْمل كلمتك » . فالتقط الحاضرون أنفـاسهم بارتيـاح ! ولم يكن العمدة حصيفـا فطنا ، قـادرا على التعـديل السريع لبعض كلماته المكتوبة ، مـراعاة للحـدث والموقف ، إذ ختم كلمته بقوله وهو يقـرأ : « إن جميع أهالى سراييفو بلا استثناء ، يستقبلونكم يا صاحب السمو والسعادة ، أنتم وقرينتكم ، بالفـرحة الغامرة ، ويرحبون

بتلكم الزيارة ترحيبا حماسيا مفْرَطا » . كان المشهد إذن أشبه بفصل من ملهاة ساخرة ساذجة !

قرر الأرشيدوق فجأة أن يزور ـ قبل المتحف ـ المستشفى الذى يرقد فيه الكولونل « إريك » للاطمئنان على صحته . معنى ذلك أن مسار الموكب سيتغير ، ولن يمر أمام « جافريلو » حيث يقف فى انتظاره . ولم يَدْخل تعديل على الاحتياطات الأمنية سوى وقوف الكونت « هارّاش » على الحافة الوطيئة البارزة من السيارة بالجانب الأيسر منها الملاصق للأرشيدوق ، حماية له .

وهنا تبلغ « الكوميديا الهزلية » ذروتها ! (أو قل : هى الأقدار بترتيبها وحساباتها وتوجُّهاتها) . إذ يبدو أن أحدا من المسئولين الكبار ، لم يُبْلغ سائقى سيارات الموكب بالتعديل الطارئ على البرنامج فعبَرتْ السيارات أمام المتآمر السادس فى مجموعة الاغتيال ، إلاَّ أنه للمرة الثانية ـ كما حدث له من قبل ـ هاب وارتعد من رؤية فرديناند وعجز عن التحرك بالهجوم . واتجهت السيارة الأولى فى الموكب نحو طريق المتحف إذ كان سائقها يَجْهل التعديل المفاجئ للمسار . فتبعتْها سيارة الأرشيدوق . وبعد بُرْهة ، أدرك الخطأ «بُوتيورِك » ـ ممثل الإمبراطور فى البوسنة ـ فأمر « جراف » ـ السائق ـ بإيقاف السيارة . فإذا بها تتوقف مباشرة أمام « جافريلو برينْسيب » لا يحجبها عنه أحد أو شىء ! فالكونت « هاراش » بعيدا عند الجانب الآخر ، والسيارة رابضة على مسافة مترين اثنين منه ، وكأنها تناديه ، أو تتحداه . فاستجاب لكليهما على الفور : أسرع بإخراج مسدسه ، وتهيأ للضرب ، لكنه بُهت من نظرة « صوفى » نحوه ، فتردد لحظة ، ثم أشاح بوجهه وهو يستعد للضغط على زناد المسدس ، وفى الحال أطلق رصاصتين ، أصابت الأولى . على غير رغبة منه ـ رأس « صوفى » واخترقت الثانية عنق فرديناند » . فانكب «هاراش » على الأرشيدوق المترنح ، وهو يصرخ بالسؤال : « هل تشعر بألم كبير يا صاحب السمو » ؟! فتلقى الإجابة من سموِّه

بصوت متقطع : « لا شىء » ! وأخذ يكرر ذلك ست أو سبع مرات ، وصوته يَخْفت شيئا فشيئا ، حتى تلاشى وفَقَد الوعْى . وفى خلال بضع دقائق كان «فرديناند وصوفى » فى العالم الآخر !

● من القاتل ؟

وُلد « جافْريلو برنْسيب » فى يوليو ١٨٩٤ لفلاح صربى فقير بمنطقة «كراايينا » شمال شرق البوسنة . وفى سنة ١٩١٠ حاول طالب بالحقوق يدعى « بوجدان زرايينْش » اغتيال المحافظ السابق على الجنرال « بوتْيورك» لكن المحاولة فشلت . فانتحر ذلك الطالب ودفن فى مقبرة مجهولة . فحزن عليه عدد كبير من الشباب ، وبحثوا حتى عثروا على مقبرته ، فكانوا يزورونها ـ ومن بينهم « جافريلو » ـ أفرادا وجماعات . وفى ليلة ، بينما كان « جافريلو » بمفرده عند المقبرة ، أقسم ليفعلَنَّ مثلما فعل ، ويثأر لموته (وقيل: لقتله فى التعذيب أثناء التحقيق معه) . وفى سنة ١٩١٢ ـ وكان يدرس بالعاصمة بلجراد ـ سعى للالتحاق بالجيش ، لكنه رُفض لضَعْفه البدنى ولقصَر قامته الشديد . وبعد سنتين قرأ فى صحيفة ألمانية أن الأرشيدوق « فرديناند » يعتزم زيارة البوسنة . فبادر « جافريلو » بالعمل على تحقيق الوعد الذى قطعه على نفسه وأقسم عليه . فاتصل ببعض الشباب، واتفقوا على وضْع خطة لاغتيال الأرشيدوق ولىّ عهد الدولة التى «اغتصبت» البوسنة وضمتها إلى أراضيها . ثم تشاء الظروف أن ينضم إلى «جافريلو » ومجموعته ـ عن طريق أحد أفرادها ـ القائد العسكرى الصربى الميجور (الرائد) « تانكوزيتش » الذى سبق أن رفض التحاق «جافريلو » بالجيش ! وهو نفسه الذى طلب من أحد مساعديه الموثوق بهم أن يدرب «جافريلو » وصحبه سرا على استخدام المسدسات والقنابل .

● المحاكمة

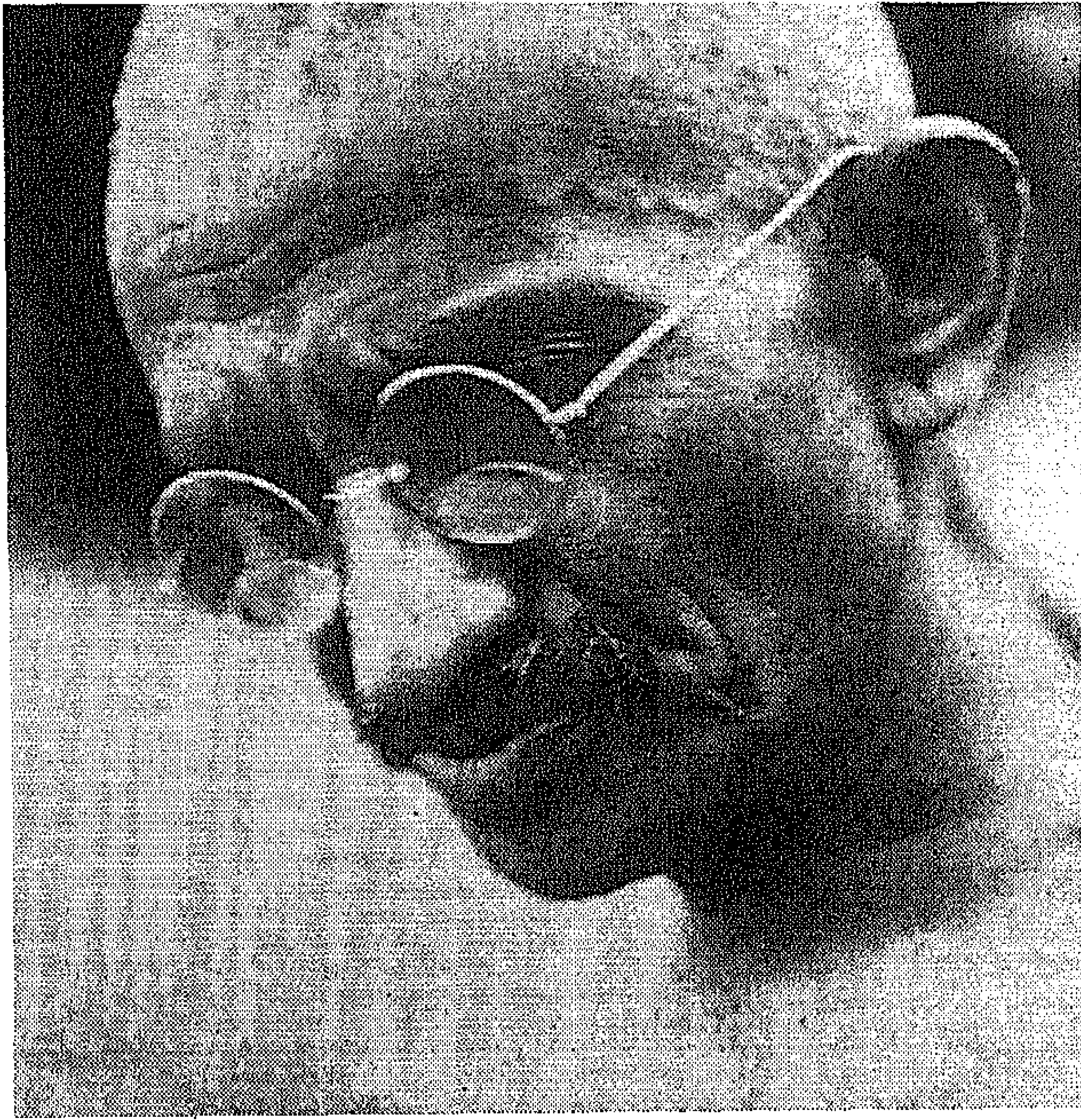
عقب اغتيال الأرشيدوق والكونتسة ، حاول كل من « جافريلو » وشريكه فى مجموعة الاغتيال « كابرينوفيتش » الانتحار فى موقع الجريمة بابتلاع مادة السيانيد . لكن الكمية كانت قليلة للغاية وتم إسعافهما بسرعة ، إلا أنهما أفلحا فى اكتساب المرض والخضوع للعلاج لفترة . وبدأت المحاكمة فى ١٢ أكتوبر ١٩١٤ ، وكان عدد المتهمين فى القضية (الفاعلين الأصليين وشركائهم فى المؤامرة) خمسة وعشرين ، أدانت المحكمة ستة عشر منهم بالقتل أو الاشتراك فيه . واستطاع أحد المتهمين الأصليين فى المجموعة ويدعى « مُحمد يتْش » الهرب إلى الجبل الأسود . وكان خمسة فى مجموعة

السبعة (الذين اندسُّوا بين الجماهير المحتشدة لمشاهدة الموكب) أقل من سن العشرين عند وقوع الحادث ، لذلك نجوْا جميعا من عقوبة الإعدام . ومع ذلك ، مات اثنان منهم فى السجن (سنة ١٩١٦) لإصابتهما بمرض السل (الدرن الرئوى) ، ثم لحق بهما بعد سنتين (أبريل ١٩١٨) « جافريلو » نتيجة المرض ذاته . وظل يردد حتى وفاته ما سبق أن أعلنه فى قاعة المحكمة إذ قال : « لست أشعر مطلقا أننى مجرمٌ ، فلم أرتكب جُرْما . وكل ما فعلْته هو أننى أزحت شيطانا من الطريق . ويؤسفنى فقط أننى قتلْت « صوفى » وكنت أقصد قتل بوتْيورك » .

● **عواقب الجريمة**

لم يخلِّف اغتيال « فرانز فرديناند » أثرا كبيرا عند أهالى العاصمة النمساوية فيينا . إذ كانت شعبيته ضعيفة ، بل كان مجهولا عند كثير من الناس ، ودوره محدودا ـ وربما معدوما ـ فى الحياة العامة . ومع ذلك ، وعلى الرغم من أنه لم يَثْبت فى التحقيقات أو المحاكمة وجود أية مشاركة رسمية فعلية من جانب السلطات الصربية فى حادثة الاغتيال ، إلَّا أن حكومة النمسا – المجر انتهزتها فرصة لإعلان الحرب على « صربيا » فى ٢٨ يوليو ١٩١٤. وكان القيصر الروسى ظهيرا مؤيدا للصرب ، بينما كانت ألمانيا حليفة للنمسا – المجر . فأعلنت ألمانيا الحرب على روسيا ، ثم على فرنسا . فلما اجتاحت القوات الألمانية أراضى بلجيكا لغزو فرنسا ، أعلنت بريطانيا الحرب على ألمانيا . وعلى الرغم من أن « فرانز فرديناند » نفسه كان قد حَذَّر مِرارا من إعلان الحرب على صربيا وروسيا ، فإن النمسا أعلنت الحرب على روسيا فى السادس من شهر أغسطس ، فاشتعلت الحرب العالمية الأولى (العظمى) التى حصدت ملايين الأرواح من عسكريين ومدنيين ، وخَرَّبت كثيرا ودمَّرت. ومن المؤكد أن « جافريلو برنسيب » لم يكن يدرى أن رصاصتين اثنتين من مسدسه ستفعلان كل ذلك ، وأنهما ستغَيران من تاريخ وجغرافية أوروبا ومناطق أخرى من العالم . وكان من بين تلك التغيرات المدهشة ، زوال إمبراطورية النمسا ـ المجر الهابسبورجية إلى الأبد ، بعد ستة أشهر فقط من وفاته !

اغتيـــال غانـــدى

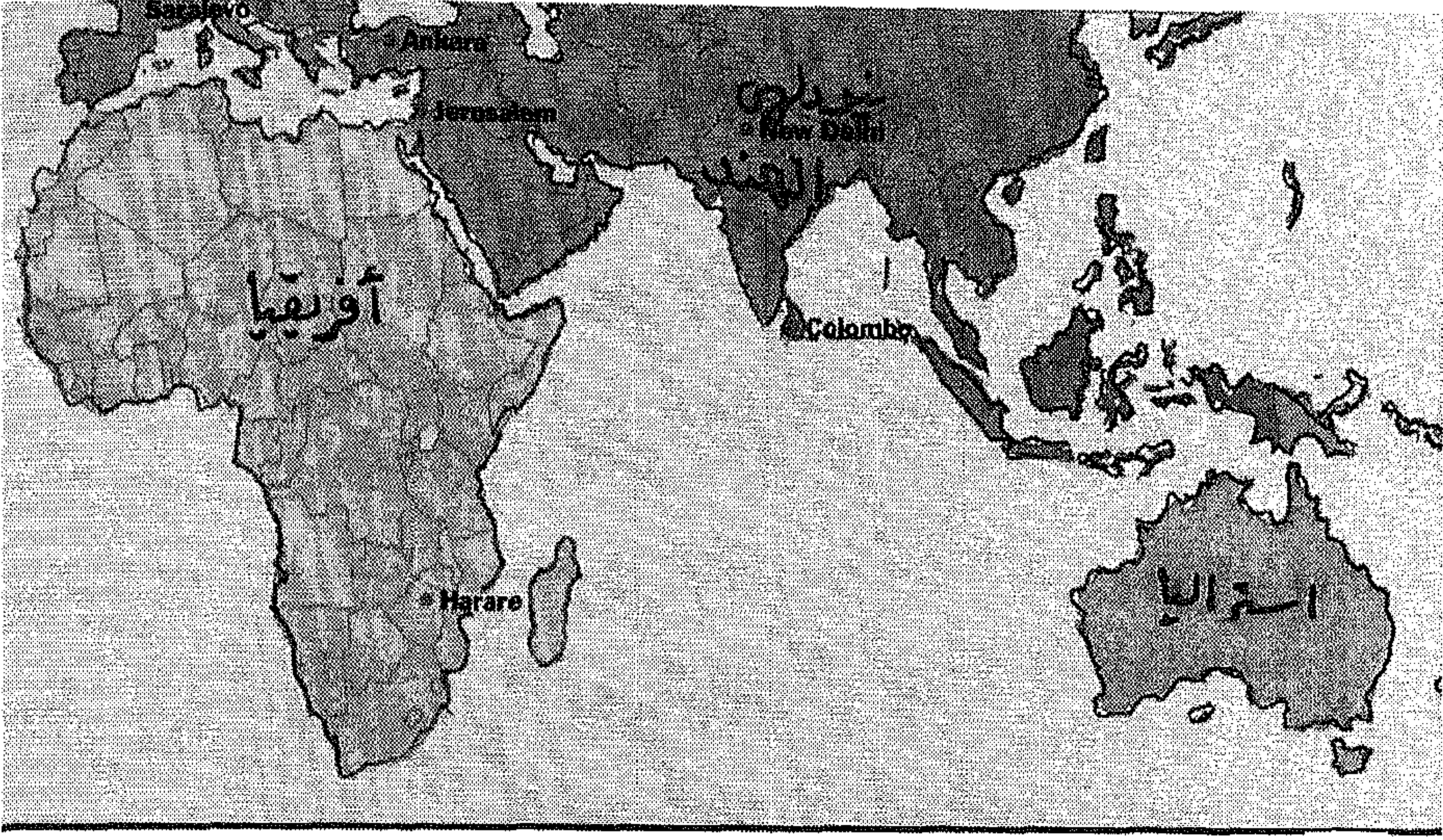


« غاندى »

مهندس « كَرَمْشاند غاندى » .. زعيم الهند الدينى السياسى ، وداعية نَبْذ العنف ، ورمـز المقـاومـة السلميـة . وُلد فى مـدينـة « أُوربنْدر » بالهند سنة ١٨٦٩ ، وتعلم فى الهند ثم لنـدن وتخصص فى دراسـة القـانون . واشتغل محاميا بالهند لفترة قصيرة قبل أن يسافر إلى جنوب أفريقيا فى سنة ١٨٩٣ . فروَّعه ما شاهد هناك من بشـاعة نظام وقوانين التمييز والتفرقة العنصرية التى فـرضها المستعمـرون الوافدون البيض على السكان الوطنيين السـود ، وسوء معـاملتهم الوحشية اللا إنسانية لأصحـاب الأرض ، والحق ، والقوة

العاملة المنْتِجة – فلم يستطع غـاندى صبرا ، ورأى أن من واجبه كمحام واعٍ شاب مناهضة تلك المظالم الاجتماعية اللا أخلاقيـة سلميا . فقاد حركة ضد التمييـز العنصرى . فلم يَسْلـم من عـداء وإيذاء المستـوطنين المستعمـرين البيض، وهم أصحاب السلطة والقوة المسيطرة والتشريع والنفوذ . فلما عاد إلى مـوطنه – الهند – فى سنة ١٩١٥، بـدأ الدعـوة إلى استقـلال بلده عن بريطانيا، ملتزما بمبدئه الثابت: اللا عُنف . وسرعان ما انتشرت دعوته فى كل أرجـاء الهند ، وأصبـح « مَهـاتما » غـاندى (أى : «عظيـم الرُّوح » فى اللغـة السنْسكريتية) أكبر شخصية مشهورة ومحتَرمـة فى الهند كلها. وبعد جهاد سِلمى شـاق طويل ، رضخت الحكومـة البريطانيـة وأعلنت مـوافقتهـا على الاستقـلال (سنة ١٩٤٧) بتقسيـم شبـه القـارة الهنـدية إلى دولتين منفصلتين: باكستـان والهند . ولم يكن غـاندى راضيـا عن هذا التقسيم ، إذ كـان يفضِّل أن يعيش كل السكان معا فى سـلام ووئام داخل دولة واحـدة ، كما عـاشوا منذ آلاف السنين . ومثل كـل الزعماء الكبار والدعـاة المصلحين العظام ، كان له مُناوئون حاقدون ومُعارضون كارهون .

وطبقـا لقـرار التقسيم ، نزحت جموع بـالآلالف والملايين ، بين سيخ وهندوس وآسيويين ومسلمين ، من وإلى باكستان والهند فى هجرات جماعية ضخمـة تعـرضت لمعارك ومـذابح وسرقـات واغتصـابات وخطْف ونَهْب . فتصاعدت بين الجميع مشاعر الحقـد والكراهية والترصد والتحفز والنقد ، وتزايدت الرغبـة فى الاشتجار والانتقـام والإرهاب والقتل . فارتاع غـاندى وخشى على مبادئـه السلمية من الانهيـار والضياع فى طوفان حـروب أهلية دموية لا تُبْقى ولا تَذَر ، تَلُوح بشائرها بين حَمْقَى البَشَر . فدعا الهندوس إلى التروِّى والتخلِّى عن العدوان والعنف ، وناشد المسلمين أن يلتـزموا السماحة وضبط النفس . وزاد الأمر سـوءا ، أن الحكومة الهندية الجديدة – بزعـامة نهرو – أعلنت مصادرة ٤٤ مليـون جنيها استرلينيـا مستحقة لبـاكستان . فأعلن غـاندى رفضه الغاضـب لهذا القرار الظالم ، واعتزم الصيـام الكامل حتى الموت . فـاضطر نهرو بعـد ثلاثة أيام داميـة مدمـرة أن يسحب قـرار المصادرة .



● الاغتيال

٢٠ يناير ١٩٤٨..

بعد خمسة أيام من إعلان « جواهر لال نهرو » سحب قرار مصادرة المستحقات الباكستانية ، كان « غاندى » مستغرقا فى أداء صلواته اليومية فى الساعة الخامسة مساء فى ساحة مجاورة للبيت الذى يقيم فيه بمدينة دلهى . وخلف الجمهور الذى حضر للصلاة معه ، أقبلت سيدة تبحث عن طفلها الذى كان يلعب فى حديقة ملاصقة للبيت ، فأبصرت شابا صغير السن يُشْعل النار فى « شىء » على الأرض ، فلما رآها تقترب منه أسرع بالفرار ، وانفجر فى الحال ذلك « الشىء » ، لكن المرأة لم تُصَبْ بسوء ، وتمكنت الشرطة من القبض على هذا الفتى . كان ذاك « الشىء » قنبلة .

وعُرِف من التحقيق أنه « مادان لال باهْوا » ، فى الثانية والعشرين من عمره ، لاجئ هندوسى من إقليم البنجاب ؛ أُصيب أبوه بجراح وكسور نتيجة اعتداء متعصب مسلم عليه . وعندما فتَّشه المحققون ، عثروا على قنبلة شديدة الانفجار كان يخفيها فى لباسه . وعلى الرغم من خطر تلك الواقعة واحتمال آثارها المدمرة ، إلا أن الشرطة لم تفعل شيئا ذا قيمة لحماية غاندى والمحافظة على حياته ، ولم توسِّع نطاق التحقيق بحثا عن توقُّع وجود مؤامرة لاغتيال زعيم الهند الكبير البالغ من العمر ثمانية وسبعين عاما . وكان تعليقه على محاولة « مادان » فى الاعتداء عليه : « لا تَصُبوا جام

غضبكم على الفتى الغِرّ (١) .. إنه لا يدرى خطأ مـا فَعل .. وعلينا أن نكسبـه لجانبنا ونبدل تفكيره وأفعاله إلى الأَصْوب » . وبعد أيام قال غاندى مازحا أو ملمِّحا : «ليس أحب إلىَّ من تلقِّى وابلا من طلقات الرصاص نحو وجهى وأنا أبتسم » !

وفى يوم الثـلاثين من يناير كـان « غاندى » فى لقـاء مع « سـاردار باتِل » نائب رئيس وزراء الهند . فلما طال الحديث بينهما ، اعتذر غـاندى عن إنهائه مضطرا إذ كانت السـاعة الخامسة مسـاء ، فقال لمحـدثه : « إنى أكره تأخير الصلاة عـن ميقاتها . فالمؤخِّـرون يعاقَبـون » . ثم قام من مجلســه واهِنا ، ومشَـى متكئا على بِنتَىْ أخته « أبْها » و « مانو » فعَبَر ببطء شديد البهو خارج غـرفته ، واتجه نحـو سـاحـة الصلاة المجـاورة لبيتـه « بيرْلا » ، فأفْسح له الحاضرون ممرا بينهم لكى يمضـى إلى مكانه المعتـاد فى الصـلاة . وفى تلك اللحظات أقبْل رجل فجـأة ، يرتدى زيا كـاكى اللـون ، وأسرع الخُطَى نحـو غاندى ، ثم انحنى أمامه قليلا وهـو يُطلق عليه ثلاث رصاصات من مسدس بيده ، فـأصابت إحـداها الحجاب الحاجـز ، ونفذت اثنتـان فى صدره . وبين ذهول الحاضرين سمع القريبون من غاندى صوته خافتا يُتَمتم : « هاىْ رامْ! هاىْ رام ! » ثم سقط أرضـا فاقد الوعـى ولفظ آخر أنفاســه . وأُلْقى القبض فورا على الجانى .

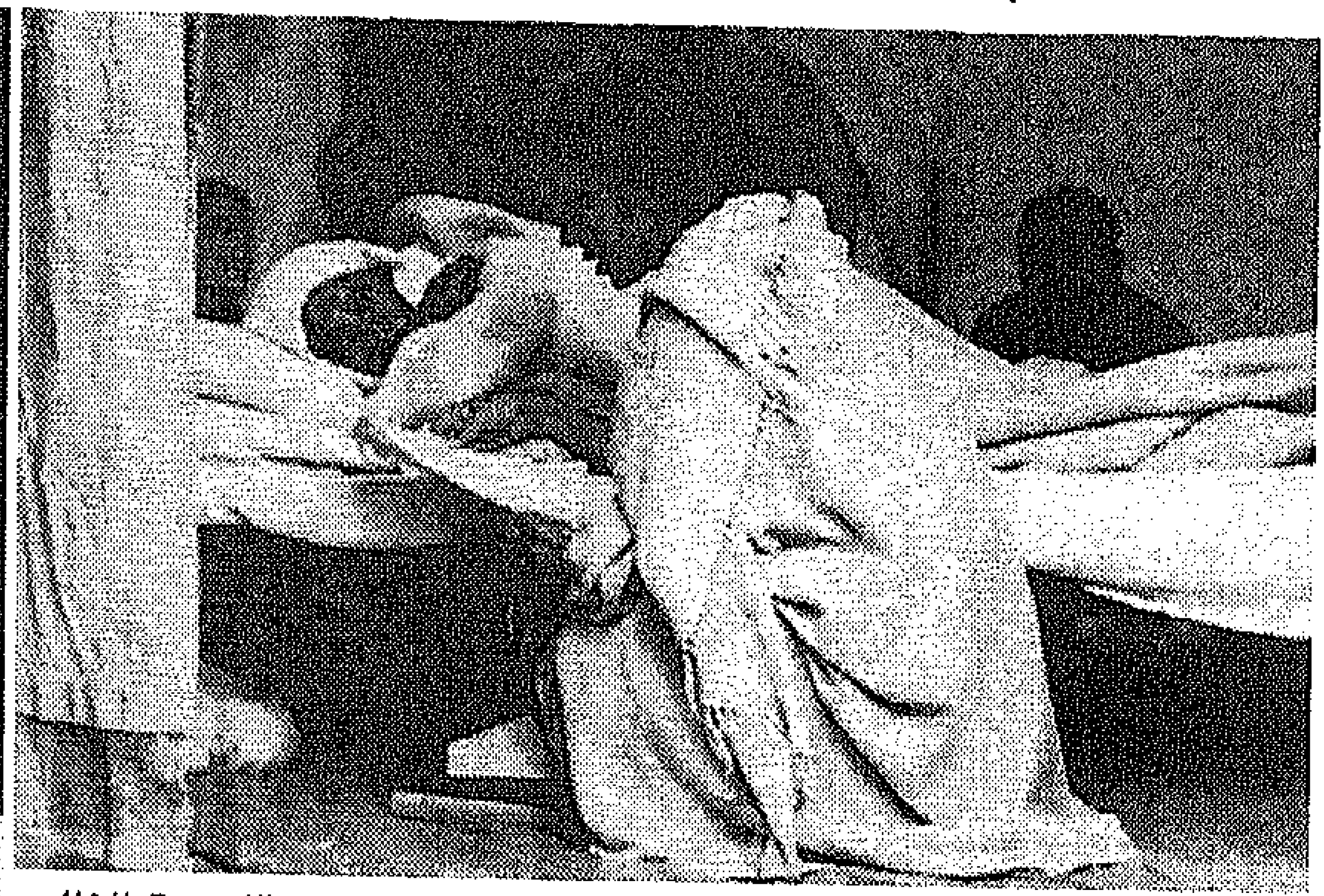
● من القاتل ؟

كان « ناثورام جودْسى » فى سن السابعـة والثلاثين عندما اغتال مهاتما غـاندى . اشتغل فى السنوات الأربع السـابقـة على ارتكاب الجريمـة محررا بجـريدة « راشْرا » اليـوميـة الهندية . وكـان وهو طالب من أتبـاع غـاندى ومـؤمنا بسيـاستـه وتعـاليمـه ، ثم انضم سريعـا إلى القـوميين الهندوس المتطرفين المعروفين بـاسم « ماهاسـابْها » (أو : مَهاسَبْحا) الذيـن كانوا فى فترة من تاريخ الهنـد الحديث يشكِّلون الحزب السيـاسى الثـانى من حيث الانتشار والنفوذ ، ويتزعمهم « فيناياك سافاركار » . وعلى الرغم من إنكاره، فقـد اتضح أنه لم يكن بمفـرده فى الإعداد والتخطيط للجـريمـة . واستطاع رجـال الشرطة فى خلال أسبـوعين اعتقـال شركائـه السبعـة بالإضافـة إلى «مادان لال باهْوا » ، وهم :

---

(١) غر ، وغر (بكسر الغين الأولى وفتحها فى الثانية) : الساذج غير المجرِّب .





كـانت فلسفة « غـاندى » السياسيـة ترتكز على مقاومـة الظلم بدون جُرم والتمسك بالسلام بـالتضامن والوئام . فلما تفشى الصراع والعنف الطائفى حـزن واعتل ، وأعلن الصيـام الكامل حتى تنقشع الغُمة وظل راقدا لا يَبرح سريره .

– « نارايان أبْتى » العقل المدبِّر للاغتيال ، وكـان مدرسا بمدرسـة البعثة الأمريكية الثانوية ، والمدير الإدارى بالجريدة التى يعمل بها « جودْسى » .

– « فشنو كاركارى » وكان من أعوان غاندى ثم تحول عنه وتفرغ للعمل السياسى فى مدينة « أحمد ناجار » .

– « جوبال » الشقيق الأصغر لناثورام جودسى .

– « ديجامبار بادجى » بائع كتب وأسلحـة ، وهو الذى وفَّر القنابل التى كانت فى حوزة « نادان » يوم ٢٠ يناير .

– « شانْكار كيشْتايا » خادم ديجامبار .

– الطبيب « دادَّاترايـا بارشـورى » الـذى أعطى ناثورام المسـدس أداة الجريمة .

– « فيناياك سـافاركـار » الذى كـان بطلا قـوميا فى نظر القـاتل والمدير الإدارى للجريدة ، وكـانا ينشران صورته يوميـا تقريبـا فى صدر الجريدة . وقبل إعلان استقـلال الهند أمضى فيناياك سبعة وعشرين عـاما فى السجن بتهمـة « التآمـر على شَن الحرب ضـد الملك إمبراطور الهند (البريطانى) » ، وظهـر اسمـه مـرتين فى حادثى اغتيـال اثنين من كبـار الضبـاط الإنجليـز الرسميين .

● **المحاكمة**

بدأت جلسات المحاكمة فى ٢٧ مايو ١٩٤٨ بالقلعة الحمراء فى دلهى . واستدعى الادعاء مائة وتسعة وأربعين شاهدا ، تُرجمت أقوالهم إلى ست لغات تلبية لرغبات المشتركين فى القضية . وأَصَر الدفاع على أن « ناثورام جودسى » فَعل فَعْلته بمفرده ، وأنه لا صلة البتَّة بين حادثى ٢٠و٣٠ يناير . وقال « نارايان آبتى » فى دفاعه عن نفسه : « لم تكن هناك مؤامرة إلا فى خيال رجال الشرطة والمحققين الذين تصوَّروا أن شخصا فى قَدْر ومكانة غاندى لا يمكن أن يغتاله فرد أو اثنين ، فلابد إذن من تآمر ومتآمرين على قَتْله ».

ولكن من سوء حظ نارايان وشركائه أن واحدا من المتهمين السبعة اعترف أمام المحكمة بحقيقة المؤامرة مقابل منحه العفو من العقوبة ، واستغرقت شهادته التفصيلية تسعة أيام . إنه « ديجامبار بادجى » الذى اعترف بأن ستة من المتهمين (عدا : سافاركار والطبيب بارشور) اجتمعوا فى غرفة بفندق يوم ٢٠ يناير لوضع الترتيبات النهائية قبل التوجه إلى بيت غاندى حيث يقيم ، ونَسْفه بالقنابل وهو بداخله ، وكُلِّف « مادان لال بهوا » بقيادة مجموعة تنفيذ الخطة وإطلاق الرصاص بنفسه على غاندى . فلما فشلت الخطة بسبب ظهور امرأة فجأة شاهدته وهو يضع قنبلة على وشك الانفجار ثم فراره عند رؤيتها وكذلك إسراع المشتركين معه بالهرب وما فى حَوْزتهم من أسلحة وقنابل ، رجعوا إلى الاجتماع لترتيب خطة أخرى لاغتيال المهاتما ، وتزودوا بمسدسات أفضل وقنابل أقوى . واشترك فى تنفيذ الخطة الجديدة أربعة من المتهمين .

وأعطت المحكمة « ناثورام جودسى » فسحة من الوقت للكلام والإفصاح عما فى نفسه ، فظل يتكلم خمس ساعات متواصلة قرأ فيها ثلاثا وتسعين صفحة مكتوبة . ووَجه فى حديثه اللوم إلى غاندى متهما إياه بأنه فرض – بسياسته السلمية – عقلية الإذعان والاستسلام والخضوع ، وأنه كان حريصا على فعل أى شىء لإرضاء المحمديين (أى المسلمين) ، ولذا فإن تلك السياسة المستسلمة (سياسة اللاعنف) ومداهنة المسلمين ستؤديان إلى «إخصاء » وإقصاء المجتمع الهندوسى داخل وطنه . ومع ذلك ، فقد أنهى خطابه المطوَّل بقوله : « إن احترامى للمهاتما عميق ولن يضْعف أو يزول . وبناء عليه لم أكن سعيدا أو مسرورا عندما قتلتهُ » .



بعد حَرق جثمانه طبقاً لشعائر قومه ، نُثر رماده فوق نهرى «جوما» و«جانج» بالهند.

١٠ فبراير ١٩٤٩ .. صدرت الأحكام على المتهمين : الإعدام لكل من «ناثورام جودسى » و « نارايان أبْتى » ؛ والسجن مدى الحياة على كل من : «فشنو كاركارى »، و « جوبال جودسى » ، والطبيب « بارشورى »، و«مادان لال باهْوا »؛ وبالأشغال الشاقة لسبع سنوات على المتهم « شانكار كيستايا » ، أما « فيناياك سافاركارا » فقد بَرَّأته المحكمة . فلما استُؤْنفت القضية حصل الطبيب « بارشور » على البراءة مع « شانكار كيستايا » . وكما نرى ، كانت الأحكام بعيدة عن الرغبة فى الثأر الجامح ، أو الانتقام الطائح ، أو الجبروت الشالح ، والغِل المَقِيت . فلم يحدث اعتقال عشوائى بالجملة ، أو إعدام على مجرد الظِّنة ، أو تشويه وتشويش على الرأى العام بلا أدلة ، ومع مَن ؟ .. مع قتلة « غاندى » .. « مهاتما غاندى » زعيم الهند ، ومُناهض التفرقة العنصرية ، وأحد أقطاب التاريخ والحرية ، وكاشح المستعمر البريطانى العتيد العنيد – بدون أن يُطلق عليه رصاصة واحدة – بعد قهر وإذلال واستنزاف لمئات السنين !

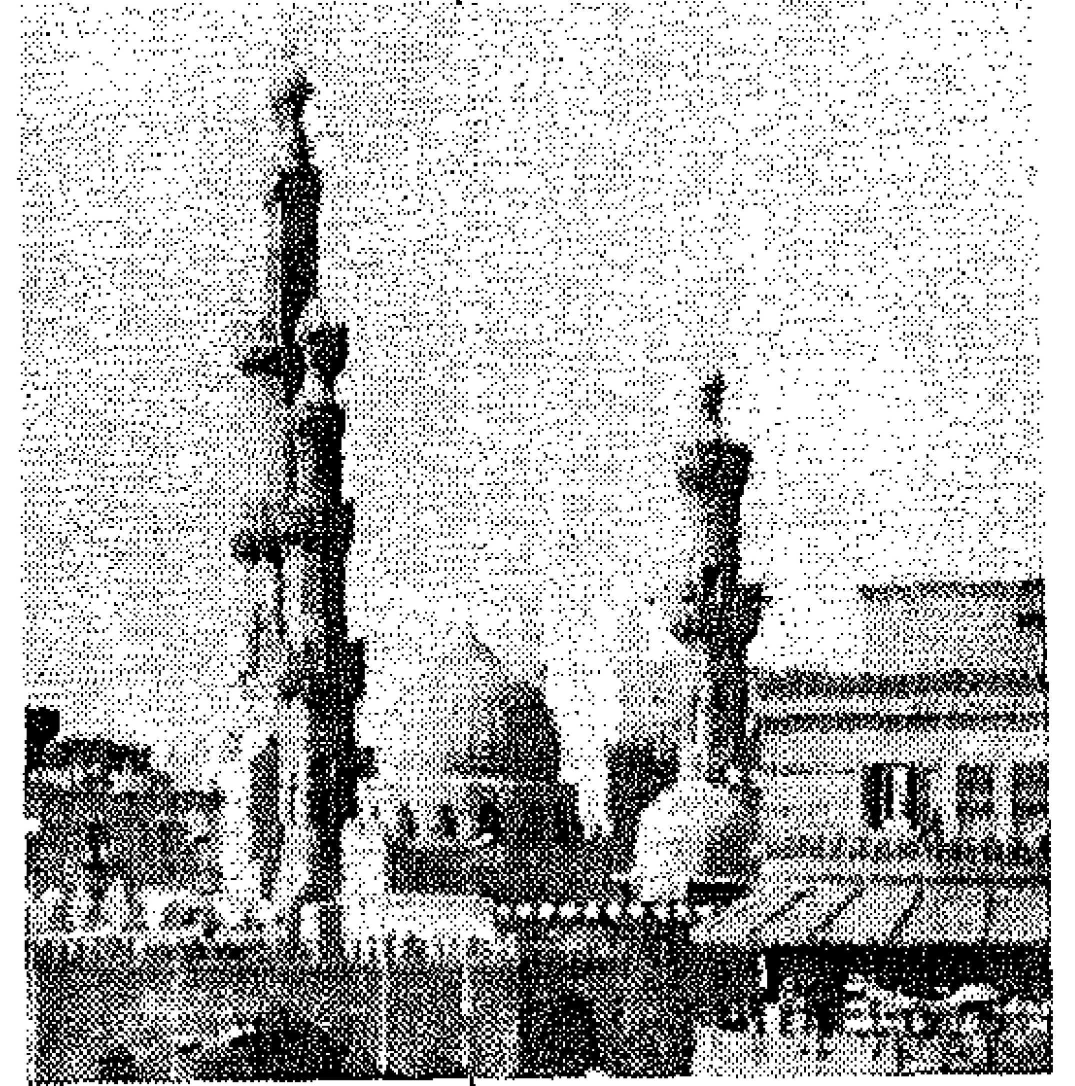
● **بعد المحاكمة**

استقبل « ناثورام جودسى » الموت – مثل غاندى – بثبات دون جَزَع أو

فَـزع . وكتب بلهجة حكيـم فيلسوف قبيل تنفيـذ حُكم الإعـدام : « إن الزمن الســابق واللاحق على وجـود المرء فى هذه الحيـاة الدنيـا ، هو الزمن الكفيل بإظهـار حقيقته الأبدية ؛ ومـا تلك الفترة القصيرة العارضة مـن الحياة على الأرض سوى أطياف رحلة فاصلة »! وكان دائم القراءة فى السجن والاطلاع المدقِّق . وكان آخر كتاب بيده فى آخر يوم من حياته « العارضة على الأرض »، هو كتاب « ألبرت أينشتين » عن نظرية النسبية . فى حين كتب « نارايان آبْتى» فى السجن كتابا بعنوان : « قواعد النجاح للسلطة الحاكمة» أتمه قبل إعدامه . وفى الليلة الســابقة على تنفيـذ الإعدام ، عثـرت شرطة السجن على شخصين تسللا فى جُنـح الظلام إلى داخل السجـن . لم يكن مقصـــــدهما « تهريب » المحكوم عليهما بالإعدام ، وإنما كانا صحافيين مُتَهَوِّرَيْن أرادا الحصول على « خَبْطة » أو سَبْق صحـافى يجلب لهما المال والشهـرة ، وذلك بإجراء حـوار سريع مع « ناثورام » و « نارايان » . ولكن هذه المحاولة الطائشة جلبتْ لهما المحاكمة والحبس بدلا من أطماع الشهرة والمال !

وفى صباح يوم الخامس عشر من نوفمبر ١٩٤٩، اقْتيد كل من « ناثورام» و«نارايان » إلى حبل المشنقة . ومن أعلى منصـــة الشنق ، فى اللحظات الفاصلة بين الحيـــاة والموت ، التفتَ « ناثورام » إلى الحاضريـن وشكر إدارة السجن والحراس على حُسْن معاملتهم له ، وطَلَب الصفح عن أية مضـايقة سَبَّبها – هو أو « نارايان » – لهم . وبعد تنفيذ الإعـدام أُحرقت جثتاهما وذُرَّ رمادهما سرا فـــوق ميـاه نهر ضَحل . وبعــد أيام قـــلائل استطاع بعض الشبـــان المتحمسين تعاطفـا معهما العثور على بقايا عظام من جثتيهما ، فتقـاسموها فيما بينهم للحفاوة والذكرى !

اغتيال أحمد ماهر باشا



كانت مصر دائما حصن الأمان وحضن الحنان وقصد الطماح ومهد العظم .

ظهرت آفة اغتيال السياسيين المصريين فى هذا القرن العشرين مبكرا . فنجحت فى حالات وفشلت فى أخرى . وكان أولها الذى استاء له المصريون واستنكروه بشدة : اغتيال اثنين معا من حزب الأحرار الدستوريين عُرفا بالنزاهة والشرف ومكارم الأخلاق وهما : « إسماعيل زهدى بك ، وحسن عبد الرازق باشا » ، إذ أطلق عليهما مجهولان الرصاص بشارع المبتديان بالقاهرة مساء يوم ١٦ نوفمبر سنة ١٩٢٢ فى لحظة ركوبهما سيارة أحدهما . ورأى المصريون فى هذه الجريمة اعتداء حزبيا بغيضا رخيصا على حرية الرأى ، وعلى الوعى السياسى المتنامى فى البلاد .

ثم كانت محاولة اغتيال « سعد باشا زغلول » وهو فى منصب رئيس الوزراء . كان فى محطة القطارات بالقاهرة مع بعض الوزراء فى طريقهم إلى الإسكندرية يوم ١٢ يوليو ١٩٢٤ ، فاقترب منه شاب وأطلق نحوه رصاص مسدسه ، فأصابه فى ساعده الأيمن ، ولم تمكّنه الجماهير المحتشدة من إتمام إطلاق الرصاص وكادت تفتك به لولا تدخل الشرطة . وظهر فى التحقيق أن دوافعه للجريمة كانت سياسية ، وأن اسمه عبد الخالق عبد اللطيف » وكان يدرس الطب فى برلين . فلما تبيَّن من الكشف الطبى عليه أنه مختل العقل ، لم يُحاكم وأُرسِل إلى مستشفى الأمراض العقلية .



سعد زغلول

وفى ٢٥ أغسطس سنة ١٩٣٠ كانت محاولة لاغتيال « إسماعيل صدقى » باشا رئيس الوزراء وهو بالقطار عائدا من الإسكندرية إلى القاهرة . وأَقْدم على محاولة اغتياله شاب سوداني يدعى : « حسين طه » متخرج من كلية غوردون بالخرطوم ، تسلل إلى القطار فى زى عمال الخدمة بالعربة التى بها رئيس الوزراء ، وكان يحمل آلة حادة (بَلْطة) أخفاها تحت ملابسه ، لكنه اكتُشف قبل إقدامه على ارتكاب الجريمة ، فأُلْقى القبض عليه ، وقُدِّم إلى محكمة الجنايات التى حكمت عليه بالسجن سبع سنوات ومات فى سجنه .


أحمد ماهر

أما الاغتيال السياسى المروِّع ، فكان يوم ٢٤ فبراير سنة ١٩٤٥ ، وله مقدِّمات ودوافع . والمقدمات حَتْم وقَدَر ، والدوافع لظنون وغَرَر . وغالبا ما يدفع الشباب الواهمون السُّذَّج حياتهم وحماسهم ومصائرهم ثمنا باهظا ، ثم يضيع هباء منثورا ، ويضيع معه رصيد قيِّم للبلاد من خبرة وفطنة رجال أكْفاء أذكياء أوفياء لوطنهم وأُمتهم ، من أمثال « أحمد ماهر » و « النقراشى » .


محمود فهمى النقراشى

● **الملك فاروق وروزفلت :** أمريكا تَسْتَرْهِب

كانت الحرب العالمية الثانية الطاحنة على وشك الانتهاء ، ولاح فى الأفق القريب أُفول نجم ألمانيا وشركائها فى الحرب من دول المحور ؛ ولمع فى الأفق البعيد بريق نجمين صاعدين يريد كل منهما أن يَبْسط إشعاعه ونفوذه على عالمنا الأرضى : روسيا من الشرق ، والولايات المتحدة من الغرب ، وعَقب انتهاء مؤتمر « يالتا » بالقِرْم الذى حضره الأقطاب الثلاثة : ستالين ، وروزفلت ، وتشرشل لتقسيم مناطق النفوذ فى العالم ، مَرَّ الرئيس الأمريكى روزفلت بمصر – وكان فى أشد حالته المَرَضية قُبيل وفاته – واجتمع بالملك فاروق يوم ١٤ فبراير سنة ١٩٤٥ ، على ظهر الطّراد الأمريكى الذى كان يُقِلُّه ، وكان راسيا بالبحيرات المرة قُرب مدينة الإسماعيلية . (١) وجرى حديث بينهما عن العلاقات بين مصر وأمريكا ودول الحلفاء دون إشارة أو


الملك فاروق

(١) واجتمع روز فلت أيضا فى ذلك الوقت والمكان بالملك عبد العزيز آل سعود ، والإمبراطور هيلاسلاسى (الحبشة) ، وشكرى القوتلى رئيس الجمهورية السورية .

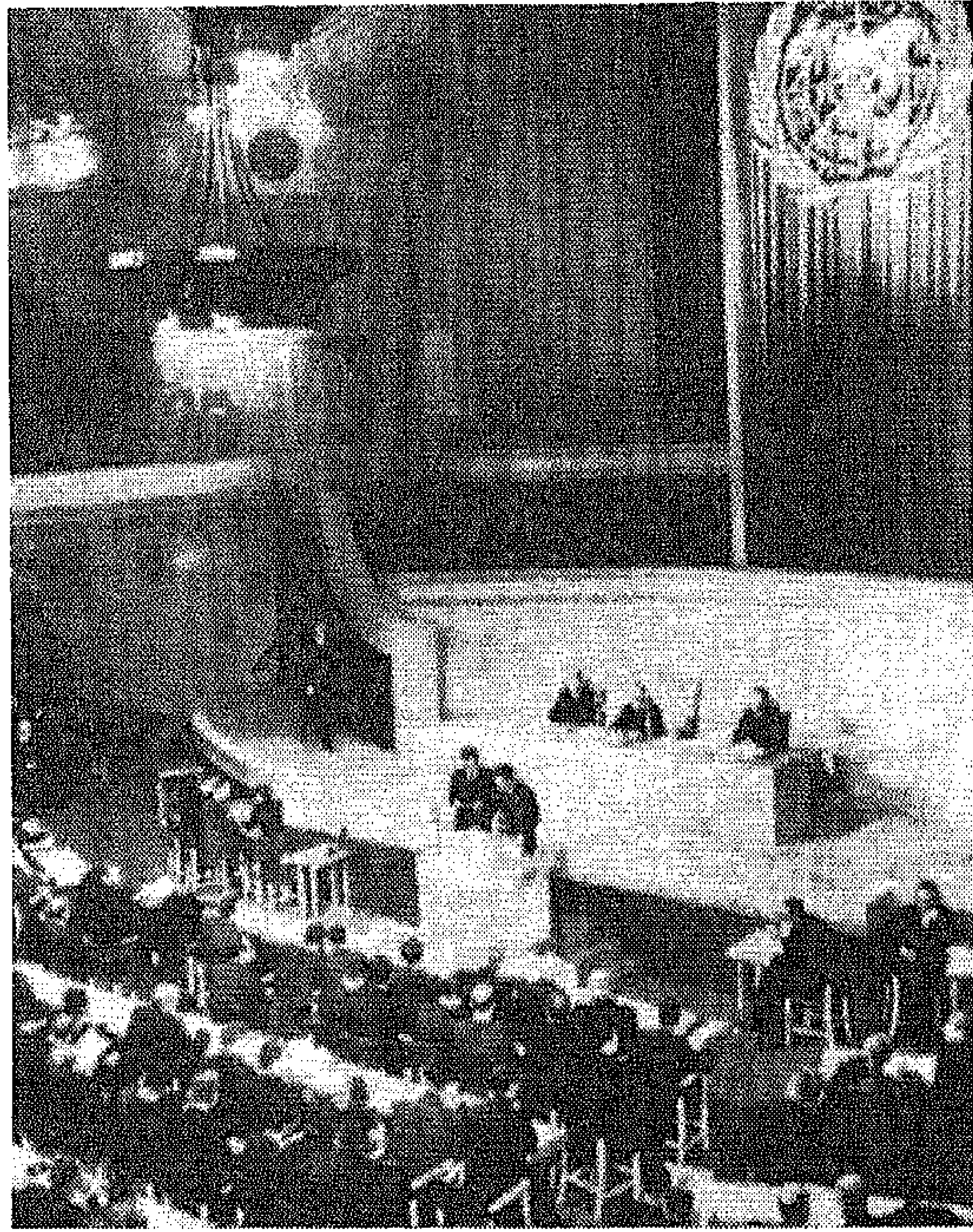
وَعْد باحترام حقوق الدول العربية فى الاستقلال الكامل وجلاء القوات الأجنبية عن أراضيها . لكنه كان حريصا على التلميح أو التلويح بالدور الأمريكى الجديد القادم والتمهيد له، وعَرَض ما تقرر فى مؤتمر « يالتا » بشأن إنشاء هيئة الأمم المتحدة من خلال مؤتمر سيُعْقد فى مدينة « سان فرانسسكو » بالغرب الأمريكى لتوقيع ميثاقها . ومن شروط الاشتراك فى هذا المؤتمر الكبير الأهمية لمستقبل ما بعد الحرب عالميا ، أن تكون الدولة الراغبة فى الانضمام إليه مع المؤسِّسين قد أعلنت الحرب على دول المحور قبل أول مارس سنة ١٩٤٥ (أى أول الشهر التالى من هذا اللقاء) . فرأى الملك فاروق أن تتخلى مصر عن موقفها السابق الرسمى المُعْلن بوقوفها على الحياد من الدول المتحاربة، وقرر إعلان الحرب على ألمانيا ودول المحور .

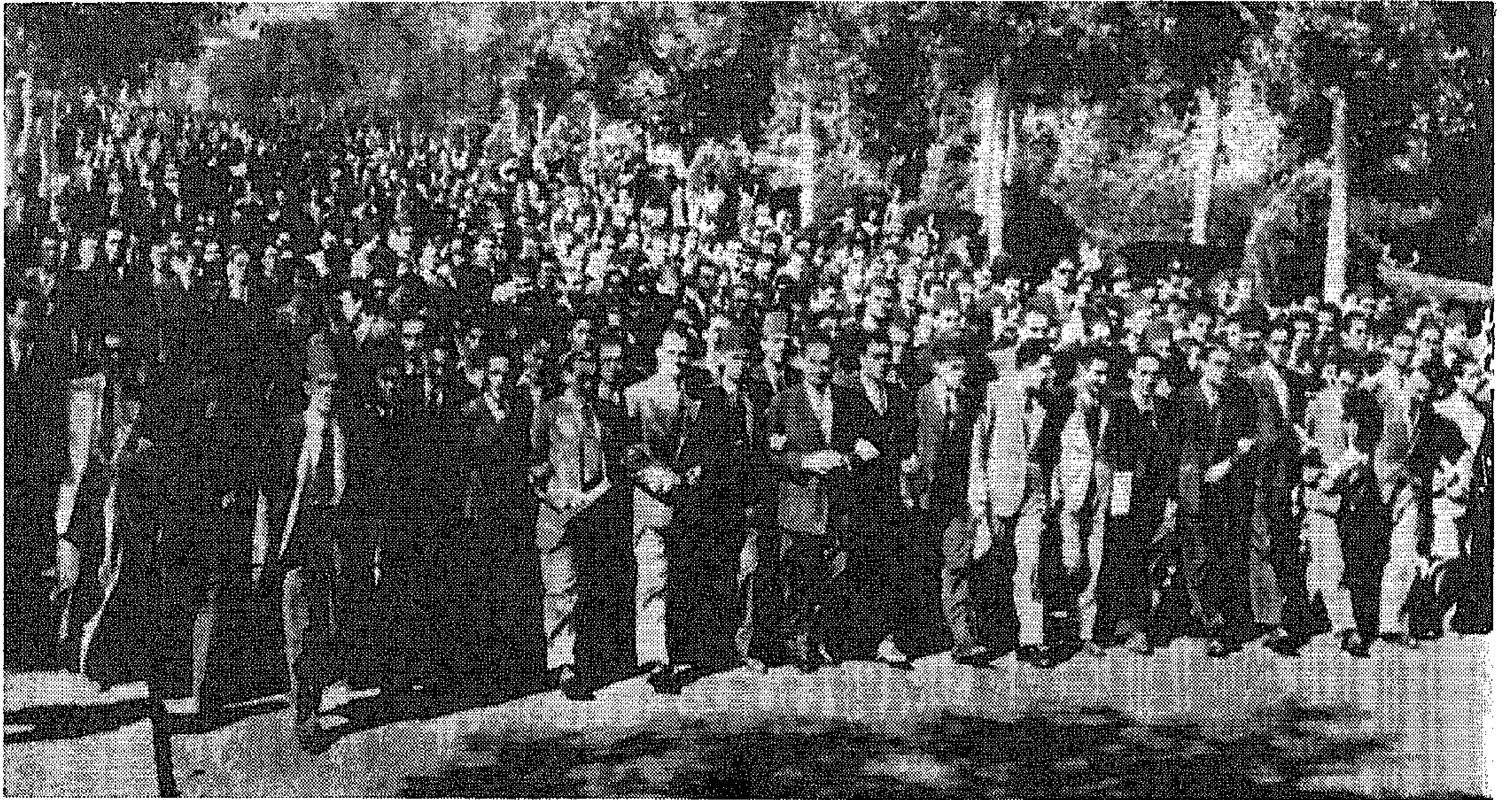
● جريمة الاغتيال

تدارس مجلس الوزراء ـ برئاسة الدكتور أحمد ماهر ـ موضوع إعلان الحرب على ألمانيا ووافق عليه . فأعد رئيس الوزراء بيانا لعرضه على مجلسى النواب والشيوخ بالبرلمان . للحصول على موافقة ممثلى الشعب قبل انتهاء الشهر .

ودُعِى النواب والشيوخ إلى الاجتماع – كلٌّ على حدَة – مساء يوم السبت ٢٤ فبراير سنة ١٩٤٥ . وألقَى أحمد ماهر باشا بيانه عن الحرب أمام مجلس النواب أولا ، ثم توجَّه إلى مجلس الشيوخ لإطلاع أعضائه عليه ، وبين قاعتى المجلسين بَهْو طويل فرعونى الأثاث والزخارف والنقوش . وفى لحظات عبوره هذا البهو ، تقدم منه شاب يدعَى : « محمود العيسوى » وأطلق عليه الرصاص من مسدس فأَرْداه قتيلا فى الحال، بحُجة معارضته لدخول مصر الحرب وإعلانها على ألمانيا .

وتلك حُجة واهية واهمة ، أو تَعِلَّة خبيثَة خاطئة . فالحرب العالمية كانت قاب قوسين أو أدنى من نهايتها ؛ وكانت ألمانيا بجيوشها وبيوتها ومُدنها ومزارعها ومصانعها ، كانت قد دُمرت جميعها تدميرا . ولم يعد الفوهْرر – هتلر – المسكين بذى حَوْل أو طوْل ، بعد أن « فَرْهَدَتْه » الخسائر الفادحة





فى ٢١ يناير ١٩٤٦ اجتمع فى لندن مندوبو ٥١ دولة كأول مجلس لمنظمة الأمم المتحدة فى مقرها المؤقت . وعلى الرغم من كل الهواجس والوساوس والمحاذير ، كان المقصد والهدف المعلن أنه : « من خلال تلك المنظمة يتهيأ للعالم سبيل للعدل واتقاء الحروب » - (الصورة العليا) .
وفى القاهرة خرجت حشود من طلاب الجامعات والمعاهد والمدارس فى سلسلة من المظاهرات الصامتة والصارخة المحتَجَّة عقب إعلان « أحمد ماهر باشا » رئيس الوزراء دخول مصر الحرب العالمية الثانية (قرب نهايتها سنة ١٩٤٥) إلى جانب الحلفاء ، بهدف أن تصبح مصر من الدول الأعضاء المؤسسين للأمم المتحدة .

والهزائم المتلاحقة ، وانْزَوَى كالفأر فى مُخْتَبأ حصين تحت الأرض مع رفيقة السرَّاء والضرَّاء « إيفا براون » ، وطبيبه الخاص ، وأخلص مساعديه ، وبعض السكرتارية والخدم ورجال الحراسة ، وشبح الموت يطوف بهم ويُراودهم فى الصباح والمساء ، وحتى فى ساعات النوم ! فإعلان مصر الحرب إذن على ألمانيا فى هذه الآونة كان لا يقَدِّم ولا يؤخِّر أو « تحصيل حاصل» كما يقال فى الأسلوب الدارج ، وفى أسوأ تقدير كان نَفْعُه أكبر من إثْمه . ومن هذا النفْع – على المستوى الدولى – أن مصر صارت من أوائل الدول المؤسسة لهيئة الأمم المتحدة ، ومن أوائل الموقعين على ميثاقها والحاصلين على عضويتها ، وكان العالم كله يأمَل فيها خيرا .

ومن جانب آخر : لا يُقبل شَرْعا ولا قانونا ولا شرفا وكرامة أسلوب الغدر والغَيْلة والمعارضة بالطعن والقتل وإهدار الدم ، وإلا تحول المجتمع إلى غابة يسكنها هَمَج من حَمْقَى الرعاع ، أشد ضراوة من الوحوش ، وأفْتَك سُما من الأفاعى ، وأقبح رعونة من جِرْذان البرارى ، ولَوَضَع كل إنسان قانونه بالحق وبالباطل .

والمحرِّض على الاغتيال والغدر والقتل ، شريك بلا شك فى الجريمة والإثم. وقد أسهمت الخصومة الحزبية البغيضة السقيمة فى تعبئة عقول البسطاء والدهْماء والسذَّج ، بأكاذيب روَّجَتْها عن خطر إعلان مصر الحرب ، لأن ذلك – فى زعمهم الخبيث – يدفع برجال مصر وشبابها إلى ساحات القتال والهلاك ، فى معارك لا دخل لنا بها ، ولا مصلحة لنا فيها ، فتلك إذن خيانة ، وإهدار للكرامة والأمانة . وأصدر النحاس باشا ـ رئيس حزب الوفد – بيانا بهذا المعنى أو قريبا منه صَدَّقَه خاملون غافلون عن حقائق الأمور ، وكان من بينهم هذا القاتل « لأحمد ماهر » ، السياسى القدير ، والعصامى الشريف ، والوطنى المُوَقَّر ، المجاهد بحصافة ونزاهة وكفاءة وارتقاء .

وأقر المجلسان ـ الشيوخ والنواب ـ إعلان مصر الحرب على ألمانيا واليابان فى جلسة سرية يوم ٢٦ فبراير ١٩٤٥ . وفى الليلة ذاتها التى اغْتيل فيها « أحمد ماهر باشا»، كُلِّف « النقراشى باشا » بتأليف وزارة جديدة ،

فأبقى على وزراء سَلَفه ، واحتفظ لنفسه ـ إلى جانب الرياسة ـ بوزارتى الداخلية والخارجية .

رئيس الوزراء « أحمد ماهر باشا» وقاتله « محمود العيسوى» الذى حُكم عليه بالإعدام وتم تنفيذ الحكم .



أحمد ماهر


محمود العيسوى


البرلمان المصرى

اغتيـال النقراشى باشـا



النقراشى بك

عَقب اغتيـال « أحمد مـاهر » باشـا رئيس الوزراء المصرى داخل مبنى البرلمان ، هَبـَّـت رياحٌ سَمُـوم من الانتقام والاغتيـال والتـدمير والنَّسْف ، زَعْـزَعَت الأمن ، ونَشـَرت الرعب ، وخـالطها جُنوح إلى عصبيـة وتطرف ، وطمـوح إلى غـوغـائيـة تُرْهِب وتُخَوف ، وفى غيبـة- أو غفلة - السلطان الحصيف المُهاب ، وحكمة الراشدين أُولِـى الألباب ، تتميع الأمور ، وتتمزَّع من الغيظ صُدور ، فَيُسْتَباح الشر واقتراف المحظور . وهذا ما كان !

وإذا كانت الرياح - فى قوانين الكون -لاتهب عشـوائيا ولا مصادفـة بل

وفْق حسـابات دقيقـة وتغيرات فى الحرارة والضغط وتأثيرات الإشعـاع ، كذلك كـانت تلك الفترة من الحياة السيـاسية فى مصر وما حـولها ، وما هَبَّ فيهـا أو عليهـا مـن مـوجـات رياح تتسم بالعنـف وتُثير الرعب وتستمطر الإرهاب والقتل ، جاءت وليدة وقود وضغوط وتأثيرات متواكبة ومتراكمة : من فســاد إدارى وحـزبى وفكرى وقيــادى ؛ ومن تشــويش وتضليل – للشباب خاصة – بتعـريفات وتخريجات وترتيبات وإيهامات ومُبْهَمات عن الاشتراكية والشيوعية والقومية والتقدميـة والنضالية والسلفية والصوفية والجمعيات الفَنية والتنظيمات السرِّية والتشكيلات شِبْه العسكرية ، والكفاح لإعلان الحق وإزهاق البـاطل ، والموت أو الاستشهاد طمعا فى جنة عـرضـها السمـوات والأرض أُعِدت للمتقين . خليط عجيب وتشـويش مُـريب مَهيب . وتَبْحث، فتجــد أن الكُل يهاجم ، ويجرِّح ويسفِّــه ولايَمَل ؛ وأن الكفـــاح فى النهـاية من أجل مصلحة شـخصيـة أو حزبيـة ، والنضال حماسـة جوفـاء وقْتية، أو شِنْشِنة خـرقاء أشعبية ؛ وأن الشهــادة رغبة فى نعيم الجنة تُبْتَغَى من قتل شخص ـ ولو كان من داخل الجماعة أو الحزب – مخالف فى الرأى ، أو من اغتيال قــاض شريف أرضى ضميره بإصدار حُكم . وتُنْتَهك حـرمات مـواطنين آمنين مسالمين باسم المذْهب أو باسـم الدين، وكأن ترويع الأبرياء مُباح ، وسَفْك الدماء بالشُّبْهـة والظن بطولة وفَلاَح . ولا يتسع المجال لسرد ما وقع من حوادث اغتيال واعتـداء وإرهاب ونسْف وإلقاء قنابل . فقد كانت سنوات رُعب واضطراب ومشـاحنات وقـلاقل ، انتهت بفـوضى سياسيـة ووزارية ، وخُتمت بحريق القاهرة ، ثـم سقوط النظام الملكى ، وتغيير شامل فى السلطة والنظام .

ثم يجب عـــدم إغفــال الإشــارة إلى أنه فى تلـك السنوات المضطربة ـ بين ١٩٤٥ و١٩٥٢– كـان العالم كلـه يقاسى ويعـانى من كـوارث ومشكلات نَجَمت عن الحرب العالمية الثانية . وكـان وقْع وإيقاع هذه الأزمات والنكبات على مصر والعالم العربى بـالمنطقة أشد وأمَضّ (٢) لسببَيْن رئيسييْن : أولهما

(١) الشنشنة (بكسر الشين) : خلق وسمة وطبع .

(٢) أمض : أوجع وأكثر إيلاما – والمضض (بفتح الميم والضاد) :جمع المصيبة أو النكبة .

– وقوع مصر والمنطقة العربية بالشرق الأوسط فى قلب الأحداث والاهتمامات والمطامع الدولية ، بسبب الموقع ، والضَّعف، وكنوز الخيرات والخامات (خاصة البترول) والقُوى البشرية ، وتوقعات تحويلها إلى قُوًى طيِّعة وسُوقًا استهلاكية . وثانيهما ، وهو الأخطر والأكدر ، تفاقُم المشكلة الفلسطينية ، واختلاق الدولة الإسرائيلية ، فازدادت المنطقة ضَعفا وتخبُّطا وتمزُّقا واقتتالا وعُنفا. وكأنما زُرعت هذه الدولة الغريبة الغاصبة فى مركز المنطقة ، لتكون ركيزة إيذاء وتهديد وإثارة وإغارة ، واستمر ذلك منها حتى نهاية القرن .



الأستاذ محمود فهمى النقراشى
فى سنة ١٩٢٦ – بعد عامين من مقتل « لى ستاك» سردار الجيش المصرى – لُفقت قضية عُرفت باسم « قضية الاغتيالات السياسية » اتهم فيها : د. أحمد ماهر ،محمود النقراشى ، عبد الحليم البيلى ، حسن كامل الشيشينى ، وكان قرار الاتهام مرتكزا على أنهم ألَّفوا جمعية سرية بقصد اغتيال بعض الشخصيات السياسية المصرية والبريطانية ، ولكن المحكمة برأت المتهمين . والصورة للنقراشى فى بيته عقب الحكم ببراءته .

● الاغتيال

فى هذه الأجواء العاصفة الغاضبة المظلمة ، كان اغتيال « النقراشى » باشا ، رئيس الوزراء ووزير الداخلية ، يوم ٢٨ ديسمبر سنة ١٩٤٨ . ومن هو ؟

وطنى ذكى مجتهد مجاهد ، تخرَّج من مدرسة (كلية) الحقوق سنة ١٩٠٨ (مع أحمد ماهر) ، واتُّهم فى قضية الاغتيالات السياسية بعد مقتل السردار وبُرِّئ منها (مع أحمد ماهر وآخرين كما سبق) . وتميز « محمود فهمى النقراشى » بالشجاعة والصراحة ، والجد والاستقامة ، مع تواضع من غير ضَعف ، وصرامة من غير عُنف ، واستقامة تعلو فوق الإشاعات ، ونزاهة تَنْبُو عن الشُّبُهات .

تولى رئاسة الوزارة مرتين : الأولى من ٢٤ فبراير ١٩٤٥ (ليلة اغتيال أحمد ماهر باشا) حتى ١٥ فبراير سنة ١٩٤٦ ؛ والثانية من ٩ ديسمبر ١٩٤٦ حتى مقتله يوم ٢٨ ديسمبر ١٩٤٨ . ويسجل له التاريخ السياسى الحديث موقفه الشجاع المشرِّف فى الأمم المتحدة أمام مجلس الأمن (أغسطس / سبتمبر ١٩٤٧) ، وهو يعرض القضية المصرية والنزاع مع المملكة المتحدة (بريطانيا) الغاصبة لحقوق المصريين والسودانيين معا ، وكانت تُماطل فى الجلاء عن مصر والسودان بعد طول إجحاف وتسويف . فكان « النقراشى » مُدافعا بارعا عن الحق ، ومُنافحا فَذًّا عن العدل ، وخطيبا حصيفا صَقَل منطقه بالقانون ، وجَلَّى حُجَجه بالوثائق والنصوص . ولم يَعِبْه مطْلقا أو يُضِرْه ، أن مجلس الأمن أصْغَى مُعْجَبا لبيانه ولم يُصْدِر قرارا يستجيب لندائه . فقد أدرك العالم – خاصة الدول الصغيرة والمغلوبة على أمرها – أن تكوين مجلس الأمن منذ البداية غير سَوِيٍّ ولا مُرْضِيّ ، لاستئثار الدول الخمس الكبرى – الأعضاء الدائمين– بحق الرفض (الفيتو)، وبانحياز تلك الدول غالبا بعضها إلى بعض ، على حساب الدول والشعوب

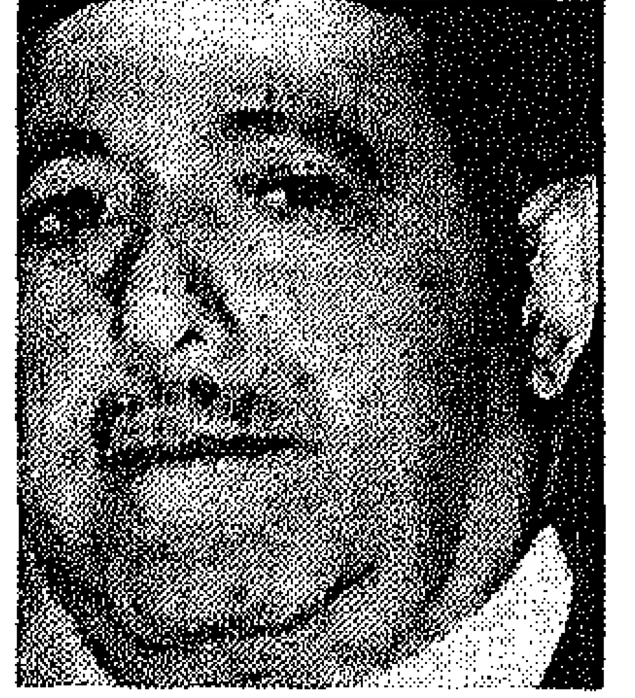
حسين توفيق قاتل أمين عثمان يتوسط المتهمين معه ..



● نشط الطلاب والمثقفون المصريون بعد الحرب العالمية الثانية فى المطالبة بإلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ المجحفة مع بريطانيا وتحقيق وحدة وادى النيل (مصر والسودان) . وتكوَّن فى سنة ١٩٤٦ وفد للمفاوضة فى هذا الشأن مع بريطانيا اشترك فيه مع آخرين : النقراشى باشا ، على ماهر باشا ، الشيشنى باشا ، مكرم عبيد باشا . وكوَّن الطلاب بالجامعات مع نشطاء حزبيين متطرفين « لجنة الطلبة التنفيذية العليا » ، وكان من بينهم « حسين توفيق » الذى اتهم باغتيال « أمين عثمان باشا » المقرب كثيرا إلى الإنجليز . وكان فكر « حسين توفيق » الذى امتد نشاطه إلى سوريا يدور حول ما صرح به : « إن البلاد العربية لا تزال فى طور لا تقدر فيه أن تصل إلى أمانيها عن طريق النضال الشعبى المكشوف .. لازم يكون هناك نضال شعبى يقوم به حزب ، وتسند هذا النضال [أداة سرية] تحقق ما لا يمكن تحقيقه بالطرق العادية » .

الأخرى ، داخل منظمة تزعم المساواة فى الحقوق والواجبات .

ولا يستطيع المجال هنا الإفاضة لبسْط بيان « النقراشى » أمام مجلس الأمن ، ولكن تكفى هذه المقتطفات التى خاطب بها المجلس - والعالم كله من خلاله - بشجاعة وقوة وصراحة واعتدال، قال:



محمود فهمي النقراشي

* « نطلب إليكم أن تقرروا إجلاء القوات البريطانية جميعها عن وادى النيل ، عن السودان وعن أى جزء من الأراضى المصرية ، وأن يكون الجلاء حالا ، كاملا غير مشروط بشروط ».

* « إن مصر لم تكن طرفا حُرا عند إبرام معاهدة سنة ١٩٣٦ (٣). ذلك أن القوات البريطانية كانت تحتل أراضيها ، فضلا عن أن الجانب البريطانى لم يَدَعْ عند المفاوضين المصريين مجالا للشك فيما يترتب من نتائج على رفْضهم التسليم بمطالب بريطانيا . فقَبْل بدء المفاوضات مباشرة وجَّه المندوب السامى البريطانى إلى ملك مصر وإلى رئيس وزرائها مذكرة شفهية أوضح فيها : « أن الإخفاق فى عقد اتفاق ، قد تترتب عليه نتائج جدية ، وأن بريطانيا تحتفظ فى هذه الحالة بحق إعادة النظر فى سياستها نحو مصر » . فالتهديد الذى تَنُم عليه المذكرة بإعادة فرض الحماية على مصر أو ما هو شر منها ، كان تهديدا سافرا .. ».



مكرم عبيد

* « لقد بينْتُ لكم أن قبضة بريطانيا على مصر والسودان إنما سندها القوة لا الحق، وأن احتلال وادى النيل يَصْدم إرادة أهاليه ، ويَخْرق أحكام القانون الدولى خَرْقا صارخا ، وأن قيام هذا التحدى المستمر يثير حفيظة الشعب المصرى » .

* « إننا لم نَعُد نعيش فى ظلمات القرن التاسع عشر ، بل نحن نحيا فى



على ماهر

(٣) كانت مصر قد أعلنت من جانبها أن الوقت لم يعد مناسبا لتلك المعاهدة (التى وقعتْها وزارة النحاس باشا وكانت شروطها مجحفة بالنسبة لمصر وهو نفسه الذى أعلن إلغاءها بعد سنوات . وكان «النقراشى » و « أحمد ماهر » من بين أعضاء لجنة التفاوض مع بريطانيا التى صاغت هذه المعاهدة . وفى أغسطس سنة ١٩٣٧ أخرج النحاس باشا من وزارته « النقراشى » مع ثلاثة آخرين . ثم فَصَله من حزب الوفد فى سبتمبر ١٩٣٧ لأن « النقراشى » كان يعارض بشدة فى أمور جوهرية منها :تنفيذ مشروع كهربة خزان أسوان بدون مناقصة ، ومطالبته الحزب أن يساوى فى المعاملة بين كل المصريين واحترام حرياتهم ، وأن يحل الحزب فرق القمصان الزرقاء التى يسلحها بالعصى والخناجر لإرهاب وضرب المعارضين للوفد ورئيسه .

عالم اليوم ، عالم الميثاق ، عالم الأمن الجماعى ، فى عالم يَرْنو إلى النظام والسلم ، فى عالم لا يطيق مغامرات التوسع والاستعمار ».

* « لقد ظل الملايين من سكان وادى النيل خلال خمسة وستين عاما يُضْمرون السخط بسبب مرابطة القوات البريطانية فى الأراضى المصرية . وكانت آمالهم فى تسوية هذا النزاع تبوء بالخيبة المرة تِلْو المرة ، حتى صارت توكيدات الغزاة المتكررة بأنهم سَيَجْلون عن البلاد مَدْعاة إلى السخرية والتهكم » .

* « لقد فقدت معاهدة سنة ١٩٣٦ (التى تتمسك بها بريطانيا لصالحها) فى فترة الإحدى عشرة سنة الوجيزة ، قُوَّتها وحيويتها . لقد أخرسَتْها الحوادث . ولم يَعُد صداها إلا كصدى الأشباح ، وظلت حتى اليوم على أنها أثر من آثار أيام القرصنة التى يَجْهَد العالم فى نسيانها ، ولم يَبْق فيها اليوم إلا ما يهدد السلام » .

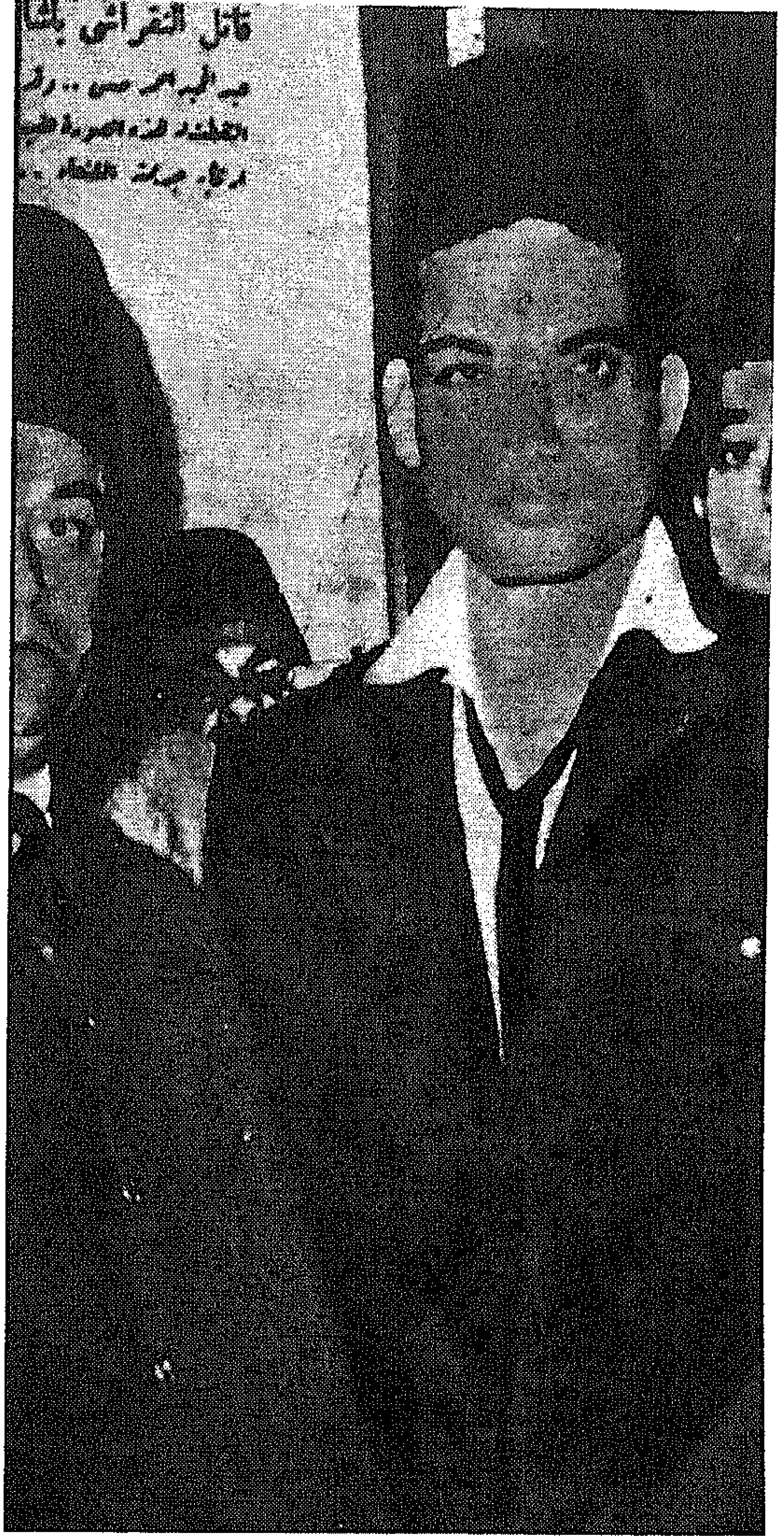
* « إنى أود ، بصفتى ممثل دولة عضو فى هيئة الأمم المتحدة وكانت عضوا فى مجلس الأمن عاما من الزمان ، أن أُعْرب عن أملى فى أن لا يَضَع مجلس الأمن نفسه فى موقف الحَرَج ، بأن يقرر أن استمرار هذا النزاع من شأنه تهديد السلم ثم لا يتخذ خطوة إيجابية إنشائية للأخذ بناصر مصر ، التى تقف أمامكم فريسة لغزو دولة استعمارية عاتية . » ...

كان « محمود فهمى النقراشى » باشا وزيرا للداخلية مع رئاسته لمجلس الوزراء . وفى يوم ٢٨ ديسمبر ١٩٤٨ ، توجَّه فى الساعة العاشرة صباحا إلى مكتبه بتلك الوزارة، وعند باب المصعد بالمدخل ، وقد أحاط به رجال الحراسة ، كان الموت فى انتظاره : إذ تقدم إليه شاب يرتدى - زَيْفا - زى ضابط شرطة ، وأطلق عليه من خلفه ثلاث رصاصات أصابته فى مَقْتل ، فهوى صريعا إلى الأرض . (٤)

---

(٤) فى الجزء الخامس من هذه السلسلة بعنوان : « رجال صاغوا القرن العشرين » فصل عن «الشيخ حسن البنا » وارتباط اغتياله بقتل « النقراشى » باشا . وهذا جزء منه عن الحوار الذى دار بين «النقراشى » ومدير الأمن العام آنذاك الأستاذ « مرتضى المراغى » كما ورد فى مذكراته ، وكان هذا الحوار بشأن اعتزام « النقراشى » حل جماعة الإخوان المسلمين ، ومحاولة « المراغى» تأجيل ذلك لخطر عواقبه لكن القرار كان قد أُعد بالفعل . قال « المراغى » :

=



« عبد المجيد حسن» الطالب بكلية الطب البيطرى قاتل النقراشى باشا .

وأُلقى القبض على الجانى بين ذهول الحاضرين . وظهر أنه طالب بكلية الطب البيطرى يدعَى : « عبد المجيد أحمد حسن»، تسلل إلى وزارة الداخلية متخفيا فى زى ضابط شرطة ، واندسَّ بين الحراس ، وكانت هذه غفلة خطيرة معيبة من المسئولين – وفى وزارة الداخلية ! – عن تأمين الدخول إليها ونظام الحراسة بها وبوزيرها رئيس الوزراء ، خاصة فى الظروف الصعبة غير العادية التى كانت سائدة .

واعترف الجانى بأنه من « الإخوان المسلمين » ، وأنه ارتكب جريمة الاغتيال انتقاما لحل تلك الجماعة . كما ظهر من التحقيق معه أن له شركاء ثلاثة ، كانوا معه وقت تنفيذ خطته . وأنه هو نفسة كان مطلوبا للاعتقال مع مجموعة من الشبان المثيرين للقلاقل . فلما عُرض أمرهم على وزير الداخلية – النقراشى باشا – للموافقة على قرار اعتقالهم – قبل أيام من اغتياله – رفض قائلا : « لا أحب

=

« هالنى الأمر . فقلت : أرجو يادولة الرئيس أن تقدر خطورة الأمر ، وأن تتمهل فى إصْدار القرار . إن الإخوان المسلمين يشكلون منظمات وخلايا سرية لا علم لوزارة الداخلية حتى الآن بأسماء أعضائها . وقد يكون بعضهم داخل الوزارة ومن حراس الأمن . وأنا أعلم أن كثيرين من ضباط الجيش هم من جماعة الإخوان .

قال النقراشى : هل تريد أن تُقر الإرهاب وتريد أن تعترف بشرعيتهم ؟ ألأنه حُكم على بعضهم بالسجن ، فهل تَسمح لهذه الجماعة بأن تتمادى إلى حد قتل القضاة ؟ لابد من حل هذه الجماعة . ثم ضحك وقال : إني أعرف دِيتها ، إنها رصاصة أو رصاصتان فى صدرى !

وصَدَقت توقُّعات النقراشى .. » !

التـــوسـع فى اعتقـــال الطلاب . إنى والـد ، ولى أبناء ، وأنا أدرك أثـر هذه الاعتقالات فى نفوس الآباء والأمهات » .

وقبل المحـاكمة ، نـدم الجانى على ما فعل ، وحُكم عليـه بالإعـدام ، وعلى شركائـه الثلاثة بالأشغـال الشاقة المؤبدة . ولا يـورث الدم إلا الحقد والغِل والدم . إذ تولى «إبراهيم عبـد الهادى » باشـا رئـاســة الوزارة عقب مقتل «النقراشى » ، وكـان من حزبه (حـزب السعديين) ، فعـزم على الأخذ بثأر سَلفـه . وتم له ذلك بعد أقل من شـهـرين ، حيث وقع اغتيـال الشيخ « حسن البنا » المرشـد العام للإخـوان المسلمين يوم ١٢ فبراير سنة ١٩٤٩ . وبعـد نجـاح « الضبـاط الأحرار » بقيـادة الرئيس « جمال عبـد الناصر » فى تغيير النظام الحاكم كله وطرد الملك فاروق من مصر بعـد تنازله عن العرش ، قُدِّم «إبراهيم عبد الهادى » إلى المحـاكمة بتهمة التآمـر على اغتيال « حسن البنا » وتعذيب الإخوان المسلمين فى السجون والمعتقلات ، وحُكم عليه بالإعدام ، ثم خُفف الحكم إلى الأشغال الشاقة المؤبدة .



حسن البنا . المرشـد العـام للأخـوان المسلمين .



إبراهيم عبد الهادى

باتريس لومومبا : اغتيال أم قَتْل؟

عندما يُذْكر اسم « لومومبا » تطوف بالذهن أصداء من مآسى الدراما الإغريقية ، وتتردد معها مقاطع من أهازيج ملاحم بطولية ، وترانيم من حكايات أسطورية ، على ألحان من أناشيد أفراح وطنية ، تصحبها دقات طبول دسائس ومؤامرات حزبية سياسية ، مصادرها خارجية وداخلية . وكل هذه وهاتيك وهؤلاء وتلك ، صَنَعَتْ معا وصاغت – أو طوَّعت– «باتريس هِيمِرِى لومومبا » ، وأخضعتْ مصيره فى اتجاه قَدَره ، وقدمتْه للتاريخ الحديث فى النصف الثانى من القرن العشرين حكاية تُرْوَى ، ولُغزا مغاليقه تتلوَّى ، ونموذجا حيا للضحية الآثمة البريئة ، قتيلة– أو شهيدة– الصراع « البارد » العنيد بين القُوَى العالمية الكبرى ، وبين قوى أفريقية إقليمية تَبِيعة صُغْرَى ، وبين قوى محلية حزبية قَبَلية أصغر لكنها أخبث .

تألق « لومومبا » فجأة فى سماء أفريقيا ثم هَوَى فجأة . وفى سقوطه المأساوى المباغت لم يَنْتَثر ولم يَنْدثر . بل مات جسدا وعلا اسمه أَمَدا . فهو لم يمكث رئيسا لوزراء الكونغو إلا أقل من شهرين . وكان المتوقَّع له أن يصير رجل دولة من المستوى السياسى الرفيع ، وزعيما رائدا ناضجا مُصلحا تزهو به أفريقيا – التعيسة البائسة – فى القرن العشرين . إلا أنه جمع حوله من الأصدقاء والأنصار أقل كثيرا من المنافسين والمستائين والأعداء ، بدءا من الأمم المتحدة ووكالة المخابرات المركزية الأمريكية .(CIA)

● مَن هو ؟

ينتمى إلى قبيلة « باتِلِيلا » . وُلد فى يوليو ١٩٢٥ بقرية « أُونالُوَا » فى إقليم

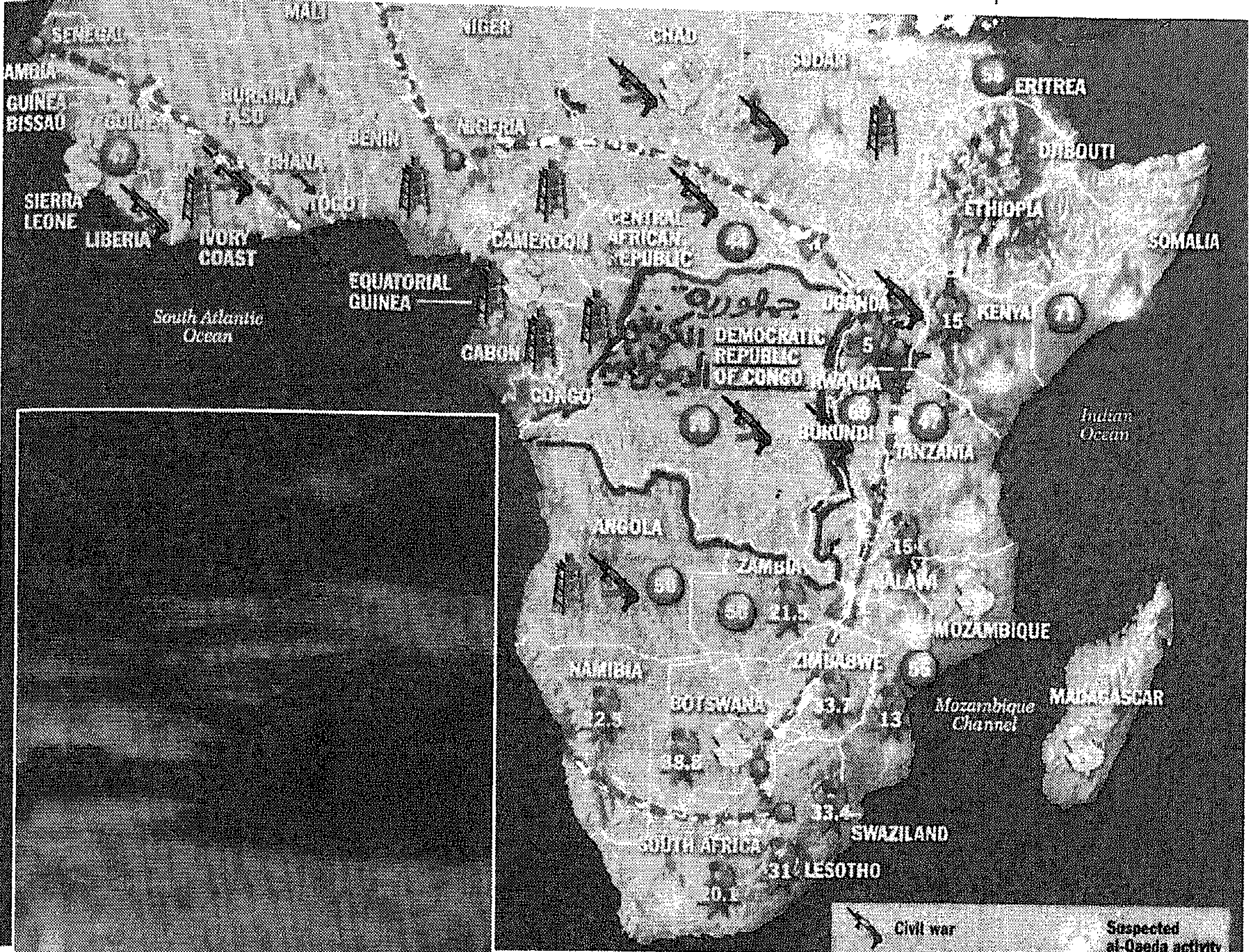
«كانْساى » بالكونغو البلجيكيـة . تعلَّم فى مدارس البروتستانت والكاثوليك ، ثم شق طريقه الوظيفى البسيط حتى بَلَغ منصب مساعد مدير مكتب بريد فى مـدينة «ستـانليفيل » قبل أن يُتَّهـم بالاختـلاس سنة ١٩٥٦ ، وقضَى سنة كاملة بالسجن عقوبة على جُرْمـه . وبمجرد خروجه من السجن انخرط بكل جهـده وفكره ودقتـه فى العمل السيـاسـى والنقـابى ، وكـان له دور بارز فى تأسيس « الحركـة الوطنيـة الكونغـوليـة» سنة ١٩٥٨.(١) كـان هدفهـا الأساسى المطـالبة باستقلال الكونغـو عن بلجيكا ، باتِّبـاع أسلوب التحرك الوطنى المسلـح مما أثار وأزعج القـادة الأوروبيين . وتزايدت شعبيـة «لومومبـا » باطِّراد بين الفصائل والقبائل وفئات الجماهير الكونغـولية ، إلى الحد الذى أفـزع السلطات الاستعمارية الحاكمـة ، فـاعتُقل واتُّهم بإثارة الجماهير ودَفْعها إلى ارتكاب حوادث الإضرابات والمصـادمات والشغب التى راح ضحيتها ثلاثون قتيلا فى مدينة « ستانليفيل » (٢) سنة ١٩٥٩ ، وزُج به فى السجن .

وأطلق سراحه سنة ١٩٦٠ لينضم إلى الوفد المسافر إلى بروكسل من أجل عَقْد مؤتمر يبحث مسألة الاستقلال . وارتفع نجم « لومومبا » عاليا لامعا فى هذا المؤتمر إذ كـان أبـرز السيـاسيين الوطنيين وأشـدهم حماسـا وذكـاء وتأثيرا. وفى الانتخـابات التى جـرت بالكونغـو فى مـايو من تلك السنة لأول مرة، كان برنامج الدعاية الذى ارتكز عليـه لومومبا يروِّج لفكرة إقامة دولة وطنيـة قوية مـوحَّدة . ومع أن حـزبه (MNC) حصل على نسبة قليلة من الأصوات والمقاعد فى البرلمان ، إلا أنه طُلب من لومومبا – فى شـهر يونيو التالى – تأليف حكومـة يكون هو رئيسهـا ، على أن يكون منافسه الحقـود اللدود «جوزيف كازافوبُو » رئيسـا للدولة . فكان التعاون بين الزعيمين هشا واهنا عقيما .

وحصلت الكونغـو على استقلالها فى ٣٠ يـونيو ١٩٦٠ ، غير أن عصيـانا مدنيا مسلحا اشتعل بعد إعلان الاستقلال بخمسة أيام قَلَب كل ما جرى من

(1) The Movement National Congolese - (MNC).

(٢) نسبة إلى المستكشف « هنرى ستانلى » الذى رأس بعثة بأمـر من ملك بلجيكا « ليوبولد » الثانى فاكتشف الكونغو (الآن : جمهورية الكونغـو الديمقراطية) فى سنة ١٨٧٧ ، وأقر مؤتمر برلين (٨٤ – ١٨٨٥) أن يكون ليوبولد الثانى المالك الوحيـد لمستعمرة الكونغو. عدد سكانها (سنة ٢٠٠٠) يقترب من خمسين مليـونا ٥٩٪ منهم كـاثوليك ، ٢٠٪ بروتوستـانت ، ١٢٪ مسلمـون . العاصمة : كينشاسا .



جمهورية الكنغو الديموقراطية وسط أفريقيا تحت الصحراء الكبرى

- عدد السكان (سنة ٢٠٠٠) : ٥٠ مليون نسمة تقريبا .
- العاصمة : كينشاسا (سكانها ٤,٣ مليون نسمة) .
- السكان : حوالى ٢٠٠ قبيلة ، أكبرها البانتو ، الفرنسية اللغة الرسمية ، وبها نحو ٤٠٠ لهجة أو لغة محلية .
- الديانات : الكاثوليكية الرومانية (٥٩٪) ، البروتوستانية (٢٠٪) ، الإسلام (١٢٪) وغيرها .
- الثروات الطبيعية : التعدين / البن / السكر / زيت النخيل / المطاط / الشاى / المنجنيز / الكوبالت (٦٥٪ من مخزون العالم) / النحاس / الكادميوم / البترول / الماس / الذهب / الفضة / القصدير / الزنك / الجرمانيوم / الدواجن / الأغنام / الماشية / الأسماك .. ومخزون البترول فى أرضها يثير أطماع الدول الصناعية المتنافسة على مستقبل أفريقيا خاصة الولايات المتحدة الأمريكية مع فرنسا وبريطانيا وبلجيكا .
- الحروب الأهلية متواصلة .
- متوسط الدخل الفردى : ٤٠٠ دولار فى السنة .
- نسبة الجياع وسوء التغذية بها : ٧٣٪ .

ترتيبات وإجراءات رأسا على عقب . فقد أعلن إقليم « كاتنجا » الثرى بالمعادن الانفصال والاستقلال بزعامة رئيسه المحلى « مويس تشومبى » الذى كان يحظى بحماية ورعاية رجال الأعمال والصناعة الأوروبيين والحكومة البلجيكية ، وتبع ذلك مناداة بعض أقاليم أخرى بالاستقلال . وتوقّع لومومبا حصوله على مساندة من الأمم المتحدة لإخراج البلجيكيين من كاتنجا وتوحيد أقاليم الدولة ، فلما خاب ظنه بإعراض المنظمة الدولية عن مؤازرته ، اتجه نحو الاتحاد السوفييتى يَنْشُد المساعدة ، فأسرع نحوه عدد كبير من « الخبراء » الروس والتشيك . فامتعضت دول غرب أوروبا ، وغضبت الولايات المتحدة ، واستاءت قوى الضغط (الأمريكية وحلفاؤها) داخل الأمم المتحدة لظنها أن الاتحاد السوفييتى – وكتلته الشرقية الشيوعية – يَرْنو إلى إحراز انتصار على المعسكر الرأسمالى فى « الحرب الباردة » بالتسللُ إلى أفريقيا والحصول على مواقع فيها غنية بالثروات الطبيعية . وتكاثَر الأعداء ـ بالحق وبالباطل – والساخطون على لومومبا ، وحكم عليه البعض – ظلما وافتراء – بأنه مخاطر خطر ومهدِّد للمصالح الأوروبية والأمريكية ، وعُهد إلى وكالة المخابرات الأمريكية (CIA) بالتخلص منه، فعملت على تصفيته .

فى واقع الأمر ، كانت القلاقل والاضطرابات والدسائس والتدخلات المتلاحقة والضغوط السيئة المتزايدة ساعة بساعة ، كانت جميعها كافية لإثارة موجات من التوتر والتشويش والتضليل أخفت عن كثيرين فى الداخل والخارج أن لومومبا لم يكن فى قرارة نفسه مُنحازا أو مُنساقا إلى شرق أو غرب ؛ ولم يَرْض لنفسه أن يكون دُمْية تحركها دولة من هنا أو هناك ، فى الصراع المكشوف للحرب الباردة . ولقد أعلن صراحة : « لسنا شيوعيين ، ولا كاثوليك ، ولا اشتراكيين . نحن أفارقة وطنيون » . وعندما ضاق عليه الخناق فى أواخر أيامه ، دعا – فى شبه استغاثة – كل الدول الأفريقية المستقلة لكى تجتمع فى مدينة « ليوبولدفيل » لتسانده فى مواجهة الانفصاليين الكاتانجيين .

وفى شهر سبتمبر ١٩٦٠ تفاقم الخلاف العلنى بين لومومبا وكازافوبو فى عداء مستَحكَم ، وسعى كل منهما إلى التخلص من الآخر . وتدخَّل الجيش بقيادة «جوزيف موبوتو » – وكان من قبل جاويشا – بقصد الإطاحة

بالمتنازعيْن : رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء . وقد كـان . إلا أن كازافوبو أُعيد إلى منصبه ، وأصدر أمرا باعتقـال لومومبا والتحفظ عليه فى مسكنه مع أسرته . فأُحيط بيتـه حيث يقيم بحـراسة مشـدّدة. وتدخلت الأمم المتحـدة فأرسلت قوة لحفظ السلام فى الكونغـو ، وأقام بعض جنودها داخل أسوار بيت رئيس الوزراء الرسمى لومومبا للمحافظة على حياته ، فى حين تمركَزَت قـوات من الجيش الكونغولى خـارج تلك الأسوار لمنْعـه من الهرب . وفى ٢٧ سبتمبر ، تسلل متخفيا بين مجموعة صغيرة من أنصـاره ، هاربا من الإقامة الجبرية، واتجه إلى ستـانليفيل فى محاولة لإعادة تشكيل حكومتـه . ولم يكن حصيفـا ذا دهاء . فقد أراد أن يجمع حـوله عددا كبيرا من الجمهـور ، فكان يلتقى فى القرى التى مَر بها بالناس ويخطب فيهم أو يتحدث معهم فى الأمور السيـاسية ، فكشـف عن مكانه وخطتـه قبل وصوله إلى غـرضـه ، فتمكنت قوات مسلحـة تابعة لكازافوبو مـن إعادة القبض عليه عندمـا كان يَعْبر نهر «كويلو » فى الثانى من شهر ديسمبر .

● **النهاية المأساوية : كيف؟ ومتى؟**

لا أحد يعلم مَن قَتَل « لومومبـا » سوى الأشخاص الذين قتلوه بأيديهم ، ولا أحـــد غيرهم يعرف كيف قُتل ، ومتى ؟ لكن الشائع المعْلَن ، أنه بعد نحو ستة أسـابيع من إعـادته إلى ليوبولدفيل مضروبا مهـانا مقيد اليـدين ممزق الملابس محاطا بجنود مـوبوتو الشرسين القُساة ، أُعلن عن وفـاته مع اثنين من أنصاره : وزير بوزارته يدعَى : «موريس مْبولو » ، ونائب رئيس البرلمان المنتخب : « جوزيـف أُوكيتو » . والمرجح أن الثلاثـة قُتلوا بعد تعذيـب شديد وترويع ســادى مـؤلم ليلة ١٧ ينايـر ١٩٦١ ، عند ترحيلهم إلى كـاتنجـا لإلقائهم فى غياهِب سجن عدوهم الألَدِّ الخَصِم . وقد بدأ هذا التعذيب القاسى العنيف بمجـرد نزولهم مـن الطائـرة الصغيرة (DC - 4) التى أقلَّتهم وأيديهم مقيدة خلف ظهـورهم . وسَرَتْ أقوال بأن لومومبـا قُتل أولاً عندما تلقى طعنة نافـذة فى صـدره بســلاح بنـدقيـة (سـونْكى) ثم تبعتْهـا وهو يحتضر طلقـة رصاص فى رأسـه من مسدس جندى مـرتَزَقة بلجيكى كـان يراقب « المشهـد » . ويقال : إن جثث القتلى الثـلاثة وضعت فى ثلاجـة كبيرة لفترة قصيرة ثم .. وهنا الخلاف : إما أنها دُفنت بعد ذلك فى مقابر مجهولة ،

وإما أنها أذيبت فى أحـواض حامض كبريتيك مركز بمصنع نحـاس فى مدينة «جادُوتْفيل» .

● بعد الاغتيال

يصعب الحصول على حقـائق أو معلومات صحيحـة قاطعـة بالنسبة لما حـدث لبـاتريس لومـومبـا قُبيل وبُعَيـد مصرعـه . ولقـد أصرت الحكومـة الكونغـولية التى كـانت قـائمة بالسلطـة حينذاك ، على القول بأن « الرجـال الثلاثة لا يزالون على قيد الحياة » ، واستمرت تردد هذا الزعم الباطل لبضعة أيام ، مع التركيـز على أن لومومبـا لم يتلقَّ أية معـاملة سيئة ، وذلك حتى لا يُستثار أنصاره والمتعاطفين معـه ويُستنفرون . وظلت الأمم المتحدة تطالب حتى أواخر شهر فبراير بضرورة السماح لموفدين عنها بزيارته والمحتبسين معه حيثما يوجَدون . لكن الإشاعـات عن مقتلهم بدأت تسرى فى أواخر شـهر يناير . وتحت الضغط الدولى المتزايـد ، أعلنت الحكومة المحلية فى كـاتنجا أن «السـجناء الثـلاثة » – لومـومبـا وصاحبيـه – فـروا من مكان اعتقـالهم فى العاشر من فبراير ، وزيادة فى التضليل عـرضَتْ الحكومة دفع جائزة مـالية لمن يُدْلى بمعلومات تؤدى إلى القبض عليهم . ثم عادت بعد ثلاثة أيام لتعلن أن ثلاثتهم لقوا حَتْفهم .



« لومـومبـا » بعـد القبض عليـه وتقييـد يديه ، وضربه وتعذيبـه ، ثم طعْنـه بالسـونكى وأخيرا قَتْلـه بالرصـاص ودفْنه فى مكـان مجهول .

والعجيب ـ وإن كان لا عجب فى ألاعيب السياسة ودسائسها ومؤامراتها – أن لومومبا كان « مقرر » له أن يموت قبل التاريخ المرجَّح عن وفاته . فهو شخصيا لم يَسْلم من تدبير مؤامرات ضد خصومه وأَمَر – وهو رئيس وزراء ـ باعتقال عدد منهم. لكن المخابرات المركزية الأمريكية (CIA) كانت تترصده وتدبِّر على طريقتها لاغتياله . فقد كشف تقرير لجنة تحقيق من مجلس الشيوخ الأمريكى سنة ١٩٧٥ عن الأنشطة الخفية لتلك الوكالة التى تنفِّذ عبر العالم أعمالا يمكن اعتبارها بأنها إرهابية ، كشف أن لومومبا كان واحدا من خمسة زعماء وحكام دول منوط بها التخلص منهم سريعا بالاغتيال أو القتل بأية وسيلة . هؤلاء الخمسة هم : فيدل كاسترو (كوبا) ، نْجو – دينْه – ديِمْ (فيتنام الجنوبية) ، رافايل ليونيداس تروجيللو (جمهورية الدومينيكان) ، الجنرال رينى شنيدر (شيلى) ، إضافة إلى لومومبا . وأظهر تحقيق اللجنة أن الرئيس الأمريكى آنذاك الجنرال أيزنهاور كانت لديه « أسباب معقولة » للموافقة على تنفيذ هذه الاغتيالات . وبناء على ذلك ، أصدر« ألن دالاس » مدير الوكالة(CIA) أمرا بالتنفيذ .

فكان ترتيب المسئولين عن قتل لومومبا أن يُدَسَّ فى معجون تنظيف أسنانه نوع من البكتريا السامة بعد أن عرفوا حرص رئيس الوزراء الكونغولى على نظافة أسنانه ! وتم تدريب اثنين من عملاء الوكالة على أداء هذه المهمة ، لكنهما فشلا فى توصيل معجون الأسنان المسمم بالبكتريا إلى يد لومومبا بطريقة سلسة لا تثير الانتباه أو الشك . وقبل التدبير لمحاولة أخرى، كان لومومبا فى عِداد الموتى بأسلوب آخر !



« آلن دالاس» – مدير وكالة المخابرات الأمريكية (١٩٦١) .

«أيزنهاور» – الرئيس الأمريكى الأسبق .

« فيدل كاسترو » – الرئيس الكوبى (فى الصورة العليا) .

(٦) عجائب وغرائب

الطبيبة ميكى : سحر الجريمة

« ميكى بيشْتُوريوس » ..

سيدة من جنوب أفريقيا ، فى سن الأربعين ، لها وجه طفل ، عليه مِسْحة حزن ، وطابع غموض دفين . وفى رأسها « عقل » غير عادى ، فيه شىء من «السحْر » ، لكنه ليس بسحْر ، وهى نفسها لا تعرف سر قُدرته على «اكتشاف » القَتَلة الخطرين ، و « الاتصال » بأرواحهم حين تجلس ساكنة فى صمت بموقع الجريمة : فيخْبرها بسن المجرم ، ومهنته ، وصفاته ، وسلوكه، ودافعه إلى ارتكاب الجريمة .

عندما استعانت بها شرطة جنوب أفريقيا لأول مرة ، كانت فى سن الرابعة والثلاثين ، ولا تحمل معها سوى خبرة صحافية لا بأس بها ، ودراسة ممتازة فى علم النفس . واستطاعت خلال الأعوام الست التالية أن تساعد الشرطة على الإمساك بعشرة مجرمين من القتلة المروِّعين ، ارتكب كل منهم سلسلة من الجنايات الغامضة البشعة ، وأعْجز الشرطة اكتشافُه . ثم أَجْهدها كثيرا هذا العمل الخارق المضْنى ، وكادت تَمْرض نفسيا وجسديا من طول التركيز فى رؤية الدم ، والجثث المشوهة ، والأشلاء العفنة ، والاستغراق الطويل فى تأملها وما حولها ، والتفكير فيها حين اليقظة ، ثم مراودتها عند النوم . فتركتْ هذه المهمة ، وانتقلت إلى الكشف عن مجرمين من نوع آخر ، كالسرقة والاحتيال والنصْب . وكتب عنها بإفاضة « جان – كريستوف جرانجيه » فى كتابه : أنهار أُرْجوانية – Rivères Pourpres » .

فى مـركـز شرطة « دوربان » جلستْ « ميكى » فى مكتبهـا تتأمل الصـور الكثيرة التى تغطى الحوائط ، وفيهـا مناظـر مُلْتقطة من الجو لمواقع ارتكاب جـرائم ، ووجـوه ضحـايا، وآثار تعـذيـب وأدواته .. وفى إطار هذا الإيحاء المخيف المفزع ، بدأت تُعد تقريرهـا الأول عن شخصية وملامح المجرم ، ولم يسبق لها من قَبل أن ذهبتْ بعيدا إلى هذا الحد فى تحديد « مواصفات » قاتل ، فكتبتْ : « مشيتُ فى حقـول قصب السُّكر ، القـاتل من قبيلـة الزُّولو ، وفى اقترافـة للاغتصـاب ، استخـدم أسلوب تلك القبيلة فى العـزْل (أى عـزل الاتصال الجنسى) ، وشرحت بالتفصيل تلك الطريقة ، عُمره بين ٣٢ و ٤٠ سنة ، وقـد بدأتْ هذه النزوة عنـده فى سن الخامسـة والعشرين ، وهى الآن ناضجة عنده ومتـزايدة ؛ ليس له عمل أو وظيفة محددة ، لا يجد فـائضا من وقت لانشغالـه الدائم برغبة جـامحة تَسْتحوذ عليه . وهـو يسكن فى منطقة مـزروعة أو مُشجـرة يعرف جيدا تفـاصيلها ، ولا يدرى شيئا عن العـالم خارجها . وهو شخص مـاكر ماهر فى اقتناص فريستـه وإغوائها : يـُحْسن الحديث مع النساء ، وجَذْبهن إليه ، ثم إقناعهن باتِّبـاعه بين الأشجار الكثيفة العالية المورِقَة التى تَسْكنها الحيات السامة والفئران » . ولماذا يَقْتل ؟ تجيب « ميكى » فى تقـريرها : « لقد تلقَّى هذا الشخص فى يوم مـا إهانة قاسيـة من امـرأة ، فانفصل عنهـا أو طَلَّقهـا . وكل حادثـة قتْل ارتكبها هى رَد مُطَهِّـر للإهانة الموجِعـة التى لحقت به ، لعلها تَمحو التمـزق الداخلى عنده . وتتمثل رغبـة الانتقـام المتَّقدة عنـده فى الملابس النسائيـة التى يستعملهـا فى تقييـد وتكميم ضحيته . ومن المؤكـد نفسيا أنه يحتفظ دائما معـه بعُقَد أو قِطَع من القماش المعقود . وفى كل مرة يتأهب فيهـا للقتل ، يداعب متحسسا تلك العُقَد التى يُخفيهـا فى جيبه ، فيشعـر بأن نزوته تأتيه من سماعـه لحفيف أوراق الأشجار واحتكاكها بوجهه ».

وتُتابع « ميكى » تقريرها كأنما تشـاهد المنظر يحدث أمامها وتراه رؤية عين : « وما أن تنشط ضوضاء المكان من حوله (الغابة أو مزارع القصب) ، وتتراقص أضـواء الليل الخافتـة وظلاله أمام عينيـه ، ويَلْمس خَـدَّيه سَعَف النخيل ـ أو ورق الأشجار أو النبات ـ عندئذٍ يكون كالمجنون ، فتتفجر رغبته العارمة فى القتل ، وكأنه حية سامة مُهتاجة تَلْدَغ ».

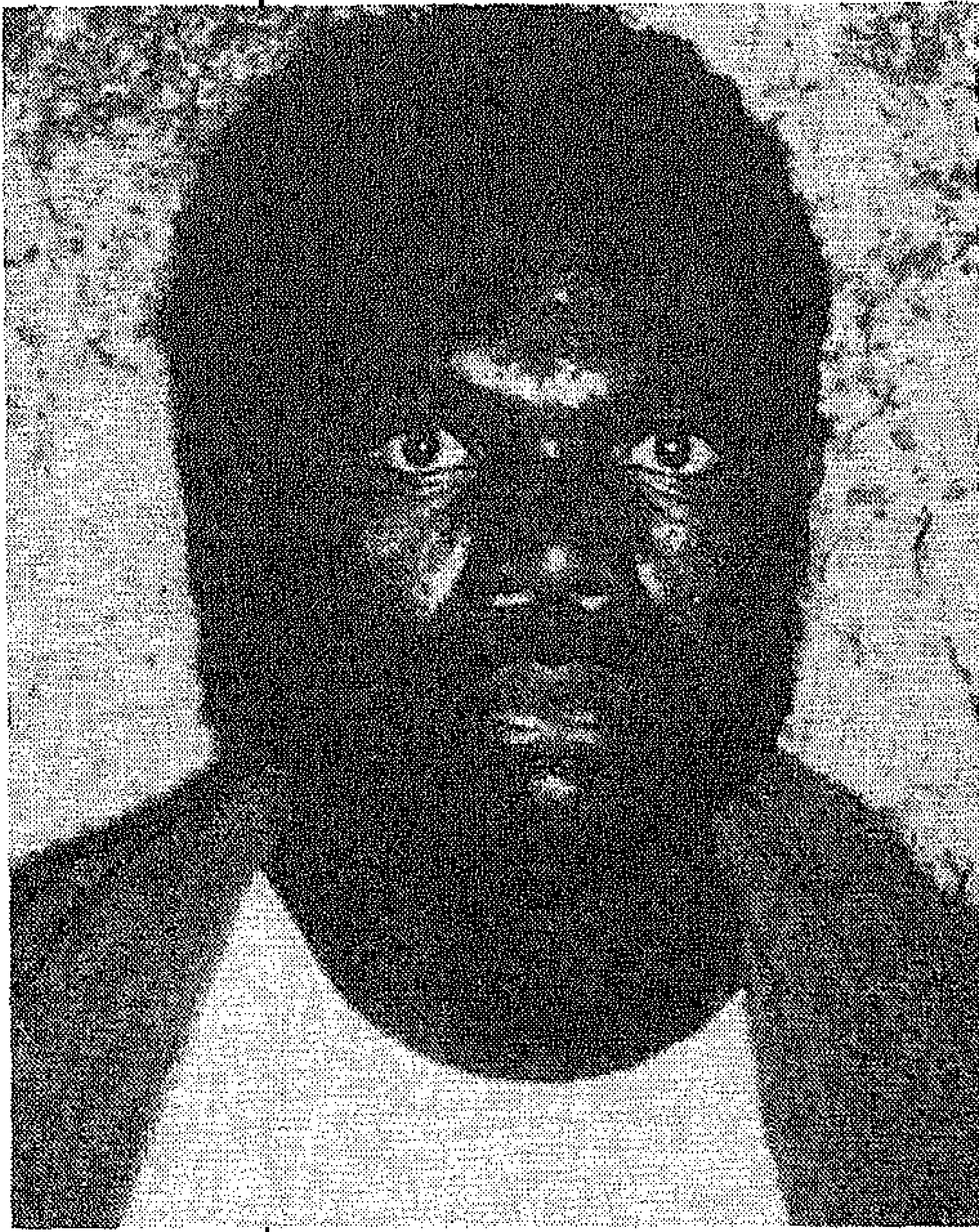
دُهِش رجال الشرطة من تقرير « ميكى » مع بعض الشك والحذَر . وعلى أية حال، فالأوصاف التى سجلتْها لا تحدد بالضبط معالم أو ملامح المجرم الذى أجهدهم البحث عنه أو العثور عليه . وصارحتْهم «ميكى » بأن شكوكهم خاطئة وحَذَرهم فى غير موضعه : فإذا كان الجانى يحرص على ألاَّ يترك أثرا من إفرازاته



ميكى بيستوريوس

الجنسية (بالعزْل) ، فإن ذلك بدافع الخشية من التعَرُّف عليه من التحليل الطبى للجينات التى فى تلك الإفرازات . وعندما أخذتْ الشرطة على مَحْمل الجد توصيفات « ميكى » ، قررتْ القبض على شخص يدعَى : « سيفو توالا » حامت حوله شُبهة ضعيفة فى محاولة اغتصاب ، وذلك فى ليلة من شهر أغسطس سنة ١٩٩٦ ، عُمره ٣١ سنة ، ومن قبيلة – الزولو . وأستُدْعِيَت «ميكى » لحضور عملية مهاجمة سكنه والقبض عليه فى الثالثة صباحا . فارتَدَتْ مثْلهم صديريا (جيليه) واقيا من الرصاص ، وأُعطيت فى يدها رشاشا صغيرا أوتوماتيكيَّ الطلقات . وعند اقتحام الكوخ الذى يسكنه ، كان فى سريره مستغرقا فى النوم . فهبَّ مذعورا بلا أدنى مقاومة . وعُثر فى الكوخ على عُقَد من الخِرق الممزقة بها أشرطة متدلِّية .

جلست « ميكى » فى الليلة ذاتها تتحدث مع والدة « سيفو » . ومن خلال



« سيفــو توالا » عنــد القبــض عليه.

استجوابها ظهـر جليا أن كل مـا ذكرتْه فى تقريرها كان صحيحا . وصرحتْ الأم بأن ابنهـا ـ سيفو توالا ـ انفصل عن زوجتـه لأنها أَجْهَضت نفسهـا بـدون علمـه أو موافقته . فـاعتَبر أن هذه خيانة وإهانة له لا تُحْتَمَل . ومنـذ ذلك الحين ، امتـلأت نفسـه بكراهيـة شـديدة لا تَخْمـد نيرانها ضـد جميع النســاء . وعندمـا رجعت «ميكى» إلى مـركـز الشرطة بعـد بزوغ الفجـر، علمتْ أن « الوحْش المفترس » لزم الصمت ، وامتنع تمامـا عـن الإجـابة على الأسئلة فى التحقيق الجنائـى ، وظل منطويا على نفسـه متكورا على الأرض كأنه فى سجود دائم . فطلبتْ مقابلته على انفراد .

جلستْ أمامه وَجْها لوجه . واقترحتْ عليه أن تحكى له قصة : عن رجل فى نفسه جُرح مؤلم لا يندمل ولا يستطيع أن يصارح به أحدا من الناس . ولكى يفَـرِّج عن كرْبه ويستريح نَفْسـا ، كـان عليه أن يصطحب نسـوة إلى أعماق حقول قصب السكـر . وعندما كان يتحـدث إلى الواحدة منهن ، كـان حفيف أوراق النبـات يهمس فى أذنيـه مُحَرِّضـا على قَتْلهـا . وكـان هذا هو الأسلوب الوحيد لإخماد الكابوس المزعج الذى يعايشه . وبعد أن فرغَتَ من حكايتها ، سـاد صمت طويل ، ثـم تَـمْتَم « سيفـو توالا » بهذه الكلمات الصـادرة من أغْوار باطنه : « أنا أعرف هذا الشخص . إنه أنا » !

فكيف توصلـتْ « ميكى بيسْتـورْيوس » إلى هذه الـدرجـة من تَقمُّص مشاعـر القَتَلة الخطرين واكتشـاف دوافعهم ؟ تقول صراحـة : « أنا لا أعرف شيئا مطلقـا عن سبـب ذلك . وكل مـا أستطيع قـولـه فى هذا الشأن ، أن أحاسيس معَيَّنه تَنْتـابنى خلال عملية البحث للكشف عن شخصيـة القاتل . وفى موقع ارتكاب الجريمة تنفتح نفسى انفتاحا كاملا على ما حَدَث . وتَـهُب

فى كل مـرة نَسمـــة ريح من نوع خــاص غـــريب ، تَنْفُث فى روعِى (١) أفكارا وانطباعــات وملامح واضحة كــالبصَمات . إنها ظاهرة من العسير تفسيرها أو شَرحها ..وأعتقـد أنه فى مكان أو موقع حـدوث المأساة أو ارتكاب جـريمة القتل ، يظل عـــالقـا صَـــدًى كــالرنين ، كنوع من تـردُّدات وذبذبات ذَرِّية . وباستطاعتى – لسبـب مـا غـــامض – أن ألتقط ذلك الصــــدى أو الرنين أو الذبذبات ، فتتحـول إلى إحساســات تُتَـرْجَم بدورها إلى لغــة ، تُفْصِح لى عن مشاعر وانفعالات القاتل لحظة ارتكابه للجريمة . ومن أجْل ذلك أقول أحيانا إن مُرتكـب سلسلة مــن جرائم القتل المروِّع يَقْبع فى رأسـى » . فما تأثير ذلك على « ميكى » ؟ أجابت :

« إن المفزع حقا ، هو أن يَـحْدث ارتبــاط مفاجئ بين ما فى رأسى ونفْسى وبين جريمــة مماثلة يرتكبها القاتــل نفسه فى لحظة ما غير متـوقَّعة . فى يوم عطلة مثلا ، أُدْرِك تماما أن القــاتل الذى نبحث عنه يرتكب جريمة قتْل فى تلك اللحظة . كأنه صَدًى يُدَوِّى فى داخلى ويَعْصــف بى . وإذ أكون فى ذلك الوقت مشغولة بجرائم أخرى ، فإن الأمر يختلط علىَّ فلا أدرى أىُّ القتلة هو الجانى فى هذه اللحظة . إنه شىء مثير لـــلاضطراب والقلق ، حيث تَنْتــابنى مـوجـة كالصدْمة . وعندئـذٍ أشعر بالرُّعب ، وأبكى، وأرغب فى التقيؤ . ولا يُدْرك مَن حَوْلى مــا بى وأسبابه فيجـزعون . وكيف أشرح لهم فى مثل مــا أشعر به . لا أريد أن أَجُر أحدا إلى ما أسميه : صخَب الأمواج الهائجة المتدافعة » .

بعد عام من القبض على قاتل مزارع القصب ، أى فى سنة ١٩٩٨ ، تعرفت «ميكى» بأسلوبها الغـريب على قاتل من نوع آخـر . فقد استدعــاها ، يوم ٤ أبريل ، مـدير عــام شرطة مدينة « بيت رِتْيِـف » ويدعى : « كُوس فُـورى » ، وأخبرها أن قــــاتلا شريرا خطرا ينشر الرعـب منذ عـــام بـأكمله فى المدينة وضــواحيهــا . وهو يقتل ضحــاياه من مســافــة بعيـدة ببندقيــة من طراز «ســالُون» عيــار ٢٢ ، ويَقتل عشــوائيــا ، رجــالا ونســاء. وأسلوبه فى القتل درامى مثير ، دقيق فى إصابته : فهو ينشــط متحفزا فى الليل ، ويُسدد طلقاته

---

(١) الرُّوع (بضم الراء المشددة) : البال أو الخاطر ، أو القلب أو العقل .

فى الظلام ، مترقبا ضحاياه الذين يكونون مصادفة فوق مستوى عينه اليُسرى فى أحد أحياء المدينة . وقد بلغ عدد ضحاياه اثنين وعشرين قتيلا ، والجرحى أو المصابين ستة عشر . ولم تستطع الشرطة – على الرغم من جهودها المكثفة – أن تعرف شيئا محددا عنه يؤدى إلى القبض عليه .

اطّلعتْ « ميكى » على البلاغات والتقارير الواهية التى كُتبت عن القاتل وجرائمه، وزارت المواقع التى ارتُكِبت فيها . فكانت المعلومات التى حصلت عليها تافهة غير كافية . لكنها توصلت بطريقتها إلى معرفة شخصية القاتل و « لامَسَتْ » دوافعه ومشاعره : فالسلاح الذى يستخدمه بمهارة ـ البندقية السالون ـ يرجِّح أنه رجل مدَرَّب جيدا وربما كان جنديا سابقا . وتخيلَتْه يعمل بمفرده ، ويحب العُزْلة ، والتجوال وحيدا فى الغابات حيث يشعر بالأمان والطمأنينة بعيدا عن الآخَرين . وهو يعانى من ضغط نفسى شديد مكتوم يثير عنده دوافع مرتبطة بشعور دفين بالإهانة ، أو مَهانة لحِقَت به . ربما لأنه طُرد من الجيش ، أو بسبب مأساة عاطفية أكثر تأثيرا وأدْمَى جُرحا فى نفسه ، أصابت « رجولته » فى الصميم . فعندما يوجه سلاحه عشوائيا نحو الجمهور أى عندما يكون الناس عند طرف سلاحه مباشرة الذى يسدده نحوهم من فوق عينه اليسرى ، عندئذٍ فقط يستعيد قُوته المفقودة أو المُهَانة ، ويشعر بسيطرته عليهم . وأكدت « ميكى » فى تقريرها ، أنه ارتكب من قَبل جرائم سرقة أسلحة أو أدوات قاتلة واحتفظ بها لاستخدامها عند الحاجة إليها .

قادت هذه التوضيحات فى تقريرها رجال الشرطة فى القبض على رجل تقترب منه تلك المواصفات . لكن وقعت جرائم قتل مشابهة بالمدينة فى فترة احتباسه للتحقيق معه . فأعاد مدير الشرطة البحث والتحرى من جديد وفقا لتوصيف « ميكى » ، فعثر على شخص فى حى فقير يكثر به عمال الخدمة ، يُطْلقون عليه اسم : « الجُنْدى » ، بسبب ما يرتديه : معطف قديم من الملابس العسكرية ، وعلى رأسه قبعة بالية (كاب) لقائد حربى . وأشار كل الذين يعرفونه بالمنطقة إلى أنه متطرف الحماس للعمل العسكرى ، واسمه

الحقيقى: « فيلافى نادْلانْجامـانْدلا » . فأمسكتْ به الشرطة وهو جالس بحانة رديئة المستوى فى قرية « فُـوسْوا » ليلة العاشر من سبتمبر ١٩٩٨ . واعترف فى الحال ، وتوافقت اعترافـاته تماما مـع افتراضات « ميكى » . كـان يعمل فى الحراسـة ، ويتجول كثيرا فى مناطق الأحـراش والغـابات ، محتفظا دائما فى جيوب معطفه بعدد من الطلقـات يعبث بها بأصابعه باستمرار . لماذا ؟ وبأى دافع نفسى يَرُوم الإيذاء ؟

كـان محتبَسـا من قَبل لشبهة غير جنـائية ، وأُرغم فى فترة احتبـاسـه – للتحقيق – على ما أصابه بصـدمة : إذ اعتدى عليه جنسيـا أحد المحبوسين ، ونَقَل إليـه مرضا خبيثـا . وبعد الإفـراج عنه ، عَجَز عن الاتصـال الجنسى برفيقته ، التى أخذت تَسُبُّه وتُهينه بقسـوة وتطعنه فى رجولته . وكان تحليل « ميكى » لحالته بسيطا مُقْنعا : إن ماسـورة البندقية « سالُون » تُمثل البديل لعضـوه الجنسى . وبعد كـل فشل له فى معاشرة رفيقتـه كما يفعل الرجـال الأسـوياء ، كـانت تُبكِّته وتعنِّفـه ، فيَهُب غـاضبـا حانقـا سـاخطا ، ويطلق الرصـاص عشوائيـا على الناس من بعيد فى ظلام الليل ، لإثبـات رجولتـه ، وانتقاما من الاعتداء الذى وقع عليه . وبهذا تصبح سلسلة جرائم القتل التى ارتكبها من الجرائم المتعلقة بالجنس ، والجانى فيها مَجْنيا عليه .

● انسحاب بلا عتاب

استنزف عـام ١٩٩٩ جهـد « ميكى » وطاقـاتها المدهشـة غير العـادية . أصبحت منطوية على نفسهـا فى عُـزلة ، لا يُؤْنسهـا من حَـوْلها سـوى لُعَب الأطفال الإسفنجيـة فى أشكال الكلاب والقطط والدببة ، ولم تَعُـد قادرة على الإفصاح بوضـوح وحماس عن مواصفات الجناة أو مـلامح شخصياتهم . وصَرَّحت لصحيفـة محلية بقولها : « إننى أعيـش أربعا وعشرين ساعـة كل أربع وعشرين سـاعـة فى رؤوس القتلة وأخـالـط مشـاعـرهم . وأنا بطبعى لاأحب مُطْلقـا رؤية الدم ، ومع ذلك أعيش نهارى وليلِى فى كـابوس لا يهدأ ولاينقطع من الدماء والأشلاء والجثث الممزقة » .

وزاد فى إرهاقهـا وضغـوط العمل الفـريد المُضْنى الذى تؤديه ، أن بعض المحامين المدافعين عـن متهمين فى قضايا جنائيـة كبيرة ، كانوا يطلبـون منها العَوْن فى « اكتشاف » ومعرفة الجناة الحقيقيين - بطريقتها الخاصة - حتى يُبَرِّئوا مـوكِّليهم ، أو إضفاء مسحة « إنسـانية » على المتهم مـرتكب الجريمة حتى يحصلوا له على حكم مخفَّف . وكان آخـر استجواب لها لمتهم من هؤلاء سببـا فى التعجيل باتخاذ قـرارها الحاسم بالانسحـاب من هذا العمل . فقـد سُمح لها بمقابلة هذا المتهم فى زنزانته بالسجن لاستجـوابه كطبيبة نفسية ، وقالت بعدها : « كان حوارا يفـوق الاحتمال . فلغته فَجة ، بذيئة للغاية ، فَظَّة منفِّـرة . وكـان يتركنى فجأة فى أثناء المنـاقشـة ويذهب إلى ركن بـالزنزانة ويأتى بأعمال جنسية قبيحة . وذَكر لى فى مقـابلة أخرى أنه بعد أن قتل ابنته وأخفى جثتهـا فى بقعـة كثيفة الأعشـاب والأشجـار ، كان يأتـى إليها ليـلا متسللا وينام بجوارها حتى الصبـاح. إن هذا لكثير . حقا كثير ولا يُحتمل » . وكـانت خاتمة « المأسـاة » بالنسبـة إليها ، وقـوفهـا يوما فى مـوقع ارتكاب جريمة قتل وتشـويه للجثة ، وبعد إخراجهـا متعفنة من مكان دفْنها ، حُمِلت إلى طائـرة مروحية (هيليكـوبتر) لنقلها إلى المشرحة ، فتسـاقطت على رأس «ميكى » آلاف مـن ديدان الأجســـاد البشرية المتعفنـة . فكانـت « الضربة القاضية»، إذ قررت نهائيـا التوقف عن هذا العمل ، وبلا رجعة . والتحقت فى بداية سنة ٢٠٠٠ بمؤسســة خاصة للأمن والحراسة ، ينحصر نشـاطها فى الكشف عن كبـار النصـابين والمحتـالين والسماسرة الفـاسـدين . فأنقـذت نفسهـــا من الهلاك ، أو أن تصبح ضحيــــة ، وأغلقَتْ إلى الأبـد « صندوق الساحر » الذى كان مختَزَنا فى رأسها ومشاعرها.

١٠ لصــوص أغبيــاء

● جزاء من جنس العمل

تعـودَتْ السيـدة « هوليس شـــارب » أن تَخرج من بيتهـا فى كل مســاء بصحبـة كلبهـا الصغير المدلَّل « جـوناثــان » لسببين : التجـوال الرياضـى ، وليقضى كلبها حاجته . وحتى لا تضايق أحدا أو تلوث الطريق ، كانت تأخذ معهـا صحيفة قـديمة وكيســا من البـلاستيك لتنظيف المكان بعد أن يفـرغ «جـوناثان » ويستريح ، ثم تجمع النفـايات بالصحيفـة وتضعهـا فى الكيس البـلاستيـك ، إلى أن تلقيهـا فى أول صندوق قمامـــة تمر به فى الطريق . ولما سئلت عـن ذلك قـــالـت : « من حُسْن الأدب والـذوق أن يفكر المرء دائما فى مشاعر جيرانه » .

وخرجت ذات مساء كعادتها مع صديقها الصغير ، وبعد أن أتم التخلص مما كـان يضـايقـه ، أدَّت « هوليس » واجب التنظيف ، ومضيـا معـا نحـو صندوق القمامـــة ، وإذا بلـص يَنْقض عليهـــا من الخلـف ويخطف الكيس البلاستيك ، وينطلق بدراجته النارية (مـوتوسيكل) ويفر هاربا بعد أن دفع « هوليس » بقوة فسقطت أرضـا . أصيبت المسكينة بخدوش بسيطة ، وعلى الرغم من آلام الفـزع والخدوش ، إلا أنها لم تستطع أن تكتم ضحكهـا وهى تقول : « يا ليت الكيس كان ممتلئا أكثر وأكثر » !

● على نفسه جَنَى « جِيبْس »

كـان اليوم الســابع من أغسطس ١٩٧٥ : دخل « أنطونى جيبْس » (٢١

سنة) مطعما فى مدينة « نيو بورت » الأمريكيـة ، واتجه مباشرة نحو خزينة النقـود . كان قلقـا مضطربا ، كما ذكـر الشهود ويحمل بندقيـة . وطلب من العاملة الجالسـة إلى الخزينة أن تعطيه النقود التـى بها ، وهددها بالبندقية ، فأعطته أربعمائة دولار . فأخذها بسرعة ووضعها فى كيس صغير كان بيده ، ثم حـاول وضْع الكيس فى جيبه بصعـوبة وارتباك، ولم يشعر بـأن إصبعه على زناد البندقية وفُـوهتها نحو وجهـه ، فانطلقت رصاصـة هشَّمت رأسه ومات فى الحال !

● طاقية الإخفاق

دخل « كليف بونيان » متجـرا فى مدينة « سكاربرو » فى إنجلترا وطلب فى هدوء– وهو يُخرج مسدسـا من جيبه – من العـاملة أن تعطيه فـورا النقود التى بدرج المكتب ، فلم تتردد ، وأعطتـه مـائـة وسبعـا وخمسين جنيهـا . فأخذها بيد ، وباليد الأخـرى أدار غطاء رأسه من الخلف إلى الأمام مع إنزاله قليلا نحو عينيه حتى يخفى ملامحه وهو خارج بسرعة . ولم يستغرق الأمر أكثر من دقيقة ونصف . وخـرج بسلام ، لكنه نسى شيئا بسيطا : أن اسمه كان مكتـوبا بوضوح على مقدمـة غطاء رأسه : « كليف بونيـان – سائق » ! فالتقطته العاملة بسهولة وهو خارج ، وقُدم للمحاكمة ، وكان الحُكم : العمل – جَبرا وبلا أَجر – لمدة مائتى ساعة فى خدمة المدينة !

● يكاد المريب يقول خذونى

هذا مَثَل قـديم لكنه لا يتقـادم مع الزمن . والدليل : مـا حَـدَث للمحـامى الشاب «مارشال جورج » ـ ٢٥ سنة ـ من مدينة « أوكلاهوما » الأمريكية فى ١٤ أكتوبر ١٩٧٦ . فقـد اتُّهم بخطف حافظة نقـود سيدة عجـوز بمتجر فى المدينة . وقُدم للمحاكمة ، فطَلب أن يترافع عـن نفسه . وعندما تقدمت المجنى عليها لتُـدْلى بشهادتها واسْهَبت فى وَصْف الواقعـة ، قاطعها « مـارشال » فى حـدة وتحدٍ قائـلا : « وهل تحققْتِ جيـدا من وجهى عندمـا خطفْتُ الحافظة وأنتِ تلبسين نظارة سميكة ؟! » . فلما ضَجَّتْ القـاعـة بالضحك والسخـرية

من هذه السَّقْطة المفاجئة ، طلبَ من القاضى أن يستعين بمحامٍ للدفاع عنه ، لكن القاضى رفض ، وأصدر على الفور حكمه بسجن «المحامى الهُمام » عشر سنوات .

● **فَرْق التوقيت**

أَعَد « جريجورى لى » كل شىء للسرقة إعدادا جيدا وفْق خطة وضَعها بعد تفكير طويل لاقتحام « بنك كونتننتال » فى مدينة بولاية بنسلفانيا الأمريكية (سنة ١٩٧٨) : سيارة تقف على مقربة من بوابة البنك ، قناع انزلاق على الجليد للتخفى ، حقيبة على الظهر لوضع النقود بها ، ومسدس كبير فى حافظته (الجراب) ليبدو أن الأمر جد لا هَزْل فيه . وتوجه إلى البنك كأى شخص عادى : المسدس بالحزام فى وسطه غير ظاهر ، والقناع فى الحقيبة على ظهره . ثم تقدم إلى الشباك وأخرج المسدس ووضعه أمامه ، وطلب النقود . فأعطاه الموظف ثمانية آلاف ومائة دولار. ففتح الحقيبة ، وأخرج القناع ثم وضعه على رأسه ، وأخذ النقود وانصرف . لكن كاميرات المراقبة كانت قد سجلت ملامحه بدقة قبل أن يضع القناع !

● **السرقة بالنقد أفضل أم بالشيك ؟**

كانت الليلة باردة يوم ٢٣ نوفمبر ١٩٧٨ . فأراد « شارل مِريويثَر » أن يستدفئ وينتعش « مجانا » فهو عاطل لا يملك نقودا . تسلل إلى مسكن سيدة بمفردها بمدينة بالتيمور بولاية ميريلاند الأمريكية . هددها بسلاح كان معه ، واعتدى عليها عُنْوة ثم طلب منها مالا ، وأخذ يبحث فى أدراج الأثاث . فأخبرتْه أنها لا تملك نقدا سوى أحد عشر دولارا ونصف دولار . فتعجب وسألها : وكيف تدفعين فواتير مشترياتك؟ أجابته : بالشيكات . فأمرها أن تكتب له شيكا بمبلغ خمسين دولارا . فاستجابت وهى مذعورة ثم توقفت تسأله : « باسم مَن أكتب الشيك ؟ » . قال مستنكرا : « باسمى بالطبع .. شارل مريوثير » ! ثم تسلم منها الشيك وخرج وهو يقول مُهَدِّدا : « إياكِ أن تَصْرخى أو تُبْلغى أحدا وإلا عُدْت مرة أخرى » ! ولم يَعُد ، إذ مضى إلى السجن !

● **منافع الاهتمام بحفظ الأرقام**

« تيرى جونسون » تُجيد حفظ الأرقام ، وكأنها هواية محببة عندها . كانت يوم ١٧ أغسطس ١٩٨١ فى شقتها بمفردها فى مدينة شيكاغو الأمريكية ، وفوجئت فى الساعة الثانية ظهرا بمن يطرق الباب ثم يقتحم المسكن . كانا شخصين : وقف أحدهما خلف باب الشقة الموصد حتى يمنعها من الخروج أو الاستغاثة ، وأسرع الثانى يفتش عن النقود ، فأخذها مع بعض التحف الثمينة ، وانصرفا . وحمدت «تيرى » ربها واستراحت نفسا أنهما لم يعتديا عليها جنسيا ، أما مسألة السرقة فكان أمرها هينا : فقد كان السارق يرتدى زى الشرطة الرسمى ، فالتقطت فى ذاكرتها الرقم المعلَّق على سترته . وعقب انصرافهما أسرعت إلى النافذة والتقطت رقم سيارة الشرطة التى ركباها . فكان من السهل بعد ذلك تقديم الضابطين « ستيفن وِبْستر » – ٣٣ سنة – و « تيرون بيكنْز » للمحاكمة العسكرية بتهمة ارتكاب جريمة سرقة بالإكراه واقتحام منزل بدون إذن أثناء تأدية الخدمة وباستخدام أدوات ووسائل حكومية .

● **الخِلاف مِتْلاف**

كانت عند « كلِيىْ ويِفَر » أفكار وأحلام وطموحات شباب ، لكنها من نوع سيئ خطر : فقد وضع – وهو فى التاسعة عشرة من العمر – خطة للسطو على أربعة عشر متجرا ومصرفا بالتتابع ، مع صديقه « جارى هانْدريك » الذى فى مثْل سِنه من مدينة « الوادى الغربى – وِسْت فالى » الأمريكية . فكانت البداية للتنفيذ يوم ١٦ فبراير ١٩٨٢ فى التاسعة صباحا ، والهدف : فرع سلسلة متاجر « فاين فودْز » .

وقف صديقه « جارى » بسيارته أمام المتجر ، ودخل « كلِيىْ » متوجها مباشرة نحو الخزينة ، وبيده بندقية صغيرة الحجم ، ثم صَوَّبها نحو العاملة المختصة بالحسابات ولوَّحَها أمام وجهها . فابتسمت بسذاجة ظنا منها أنها لُعبة يمازحها بها . فاغتاظ الفتى من رد فعلها غير المتوقَّع . وأسرع فى تجهيز البندقية للإطلاق ، وبيد مرتعشة – إذ لم تكن له خبرة سابقة – انطلقت

رصاصتان نحو المكتب المجاور وكان خاليا . فذُعرت الفتاة ، وذُعر « كليئ » أكثر منها ، فوَلّى هاربا إلى صديقه ، الـذى صاح فيه مؤنّبا وطلب منه العودة لإتمام السرقة . فلما أصر « كليئ » على الرفض وهَمَّ بركوب السيارة ، انطلق بها « جارى » مسرعـا ، تاركا زميله واقفـا فى ذهول كالأبله ، وبيـده البندقية كأنما قُيِّد فى مكـانه . وقبل أن يفيق ويهرب ، كان اثنان من حـراس المتجر – من أعضاء فـريق المصارعـة – يطبقان قبضتهما عليه . وفى التحقيق بمـركز الشرطة أبدى أسفه الشديد ، لا على محاولة السرقة ، ولكن .. على فشل خطته « الطموحة » من أول مرحلة !

● زَلة اللسان أخطر من زَلة القَدم

اتُّهم « دنيس نيوتن » بارتكاب جريمة السطو المسلح على مخزن للبضائع فى مدينة « أوكلاهوما » . وفى مرحلة من إجراء التحقيق الجنائى فى الجريمة ، عُرِض بين آخرين على مشرفة الحسابات بالمخزن للتعرف عليه . فلما أشارت إليه وهى حـانقة مـؤكدة ، صاح فيهـا « دنيس » زاجرا : « إنك امـرأة كاذبة مضللة . ويا ليتنى هَشَّمْتُ رأسكِ ولم أَرْضَخ لتوسـلاتك » ! ثم تدارك نفسه بعـد لحظة وقال : « لـو أننى كنت حقا الذى هاجـم المخزن فى ذلك اليـوم » . وهيهات ! فقـد صدر عليـه الحكم يوم أول نوفمبر ١٩٨٥ بالسجن .. ثلاثين سنة !

● اللص والفديو

كان « فِرْنون بروكْس » – ٣٤ سنة – مغتبطا بفطنته وذكائه عندما خَرَج سالما بغنيمتـه من مخزن الأجهزة والمسجلات التليفـزيونية ؛ ثم لم ينْس أن يفصل التيار الكهربى عن الكاميرا الخاصة بالمراقبـة فى المخزن وأضافها إلى حمولته الثمينة . ولكن فاته شىء بسيط : أن يأخذ معها جهاز الفديو المتصل بالكاميرا ! فكان من السهل على رجـال الشرطة أن يشـاهدوا وجهـه بوضـوح على الشريط المسَّجل بالجهاز ويُلْقِون القبض عليه فى يوليو ١٩٩٢ .

وتخلَّى « فرنون » تماما عن اعتقاده فى فطنته وذكـائه ، وذلك عندما خرج من السجن، واتجه مبـاشرة إلى سرقـة متجـر بقـالة فى كـارولينا الشماليـة الأمريكية ، ولم «يفطن» إلى كاميرا للمراقبة غير ظاهرة بين محتويات المتجر !

● بين الأقوال .. والأفعال ، فى رؤية رسام الكاريكاتير « وُولنْسكى » .



(عن مجلة « بارى ماتش » الفرنسية الدولية – سنة ١٩٩٥) .

* * *

المحتوى

* * *

صدر منها :

١ – مطلع الفجر

٢ – السياسة والدبلوماسية جـ ١

٣ – السياسة والدبلوماسية جـ ٢

٤ – رجال صاغوا القرن جـ ١

٥ – رجال صاغوا القرن جـ ٢

٦ – صور وطرائف

٧ – فنون العصر

٨ – الألعاب الرياضية

٩ – الإبداعات الأدبية

١٠ – نساء شهيرات جـ ١

١١ – نساء شهيرات جـ ٢

١٢ – الجرائم الكبرى

تحت الطبع :

١٣ – الجاسوسية والإرهاب

١٤ – مسيرة العلم والتكنولوجيا

١٥ – الكوارث الكبرى

١٦ – السينيما العالمية : بدايات العصر الذهبى

* * *

عربية للطباعة والنشر
٧-١٠ شارع السلام أرض اللواء المهندسين - تليفون : ٣٢٥٦٠٩٨٠-٣٢٥١٠٤٣

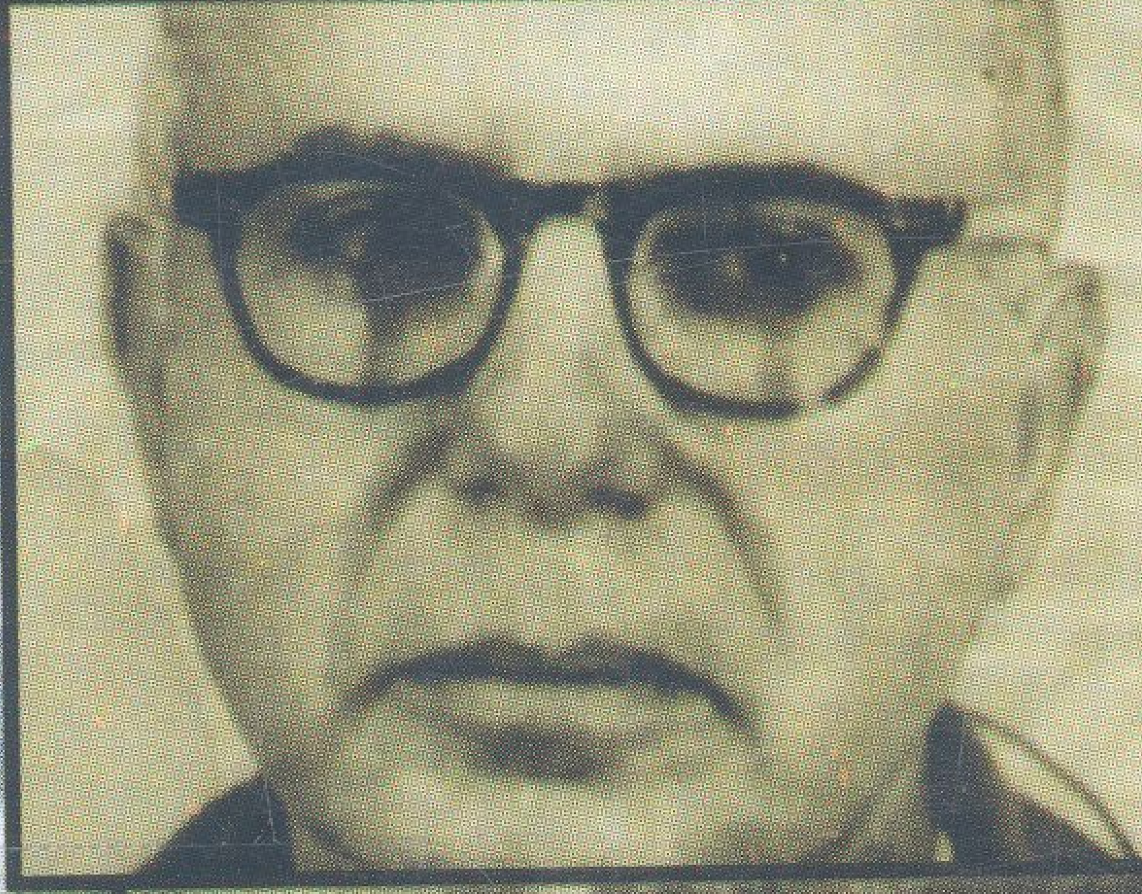


الجرائم الكبرى

١٢









تتوقف (سلسلة حصاد القرن العشرين) فى هذا الكتاب عند محطة مزدحمة صاخبة مضجرة.. وقد تكون مثيرة محزنة مروعة لدى كثيرين.. إلا أن قبولنا بأن الشر مركوز من مركوزين اثنين، فطر عليهما الإنسان..يدفعنا إلى تسجيل ملامح ذلك الشر..عبر جرائم فردية وجماعية وأحيانًا دولية...فمن جريمة طريفة مثيرة للضحك مثل (زواج الشيخ على من السيدة صفية) إلى الجريمة المنظمة المتمثلة فى عصابات المافيا...وجريمة إحراق درسدن..وجرائم استخدام النابالم..وجرائم الحرب البيولوجية..مابين بيرل هاربر ونجازاكى وهيروشيما.. مؤكدًا فى كل استعراضه أن الجريمة - أيًا كان دوافعها ونطاقها ومرتكبوها - لاتفيد.

الدار المصرية اللبنانية

